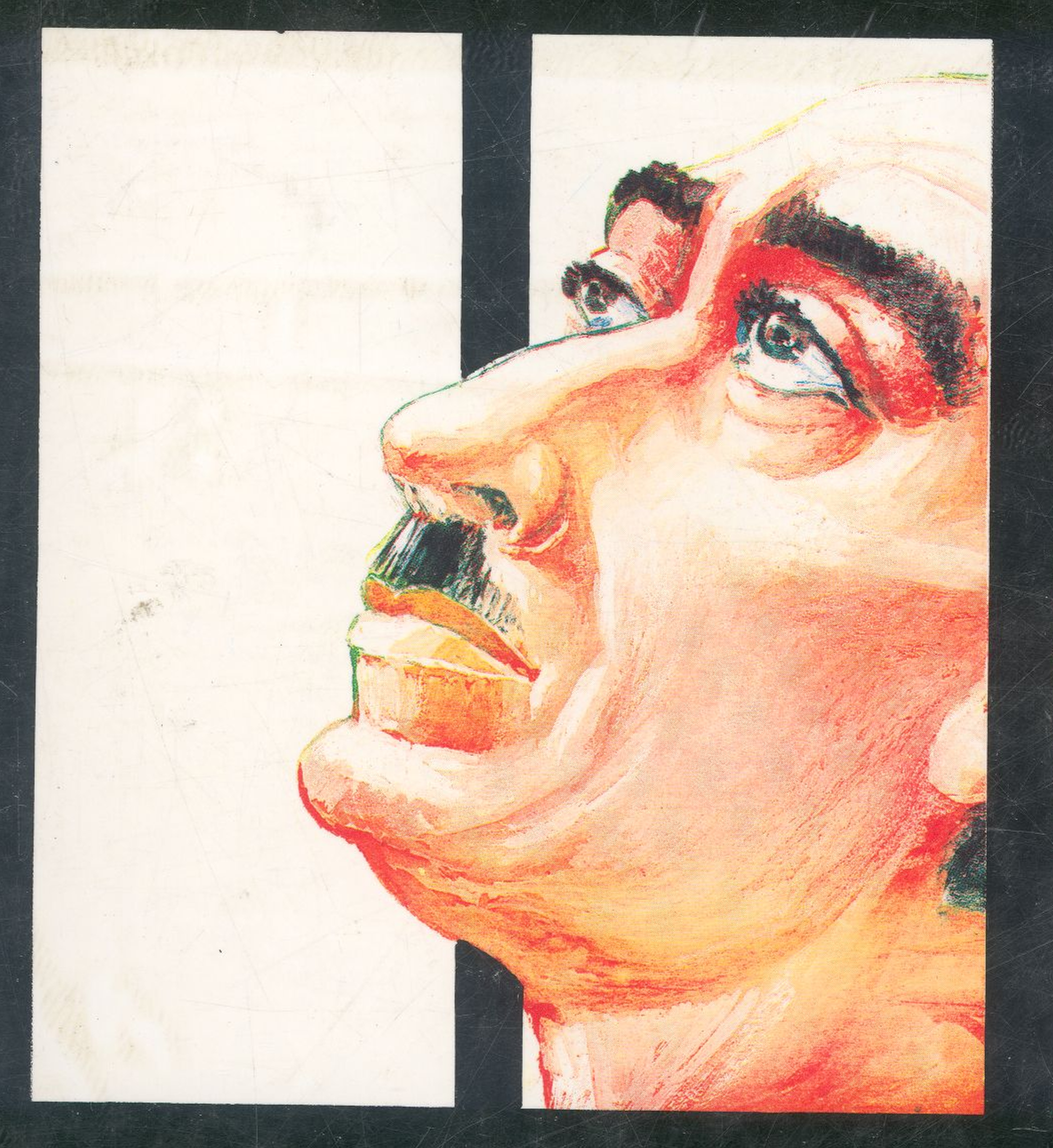
في ظلال القرآن

رؤية استشراقية فرنسية

تأليف
أوليفيه كاريه

ترجمة
محمد رضا عجاج




الزهراء للإعلام العربي


بسم الله الرحمن الرحيم

الزهراء للإعلام العربي
قســـم النشــر

ص.ب : ١٠٢ مدينة نصر - القاهرة - تلغرافياً : زاهراتيف - تليفون ٦٠١٩٨٨ - ٢٦١١١٠٦ - تلكس ٩٤٠٢١ رائف يوإن فاكس ٢٦١٨٢٤٠
P .O : 102 Madinat Nasr - Cairo - Cable : Zahratif - Tel : 601988 - 2611106 - Telex : 94021 Raef U .N fax 2618240

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ »

صدق الله العظيم
فصلت/٣٣

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م

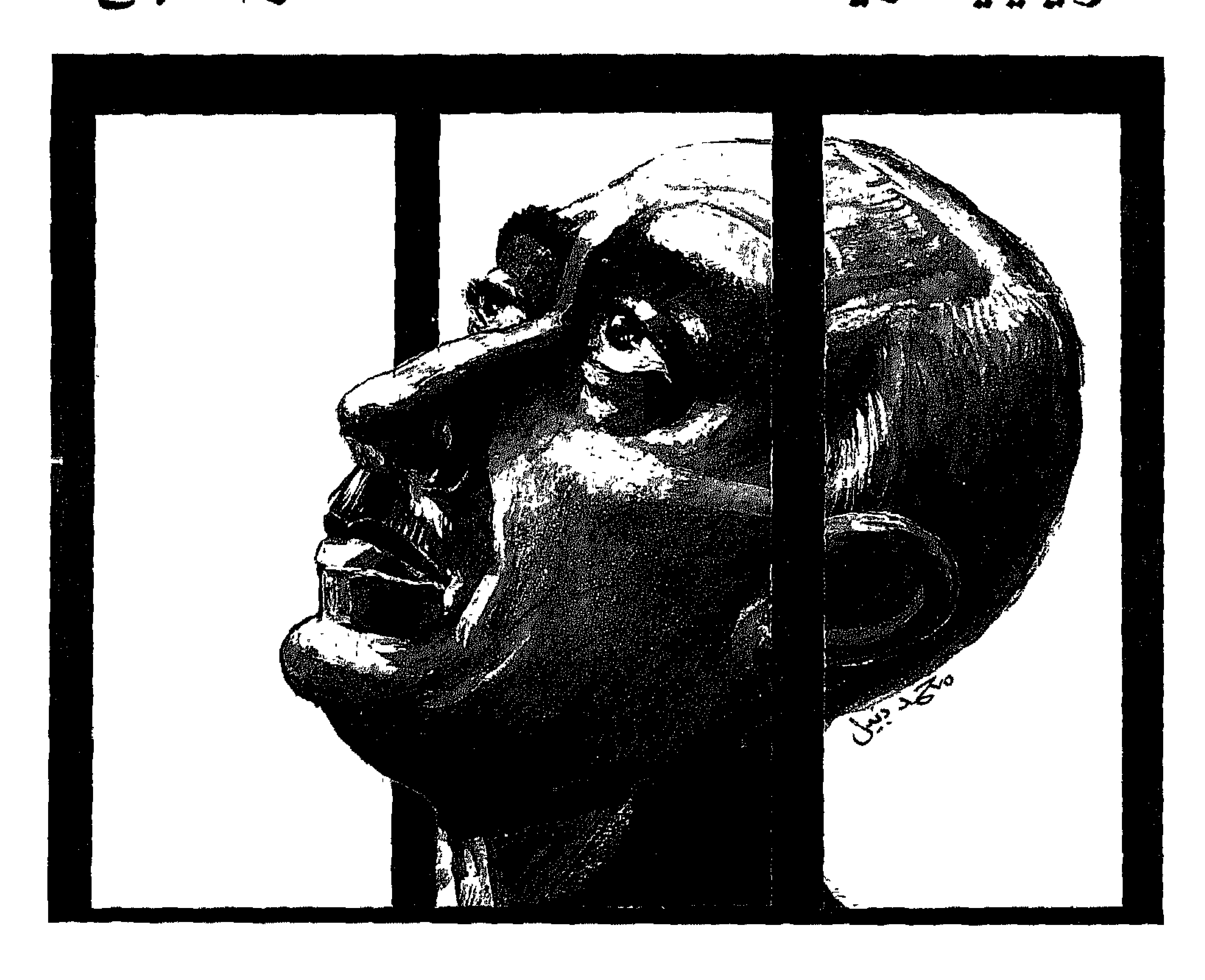
الجمع التصويري والتجهيز
بالزهراء للإعلام العربي

في ظلال القرآن

رؤية استشراقية فرنسية

تأليف:
أوليفيه كاريه

ترجمة:
محمد رضا عجاج



الزهراء للإعلام العربي

تمهيد

الإخوان المسلمون
قطب و « القطبيون »

« علينا العمل وعلى الله النجاح » . قالها حسن البنا إلى مريديه الأوائل في أحد أيام شهر مارس من عام 1928[1] . وأضاف قائلا : « فلنبايع الله على أن نكون لدعوة الإسلام جندا ، وفيها حياة الوطن وعزة الأمة ، وليكن أول اجتماعنا وأساسه : الفكرة والمعنويات والعمليات . نحن إخوة في خدمة الإسلام ، فنحن إذن « الإخوان المسلمون » .

وكانت هذه هي شهادة ميلاد حركة إسلامية مصرية تحمل اسم « الإخوان المسلمين » .

عمل حسن البنا « 1906-1949 » في بداية حياته العملية كمعلم في مدينة الإسماعيلية . ثم انتقل بعد ذلك للعمل في القاهرة . أسس هيئة الإخوان المسلمين فيما بين عامي 1928,1927 م . ظهرت هذه الهيئة – ابتداء من عام 1935 م – كحركة دينية نشطة وفعالة . اغتيل البنا في القاهرة في فبراير 1949 م .

أحسن البنا استغلال الفرص التي سنحت له للعمل على نجاح الحركة واستمرارها ؛ فبراعة الإخوان في التحرك وإدراكهم لما يحيط بهم من اتجاهات ، ساعدت على استمرارية حركتهم في ظل نظام الملكية والحماية الإنجليزية ، بنفس الدور الذي ساهمت به في استمرارهم في عهد عبد الناصر .

---

(1) حسن البنا ، مذكرات الدعوة والداعية ، بيروت 1970 م ص 74 .

إن أنظمة الحكم كافة التي مرت على مصر ، منذ بدء نشاط جماعة الإخوان ، قد اتهمت هذه الجماعة بأنها مصدر كل أفعال العنف والإرهاب ، ولكن نجد في ذات الوقت ، أن مختلف هذه الأنظمة قد حاولت أن تتخذ من جماعة الإخوان وسيلة لمواجهة وتجاوز المعارضين لهذه الأنظمة .

هذه السياسة نجدها في ظل الملكية ، في عهد فاروق « مع سياسة الحماية الدينية والسياسية » بين عامي 1941,1936 م . نرى ذلك أيضا في ظل نظام المفوضية البريطانية في سنوات 1942-1946 م . نلاحظ ذلك أيضا في إطار علاقات الجماعة مع الضباط الأحرار حتى يوليو 1952 م . وفي النهاية في ظل حكم عبد الناصر حتى أكتوبر 1954 .

ويمكن أن نضيف أيضا أن ذلك قد حدث في عهد السادات من عام 1971 وحتى عام 1981 م .

إننا سنحاول أن نستعرض بإيجاز كيف أن الإخوان المسلمين ، وبالرغم من محاولات هذه الأنظمة ردع وتحجيم حركة الإخوان ، قد استطاعوا بوسائلهم المختلفة أن ينموا حركتهم ويطوروها .

لقد خطا تنظيم الإخوان المسلمين نحو التقدم والتطور على المستويين السياسي والاجتماعي ؛ ففي عام 1929 م كان يمكن حصر أربع شعب فقط في هيكل التنظيم ، بينما نجد أنه في عام 1932 أمكن حصر خمس عشرة شعبة . ولقد أحصت جريدة الإخوان عدد الشعب في عام 1938 بثلاثمائة شعبة في جميع أنحاء مصر .

إن هذا النمو السريع للحركة قد يرجع في جوهره إلى انتقال البنا إلى القاهرة في سبتمبر 1932 م حيث بدأت توجهاته نحو العمل السياسي في كل من مصر وفلسطين .

أكد حسن البنا سلطته وتأثيره على جماعة الإخوان المسلمين في إطار المؤتمر العام للإخوان الذي انعقد عام 1935 . هذا المؤتمر حدد بدقة ووضوح طبيعة ومهام هيئة الإخوان ، وذلك بعد ما تعرض له التنظيم من انشقاق تمثل في الأزمة الداخلية العابرة

التي وقعت لأول مرة في عام 1932 م . هذه الأزمة كانت نتيجة لرفض مجموعة من الإخوان الانغماس في العمل السياسي .

حدث انشقاق آخر في صفوف الإخوان ، عندما اتجه بعض أفراد الجماعة إلى العمل المتطرف ، مما حدا بالبنا إلى الاعتراض علانية على هذا الاتجاه في المؤتمر العام للإخوان الذي انعقد في يناير 1939 م .

بالرغم من هذين الانشقاقين ، فإن تنظيم الإخوان قد استمر في التوسع . حتى أنه قد وصل عدد شعب التنظيم إلى أربعمائة شعبة في عام 1940 م . بينما نجد في عام 1948 م ، وبعد حرب فلسطين وفي ظل المهاترات والصراعات السياسية بين القصر والأحزاب ، وبين أنصار الألمان وأنصار المعاهدة المصرية الإنجليزية ، وبين حزب الوفد والأحزاب الأخرى الصغيرة أو الجماعات السرية ، أن هيكل تنظيم الإخوان قد ضمّ ألفي شعبة ، كل شعبة تضم ما بين خمسين إلى مائتي عضو .

وقد ذكر حسن البنا في إحدى شهاداته أمام القضاء أن عدد أعضاء جماعته – حسب إحصاء عام 1945 م – يبلغ نصف مليون عضو عامل . كما أعلن البنا في عام 1946 م أن جماعة الإخوان في مصر تضم حوالي مليون عضو ، بينما تضم حوالي نصف مليون عضو خارج مصر ، في كل من سوريا وفلسطين والأردن . ولقد قدم أحد الباحثين رقما كبيرا يصل إلى مليوني عضو في السنوات 1948 - 1949 م[1] .

إننا إذا فكرنا في عدد المتعاطفين ومقدمي التبرعات والهبات إلى جماعة الإخوان المسلمين – وهو بلا شك كبير جدا – فإننا يمكن أن ندرك الأسباب التي أدت

(1) بخصوص التقديرات يمكن الرجوع إلى : ريتشارد ميتشل « جمعية الإخوان المسلمين » 1969 م ؛ ف . إليوت « القاموس السياسي » – 64 ؛ هاريس . س .ب « القومية والثورة في مصر » : دور الإخوان المسلمين 1964 ؛ رفعت السعيد « حسن البنا ..... » القاهرة 1978 ؛ إسحاق موسى الحسيني « الإخوان » بيروت 1956 م .

إلى اتجاه مجموعة من المنتسبين لحزب الوفد ، ومجموعة من الضباط الأحرار التي بدأت نشاطها من الكلية الحربية في عام 1936 والتي كان من أفرادها عبد الناصر والسادات ، إلى الانخراط في صفوف الإخوان .

في نفس الوقت يمكن أن ندرك ضخامة حجم تنظيم الإخوان إذا ما حاولنا المقارنة بين هذا الرقم الكبير ــ مليونين أو أكثر ــ وبين الحزب « الجماهيري » الواحد – حيث كان عبد الناصر هو الحاكم المطلق – الذي سمي بالاتحاد الاشتراكي العربي في عام 1965 م . وقد قدّر عدد المنتمين إلى هذا الحزب بنحو خمسة ملايين ، في الوقت الذي تضاعف فيه عدد السكان .

بالرغم من هذا العدد الكبير لجماعة الإخوان ، فإن أحدًا لا يمكنه أن يؤكد أن كل الأحداث التي مرت بمصر ابتداء من الأربعينات كانت بالضرورة من فعل أو تأثير جماعة الإخوان .

إن نجاح وتطور جماعة الإخوان الذي وصل إلى ذروته فيما بين 1946-1948 م ، قد أدى إلى قيام الحكومات البوليسية في عهد النقراشي وصدقي « من حزب السعديين الذي انشق عن حزب الوفد » بمراقبة الإخوان ورصدهم عن كثب . في ذلك الوقت تقرّب الإخوان – تكتيكيا – إلى جماعة الشيوعيين المصريين 1948 وإلى الجناح اليميني في حزب الوفد المتمثل في فؤاد سراج الدين .

ولقد اغتيل النقراشي في نهاية عام 1948 على يد أحد المتهورين من الإخوان . في حين أن حسن البنا قد اغتيل بدوره برصاص أحد رجال البوليس السياسي ، بعد وقت قليل من صدور قرار حل جماعة الإخوان في 6 ديسمبر 1948 .

في الأربعينيات ، طلب حسن البنا من الملك حل الأحزاب السياسية القائمة وتكوين حزب جماهيري واحد يعمل لمصلحة الأمة ويتفق في مبادئه مع مبادئ التشريع الإسلامي .

وابتداء من عام 1941 لم يبخل البنا بنصائحه ومساعداته على جماعة الضباط

الأحرار ، ولكن هل ما نادى به البنا من تكوين حزب جماهيري إسلامي واحد كان يتفق مع هيكل تنظيم جماعة الإخوان ؟

الإجابة ليست لا بالتأكيد ؛ فحسن البنا عند طرح دعوته لم يكن في تصوره أن كل عضو من أعضاء هذا الحزب لن يحمل بالضرورة سمات إحدى درجات العضوية في جماعة الإخوان وهي : أخ مساعد ، أخ منتسب ، أخ عامل . فالإخوان المسلمون يجب أن يظلوا في الطليعة قدوة في الطاعة والانتظام والثقة بالنفس ، كما أنهم قدوة في الإيمان والجهاد .

ظهرت الصفة الأخيرة في المؤتمر الخامس للإخوان الذي انعقد في عام 1939 م حيث أشار البنا إلى وجود درجة رابعة من درجات عضوية التنظيم وهي عضوية « أخ مجاهد » . إنهم هؤلاء الإخوان المجاهدون الذين وجه إليهم البنا — دون سائر الأعضاء الآخرين — « رسالة التعاليم » في عام 1943 .

منذ ذلك الحين ، بدأ تكوين مجموعات الكشافة « أو الجوالة » من الإخوان — تشرف عليهم مجالس خاصة للصقل والإعداد والتدريب — وتم تجهيزهم ليكونوا طليعة الوحدات العسكرية التي كونت كتائب القتال في فلسطين والتي يطلق عليها البعض « الجهاز السري » أو « الجهاز الخاص » .

هذه الكتائب تم تدريبها وتجهيزها في معسكرات خاصة يشرف عليها ضباط عاملون أو قدامى ضباط الجيش الملكي الذين اشتركوا مع الإخوان ومع المتطوعين الآخرين في القتال في أحداث فلسطين في سنوات 1936-1939 .

وقد وصل عدد الجوالة المحاربين إلى عشرين ألفا في عام 1943 ، في حين وصل عددهم خلال حرب فلسطين عام 1948 إلى أربعين الفا ، كان من بينهم عدة آلاف من العسكريين العاملين بالجيش .

من هنا يمكن أن ندرك المواقف المعادية التي اتخذتها السلطات السياسية وبعض المصريين ضد جماعة الإخوان وخاصة ضد حسن البنا ، وذلك في السنوات 1939 ، 1943 ، 1948 . نتيجة لذلك نجد أن هيكل تنظيم جماعة الإخوان لم يعد يشير ابتداء

من عام 1945 إلا إلى درجتين فقط من درجات العضوية : أخ منتسب ، أخ عامل . وقد اشتمل هذان المستويان على صفوة المقاتلين من الميليشيات العسكرية .

تعرف أنور السادات – زميل عبد الناصر في الكلية الحربية في عام 1936 – على حسن البنا في عام 1940 . تم القبض على السادات في عام 1941 لاتهامه بالتعاطف مع دول المحور . ولكن تمكن من الهرب عام 1944 ولجأ إلى حسن البنا . واشترك السادات في تزويد الإخوان بالأسلحة إلى جانب قيامه بالتدريب العسكري لأعضاء الجماعة .

كان أول اتصال لعبد الناصر مع البنا عام 1944 عن طريق السادات . ومنذ ذلك الوقت عرف عبد الناصر كعضو في جماعة الإخوان تحت اسم مستعار هو « زغلول عبد القادر » .

تولى حسن العشماوي مهمة الاتصال بين عبد الناصر وجماعة الإخوان وحتى قبل أسابيع قليلة من وقوع الأحداث المأساوية بين ناصر – الحاكم المطلق على مصر – وبين الإخوان في أكتوبر 1954 م .

على أثر وفاة مؤسس هيئة الإخوان المسلمين وقائدها المفكر حسن البنا ، عرفت جماعة الإخوان ثلاثة اتجاهات : الاتجاه المحافظ وعلى رأسه عبد الرحمن البنا « شقيق حسن البنا » ؛ الاتجاه المتشدد أو المتطرف تحت رئاسة صالح عشماوي الذي فرض سيطرته ونفوذه على جريدة الدعوة في يناير 1951 ؛ وأخيرا الاتجاه الوسط ويمثله الشيخ الباقوري « الذي تولى وزارة الأوقاف في عهد عبد الناصر » وكمال الدين حسين ، أحد الضباط الأحرار « كان من المفترض أن يحل محل عبد الناصر في رئاسة الدولة في حالة نجاح ما يسمى « بمؤامرة قطب » .

أكتوبر 1951 م ، أعلن إلغاء الأمر العسكري الصادر بحل جماعة الإخوان المسلمين . وتم تسمية مرشد عام جديد للإخوان هو « حسن الهضيبي » . وكان يبلغ من العمر آنذاك واحدا وستين عاما . كان ذلك اختيارا محايدا مما جعل تصارع مختلف الاتجاهات داخل الجماعة غير ذي معنى .

ولكن شهدت جماعة الإخوان مرحلة من عدم الاستقرار فيما بين عامي 1949 - 1953 . حيث إن مكتب الإرشاد لم يكن قادرا على تحديد أهداف الجماعة في تلك الفترة ، نظرا لما اتصف به المرشد العام من طابع الصمت وقلة الحديث ودعوته إلى الجماعة بضرورة التأني . ذلك في الوقت الذي ظهرت فيه بعض عناصر التطرف والتي بدأت بالتحرك والتصرف دون الرجوع إلى مكتب الإرشاد ، ودون الأخذ في الاعتبار « قسم البيعة » الذي سبق أن أعلنوه في وجود حسن البنا . في هذه الأثناء أيضا كان الفدائيون في منطقة القناة يعملون تحت قيادة كتائب الإخوان .

تمكن الضباط الأحرار من القيام بحركتهم العسكرية في يوليو 1952 بمساعدة كبيرة من الإخوان .

منذ ذلك التاريخ أصبحت الظروف مهيأة تماما ليصل عبد الناصر إلى السلطة وينفرد بها . ويعمل على انقسام الإخوان من الداخل . ولكن كان عليه أن يلجأ إلى البوليس وإلى المحاكم العسكرية إضافة إلى عمليات التعذيب والإعدام لكي يتمكن في النهاية من القضاء على أجنحة الإخوان المسلمين .

إن تجربة جماعة الإخوان مع عبد الناصر قد دعمت من قوتهم وصلابتهم . وأعطتهم الفرصة ليؤصلوا جذورهم وأن تنضج حركتهم ، التي كان في داخلها من يقوم بتزويد عبد الناصر بالمعلومات عن نشاطهم وتحركاتهم .

إن التجربة المريرة التي مر بها الإخوان لم تضعفهم أو تنهك قواهم . بل على العكس قد أغنتهم وأصلت من جذورهم الاجتماعية ومن وجودهم بين مختلف طوائف المجتمع وزادت من صلابتهم في مواجهة حملات الاعتقال والتعذيب حتى عام 1971 .

إن حركة الضباط الأحرار التي قادها عبد الناصر في 23 يوليو 1952 م ، لم يكن ليكتب لها النجاح ولا الاستمرار دون القاعدة الشعبية المساندة لها والتي قدمها الإخوان المسلمون .

إن « ثورة 23 يوليو » يمكن أن تعتبر ملكا للإخوان المسلمين . فمن بين الضباط

الأحرار في ذلك اليوم كان هناك اثنان من الإخوان هما عبد المنعم عبد الرءوف ورشاد مهنا ، بينما لم يكن كل من كمال الدين حسين وأنور السادات وعبد الناصر ذاته بعيدين عن الجماعة ، فقد كانوا أصدقاء لحسن البنا فيما بين عامي 1941-1949 .

لقد كان عبد الناصر في حاجة إلى سنتين لكي يتمكن من أن يحرم الإخوان مما قد اعتبروه « ثورتهم » وبعد ذاك خضعت مصر لنظام مستبد ، استطاع في خلال سنتين ، من الثورة الشعبية والاتجاه الديمقراطي ، أن يكون نظاما بوليسيا قويا يعمل في خدمته .

حاول عبد الناصر ، مرة تلو الأخرى ، ودون نجاح ، أن يحشد الجماهير من خلفه . فأسس هيئة التحرير ، ثم تلاها بالاتحاد القومي ، وفي النهاية أعلن تشكيل الاتحاد الاشتراكي العربي .

لقد أحال عبد الناصر جماعة الإخوان المسلمين ابتداء من أكتوبر 1954 وحتى وفاته في 28 سبتمبر 1970 إلى جيش من الشهداء .

شهد « النظام الناصري » عدة مراحل متميزة :

أولا : فترة بناء النظام الداخلي على المستوى البوليسي والعسكري « 1956-1952 » .

ثانيا : فترة « القومية العربية » والصراع مع الإمبريالية في ظل تصاعد هيمنة السياسة المصرية « 1961-1956 » .

ثالثا : فترة « الاشتراكية العربية » « 1967-1961 » .

رابعا : فترة بداية « نهاية عبد الناصر » والبحث عن السلام « 1969-1967 » . وتلت هذه الفترة محاولات أخرى للبحث عن السلام مع إسرائيل في عهد السادات « 1973 - 1970 » .

خامسا : وأخيرا فترة العودة إلى النظام الحر على المستويين السياسي والاقتصادي وتحقيق التفاوض والسلام مع إسرائيل « 1974-1981 » .

إن وصول أنور السادات إلى رئاسة الدولة في نهاية عام 1970 لم يعط انطباعا بأن هناك تغييرا حقيقيا في « النظام الناصري » . فقد ظلت الأجهزة والمؤسسات كما هي دون تغيير . وكل ما حدث هو تخفيف القهر البوليسي إلى درجة ملموسة ، وبصفة خاصة بالنسبة للإخوان المسلمين فيما بين عامي 1971 — 1987 ، حتى أن البعض كان قد بدأ يتحدث ابتداء من 1974 وحتى بداية عام 1980 عن إعادة « العلاقات الودية » التي كانت سائدة بين مجموعة الضباط الأحرار وهيئة الإخوان المسلمين في الفترة من 1942 إلى 1954 .

ونتساءل الآن : لماذا هذا الفاصل الطويل من الاضطهاد « الناصري » ضد الإخوان المسلمين ؟ يمكن أن نجيب على هذا السؤال بصورة مبدئية وعامة تتلخص في : أن الإخوان المسلمين كانوا يمثلون قوة شعبية وسياسية منافسة ترتكز على أيديولوجية ـــ ربما كانت مشابهة إلى حد ما ـــ لما كان يدعو إليه عبد الناصر ، في الوقت الذي كان فيه الأخير لا يمتلك القاعدة الشعبية العريضة التي تسانده في حين أن الإخوان كانت لديهم قاعدة شعبية ضخمة في الأوساط الاجتماعية التي نشأ فيها ناصر وزملاؤه .

وعلى ذلك فإن الإخوان بمساندتهم عبد الناصر في البداية قد شاركوا في منحه السلطة وعاونوه بقوة لإقامة النظام ، ولكنهم فجأة حاولوا الابتعاد والتراجع ، وهنا اندلعت الحرب بين عبد الناصر والإخوان .

هذا يدفعنا إلى محاولة البحث عن الأسباب التي أدت إلى تراجع الإخوان وانكماشهم عن مساندة عبد الناصر ؟

يمكننا أن نعرض إجابات عديدة لهذا التساؤل : فربما رغب الإخوان المسلمون في أن يسيطروا بأنفسهم ـــ هم فقط ـــ على السلطة بدخولهم في صفوف الضباط الذين قاموا بالثورة ، وبعد ذلك يفرضوا إرادتهم الخاصة على النظام وعلى الأحزاب

بما يتوافق مع مبادئ حركتهم ، ولكن لم يستطيعوا ذلك لقوة « البوليس الناصري » . وإلا لماذا رفض الإخوان الاشتراك في وزارة نجيب في عام 1952 ، أو الاشتراك في تأسيس وتنظيم هيئة التحرير عام 1953 ؟

جانب آخر من الإجابة نراه في أن عبد الناصر لم يرغب في أن يشاركه أحد في السلطة بل أراد أن ينفرد بها وحده ، وفي نفس الوقت كان يحاول أن يأخذ مكانة الإخوان في السلطة الدينية والروحية . إذا كان أراد ذلك فقد سبق أن فعله مع زملائه المقربين من الضباط الأحرار في أعوام 1954, 1962, 1967 ، وأيضا مع حزب البعث في سوريا أثناء فترة الوحدة بين مصر وسورية « 58-1961 » .

وفي إطار هذه النظرة ، فإن عبد الناصر قد حمّل الإخوان المسلمين مسئولية الاعتداءات والمؤامرات التي حدثت ضده شخصيا . وكانت هذه هي الطريقة المثلى لكي يحصل على التأييد الشعبي الذي كان يفتقد إليه .

الجانب الأخير من الإجابة يتحدد في جماعة الإخوان أنفسهم ؛ لقد كان مكتب الإرشاد مترددا في خطواته ومنقسما على نفسه ، وقد استغل عبد الناصر نقطة الضعف هذه أفضل استغلال .

لقد استطاع عبد الناصر – بكل نجاح – أن يجذب إليه عدة شخصيات بارزة من الإخوان . كما تمكن أيضا من إدخال إصلاحات هامة على النظام الأساسي لجامعة الأزهر ، وأنشأ المجلس الأعلى للبحوث الإسلامية . بهذا حاول عبد الناصر أن يقدم نفسه كمسئول أول عن الدعوة الإسلامية . نفس الدعوة التي حمل الإخوان لواء نشرها في مصر وعلى مستوى العالم .

لكن .. ظل جزء كبير من الإخوان ــ القيادة والمجاهدون ــ رافضا التعاون مع عبد الناصر والتزموا جانب المقاومة السلبية والصمت الذي تزعمه الهضيبي ، المرشد العام للإخوان .

لقد أحنى الإخوان رءوسهم للتيار العنيف ، مدركين بل وآملين أنه سيأتي اليوم

المناسب الذي يمكن أن يلعبوا فيه دورهم . فبعد الإجراءات البوليسية الرهيبة في عام 1953 ، وبعد أن استتبت الأمور للنظام الدكتاتوري في عهد عبد الناصر في مارس 1954 ، لم يحاول الإخوان أن يعرّضوا حركتهم لخطر المواجهة مع عبد الناصر ، وهذا ما لجأ إليه الشيوعيون أيضا .

لقد وجدوا جميعا أن السجون والمعتقلات هي المكان الوحيد في مصر الذي يمكن للإنسان أن يعبر فيه عن آرائه بحرية تامة .

إن الغالبية العظمى من الشيوعيين قد أوقفوا نشاطهم المعادي لعبد الناصر . وقد استطاعوا أن ينخرطوا في صفوف الحزب الواحد الجديد الذي أسسه عبد الناصر عام 1964 تحت اسم « الاتحاد الاشتراكي العربي » (الذي تلا الاتحاد القومي 58 — 1962 ومن قبله هيئة التحرير 53-1958 م) مما فتح الطريق أمام الشيوعيين إلى الخروج من السجون ، بل وتقلد المناصب الكبرى ، خاصة أن اثنين منهم قد شغلا منصب « وزير » في ظل السادات عام 1972 (نعم في عهد السادات) .

بينما نجد أن الإخوان المسلمين لم يتمكنوا من الخروج من السجون والمعتقلات — باستثناء السنوات 1959 — 1964 إلا في عام 1971 دون أن يوقفوا نشاطهم .

منذ ذلك التاريخ — 1971 — استطاع الإخوان أن يمارسوا نفوذا متزايدا على الرأي العام وعلى الطبقات السياسية بصورة أكبر مما لو كانوا مشاركين فعلا في السلطة .

ولكن ... خمس عشرة سنة من التعذيب والاعتقالات والإعدامات كانت قد أفرزت جناحا من المتمردين ... مجموعات من « الثوريين الإسلاميين » ، لجئوا إلى العنف مع نهاية السبعينيات ، متعارضين في ذلك مع ما سبق أن أعلنه وطبقه الإخوان من مبادئ وسياسات .

إن عبد الناصر يتحمل جزءا كبيرا من المسئولية عن ظهور هذا العنف الديني .

لقد تعرض الإخوان المسلمون للكثير من حملات الاعتقال والتعذيب والمحاكمات في الفترات 54 — 1957 ، 56 — 1967 .

إن الجميع في مصر الآن يعلمون جيدا أن المحاكمات الكبرى التي جرت ضد الإخوان بحجة القيام بأعمال إجرامية ربما كانت كلها ملفقة ؛ فما سمي « بمؤامرة أكتوبر 1954 » أو « مؤامرة 1965 » من المحتمل كثيرا أنه قد تم إعدادها وتلفيقها ضد الإخوان بمعرفة رجال المخابرات العسكرية .

هذه الحقائق أصبحت كلها الآن معروفة سواء عن طريق الكتابة أو المقابلات التليفزيونية في الفترة من 72 — 1978 ، إلى الحد الذي دفع أحد الناصريين[1] أن يعلن أن الآلام والمعاناة التي قاسى منها عدد كبير من الإخوان المسلمين ستبقى لسنوات نقطة سوداء في رداء الثورة الأبيض ؛ فمهما كانت دوافع التعذيب فإنها غير مقبولة .

فستة إخوان قد شنقوا في ديسمبر 1954 ، وثلاثة آخرون نالوا نفس المصير في أغسطس 1966 ، وواحد وعشرون قتلوا في السجون في يونيو 1967 ، وثمانية وثلاثون آخرون قتلوا أيضا في داخل السجون في الفترة 65-1966 . كما أن هناك المئات قد اعتقلوا وحكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة .

إن قضية عام 65 — 1966 — حسب ما يذكره الإخوان — قد أدت إلى استجواب واعتقال إداري لأكثر من ثمانية عشر ألفا من الإخوان ومن المتعاطفين معهم[2] .

وقد قدم الإخوان المسلمون كشف الحساب التالي لشهدائهم طوال فترة نشاطهم وحتى عام 1966 : 263 قتيلاً (من ضمنهم الذين استشهدوا في معركة فلسطين وفي العمليات الفدائية في منطقة القناة) ، 1450 سجنوا مع الأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة ، 61000 ألقي القبض عليهم وتم استجوابهم[3] .

---

(1) عبد الله إمام . عبد الناصر والإخوان المسلمون ، القاهرة ، دار الموقف العربي 1981 ، ص 135 .

(2) مجلة الدعوة . عدد رقم 4 أكتوبر 1976 ، ص 57 – روبرت ميتشيل في نفس المرجع السابق – ج . آموس : المقاومة الفلسطينية ، نيويورك . مطبعة برجامون ، 1980 ، الفصل الثالث . وحول أحداث يونيو 1967 م : ج . رزق : مذبحة سجن طره ، القاهرة 1979 ، وحول من ماتوا في السجون على أثر التعذيب : ج . رزق . مذابح الإخوان في سجون عبد الناصر ، القاهرة 1978 .

(3) مجلة الدعوة . نفس العدد السابق ذكره .

يعتبر سيد قطب رمزا لما عاناه الإخوان ، ففي الفترة مابين 1954 إلى 1966 قبض عليه ، وسجن ، وعذب ، وحكم عليه بالأشغال الشاقة ، وفي النهاية تم إعدامه .

بالرغم من ذلك نجد أحد الماركسيين المصريين يقول في أحد أبحاثه عن الحركات الدينية السياسية المعاصرة إنه « بينما عجزت المدرسة الإسلامية عن صياغة اجتهاد إسلامي فعال يلائم صعود البرجوازية ، ويفتح باب الاجتهاد على مصراعيه ، فإنها قد أبدت حماسها للأساس الطبقي لبقاء البرجوازية ، لكن هذا الحماس لم يمنعها من مخاصمة الشعارات الفكرية والسياسية للبرجوازية الصاعدة ، وبسبب تدني وعيهم لم يتنبهوا إلى أن ضرب تلك الشعارات يمكن أن يضرب تلك المصالح وهكذا وقعوا بين شقي الرحى ، فهم قد قبلوا الأساس المادي للنظام الاجتماعي « الرأسمالية » كنظام اقتصادي متكامل يسعى إلى الربح ويطبق قانون الثمن ، بينما رفضوا المؤسسات السياسية والاقتصادية والمقولات الأيديولوجية المعبرة عن هذا الأساس الاقتصادي « الأحزاب والبرلمان والدستور والبنوك وحرية العقيدة وحرية المرأة والدولة والقومية الموحدة التي تساوي بين أبنائها في حقوق المواطنة » . إننا نمشي بالقطع إلى الخلف ، وتلك مأساة كل فكر لا تحمله جناحا طبقة قوية وفنية ، لا طبقة هجين تربت في حجر الإمبريالية العالمية ، وإلا ما انتهى فكر محمد عبده إلى رشيد رضا ، ثم إلى الإخوان المسلمين الذين انتهوا بأفكار سيد قطب ، حيث وقف التجديد الإسلامي يلفظ أنفاسه ، فنحن أمام حكم بجاهليتنا ، كلنا بشرقنا وغربنا ، بماركسيتنا ورأسماليتنا ، جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم » (1) .

إن هذا الكاتب يعرض فكرة قديمة مستوحاة من فكر « ماكس فيبر » « Max Weber » أكثر مما هي انعكاس للفكر الماركسي . هذه الفكرة تقول بغياب طبقة البرجوازية في مجتمعات الشرق الأوسط . هذه البرجوازية تكون قوية ، واعية ، مجددة ، طليعية ، وثورية ، على غرار ما حدث في فرنسا عام 1789 .

---

(1) صلاح عيسى : الإخوان المسلمون ، مأساة الماضي ومشكلة المستقبل . مقدمة كتاب روبرت ميتشل الإخوان المسلمون . القاهرة ، مكتبة مدبولي ، 1977 . ص 16 .

عبر قطب نفسه عن هذه الفكرة ولكن بمنهجية ونظرة مختلفة . حيث قال في كتابه « معالم على الطريق » : (إن الذي يكتب هذا الكلام إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كاملة ، كان عمله الأول فيها هو القراءة والاطلاع في معظم حقول المعرفة الإنسانية .. ما هو من تخصصه وما هو من هواياته .. ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره .. فإذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلا ضئيلا إلى جانب ذلك الرصيد الضخم ـــ وما كان يمكن أن يكون إلا كذلك ـــ وما هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره .. فإنما عرف الجاهلية على حقيقتها وعلى انحرافها وعلى ضآلتها وعلى قزامتها .. وعلى جعجعتها وانتفاشها وعلى غرورها وادعائها كذلك !!! وعَلِمَ علم اليقين أنه لا يمكن أن يجمع المسلم بين هذين المصدرين في التلقي !!! (....) بعض هؤلاء كانوا يواجهوننا ـــ نحن القلائل المنتسبين إلى الإسلام ـــ في أمريكا في السنوات التي قضيتها هناك وكان بعضنا يتخذ موقف الدفاع والتبرير .. وكنت على العكس أتخذ موقف المهاجم للجاهلية القرشية .. سواء في معتقداتها الدينية المهلهلة أو في أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية المؤذية .. هذه التصورات عن الأقانيم وعن الخطيئة وعن الفداء وهي لا تستقيم في عقل ولا ضمير .. وهذه الرأسمالية باحتكارها ورباها وما فيها من بشاعة كالحة .. وهذه الفردية الأثرة التي ينعدم معها التكامل إلا تحت مطارق القانون .. وهذا التصور المادي التافه الجاف للحياة .. وحرية البهائم التي يسمونها « حرية الاختلاط » وسوق الرقيق التي يسمونها « حرية المرأة » .. والسخف والحرج والتكلف المضاد لواقع الحياة في نظم الزواج والطلاق ، والتفريق العنصري الحاد الخبيث .. ثم مافي الإسلام من منطق وسمو وإنسانية وبشاشة وتطلع إلى آفاق وتتطلع البشرية دونها ولا تبلغها)[1] .

ولد سيد قطب عام 1906 في إحدى القرى القريبة من أسيوط ، ومثل البنا ، فقد تخرّج من كلية دار العلوم ، عمل معلمًا لعديد من المواد الدراسية في القاهرة ، وكان يعد أديبا . كان زميلا وصديقا لثلاث من كبار الكتاب المصريين : طه حسين وتوفيق الحكيم والعقاد .

---

(1) سيد قطب : معالم على الطريق 1980 ص 131, 160 .

رحل قطب إلى الولايات المتحدة في مهمة علمية ومكث فيها سنتين ونصف سنة ، فيما بين عامي 1949, 1951 . انضم إلى هيئة الإخوان المسلمين عام 1951 . حيث تولى مسئولية قسم الدعوة ، رفض العروض التي قدمها إليه عبد الناصر في نهاية 1952 لكي يتولى مهمة تنظيم وعمل برامج هيئة التحرير .

ذكر البعض أن قطبًا قد اشترك في توزيع المنشورات السياسية إلى جانب الشيوعيين في عام 1954 ، كما سبق أن كان عضوا في « الحزب السعدي » المناهض للملك فاروق وللإنجليز في الفترة من 1951 - 1952 .

تم القبض على قطب وعذّب مع نهاية 1954 . أمضى باقي حياته داخل السجون والمعتقلات حتى تم إعدامه ، باستثناء ثمانية أشهر من الحرية من ديسمبر 1964 وحتى أغسطس 1965 . هذه الفترة من الحرية اعتبرها أصدقاء قطب مكيدة من النظام للإيقاع بجماعة الإخوان .

ونظرا لمرض وشيخوخة الهضيبي ، المرشد العام للإخوان ، وحرمانه من ذراعه الأيمن « عبد القادر عودة » ، « الذي أعدم في نهاية 1954 » ، فقد وكل إلى قطب شئون وقضايا الإخوان الموجودين في السجون .

من الواضح والمؤكد أنه قد ظهر تعارض بين اتجاهات كل من قطب والهضيبي . هذا التعارض قد تنامي مع الوقت . ففي كتابه « دعاة لا قضاة » الذي نشر في عام 1977 نجد أن الهضيبي قد اتخذ في عام 1969 جانب النقد من الموضوعات الرئيسية التي تناولها الشهيد سيد قطب .

لقد رفض الهضيبي بصفة خاصة فكرة قطب حول التكفير . هذه الفكرة دعا بها الخوارج واعتبرت تقليدا في إطار الفكر السني وبصفة خاصة عند ابن تيميمة (المتوفى عام 1328) . سبق للبنا أن تناول هذه الفكرة في إطار المعنى العام التقليدي ولكن في حذر شديد .

هذا يطرح التساؤل التالي : هل يا ترى هذه « الزمرات » الراديكالية التي ظهرت

في السبعينيات وخاصة في الفترة 1977 - 1981 مثل (حزب التحرير الإسلامي – جماعة التكفير والهجرة – جماعة الجهاد) كانت تتبع أثر أفكار ومنهج قطب ؟

إننا يجب أن ندقق في الإجابة . إن الفكر الإسلامي هو – بالدرجة الأولى – فكر تشريعي تطبيقي وليس فكرا أيدولوجيا نظريا . ولذلك فإن دقة تحديد وتعريف هذا الفكر سيكون له نتائجه الهامة عند التطبيق .

تشير النصوص التي طالعناها إلى مدى التعارض الكبير بين وعي قطب كمفكر وشخصيته كمثقف وبين هؤلاء الذين نالوا قسطا متواضعا من التعليم ولا يتقنون إلا التمرد تحت « رايات » التحرير والتكفير والجهاد . هؤلاء هم الذين يدعون أنفسهم « القطبيون » Qutbistes .

إن هؤلاء لا يمكن اعتبارهم أعضاء في هيئة الإخوان المسلمين . فأفكارهم وبرامجهم لا تمس الإخوان إلا بطريق غير مباشر .

إن الخلط بين هؤلاء وبين جماعة الإخوان الذين حملوا تاريخ هيئة الإخوان المسلمين كحركة وخاصة قطبًا ، قد تم عن قصد ، وروج له الناصريون والماركسيون المصريون . لقد كان ذلك تكتيكا سياسيا في معركة قوية .

ولكن .. كل ما ادعوه لم تكن له مصداقية يمكن إدراكها . فالحقيقة أن أفكار قطب التي تتناول التكفير ، والهجرة ، والجهاد كعمل ثوري داخلي ، قد تم تحريفها بواسطة المنشقين المتطرفين الذي ظهروا في الوقت الحاضر .

إننا سنحاول فيما يلي أن نلخص الأفكار التي ظهرت ، والأفعال المتطرفة التي وقعت فيما بين عامي 1974 - 1981 . هذه الأفكار والتصرفات كانت مثار استنكار ورفض دائم من الإخوان المسلمين :

(ضرورة استخدام القوة والعنف لإقامة نظام إسلامي . إعلان « الحرب المقدسة » ضد السلطة « الكافرة » القائمة التي لا تتفق مع مبادئ الشريعة الإسلامية ، وضد كل من يعاونها من أهل الكفر والجاهلية) .

هذه هي شعاراتهم التي أطلقوها وأعلنوها في منشوراتهم وبياناتهم وخطبهم ، بل وفي أثناء جلسات محاكماتهم . إن الرمز الأساسي لهذه الأفكار والشعارات التي يسمونها « برامج إسلامية » هو « كتاب الفريضة الغائبة » .

هذا الكتيب نشره « محمد عبد السلام فرج » . الذي أعدم في أبريل من عام 1982 ، بعد أن أدانته المحكمة ، وحكمت عليه بالإعدام في مارس من نفس العام . فقد أعلنت المحكمة أن فرجا « هو العقل المدبر للاعتداء على السادات وللمؤامرة (الخمينية) في القاهرة وأسيوط » .

إن الفريضة الغائبة هو خليط من أفكار « ابن تيمية » والتي استوحاها كل من المفكر المعاصر والمصلح الكبير « محمد رشيد رضا » المتوفى عام 1935 ، وأنصار الحركة الوهابية في المملكة العربية السعودية .

هذا الكتيب يمثل دعوة قوية لعامة المسلمين المثقفين ليخرجوا من صمتهم ، وينتبهوا من غفلتهم ، ليعلنوا حقهم في الاعتراض ، واستخدام القوة والعنف ، إذا لزم الأمر ، ضد كل سلطة سياسية لا تتماشى مع مبادئ الإسلام . إنه يبين أن نظرية تكفير المجتمع ككل ، ونظرية « الحرب الإسلامية » أو « الجهاد الإسلامي الداخلي » أو « الثوري » ــ كما يراها قطب – قد تجاوزت مجرد فكرة « القتل الاختياري » .

إن الخطأ الكبير الذي وقع فيه هذا الكتيب – من وجهة نظر ومفهوم تطبيق الشريعة الإسلامية ــ أنه يقتفي أثر الآراء الشرعية لقاض مسلم عاش في القرن الرابع عشر في دمشق ، في ظل مجتمع كانت له ظروفه ومتطلباته الخاصة به . إنه لم يعتمد أو يرجع إلى آراء كبار الفقهاء المسلمين المعاصرين في شأن القضايا المطروحة في وقتنا الحاضر . ولكن فرجا كان قد افترض مسبقا أن السلطات الدينية المعاصرة مشاركة في « حركة الردة العامة » .

ويقدم الكتيب نظرة تاريخية على حركة الإصلاح التي قادها الإخوان المسلمون . حيث يرى فرج أن التربية الإسلامية التي دعا إليها « المصلحون السابقون » كانت غير كافية . إضافة إلى أنه من غير الممكن تطبيقها في « دولة غير إسلامية » . لذلك

فإن الدعوة التي سبق أن روج لها بصفة خاصة محمد رشيد رضا والإخوان المسلمون من بعده لم يكتب لها النجاح لهذا السبب .

إن الهيئة التي تمثل مجتمعًا متكاملاً والتي أسسها حسن البنا ، واستمرت بنجاح ، وسجلت رسميا في سنوات 1937 ، 1945 ، 1953 ، بالرغم من عدم حصولها على فرص متكافئة مع الأحزاب الأخرى في أعوام 1948 ,1954 ، ثم بعد ذلك منذ 1974 وحتى سبتمبر 1981 ، هذه الهيئة الإسلامية نجد أن فرجا قد أتى في النهاية ليقول لنا « إنها تنظيم مخالف لمبادئ الشريعة الإسلامية » !

إن هذا الاتهام الذي وجهه فرج لجماعة الإخوان هو نفسه ذات الاتهام الذي سبق أن اتهم به صالح عشماوي وغيره من المتطرفين عام 1938 العاملين في مكتب الإرشاد والمسئولين في هيئة الإخوان المسلمين . وربما يمكن أن يكون هذا الاتهام يحمل نفس المضمون الذي أطلقه قطب وزملاؤه من داخل « سجون عبد الناصر » ومازال يطلقه « القطبيون » في يومنا هذا .

إذن لم يبق — كما نادى فرجا — إلا العمل المباشر « للقلة المؤمنة » إن فكرة أو مفهوم « القلة المؤمنة » تماثل تماما ما قال به قطب ، ولكنها عند فرج اتخذت مفهوم إعلان الحرب الدائمة وقتل الحكام .

إن هذا الكتيب الصغير يريد أن يقدم لنا باختصار مفهوما جديدا « للحرب الثورية الإسلامية الداخلية » . وعلى ذلك فإنه يرى أن العديد من الحكام العرب إنما هم « مرتدون » ، وأن « الإمبريالية » التي تعمل ضد الإسلام قد تغلغلت داخل الحكومات القائمة وفي المؤسسات الثقافية ؛ لذلك فإن الممارسة الشرعية والاجتماعية تقتضي « القيام بعمل ثوري إسلامي » في العديد من الدول العربية والإسلامية .

إنها نتيجة إجمالية « طوباوية » ربما تكون مستوحاة من قراءة سريعة متعجلة « للتفسير السياسي للقرآن » عند سيد قطب .

إن إعلان فرج « بتكفير المجتمعات الإسلامية – وخاصة الحكومات – والتي

تعيش عصر الجاهلية » يتطلب القتال وبالتالي ضرورة « القتل » ؛ وذلك لأن « الحرب كما يدعو إليها القرآن وكما يراها كل إنسان رشيد هي مجموعة من القتلى » .

ونلاحظ أنه بالنسبة « للقطبيين » – ولقطب ذاته – فإننا نعيش اليوم « العصر الأول للإسلام » ، في ظل مجتمع من الكفر والظلم يشبه « مجتمع ما قبل الإسلام » .

ولكن .. يجب التنويه أن جماعة المتطرفين – وعلى خلاف ما قال به قطب – يرون أن الأمر القرآني في الآية الخامسة من سورة التوبة ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ يجب تطبيقه مباشرة في وقتنا الحاضر ويجب البدء « بالدول التي تدعي أنها إسلامية » . إن واجبهم (ضرب كبار الرءوس ، وبث الخوف والاضطراب وعدم الأمن في نفوس الكفار كما فعل الرسول « وقلته المؤمنة » عند اعتراضهم طريق القوافل المكية بعدما هاجروا إلى المدينة في عام 622 م) .

هذا ما قال به محمد عبد السلام فرج . وهذا ما طبقه أتباعه من « مجموعات الجهاد » ، ولكن .. على هامش هذه « التيارات الإسلامية الثورية » ، فإن جماعة الإخوان ظلت محتفظة بموقعها كجماعة ضغط سياسي .

لقد تأكد تكامل « التنظيم العالمي المسالم » لجماعة الإخوان المسلمين في الوقت الحاضر (باستثناء ما تفرضه الضرورة كما حدث في سوريا) وذلك فيما ذكره « محمد عبد الرحمن خليفة » ، مراقب جماعة الإخوان بالأردن ، من أنه بعد أن صعد المرشد العام « حسن الهضيبي إلى الرفيق الأعلى في رمضان 1393 هـ – 1973 م » ، تم انتخاب عمر التلمساني مرشدًا عامًا جديدًا ، وتم انتخاب مكتب جديد للإرشاد ، ولكن أسماء أعضاء هذا المكتب لم تنشر حتى تم استكمال كافة كوادر الهيئة ... وكما تم في السابق ، فإنه قد تم تنظيم العلاقات والروابط بين مكتب الإرشاد العام للدعوة وبين مكاتب الإشراف لكل قطر أو مكان يوجد فيه فرع من فروع الدعوة . وبعد ذلك أنشئ مكتب أعلى للإرشاد بهدف وضع خطط العمل المشتركة التي يجب العمل على تنفيذها خدمة للدعوة [1] .

---

(1) محمد عبد الرحمن خليفة : « الإخوان المسلمون في عدة سطور » . عمان ، 1980 . ص 31-32 .

إننا لا نستطيع أن نشير بالتفصيل إلى الترابط العضوي أو التنظيمي « الدولي » لحركة الإخوان المسلمين .. فمحمد خليفة يشغل حاليا ، في هذه الشبكة القيادية العالمية ، مركز المرشد العام « المراقب » للإخوان في الأردن ، والمتحدث الرسمي باسمهم ، كما يرأس قسم المعلومات . ومن المحتمل أن يكون أيضا عضوا في مكتب الإرشاد العام للإخوان ، مشاركا في ذلك كلا من يوسف القرضاوي في قطر ؛ وصالح عشماوي في القاهرة ؛ وسعيد حوي ، الذي كان يعتبر أحد ثلاثة رؤساء للجبهة الإسلامية في سوريا ، والمماثلين لهم في الخارج من اللاجئين مثل : سعيد رمضان من مصر ؛ والعطار من سوريا ؛ وربما يكون الغنوشي من تونس .

إن هذه الحركة الواسعة المترابطة — والتي يمكن أن نطلق عليها « القطبية » المعتدلة ــ تمارس دورا هاما كجماعة ضغط سياسي على الحكومات والرأي العام في كل البلدان . كما أنها تمارس نفس النفوذ والتأثير على الهيكل الأساسي للحركة الإسلامية على المستوى العالمي .

مقدمــة

النــص

إن كل ما يهمنا بالدرجة الأولى هو « النص » . أما قطب كمؤلف لكتاب الظلال ، فإننا سنستعين ببعض المعالم الهامة في حياته من أجل فهم بعض الفقرات التي وردت في « خطابه » الذي يشكل كتاب الظلال[1] . وبصفة خاصة بعض المقاطع التي تتناول سيرته الذاتية .

إن الأمر الهام في هذا « الخطاب » هو العلاقة بين ما يكتبه المؤلف وبين شخصيته كإنسان . إننا يجب أن نقف من شخصية قطب موقف الاحترام .. لقد مات شهيدا على يد عبد الناصر بعد سنوات من الاعتقال ومعاناة آلام المرض والتعذيب .

إن الفقرات التي سنتناولها هي ، على الأكثر ، « نبذات » أدخل عليها أحيانا بعض التعديلات ـــ من كتاب الظلال الذي يشكل جزءا كبيرا من الكتيب الصغير « معالم على الطريق »[2] الذي طبع ونشر العديد من المرات ابتداء من عام 1965 .. هذا الكتيب اعتبره رجال الاستخبارات في عهد عبد الناصر « الدليل الرئيسي » لما أسموه « مؤامرة » اغتيال عبد الناصر ومعاونيه ..

---

(1) سيد قطب « في ظلال القرآن » ، دار الشروق ، القاهرة وبيروت . الطبعة الثامنة 1978 ، تتكون من ستة مجلدات . مع مقدمة عامة بقلم سيد قطب « دون تاريخ » .

(2) معالم على الطريق ، أو معالم في الطريق ، طبع العديد من المرات ، دون ذكر المؤلف أحيانا . هذا الكتيب يضم مقدمة تفسير سورة الأنعام ، وفي ثلاثة فصول ، يضم السور : الأنفال ، نوح ، آل عمران ، التوبة . ويضم أيضا بعض مقتطفات من كتاب الظلال مع بعض التفصيل مثل : الآيات 55-65 من سورة الأنفال ؛ الآيات 104-106 من سورة البقرة ؛ الآيات 65-179 من سورة آل عمران ؛ الآيات 15-104 من سورة النساء ؛ الآيات 51-66 ، 85 من سورة المائدة .

هذه الفقرات أو المقاطع من كتاب الظلال ، حيث يقدم قطب تفسيرا للقرآن ، هي إكليل غار لذكرى هذا الشهيد ؛ فالمقالات « تقدّس » نفسها بنفسها .. وليس فقط « بتقديس » المتكلم لها .. إنها النص الذي يمثل الرمز والمنهج لجميع الحركات الإسلامية المناضلة « Militants » ؛ ليس في مصر فقط – وخاصة في أسيوط مسقط رأس سيد قطب – بل في جميع أنحاء العالم العربي .. وفي تركيا ، في إيران ، في أفغانستان ، في باكستان ، في الهند ، في أندونيسيا ، وحتى في أفريقيا السوداء المسلمة [1] .

من ناحية أخرى ، في الوقت الذي نذكر فيه أنه يجب أن نقف موقف الاحترام من هذا « الخطاب » في كتاب الظلال لأن مؤلفه قد سقط شهيدا ، فإننا نجد أنه بعد وفاة قطب ، قد رفض المسئولون عن جماعة الإخوان مضمون هذا « الخطاب » في عام 1969 ، على لسان حسن الهضيبي ، المرشد العام للجماعة[2] ، الذي عارض في كتابه بكل وضوح اتجاه « الخوارج الذي يتعارض مع اتجاه السنة والذي لا يتفق حتى مع فكر ابن تيمية » ، هذا الاتجاه الذي يدعو إلى تكفير عبد الناصر وزملائه ، حيث إن هذه الدعوة ـــ من منطلق فقهي – تحتم ضرورة الدخول في « قتال إسلامي مسلح » ضد النظام .

هذا الكتاب أيضا جعل الإخوان المسلمين في السجون يتحفظون على « يوتوبيا » الدعوة إلى « الدولة الإسلامية » بدلا من محاولة إضفاء الطابع الإسلامي « L'Islamisation » على الحياة اليومية العامة وعلى نشاط المؤسسات ، هذه الدعوة كانت مثار نقاش داخل الحركة الإسلامية إلى جانب التحقيق الجنائي الذي جرى في عهد عبد الناصر ..

---

(1) تمت ترجمة كتاب في ظلال القرآن إلى اللغات التركية والإنجليزية . كما تمت ترجمة الجزء الأول حديثا إلى اللغة الفرنسية .

(2) حسن الهضيبي : « دعاة لا قضاة » . القاهرة . دار الدعوة 1977 .

إن من أهم أسباب نجاح وانتشار كتاب « في ظلال القرآن » ، وازدياد الإقبال الشعبي على اقتنائه خارج الوطن العربي ، هو أن قطبًا قد استند إلى فكر اثنين من المفكرين الإسلاميين من القارة الهندية – وقد نال الكتاب رضاهما ـــ : أبو الأعلى المودودي[1] ، وأبو الحسن الندوي[2] . فالمودودي يمثل أحد الوجوه الكبرى لما يسمى « الإسلام السياسي المعاصر » . وقد دحضه الهضيبي مباشرة في كتابه .

يعد كتاب الظلال – بما لا جدال فيه – « النص الرمزي » « Texte - Icone » للحركات الإسلامية المعاصرة .. ـــ لقد تناولنا ذلك في كتابنا عن الإخوان المسلمين ـــ [3] .

إن تأثير كتاب الظلال يتشابه مع تأثير كتاب « تفسير المنار » « 1903 - 1935 » لمحمد رشيد رضا (المتوفى عام 1935) . فهذا الكتاب الأخير كان له أثر كبير عند ظهوره وربما يمتد هذا الأثر إلى الآن .. استوحى رشيد رضا مضمونه من المحاضرات التي ألقاها الإمام محمد عبده في السنوات الأخيرة من حياته « 1898-1905 »[4] .

---

(1) أبو الأعلى المودودي : توفى عام 1979 ، تمت ترجمة مؤلفاته إلى العربية والإنجليزية ، منها : محاولات فهم الإسلام ، لاهور 1974 ؛ تدوين الدستور الإسلامي ، لاهور 1952 ؛ القانون الإسلامي والدستور ، لاهور 1960 ؛ نظرية الإسلام السياسية ، لاهور 1965 .

وقد ألقى « حسن حنفي » ـــ أحد قدماء الإخوان ـــ محاضرة في المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في القاهرة عام 1980 ، تناول فيها تأثير فكر المودودي على سيد قطب ، وذلك في إطار ندوة الحركات الدينية المتطرفة .

(2) أبو الحسن الندوي : مذكرات سائح في العالم العربي ، القاهرة ، 1951 . ذكر فيها مقابلاته مع سيد قطب ، ومع العقاد أحد أصدقاء قطب في الأربعينيات . ومن كتب الندوي أيضا : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

(3) أوليفييه كاريه ، جيرارد ميشود : الإخوان المسلمون في مصر وسوريا . باريس ، جاليمار ، 1983 ص 94-104 .

(4) عنوان الكتاب : تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار – من دروس الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في الجامع الأزهر . تأليف السيد محمد رشيد رضا . 12 مجلدًا .

يمكن الرجوع إلى كتاب : جاك جوميير « تفسير المنار للقرآن . اتجاهات معاصرة لتفسير القرآن في مصر . باريس ، 1954 .

لاشك أن « حركة التحديث » التي أدخلها رشيد رضا على فكر محمد عبده كانت أساسا في إطار تأثره بفكر ابن تيمية . وقد أعلن رشيد رضا ذلك صراحة في نهاية مقدمة كتابه « تفسير المنار » . بينما نجد أن تلك « الحركة » التي أدخلها قطب كانت في إطار تأثره بفكر « المودودي » مع ارتباطها بمنهج وفكر ابن تيمية .

إن التيار الإسلامي الذي ظهر في مصر في فترة السبعينيات وسموا أنفسهم « القطبيين » قد استمد مصادره الأساسية من فكر ابن تيمية وذلك لتقرير وتطبيق « نظرية الحرب الإسلامية الداخلية » والتي تقدم فكرة « القتل السياسي »[1] .

بين رشيد رضا ، وقطب ، نجد حسن البنا ، مؤسس هيئة الإخوان المسلمين عام 1928 م . فكتابات البنا ، وخاصة « مجموعة رسائله » يمكن اعتبارها « الكتاب المقدس » عند جميع « الإسلاميين » العرب ، والمصريين ابتداء .. فالعلامة المميزة لفكر حسن البنا مقارنة بما نادى به محمد عبده ورشيد رضا ، وأيضا مقارنة « بمعلمهما » جمال الدين الأفغاني – وكانوا جميعا أصحاب نشاط سياسي — إن البنا قد تجاوز دعوة أو « نظرية الإصلاح » إلى واقع « الممارسة السياسية » .

من هنا — فإن كل ما يدعو إليه ويفعله « منظرو » الحركات الإسلامية المتطرفة ، باطل تماما .. لقد رفضه البنا بصورة قاطعة ، معلنا الحكم بالموت ، ضد بعض المنتمين إلى جماعة الإخوان الذين اتهموا بالقيام بالاغتيالات السياسية في القاهرة عام 1948[2] .

---

(1) محمد عبد السلام فرج : الفريضة الغائبة ، القاهرة 1981 . لقد ذكر هذا الكتيب باستفاضة « فتاوى ابن تيمية » (التي قال بها في كل من مصر وسوريا وخاصة في موضوع غزو المغول لسوريا في عام 1300 ، والذين اعتنقوا الإسلام) . على خلاف فرج – الذي اختلف منهجيا عن قطب حول فكرة « القتال » – لم يكن ابن تيمية في أي حال من الأحوال مدافعا عن « حرب إسلامية مدنية » ضد الحاكم « الفاسق » أو « تكفيره » على منهج « الخوارج » ولا مؤيدا لنظرية « القتل السياسي » على تقليد « الإسماعيليين » . يرجع في ذلك إلى : هنري لاوست « الطائفية في الإسلام » باريس ، بايوت ، 1977 ، ص 266-271 ؛ برنارد لويس « القتلة » ، باريس ، بيرجر – ليفرولت ، 1981 .

(2) حسن البنا : القول الفصل ، ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين – أيضا ريتشارد ميتشل : المرجع السابق – رفعت السعيد المرجع السابق .

بعد أن استقر نظام الحكم الفردي المطلق الذي أسسه عبد الناصر ورفاقه في مارس 1954 .. وجد هؤلاء أنه من المفيد لهم أن ينسبوا كل عمليات الإرهاب إلى جماعة الإخوان المسلمين ؛ فقد اتهموهم زورا بأنهم كانوا وراء حملة الاغتيالات السياسية منذ عام 1945 وحتى عام 1950 ، ثم كان اتهامهم – في ظل حكم عبد الناصر – بكل المؤامرات التي دبرت ضد « الرئيس » في الفترة من 1954 - 1956 ، إضافة إلى ما اتهموا به أيضا من مؤامرة ضد السادات في عام 1981[1] .

إننا نستطيع أن نؤكد أن كلا من البنا وقطب ـــ وهما الأيديولوجيان والمفكران لحركة الإخوان المسلمين ـــ لم يكونا إطلاقا « منظرين » أو محرضين للإرهاب .. سنرى ذلك بوضوح في الفصول اللاحقة لهذا الكتاب .. وفي المقابل ، إن كتاب الظلال يقدم ـــ بما لاشك فيه ـــ البرهان ، والفكر ، والصفاء ، للمعارضة الراديكالية الإسلامية ضد كل نظام سياسي على غرار النظام « الناصري » في العالم الإسلامي .

أساس هذا البرهان وهذا الفكر ، الرجوع إلى النصوص القرآنية وتدبرها ، وإلى تأمل الجماعة المسلمة الأولى ، حيث نزل القرآن ، وعبر عن حياة هذه الجماعة بآياته يوما بعد يوم .

في إطار هذه النظرة « المثالية » كانت هذه الكتابة بعد تأمل « سياسي » طويل للقرآن .. بالمعنى الشامل لكلمة « سياسة » وبمفهوم « المثالية الأفلاطونية » التي « روج » لها الفارابي[2] على الساحة الإسلامية – وحافظ عليها كبار العلماء المسلمين المتخصصين في « السياسة الشرعية » .

---

(1) حول المؤامرات التي اتهم فيها الإخوان ضد أحمد ماهر ، رئيس الوزراء المصري في بداية 1945 ، وضد عبد الناصر في سنوات 1954, 1956 ، يمكن الرجوع إلى : عبد الله إمام « عبد الناصر والإخوان المسلمون » ؛ كتاب ريتشارد ميتشل ص 60 الذي أشار إلى « أن اغتيال أحمد ماهر يرجع إلى أحد أعضاء جماعة « مصر الفتاة » وهي جماعة فاشستية » .

(2) سلفادور جوميز نوجالس : السياسة كعلم ديني وحيد عند الفارابي . مدريد ، المعهد الأسباني ـــ العربي للثقافة 1980 .

إن تجربة قطب السياسية قد فرضت عليه بصورة واضحة أن يتأمل النظرة السياسية الشاملة التي تميز بعض النصوص القرآنية .

ولد سيد قطب عام 1906 بالقرب من أسيوط .. اتجه بإرادة أسرته « المتواضعة » إلى الدراسة والتعليم .. اتجه إلى الدراسة في كلية دار العلوم – مثل رشيد رضا والبنا – حيث بدأ تعاطفه المتحفظ تجاه جماعة الإخوان المسلمين .. هيأ نفسه بخلفية أدبية قوية مما جعله ينضم إلى العقاد وتوفيق الحكيم في انتقاد طه حسين .

ناضل قطب – على نحو مستفز أحيانا – في خلال الأربعينيات في صفوف « حزب السعديين » أحد الأجنحة المنشقة عن حزب الوفد .. سافر إلى الولايات المتحدة في بعثة علمية عام 1949 .. وتعتبر هذه البعثة محاولة ذكية لإبعاده عن مصر في ذلك الوقت .

لكن ، عند عودته إلى مصر في عام 1951 ، كان قد تحول تحولا عميقا في عقيدته الإسلامية التي يدين بها ، وكان من قبل يجهل جوهرها ؛ لذلك ، يمكن القول إن كتاب قطب « دراسة في النقد الأدبي للقرآن » هو دراسة أدبية أو فنية بحتة .

كتب أثناء وجوده في الولايات المتحدة كتاب « العدالة الاجتماعية في الإسلام » .. يعتبر هذا الكتاب مساهمة من قطب في النقاش الذي كان دائرا في مصر في ذلك الوقت حول مستقبل الاشتراكية والإصلاح الزراعي في مصر .

نشرت له بعض المقالات ــ كأحد المتعاطفين مع الإخوان ــ في مجلة الدعوة في يناير 1951 .. ثم أصبح عضوا في هيئة الإخوان المسلمين .. سمي على الفور أحد أعضاء مكتب الإرشاد الجديد ومسئولا عن قطاع الدعوة في نهاية عام 1951 .

ساهم قطب ــ كغيره من جماعة الإخوان ــ في ثورة يوليو 1952 .. طلب إليه عبد الناصر بإلحاح الإشراف على « هيئة التحرير » التي حلت محل الأحزاب القائمة في بداية 1953 ، ولكنه رفض ...

ألقي القبض على قطب في نوفمبر 1954 .. استجوب .. وعذب .. وحوكم .. ظل معتقلا حتى خريف 1964 ..

نتيجة لمعاناته المستمرة من الأمراض الباطنية ، كان مقيما بصفة شبه مستمرة في مستشفى السجن .. ذلك أتاح له فرصة البدء في كتابه « في ظلال القرآن » .. وبين وقت وآخر .. كانت تنشر له بعض المقالات « المختصرة » من هذا الكتاب في خارج مصر ، في عام 1965 ، مثل كتاب « معالم في الطريق » الذي نشر بعد ذلك في مصر ، بعد موافقة جهات الرقابة « الناصرية » ...

هذا الكتيب الصغير يحتوي على المقاطع الأكثر « استنفارا » في كتاب « الظلال » .. كما كان هو الدليل الوحيد لإدانته وسجنه للمرة الخامسة في عام 1954 .. حيث اتهمه شمس بدران — وأوحى بذلك إلى عبد الناصر — أن سيد قطب يعد تنظيما عسكريا سريا من الإخوان وأنه يدبر « مؤامرة » ضد عبد الناصر ومعاونيه الرئيسيين .

حظر نشر الكتاب ، واعتقل قطب مع مجموعة أخرى من الإخوان في أغسطس 1965 ، حيث تم استجوابهم ، وتعذيبهم ، ثم حكم عليهم في أبريل 1966 بالإعدام أو بالأشغال الشاقة .. شنق قطب في 29 أغسطس 1966 ..

كل هذه القضايا التي تعرض لها قطب في الفترة من 1962 — 1966 ، والتي تتعلق ، « بالتنظيم » ، « كتاب الظلال ، معالم في الطريق ، الاعتقالات المتكررة .. المحاكمات .. الحكم بالإعدام في النهاية .. هذه القضايا كلها كانت مجالا لعديد من الشهادات الأكيدة الصادقة[1] التي أعلنت ابتداء من عام 1970 .

---

(1) ما يلز كوبلانز : « لعبة الأمم » لندن ، ويدنفيلد ، نيكلسون ، 1969 — ص 1956 ، مذكرات عبد اللطيف البغدادي ، القاهرة 1974 ، الجزء الأول ص 190 ، وخاصة حول « العملية المدبرة » من الجهات البوليسية العليا في عهد ناصر حسب مشورة المتخصصين في المخابرات الأمريكية « C.I.A » ، وبعض الألمان الذي كانوا في القاهرة عام 1954 — عبد الله إمام ، المرجع السابق ص 115-134 ، مع المقابلات التي تمت عام 1980 مع بعض المسئولين عن الأمن في عهد عبد الناصر وبخاصة شمس بدران .

ظهر في محاكمات قضية اغتيال السادات في 6 أكتوبر 1981 ، أنه لايوجد تواطؤ « Laisser-Faire » من جهات عليا . ربما كان ذلك نتيجة لحملة الاعتقالات العنيفة ، في 2 سبتمبر ، للعديد من الإخوان الذين « اختطفوا » من بيوتهم على غرار ما حدث في سنوات 1956,1954 .

يمكن الرجوع أيضا إلى كتاب زينب الغزالي « أيام من حياتي » بيروت 1980 ، وبخاصة ص 36 حول =

نشير هنا إلى إحدى الفقرات التي وردت في كتاب زينب الغزالي حول مجموعة الشبان والشابات من الإخوان المسلمين الذين أحاطوا بقطب ابتداء من عام 1962 ، وحول برنامجه التعليمي الذي قدم فيه مقاطع كثيرة من كتاب « في ظلال القرآن » ، حيث تذكر : « طلبت من حميدة قطب أن تبلغ الأخ سيدًا تحياتنا ورغبة الجماعة المجتمعة لدراسة منهج إسلامي في الاسترشاد بآرائه ، وبعد فترة رجعت إليَّ حميدة وأوصت بدراسة مقدمة سورة الأنعام .. الطبعة الثانية من كتاب الظلال .. وأعطتني ملزمة من كتاب قالت : إن سيدا يعده للطبع واسمه معالم في الطريق ، وكان سيد قطب قد ألفه في السجن . وقالت لي شقيقته ، إذا فرغتم من قراءة هذه الصفحات سآتيكم بغيرها » .

يعتبر « تفسير المنار » أحد كتب التفسير « الكلاسيكية » ، بالرغم مما قد يوحي به من حداثة وأنه ذو اتجاه سياسي .. كما يعتبر كل من محمد عبده ومحمد رشيد رضا من كبار الفقهاء في العلوم الإسلامية .. لذا فإن كتابهما في التفسير يمثل مرجعا هاما وأساسيا لكل المفسرين « الكلاسيكيين » .

في المقابل .. نجد أن سيد قطب أحد رجال « الأدب الدنيوي » « Lettre Profane » ، وربما نسمح لأنفسنا أن نقول عنه إنه « علماني » « Laique » .

لذا فإن كتاب « الظلال » لا يعتبر كتاب تفسير وفق القواعد المعمول بها .. وسيكون من الظلم أن نتصفحه أو ندرسه ككتاب تفسير « تقليدي » أو أن نقارن بينه وبين الكتب الأخرى التي ظهرت سابقا في مجال التفسير .. إذن فإن اهتمامنا لا ينصب على « الظلال » كأحد كتب التفسير .

أطلق البعض على كتاب « الظلال » أنه « مجموعة من الخطب والمواعظ »[1] ، بينما قال آخرون إنه « كتاب تفسير للدفاع عن الدين »[2] « Commentaire apologetique » .

= « جماعة الدراسة » ، ص 87 حول استجواب زينب في موضوع كتاب « معالم في الطريق » عام 1966 .

(1) ج . جانسن : تفسير القرآن في مصر الحديثة . لندن ، بريل ، 1980 . ص 79 .

(2) أدموند ربّاط : محمد ، نبي عربي ، ومؤسس دولة . بيروت ، المكتبة الشرقية ، 1981 ، ص 452 .

ربما يكون ذلك أو تلك ، ولكنه رؤية معاصرة ــ ربما متحمسة ــ للنصوص القرآنية ، تروي تاريخ وتطور المجتمع الإسلامي الأول ؛ إنها ليست نظرية أو كلمة تتغنى بأمجاد الماضي ، الذي لا يقارن ، ولكنها محاولة لعرض آثار ذلك الماضي التي يمكن الاقتداء بها لتحقيق مستقبل أفضل للأمة الإسلامية ..

إنه كتاب عقيدة « Catechisme » لإقامة دولة إسلامية ، أو للقيام « بثورة إسلامية » يمكن مقارنته بكتاب الخميني « الدولة الإسلامية »[1] في مقاصده وأهدافه والظروف التي صاحبت نشره في فترة الستينات ؛ فالخميني تم إبعاده إلى النجف بالعراق بينما كان قطب معتقلا بالقرب من القاهرة ..

ولكننا نرى أن كتابه الظلال ــ وكتابات قطب السياسية الأخرى ــ هي نوعية من التفكير ومن الممارسة الدينية والروحية الرفيعة المستوى ، إننا لا نهدف من هذه المقارنة إلا أن نشير إلى « مكانة » كتاب الظلال بين الأفكار والأعمال المثالية الأخرى التي تتداول اليوم في العالم العربي ..

إن كتاب الظلال يمكن مقارنته أيضا بما كتبه مؤسسا « حزب البعث » : الأرسوذي وعفلق في الثلاثينيات والأربعينيات ؛ فهما أيضا حاولا العودة إلى الأصول التاريخية للدولة الإسلامية الأولى التي أقامها محمد في المدينة .

إذا كانت نظرتا قطب ومؤسسي حزب البعث مثاليتين ، فإنهما مختلفتان إلى درجة عميقة ، بالرغم من أن النظرتين استخدمتا نفس الكلمة : « البعث » التي وردت في القرآن ، ولكنها عند قطب « البعث الإسلامي » (سنرى ذلك في الفصل السابع ــ المبحث الخامس) ، بينما عند الأرسوذي وعفلق « البعث العربي » .

---

(1) روح الله الخميني : الدولة الإسلامية ، باريس . فياول ، 1980 ، ويمكن الرجوع إلى المقدمة « المتحمسة » التي قدم بها حسن حنفي ترجمة الكتاب باللغة العربية في القاهرة 1980 : حيث يدافع عن مفهوم « قطب » و « الخميني » عن « الثورة الإسلامية » ..

تصارع وتنافس عميق بين نظرتين .. ربما كان ذلك سبب اندلاع المواجهات التي حدثت في سوريا ، وربما يكون أيضا أحد أسباب اندلاع الحرب الأهلية في لبنان ..

إننا نعتقد أن الأفكار هي التي تقود البشرية .. فهي التي تكون المعتقدات عند مختلف الشعوب .. إن الظروف الاجتماعية والاقتصادية تنتج أو توحي بالأفكار والمعتقدات وتعمل على نشرها .. ولكن هذه الظروف لا يمكن أن يكون لها دور فعال ومؤثر إذا كانت المعتقدات ذاتها تمارس داخل المجتمعات .

من السذاجة أن نعتقد أن التغيرات أو التحولات الاجتماعية والاقتصادية يمكن أن تبطل أو تؤثر على المعتقدات التي تأصلت في نفوس ووجدان البشر .

إن كل المنازعات والصراعات التي تدور في منطقة الشرق الأوسط هي منازعات أيديولوجية أساسا .. إننا يمكن أن نسميها « حروبا دينية » .. إذا اتفقنا على أن الدين هو كل نوع من أنواع العقيدة أو نوع من أنواع الإيمان بنظام « تفسيري » للوجود أو ـــ بصفة خاصة ـــ يضع تفسيرا لوجود مجتمع بعينه ..

إن الإنسان لا يمكن أن يضحي بنفسه تطوعا – بخلاف حالة اليأس – إلا إذا كان مضحيا في سبيل عقيدة وإيمان ، وهذه هي مأساة المعتقدات والمثاليات : إنها قد تتسبب في ظهور العنف .

في إطار هذا المعنى ، وفي حدود ما يمكن أن نتصوره لمنطق المثاليات ، فإنه قد يكون من الظاهر أن كتاب الظلال هو المسئول عن حالات التطرف والعنف التي ظهرت في مصر تحت اسم « التكفير والهجرة » أو تحت اسم « الجهاد » وظهور ما يدعون أنفسهم « القطبيين » منذ عام 1974 . وربما يكون من الظاهر أيضا أن كتاب عفلق « في سبيل البعث » ، هو المسئول عن « إرهاب الدولة » في كل من سوريا والعراق .

إن الحقيقة المؤكدة خلاف ذلك تماما .. إن عفلق والأرسوذي لم يهدفا إطلاقا إلى الدعوة لممارسة « إرهاب الدولة » .. كما أن البنا وقطبا لم يؤيدا إطلاقا شرعية اغتيال عبد الناصر أو السادات أو كل من هو على منهجهما .

إذن يجب أن نقارن — عرضا — بين المثاليتين المتنافستين : الإسلامية عند قطب ، والعربية عند الأرسوذي وعفلق [1] ..

إذا لم يكن من الممكن مقارنة كتاب الظلال مع كتب التفسير الأخرى « الكلاسيكية » ، فإنه يمكن مقارنته مع « تفسير المنار » .. وذلك لوجود « تقارب » مباشر بينهما .

كان حسن البنا على اتصال مع محمد رشيد رضا وجماعته من المفكرين والعاملين معه في إصدار جريدة المنار في عام 1924 في القاهرة . في عام 1936 ، بعد وفاة رشيد رضا ، انتقلت ملكية الجريدة رسميا إلى جماعة الإخوان المسلمين ، وأصبحت الجريدة تحمل اسم الإخوان تحت العنوان الأصلي للجريدة ، ذلك حتى فرضت عليها الرقابة في عام 1941 م .

توقف « تفسير المنار » عند وفاة رشيد رضا عند تفسير الآية 107 من سورة يوسف . ولم يتابع البنا وأصحابه استكمال تفسير الآيات المتبقية من تلك السورة .

ولكن ، كان يجب الانتظار حتى يقدم قطب ، أحد أعضاء جماعة الإخوان ، كتابه في تفسير القرآن . وقد اتخذ كتاب الظلال موقفا مغايرا « لتفسير المنار » ، حيث تجنب متابعة استكمال ما كان الأخير قد توقف عنده ..

لقد بدا لنا أنه من المناسب والمفيد أن نعرض للأفكار الهامة الرئيسية لكتاب الظلال « بالتوازي » مع الأفكار التي وردت في تفسير المنار ، ذلك بالرغم من اختلاف المنهج الأدبي في الكتابين .

---

(1) زكي الأرسوذي : الجمهورية المثالية . دمشق ، 1965 ، في هذا الكتاب يمكن ملاحظة تأثير النص القرآني على كتابات الأرسوذي . ميشيل عفلق : في سبيل البعث . بيروت 1970 . وفيه يظهر أيضا تأثر عفلق بالنص القرآني : كما سبق أن كان ذلك واضحا في « أقوال في ذكرى ميلاد النبي العربي » في عام 1943 : هذا النص يحفظه عن ظهر قلب كل المناضلين في حزب البعث في خلال الأربعينيات والخمسينيات .

سنستفيد في ذلك من دراسة « جاك جوميير » التي سنعتمد عليها في إجراء المقارنة ، كما أن هناك ضرورة للرجوع إلى تطور الفكر عند « التيارات الإسلامية » واتجاهها « الراديكالي السياسي » .

إن « القراءة » المعاصرة للقرآن من خلال كتاب الظلال ، هي بالطبع ، على النقيض من « القراءة » « العلمية واللغوية » التي يعرضها « محمد أركون »[1] كمفكر إسلامي ، الذي يعتبر « ثوريا » بالرغم من أسلوبه « المسالم » ، حيث إن تناوله للقضايا الرئيسية لا يختلف تماما عما يقدمه قطب .

لذلك فإننا عند بحثنا عن « مستقبل الإسلام » ، لابد وأن نقارن بين « قراءة » قطب و « قراءة » أركون للقرآن ، إن ما يدفعنا إلى ذلك هو أن « معالجات » أركون للنص القرآني « متقدمة » بدرجة كافية ، بعد ما قدم لنا من بدايات منهجية حول « فعل القرآن » .

إن اهتمامنا الأساسي هو القرآن كنص رباني موجه للبشر ، وسيساعدنا في اهتماماتنا فكر سيد قطب ، رجل الدين ، صاحب الثقافة الواسعة ، رجل المعاناة القاسية . كما ستكون لنا الحرية التامة أن نقدم مجهودنا الخاص « للاستلهام » من القرآن ، أحد النصوص العظيمة التي « تستلهم » منها الإنسانية .

إن النص الذي نتناوله بالدراسة هو كتاب يتكون من ستة مجلدات كبيرة[2] ،

---

(1) محمد أركون ، أستاذ الفكر الإسلامي بجامعة السوربون ، ويعتبر الآن من كبار المفكرين الإسلاميين العرب في أوروبا ، وله منهج خاص يعتمد على النقد العقلي والعلمي ، من كتاباته « قراءة » القرآن ، باريس لاروس ، 1982 ، كتاب « الإسلام ، أمس وغدا » بالاشتراك مع لويس جارديه . باريس ، بيشيه — كاستيل ، 1978 ..

(2) هذه الطبعة تتألف من ستة مجلدات كبيرة الحجم ، يحتوي كل منها على حوالي 600 صفحة ، مع ترقيم للصفحات من 1 إلى 4016 . كل جزء له إشارة مميزة ، تجليد أزرق ، ودون تاريخ ، عرض النص القرآني بالكامل ، تبدأ الطبعة بتقديم محمد قطب شقيق سيد قطب ، ورسالته إلى الناشر « دار الشروق » . وذلك قبل المقدمة التي كتبها سيد قطب بخط يده .

حيث يضم ثلاثين « دورية » نشرت تباعا في خلال سنوات نضال سيد قطب « 1951 - 1966 » . وكما كان العديد من الفقرات في كتاب الظلال قد تم تداوله كنصوص لتكوين وتربية « المناضلين » فإننا نجد أن المضمون الأصلي لبعض الصفحات قد تغير من سنه لأخرى .

فزينب الغزالي ـــ إحدى عضوات جماعة الإخوان المتحمسات جدا في الستينيات ـــ يبدو أنها قد طلبت تنقيح مقدمة تفسير سورة الأنعام ، إلى جانب أنه قد ظهرت بعض الكتيبات ، بصورة دورية ، تحتوي على « مجموع » تفسير الآيات التي تتناول موضوعات الزكاة والربا ، على سبيل المثال ، ولكن الحقيقة أن التعديلات في هذا الخصوص كانت طفيفة للغاية .

بينما نجد أن التعديلات في نصوص كتاب « معالم في الطريق » كانت ملموسة ابتداء من عام 1977 ، وحتى عند تنقيحها في عام 1982 « بعد اغتيال السادات » في كل من طبعتي الرياض وبيروت .

إن النص الكامل للطبعة الأخيرة التي صححها ونقحها سيد قطب بخط يده ، قد وكل أمر طباعتها ونشرها إلى دار الشروق في كل من الزياض وبيروت .

والنسخة التي نعتمد عليها في دراستنا « طبعة 1978 » هي صورة طبق الأصل من الطبعة السابعة ، مع الإشارة إلى أنه في عام 1967 ، وبعد إعدام قطب ، ظهرت الطبعة الخامسة في بيروت من ثمانية مجلدات .

إذا لم نكن نغالي ، فإنه يمكن القول إن كتاب الظلال تظهر له طبعة جديدة في كل عام منذ الستينيات ، ولم لا ، إنه مؤلف كبير ، إنه كتاب يوصى بالاطلاع عليه باستمرار ، إنه لمسة جمال لكل بيت ، إنه كتاب يفضل الجميع قراءته ، له مكانته من الاحترام والتقديس ، إنه نص يمثل ميدانا للنقاش والتحليل عند مجموعة الشباب الإسلامي « المناضل » في معسكراتهم الصيفية ، كما أنه مجال للدراسة في قاعات الدراسة في مختلف الجامعات في العالم العربي وخارجه .

إن الطبعة التي اعتمدنا عليها ، هي الطبعة التي أعطى فيها « محمد قطب »

ــ شقيق سيد قطب ــ موافقته على قصر طباعة ونشر الكتاب على دار الشروق ، إننا يمكن أن نتساءل حول التعديلات التي أدخلها محمد قطب بنفسه على هذه الطبعة ، فالإضافات والتصحيحات التي كتبها سيد قطب « بخط يده » في أيامه الأخيرة لم يشر إليها ولم تظهر في الطباعة .

لكننا ، في ذات الوقت لانجد أسبابا مقنعة تدعونا إلى الشك في إخلاص ووفاء محمد قطب ، إضافة إلى أن الطباعة قد تمت في بيروت وليس في القاهرة ، بعيدا عن الرقابة « الناصرية » ، وعن تصارع الاتجاهات داخل جماعة الإخوان المسلمين في مصر .

عل كل الأحوال ، ورغم كل الافتراضات ، فالنص الذي نقدمه ونعتمد عليه في دراستنا هو النص الذي يقرأ ويدرس في الوقت الحاضر .

إن مهمتنا هي اكتشاف مبادئ ومنهاج « قراءة » القرآن التي تبناها سيد قطب وتلاميذه ، ثم محاولة التعرف على المجتمع الإسلامي « المثالي » الذي يدعو إلى إقامته ، والنظام السياسي « الإسلامي » الذي يجب أن يقود هذا المجتمع في عصرنا الحاضر ، كذلك استطلاع « سياسات » الحرب والسلام التي يجب اتباعها في مواجهة « غير المسلمين » في عصر « الجاهلية الحديثة » ، وبصفة عامة علاقة المجتمع الإسلامي مع اليهود والمسيحيين ، ومعرفة النظام الاقتصادي ، ونظام الأسرة ، والدور الاجتماعي للمرأة في هذا المجتمع .

ننهي عرضنا العام للنص – قبل تناول المضمون الحقيقي له – بعمل مقارنة بين ما ورد في كتاب الظلال وما ورد في تفسير المنار ، حيث نحاول إجراء مقارنة للمساحة التي أعطيت للنص والقضايا التي يثيرها مقارنة بما ورد في تفسير محمد عبده ورشيد رضا .

ذلك يعطي الترتيب المقارن التالي ، مع عدم الأخذ في الاعتبار « سورة يوسف » حيث لم يكتمل تفسيرها في المنار[1] :

---

(1) السور 49,33 « الأحزاب ، الحجرات » ظهرت في كتاب الظلال في ترتيبها المعتاد ، ولكن بين قوسين ، وذلك لأنها لا توجد في تفسير المنار . .

كتاب الظلال	تفسير المنار
1 ـــ سورة 8 الأنفال	سورة 1 الفاتحة
2 ـــ سورة 1 الفاتحة	سورة 7 الأعراف
3 ـــ سورة 6 الأنعام	سورة 3 آل عمران
4 ـــ سورة 4 النساء	سورة 9 التوبة
5 ـــ سورة 9 التوبة	سورة 5 المائدة
6 ـــ سورة 5 المائدة	سورة 6 الأنعام
7 ـــ سورة 3 آل عمران	سورة 8 الأنفال
8 ـــ سورة 11 هود	سورة 10 يونس
9 ـــ سورة (49) 2 « الحجرات » البقرة	سورة 4 النساء
10 ـــ سورة (33) 7 « الأحزاب » الأعراف	سورة 2 البقرة
11 ـــ سورة (2) 10 « البقرة » يونس	سورة 11 هود

المثير للدهشة ـــ مقارنة مع تفسير المنار ـــ هو النقص الكبير في مساحة التفسير .. هذا يمكن أن يكون طبيعيا ، لاسيما أن قطبا أعفى نفسه « إراديا » من متطلبات التفسير « الأدبي » ، مع التحليل التفصيلي الذي تتطلبه اعتبارات خاصة بالنص ..

لقد مال قطب ، بصورة دائمة ، إلى حذف العديد من الفقرات التي تثير الجدل « اللغوي » و « التاريخي » حول بعض الآيات حيث أعلن أن « في ذلك مضيعة للوقت » .

والأكثر دهشة أيضا ، أن قطبا قد ركز بالتفصيل على بعض السور ، بينما كان حذرا ومختصرا في تناوله لسور أخرى ، فخلافا للعادة ، وعلى عكس ما فعله محمد عبده ورشيد رضا ، فقد توسع قطب إلى حد ما في تفسير سورة الفاتحة ، وحقيقة فإن قطبا قد قدم تفسيرا طويلا نسبيا للجزء الأكبر من السور الصغيرة الأخيرة .

ركز قطب أساسا على فكرة الوحدانية المطلقة « سورة الإخلاص » ، خلق الله للكون ، وأفعال الإنسان الشريرة « سورة الفلق » الانتصار الكبير والأكيد لأمة

المسلمين « سورة النصر » ، حماية الله للأماكن المقدسة « سورة الفيل » ، صفات المؤمنين الصابرين « سورة العصر » ، مواجهة العدو الشخصي للإنسان « سورتا الكوثر والمسد » ، القاعدة الصلبة للدين المتميز عن كل الأديان « سورة الكافرون » .

كما اهتم قطب أيضا بسور أخرى من الجزء الأخير في القرآن « جزء عمّ » : تذكر ونسيان القرآن « سورة الأعلى » ، العدالة الاجتماعية « سورة الماعون » ، انفطار الكون وانشقاقه في يوم القيامة « سورتا التكوير والانفطار » ، التناسق والتكامل بين رسالة الإسلام وخلق الكون « سورة العلق » وقد اهتم قطب كثيرا جدا بهذه الفكرة ، إضافة إلى أنه قد قدم في تفسيره لهذه السور بعض الفقرات التي تعبر أفضل تعبير عن الدعوة التي حملها قطب .

نضيف إلى ذلك اهتمام قطب ببعض « سمات المجتمع الإسلامي » الذي حاول أن يستكشفه من خلال النصوص القرآنية « المقدمة العامة للظلال – ص 16 » ، وذلك للمساهمة في إقامة المجتمع المعاصر الذي يعيش « في ظلال القرآن » وذلك مع تركيزه على قضايا الزواج والطلاق « سورة التحريم » والمساواة بين البشر « سورة عبس » .

ودون الدخول في مقارنة تفصيلية ، يجب أن نشير إلى أن محمد عبده قد عرض ، عند وجوده في سويسرا عام 1903 ، تفسيرا بسيطا لجزء عمّ « لم يكن ضمن تفسير المنار » ، هذا التفسير كان أقل تفصيلا – أقل مساحة في التفسير – مما قدمه قطب في تفسيره لهذا الجزء[1] .

---

(1) جانسن . نفس المرجع السابق ، ص 19 ,23 . حيث ذكر أن تفسير عبده كان يحتوي على 190 صفحة في مقابل 217 صفحة في تفسير الظلال ، ونشير أيضا إلى المحاضرة التي ألقاها محمد عبده في الجزائر عام 1903 حول تفسير سورة العصر ، وقد أشار جانسن في كتابه ص 52 ، حول الأفكار التي عرضها عبده في كل من سويسرا والجزائر ، كما أشار قطب لهاتين المناسبتين بشكل عارض .

من جهة أخرى ، نجد أن هناك سورا أخرى اهتم قطب بتفسيرها – ولكن في ظل إطار مختلف عما ورد في تفسير المنار – وهي السور التي وردت في الثلاثة عشر جزءا الأوائل حتى « سورة إبراهيم » ، هذه السور تتناول أساسا الموضوعات التالية : القتال والعدالة الاجتماعية « سور الأنفال » ، صلابة وصمود الدعوة في مواجهة كفار قريش قبل تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة « سورة الأنعام » ، المواقف التي اتخذها المسلمون في « المجتمع الإسلامي الأول » في المدينة « سورة النساء » ، مع بحث القضايا التي رأى فيها أساس المجتمع الجديد « اليهود – الأعراب – المنافقون – المسلمون الأوائل – المسلمون اللاحقون » وكذلك بحث تنظيم الجهاد « سورة التوبة » ، ومن القضايا التي ثار حولها النقاش كثيرا في سورة الحجرات ، تلك التي تتعلق بالنظام الاجتماعي للمجتمع الإسلامي الجديد ، وما ورد في سورة الأحزاب حول تلك الجماعة المسلمة القليلة ، وأيضا ما ورد في سورة الفتح التي تناولت الانتصار النهائي للمسلمين .

وباستثناء السور الثلاث « التوبة – الحجرات – الفتح » فإن معظم سور « الوسط » (الجزء الرابع عشر حتى نهاية الجزء التاسع والعشرين) قد أعطاها قطب مساحة أقل في التفسير .

عرضنا فيما سبق كيف أن قطبا قد ركّز تأمله وتفكيره على الأجزاء الثلاثة عشر الأوائل ، مع إعطاء أهمية خاصة لبعض السور ، بينما ركز رشيد رضا أساسا على سور : آل عمران ، الأعراف ، المائدة . وتطابق مع قطب في تركيزه على سورتي التوبة والأنعام .

هذا يعكس قلة اهتمام قطب – مقارنة برشيد رضا – بالموضوعات المتعلقة بأهل الكتاب ، وبصفة خاصة المتعلقة بالمسيحيين ، وعقيدة التثليث ، وخلق المسيح ، خطايا الإنسان ، وخلاص البشر على يد المسيح ، والشفاعة .

مع ملاحظتنا أن كلا التفسيرين قد أعطى اهتماما قليلا لسورة البقرة ، أطول سورة في القرآن ، وتتضمن قضايا شرعية كثيرة .

كما تجب الإشارة إلى أن قطبا — ليس في ذلك أكثر من رضا – لم يعط اهتماما « للتفسير القانوني » للقرآن ، مع تقديره أن النص القرآني إذا تمت قراءته واستيعاب معانيه في ظروف المعاصرة سيكون مناسبا وكافيا ليقدم لنا الوسائل التي تجعلنا نعيش في « ظل مجتمع القرآن » .

سبق وأن ذكرنا أن قطبا — كما فعل رشيد رضا – قد ركز بصورة أكثر تفصيلا على سورتي التوبة والأنعام ، اللتين تمثلان الدستور الأساسي للبناء الاجتماعي « للمجتمع الإسلامي المثالي » . الذي تأسس في المدينة ، وما تلا ذلك من فتح مكة « سورة التوبة » ، هذا المجتمع كانت له « تجربته الثورية » في مكة (سورة الأنعام — التي يعتبرها قطب سورة مكية بكاملها) .

هذه « التجربة المكية » للجماعة المسلمة الأولى تقدم – في رأي قطب – الصورة المثالية للتجربة المعاصرة – في « مجتمع الجاهلية الثانية » – لأقلية مسلمة مخلصة – قبل انتشار الدعوة وحيث كانت المدينة هي النموذج المثالي للمجتمع الإسلامي .

هذا هو مضمون المقدمة الطويلة و « المناضلة » (التي وردت في كتاب معالم في الطريق) لأول سورة مكية في القرآن : سورة الأنعام .

نشير مرة أخرى إلى تركيز قطب — أكثر من رشيد رضا — على قتال المسلمين (سورتا الأنفال وهود) وعلى موضوع الزواج « الإسلامي » (النساء) . هذان الموضوعان قد ركز عليهما قطب في الحقيقة – كما سنرى ذلك لاحقا — وأعطاهما اهتماما كبيرا عند وصفه « لمجتمع القرآن » .

بعد هذا التقديم « للنص » الذي كتبه قطب ، ننتقل الآن إلى مضمون هذا النص ، ونبدأ في الفصل التالي بالحديث عن منهج « قراءة » القرآن الذي ينادي به سيد قطب .

الفصـــل الأول
منهج « قراءة » القرآن
من خلال كتاب « في ظلال القرآن »

منهج « قراءة » القرآن
من خلال كتاب « في ظلال القرآن »

من الواضح أن القضايا المتعلقة بمنهج « قراءة » القرآن ، التي تناولها سيد قطب في كتابه « في ظلال القرآن » ، ربما تكون قريبة بعض الشيء من القضايا التي سبق وتناولها « تفسير المنار » .

ولكن ، المواقف مختلفة في الغالب ، ففي كل القضايا « المنهجية » ، يتحدث قطب بلغة الشخصية التي عاشت وناضلت في ظل المعاناة التي قاسى منها الإخوان المسلمون .. هذه الحياة ، لم يتعرف عليها ، بل و لم يعشها كل من محمد عبده ومحمد رشيد رضا .

تناول قطب قضايا : جهات التفسير ــ سواء كانت حسنة أو سيئة ــ تعريف « فعل القرآن » ، تقديم نبذة تاريخية عن حياة الرسول ، الظروف الاجتماعية للعرب في مكة والمدينة ، وتفاعلها في تحديد وتعريف دعوة الإسلام ، إجمالي النظريات التي تتناول العلاقة بين « النص القرآني » والتاريخ ، والعلاقة بين القرآن (كلام الله) والعلوم الحديثة وخاصة علوم الفلك وعلوم الوراثة .

المبحث الأول

جهات التفسير
المستشرقون وكبار علماء التفسير المسلمين

بادئ ذي بدء ، يجب أن نشير إلى أن كتاب الظلال قد اتخذ موقفا عدائيا من المستشرقين بصفة عامة ، ولكن مايدعو إلى الدهشة هو موقف قطب من تفسير محمد عبده و « مدرسته » ، حيث يعتبرهم قطب ممن « ساروا على نفس نهج الاستشراق » .

قدم كتاب الظلال الاستشراق كموضوع أوروبي ، للمفكرين اليهود والمسيحيين بالدرجة الأولى ، فقد رأى أن أعمالهم تشكل « دسيسة وتَلبِيسًا في تفسير القرآن » ، حيث إنهم تناولوه كنص عادي من فعل البشر ، وأباحوا لأنفسهم وللآخرين الإساءة إليه ، وامتد عدوانهم أيضا إلى السنة النبوية وكل تفسير للقرآن يستند إليها ، فصوروا السنة كأنها كتاب من فعل البشر وأنه متأخر جدا .

ويشير الكتاب إلى أن المستشرقين قد دسوا وَلبَّسوا في التاريخ الإسلامي ، وعلى ذلك فلا يجب أن ننتظر أن نحصل من دراساتهم خيرا « عندما نريد أن نفيء إلى معالم الطريق » .

ولاحظ قطب أنه في خلال القرون المتطاولة من التاريخ الإسلامي « فالمئات والألوف » من المستشرقين اليهود أو المسيحيين قد قادوا عمليات العدوان مرتبطين في ذلك بما فعله الصليبيون وبما تفعله الصهيونية السياسية .

إن الهدف الأساسي للمستشرقين ، وبخاصة اليهود منهم هو « التحطيم الكامل للإسلام » ، إنهم يريدون الإجهاز على عقيدة الإسلام ، إنهم يهاجمون القرآن في نفس الوقت الذي يرتكبون فيه عدوانهم السياسي ضد الدول والمجتمعات الإسلامية ، وذلك بمساعدة « جيش جرار من العملاء الخونة المنتمين إلى الإسلام » .

ولكن ، يؤكد قطب ، أن القرآن سيبقى محفوظا أبدا في مواجهة هذه الدسائس وسيبقى دائما معجزة أبدية ..

يقرر قطب (الظلال 414 ,440 – سورة آل عمران – الآيات 65 - 92) : أنه للأسف يوجد بعض المسلمين من تلاميذ الاستشراق الذين يقومون بأبحاث في القرآن والسنة ، « فأي أمر مستنكر قبيح ! »[1] ، إنهم هؤلاء المسلمون من تلاميذ الاستشراق الذين يشغلون « المناصب الفكرية القيادية » ومن « رجالات الفكر » في بلاد المسلمين ، إنهم أبطال مصنوعون على أعين الصهيونية والصليبية .

إنهم يلجئون إلى طريقة « ماكرة لئيمة » ، حيث إنهم يظهرون الإسلام على أساس أنه النموذج الأمثل والكامل للحياة ثم يرجعون عنه[2] ، لذلك « فمن الخطورة أن نستفتي المستشرقين في أمر ديننا » .

---

(1) نجد نفس الرأي ، ولكن بمبررات عامة ضعيفة في كتاب : إدوارد سعيد « الاستشراق » لندن ، روتلدج وكيجان بول ، 1978 .

(2) يقصد قطب هنا – دون ذكر أسماء – بعض الدراسات في تفسير القرآن والتي أثارت الجدل على صفحات الجرائد على سبيل المثال : محمد أبو زيد 1930 – أحمد خلف الله 1947 . إلى جانب الشيخ أمين الخولي . (وبعد وفاة قطب) مصطفى محمود 1970 الذي اعتمد في دراساته على بعض المناهج « الكلاسيكية » أو الحديثة في التفسير عند الفكر المسيحي .

كما يمكن الرجوع إلى ما كتبه جاك جوميير عن « بعض المواقف المعاصرة لتفسير القرآن في مصر والتي أثارها الجدل الحالي (1947-1951) – دورية : M.I.D.E.O ، رقم 1 ,1954 ص 39 - 72 .

أيضا جانسن « الجدل حول تفسير مصطفى محمود للقرآن » ، أعمال المؤتمر التاسع للاتحاد الأوروبي للعرب والمسلمين ، أمستردام 1978 . لندن ، بريل ، 1980 .

وحسرة على المبعوثين من المسلمين الذين يتعلمون في الغرب العلوم الإسلامية وعلوم القرآن « قرآننا قرآن الأمة الإسلامية » . إن الشك سيدخل في نفوسهم تجاه القرآن والسنة وستكون أنفسهم ضحية للشك في التراث الإسلامي ، « هذه هي النية اللئيمة والخبيثة للمستشرقين » .

والأكثر من ذلك ، أن المستشرقين وتلاميذهم من المسلمين يزعمون أنهم يستخدمون الوسائل العلمية في دراساتهم للتاريخ وعلم الأديان المقارن ، إن آراءهم التي تتناول التطور من التعديد إلى التثنية إلى التوحيد ... إلخ ، ما هي في الحقيقة إلا وسيلة لإخفاء التعارض الراديكالي والأساسي بين الإسلام وسائر الأديان الأخرى .

لقد هاجم قطب ــ بصفة خاصة ــ الكاتب المصري « عباس محمود العقاد » (الظلال 1885 هود آيات 25 - 49) . الذي يعتبر أحد المدافعين المعتدلين المعاصرين عن الإسلام ، وأحد الوجوه الإسلامية الكبيرة .

حيث رأى قطب أن العقاد يقدم نفس الدعوة بالاعتماد على تلك العلوم الدينية ، وبصفة عامة الاعتماد على المصادر غير الإسلامية [1] . ويضيف قائلا : إن ذلك يبين مدى الخطورة في تلقي مفهوماتنا الإسلامية عن مصدر غير إسلامي ، كما يكشف لنا عن مدى تغلغل مناهج الفكر الغربية ومقرراتها في أذهان الذين يعيشون على هذه المناهج والمقررات ويستقون منها .

وهنا يجب أن نشير إلى أن قطبًا نفسه كان أحد تلاميذ المستشرقين ، كما كان متحمسا جدا للعقاد وحتى « اهتدائه » عام 1951 .

هاجم قطب أيضا ما يسمى « بمدرسة محمد عبده » (الظلال 1637 ــ التوبة آيات 29 ــ 35) ، فقد اعتقد قطب أن « مدرسة عبده » وتلاميذها قد تأثروا بمنهاج تفكير علماء أوروبا الأحرار ، وبفكرة التحرر ، مشيرا في ذلك إلى التأثير

---

(1) عباس محمود العقاد : « الفلسفة القرآنية » القاهرة ، 1966 ــ « الإنسان في القرآن » . القاهرة ، دون تاريخ ــ « المرأة في القرآن » القاهرة ، دون تاريخ ــ « عبقرية محمد » القاهرة ، دون تاريخ .

الشخصي « للورد كرومر » وأمثاله من الصليبيين على تفكير محمد عبده ، « وهذا يعتبر مزلقًا خطيرًا » ، فتفسير محمد عبده للقرآن « كان متأثرا بالأفكار المتحررة للديمقراطية والحرية الغربية » ، في هذا الإطار اعتبر قطب العقاد أحد تلاميذ « مدرسة عبده » [1] .

من جهة أخرى ، أشار قطب إلى وجود خطإ في تفسير محمد عبده لسورة العصر ، فعبده ـــ في رأي قطب – قد قدّر خطأ « أن ما نقله بعضهم من الإجماع على أن الكافر لا تنفعه في الآخرة حسنة ولا يخفف عنه عذاب سيئة ما ، لا أصل له » (الظلال 3966 ـــ سورة العصر) .. ويستدرك قطب قائلا : إنه يوجد نصوص قرآنية صريحة هي أصل بذاتها .

يقف قطب نفس الموقف من تفسير عبده لسورة الفيل (الظلال 3976 ، سورة الفيل) ، حيث ذكر قطب ما قاله محمد عبده في تفسير هذه السورة ، خاصة ما يتعلق بتفسير « الطير الأبابيل » والانتقام الخارق من أبرهة اليمني عندما هاجم « البيت الحرام في مكة عام 570 ميلادية » .

لقد كان محمد عبده « عقلانيا » إلى درجة كبيرة عند تناوله موضوع « الطير الأبابيل » وما تلقي به من أحجار من الطين المسموم ، كما كان « عروبيا » عندما أظهر تحيزا كبيرا للدور السياسي للعرب في مكة قبل الإسلام .

من خلال هذين المثالين بالتحديد يمكن أن نرى كيف أن منهج محمد عبده « العقلي » ومدرسته في الدفاع عن الدين كانت موضوع تشكيك صريح .

أما بالنسبة لتفسير المنار فقد « راعاه » كتاب الظلال وخاصة في تفسيره للاثنتي

---

(1) حول الأفكار التي تأثر بها محمد عبده والجدل الذي دار حول إخلاصه : جوميير ، المرجع السابق ، ص 8 ، ص 100 ـــ أ ـــ حوراني « الفكر العربي » 1983 ، ص 130 - 160 إيلي قدورى « الأفغاني .... » 1966 ص 6 ، 23 ، 64 . وحول « العقلانية » و « الفكر المتحرر » عند عبده التي قال بها عثمان أمين يمكن الرجوع إلى كتاب جوميير ص 100 حيث يذكر : « عقل خادم للعقيدة .. ليس على منهج الفكر الحر الذي كان سائدا في أوروبا في القرن الثامن عشر حيث ينقد هذا الفكر العقيدة ويحاول أن يكون حكما لها » .

عشرة سورة الأوائل ، وعلى ذلك فإن رشيد رضا ــ المؤلف الأخير والأساسي لتفسير المنار ــ حظي بموقف متميز عن أستاذه محمد عبده .

لكي ننهي حديثنا عن المستشرقين وتلاميذهم ، فإننا سنشير إلى فكرتين تميزان العلاقة بين فكر قطب ومحمد عبده .

الفكرة الأولى ، نجدها في تعبير قطب التالي (الظلال 1945) « إذا جاز لغير مسلم أن يأخذ بنتائج تخالف مخالفة صريحة ما ورد في القرآن في مسألة من المسائل ، فإنه لا يجوز لباحث ، يقدم بحثه للناس على أنه مسلم ، أن يأخذ بتلك النتائج » .

إنها دعوة جديرة بالاهتمام ، دعوة أصولية ، دقيقة المعنى في ضرورة العودة المطلقة إلى « الكتاب المنزّل » كمصدر أساسي ووحيد لكل نقد ولكل تجديد .

الفكرة الثانية ، هي تفسير قطب للآية 92 من سورة الأنعام (الظلال 1148) ، حيث يرى : أن المستشرقين – في نقدهم للتاريخ – يزعمون في تفسير هذه الآية أن محمدا ما كان يقصد أن يوجه دعوته إلا إلى أهل مكة وبعض المدن حولها ، وأنه إنما تحول في اتجاه المدينة بعد ما واجهه من إخفاق في مكة .

ويضيف قطب أن المستشرقين يقطعون هذه الآية من القرآن كله ، ويحاولون أن يستنتجوا أنه لم تكن هناك نية في أول الأمر أن تكون الدعوة عالمية موجهة إلى كل الناس على ظهر الأرض .

يجب أن نلاحظ هنا أنه لم يكن هناك إجماع من المستشرقين على فكرة أن دعوة محمد كانت مقتصرة أو موجهة فقط إلى مكة أو عرب مكة .

إن عالمية الدعوة – في رأي قطب – وعالمية القرآن ، ركيزة للعقيدة الدينية ، لا تقبل الجدل .

إننا ندرك تماما الآن لماذا رفض قطب بعض نتائج النقد التاريخي لبعض النصوص القرآنية ، بينما قد قبل ــ وسنرى ذلك فيما بعد ــ بعض الدراسات الأخرى وخاصة التي تناولت البيئة الاجتماعية في جزيرة العرب في القرن السابع الميلادي .

إنه تمييز واضح ، إنه رفض لأي نتيجة للنقد التاريخي « للكتاب المنزل »[1] ، إنها خطوة يمكن مقارنتها بالحركة الكاثوليكية الرافضة لكل تحديث أو تجديد « anti-modernisme » ، وهى حركة يشار إليها بـ « intégrisme »[2] « وهي حركة تتعصب لفكرة تمام الدين وكماله » .

إنه رفض تام للمستشرقين ومنهجهم ، وأيضا لكل تلاميذهم من المسلمين . ومن أهم المفكرين المسلمين الذين رفضوا فكرة « المعاصرة » نذكر : أبو الأعلى المودودي [3] وخاصة موقفه من الحالة الاجتماعية للمرأة ، والآثام والأضرار الأكيدة لفكرة الإباحية الجنسية في الغرب ، وأفكاره الأساسية التي تتعلق بالحاكمية والطاغوت .

مفكر هندي آخر ساهم في رفض فكرة المعاصرة : أبو الحسن الندوي [4] ،

---

(1) إن مشكلة تفسير « الكتب المنزّلة » هي تماما نفسها في كل من الإسلام وفي الكنائس المسيحية ، فيمكن أن نلاحظ الاستنكار والإدانة « البابوية » لفكرة « المعاصرة » . فمرسوم « لا منتابيلي » (1907) أدان الجملة التالية (إذا كان التفسير يريد أن يعكف بطريقة مفيدة على « الدراسات الإنجيليكية » ، فيجب – أولا وقبل كل شيء ـــ أن يطرح جانبا كل الآراء التي سبق طرحها حول الأصل « فوق الطبيعي surnaurelle » للكتاب المقدس ، ولا يتم تفسيره إلا كأحد الوثائق التي كتبها البشر) .. وفيما يلي « عهد ضد المعاصرة » (1910) كان يعلنه حتى وقت قريب كل رجال الكنيسة : (إنني أشجب كل منهج للحكم على الكتاب المقدس وتفسيره ، بما « يحط » من قيمة التقاليد الكنسية التي تتطابق مع عقيدة الإيمان وقواعد « الكرسي البابوي » ، كما أشجب كل منهج « البدع العقلانية » والتي تطبق منهج « نقد النص » كقاعدة وحيدة ....) .

من المفسرين الكاثوليكيين « المحدثين » : أ . لوازي « الأناجيل الثلاثة المتوافقة » باريس ، 1903 – وعلى نفس خط أرنست رنان ، نجد مارك – أوريل « حياة المسيح » باريس 1881 .

(2) هذه الكلمة « تطبيقيا » وليس « تفسيريا » هي رفض كل محاولة لمطابقة أعمال الكنيسة وأعمال المؤمنين لما يحدث في عالم الاقتصاد والسياسة والاجتماع . وقد أشار « موراس » إلى أن المذهب السياسي ـــ الديني قد أدانه البابا في 1926 .

(3) المودودي : « المصطلحات الأربعة » . ويمكن الرجوع إلى الظلال ص 927 حول « الطاغوت » و « الحاكمية » ـــ « كتاب الحجاب » في كتاب المودودي « القانون الإسلامي والدستور » ـــ تفسير المودودي لسورة النور ، وكتابه « الإسلام ومشكلات الحضارة » . كما يمكن الرجوع إلى الظلال (602 ، 633) حول انحطاط كل مجتمع توجد فيه « الإباحية الجنسية » وحول الأمراض الجنسية في كل من فرنسا والسويد .

(4) تأثر قطب خاصة بكتاب الندوي « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » ونرى ذلك في تناوله تطبيق الشريعة في مواجهة القانون الروماني المتعلق بالاسترقاق (الظلال 629 ـــ النساء آيات 24 ـــ 35) ؛ موضوع الخمر والمشروبات الكحولية (الظلال 663 ـــ النساء آيات 36 ـــ 43) ؛ التاريخ الإنساني (الظلال =

حيث دعا إلى ضرورة وجود « تفسير تاريخي » منطقي للإسلام والقرآن .

إنهما الكاتبان أنفسهما اللذان كان لهما أبلغ الأثر على تفكير سيد قطب ، وكان متحيزا لتفكيرهما مقارنة بكتابات المؤلفين من جماعة الإخوان سواء الأقدمين منهم أو المعاصرين .

من جهة أخرى ، إذا كان رشيد رضا قد تأثر بفكر ابن تيمية ، أكثر مما تأثر به محمد عبده [1] ، فإن قطبا قد تأثر بفكر المودودي أكثر مما تأثر به كل من رشيد رضا وحسن البنا .

لقد تأثر قطب أيضا بكتابات العقاد (بالرغم من الانتقادات التي أشرنا إليها آنفا) ، إضافة إلى تأثره بكتابات عبد الواحد وافي[2] ، وكتاب دروزة « حياة الرسول »[3] ، كما تأثر — مثل رشيد رضا — بكتاب الشيخ أبي زهرة حول إنجيل برنابا [4] .

= 3149 — الشورى آيات 1- 24) . وكذلك تأثر بكتاب « كتاب الأصنام » ونرى ذلك في (الظلال 59 — آل عمران آيات 121-179) حول الشرك .

(1) في ذلك يمكن الرجوع إلى : هنري لاوست « محاولة حول المذاهب الاجتماعية والسياسية لابن تيمية » باريس 1939 . ص 412 ، وكذلك إلى مقدمة كتاب « تفسير المنار » . حيث خصص رشيد رضا مقطعًا طويلاً إلى حد ما للحديث عن أحمد بن حنبل وعن ابن تيمية فيما يتعلق بتفسير كل منهما للقرآن والاختلافات بينهما ص 9 - 10 .

(2) عباس العقاد « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » حيث نرى تأثيره فيما ورد في كتاب الظلال حول العلاقة بين الشريعة والله (الظلال 610 — النساء — آيات 15 — 23) .

عبد الواحد وافي « الأسرة والمجتمع » ويظهر تأثيره في الظلال (ص 608 — النساء — آيات 15 — 23) حول الزنا بين الأقارب وموقف الإسلام منه ؛ كتاب « حقوق الإنسان في الإسلام » وذلك فيما ورد في الظلال حول حالة المرأة في الإسلام (الظلال 652 — النساء — آيات 24 — 35) .

(3) محمد عزة دروزة « سيرة الرسول – التفسير الحديث » القاهرة 1962 ، 12 مجلدا . حيث أشار قطب إلى هذا الكتاب باستمرار وأشاد به في كتاب الظلال في صفحاته الأخيرة (الظلال 3572 – سورة المنافقون) وذلك حول المكانة الاجتماعية « للمنافقين » في المدينة .

(4) محمد أبو زهرة « محاضرات في النصرانية » ، حيث أشار إليه قطب عند تناوله « إنجيل برنابا » (الظلال 802 — النساء آيات 148 - 170) وحيث تتحدث بشرعية هذا الإنجيل ، وقد تحدث جوميير أيضا في كتابه السابق الإشارة إليه ص 218 عن ترجمة هذا الانجيل إلى العربية وأن رشيد رضا قد اعتمد كثيرا على هذا الإنجيل ، ويمكن الرجوع أيضا إلى كتاب أبي زهرة : « العقيدة الإسلامية » القاهرة 1969 .

استفاد قطب في كتاب الظلال بما سبق أن كتبه بنفسه ، واعتمد داخليا على إيمانه وعقيدته الراسخة ، إضافة إلى استيعابه للأسلوب الأدبي للقرآن وللتصور الإسلامي للكون[1] . ورجع قطب أيضا إلى مؤلفات أخيه محمد قطب[2] ، ومؤلفات أحد معاصريه من جماعة الإخوان : عبد القادر عودة[3] ، الذي عرف بدراسته للقانون الفرنسي ، وكان من المقربين لعبد الناصر حتى عشية إعدامه في عام 1954 .

وتجنب قطب الاعتماد على كتب التفسير المعاصرة التي تميزت « بالتقليدية » ، مثل تفسير طنطاوي الجوهري من مصر ، وتفسير محمد جمال الدين القاسمي من دمشق (طبع كتابه في القاهرة فيما بين عامي 57-1960) ، كتاب الشيخ المراغي في التفسير ، كتب المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (الذي أسسه عبد الناصر عام 1961)[4] ، وكتابات كل من محمد أبو زيد ومحمد أحمد خلف الله (هذه

---

(1) نلاحظ ذلك على سبيل المثال (الظلال 605 – النساء آيات 15-23) ، (الظلال 1938 – هود آيات 100-123) ؛ وفي مؤلفاته : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته – التصوير الفني في القرآن ، القاهرة 1945 – العدالة الاجتماعية في الإسلام .

(2) محمد قطب (الإنسان بين المادية والإسلام » حيث استشهد قطب بما ورد في هذا الكتاب عند تناوله موضوع المرأة في الإسلام (الظلال 652 – النساء آيات 24-35) .

(3) عبد القادر عودة (الإسلام وأوضاعنا القانونية) القاهرة 1951 ، التشريع الجنائي في الإسلام مقارنة بالقانون الوضعي . وأشار قطب إلى كتابات عودة في الظلال ص 880 (المائدة آيات 27-40) . وحسب ما ورد في كتاب ريتشارد ميتشل فإن عبد الناصر قد ضغط على عودة لكي يترأس اللجنة الخاصة بصياغة الدستور في عام 1953 . ووفق ما ورد في كتاب حسن العشماوي « الإخوان والثورة » الذي نشر في القاهرة بعد وفاته في عام 1978 حيث أشار في ص 31-32 إلى أن عبد الناصر قد ضغط على سيد قطب في نهاية 1953 لصياغة النظام السياسي والاجتماعي لهيئة التحرير . وأن رفض قطب إضافة إلى رفض الإخوان الاشتراك في وزارة عبد الناصر في بداية 1954 كان سببا رئيسيا لهذا الفاصل الطويل من الحملات البوليسية « الناصرية » ضد قطب وزملائه في جماعة الإخوان .

(4) أحمد مصطفى المراغي « تفسير المراغي » القاهرة 1945 ؛ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية « المنتخب في تفسير القرآن » القاهرة 1961 ، طنطاوي الجوهري « الجواهر في تفسير القرآن » القاهرة 1931 ، 26 مجلدًا . حيث يعتبر هذا الكتاب أحد كتب « التفسير العلمي » بمعنى التطابق مع الاكتشافات العلمية الحديثة . وقد أشاد رشيد رضا بهذا التفسير (جومبير — المرجع السابق — ص 62) . ولكن قطبا انتقده ، بينما امتدحه حسن الهضيبي ، المرشد العام للإخوان في كتابه « دعاة لا قضاة » .

الكتابات ترتكز على « التفسير العقلي » أحد صفات « مدرسة عبده »)[1] .

بالنسبة لرجال التفسير الذين يعتبرون من كبار المفسرين الأوائل ، فنجد أن قطبا قد اعتمد بقناعة تامة على : سيرة ابن إسحاق (نقلها ابن هشام والطبري) ، وتعتبر مرجعا هاما يلجأ إليه باستمرار ، وقد أشار قطب في كتاب الظلال إلى بعض الفقرات من كتب أحمد بن حنبل ومالك بن أنس ، كما استفاد من تفسير الطبري (النبذات التاريخية التي وردت في السيرة) ، وتفسير حسن البصري ، والترمذي ، وابن كثير (وتاريخه) ، ابن القيم الجوزية [2] ، وأيضا تفسير الجلالين ، والزمخشري . وهذان التفسيران من أكثر كتب التفسير طباعة في مصر في القرن الحالي[3] ، كما استشهد قطب في الظلال بتفسير الرازي (المتوفى عام 1209) ، وبتفسير البيضاوي[4] .

---

(1) محمد أبو زيد « الهداية والعرفان » القاهرة 1930 ، أمين الخولي « التفسير » القاهرة 1944 ، وكتاباته « من هدي القرآن » أيضا التي دارت حول « القضاء » و « الرسول » و « رمضان » ..... إلخ – محمد أحمد خلف الله « الفن القصصي في القرآن الكريم » القاهرة – مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الرابعة ، 1972 .

(2) محمد بن جرير الطبري (المتوفى عام 923) ، جامع البيان ، القاهرة 1324 هـ . تاريخ الأمم والملوك ، ترجمة دوجوج ، 15 مجلدًا ، لندن 1879 م .

عماد الدين بن كثير « المتوفى عام 1373 » : البداية والنهاية ، القاهرة 1932 ، 12 مجلدًا – تفسير القرآن العظيم ، القاهرة .

الترمذي (المتوفى عام 892) السنن ، كتاب الجامع .

الزمخشري (المتوفى عام 1444) « الكشاف » 4 مجلدات ، القاهرة 1966 .

المحلى « المتوفى 1559 » « تفسير الجلالين » السيوطي « المتوفى 1505 » « الإتقان .... » ، القاهرة 1951 .

ابن القيم الجوزية « متوفى عام 1350 » « زاد المعاد في هدى خير العباد » .

(3) جانس . ج . المرجع السابق ، ص 10-11 .

(4) فخر الدين الرازي « المتوفى عام 1209 » « مفاتيح الغيب » القاهرة 1862 ، عبد الله البيضاوي « المتوفى عام 1282 » « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » القاهرة 1244 هـ . وقد استند محمد عمارة على هذا الكتاب عند نقده لمفهوم الحاكمية في الندوة التي عقدت في القاهرة عن الحركات الدينية المتطرفة عام 1980 .

ودائما فيما يتعلق بوجهة نظر الجهات المتخصصة في تفسير القرآن ، فقد اعتبر قطب أن كل تفسير قاله الرسول من خلال الأحاديث « هو نص قاطع » ، ينطبق ذلك أيضا على كل تفسير يتعلق بالعبادات كما وردت في إسناد الترمذي حول « الاتباع في الشريعة والأحكام » ، وكل ما ورد في شأن خضوع المسيحيين لرهبانهم وخضوع اليهود لأحبارهم واتخاذهم لهم أربابا من دون الله .

إن ذلك يقدم تفسيرا هاما لمنهج قطب وفكرته حول الحاكمية ، وبصفة خاصة حول « التعبيرات الجديدة المتعلقة بأحكام محددة » . (وسنرى ذلك تفصيلا في الفصول التالية ولاسيما في الفصل السابع) ، فالنقطة الهامة إذن وذات الأولوية الخاصة هي التفسير الذي قال به الرسول والذي ورد في عديد من الأحاديث الصحيحة .

في ذات الاتجاه ، نجد أن قطبا قد رفض بصورة قاطعة المنطق الجدلي « لرجال التفسير » وأيضا ماقال به « رجال علم الكلام » حيث إنهم « جميعا قد اقتبسوا من الفلسفة الإغريقية ومن المباحث اللاهوتية عند اليهود والمسيحيين ، وخاصة فيما يتعلق بخلق العالم ، والأيام السبعة ، والسموات السبع ...... إلخ » .

إذن ـــ كما يقول قطب ـــ يجب الابتعاد عن هذه الآفة « عند مخالطتها للعقلية العربية الصافية وللعقلية الإسلامية الناصعة » .

رفض قطب أيضا أفكار الفلاسفة الإغريقيين القدماء والغربيين المعاصرين وذلك حتى « نصل إلى فكرة الإسلام التجريدية الكاملة ... ويبقى الإسلام نقيا » .

ولعل ذلك هو ما جعل قطبا حذرا عند استعانته بكتب التفسير الأخرى ، كلما كان الأمر يتطلب ذلك ، وفي هذا المعنى فإنه يتابع تأكيده الشديد ـــ أكثر من رشيد رضا – على ضرورة الاتجاه السلفي والأصولي وذلك بالرجوع إلى النص القرآني وحده فقط كأصل .

ويضيف إضافة أخرى (الظلال 1734 ـــ التوبة ـــ آيات 111-129) قائلا : إن

الحركة هي قوام هذا الدين ، ومن ثم لا يفقهه إلا الذين يتحركون به ويجاهدون لتقريره ، حيث إن الاستغراق في الكتب لا يفيد شيئا ، إنها أوراق باردة وجامدة ، إنهم فقط رجال الجهاد الذين كانوا في المقدمة والذين وقفوا إلى جانب الرسول كقائد للقتال ، إنهم الذين يدركون حقيقة هذا المنهج الحركي ، أما الذين يقعدون فلا يستطيعون أن يفقهوه .

هذا هو ميراث جماعة الإخوان المسلمين الذي عبر عنه حسن البنا ، عندما تميز بالحركة والجهاد مقارنة بالأفغاني وعبده ورشيد رضا ، هؤلاء وصفهم البنا بأنهم أهل علم فقط وليسوا بمجاهدين .

واستشهد قطب في تقديمه لذلك « المنهج الحركي للدين » بما ورد في كتب التفسير الشهيرة لابن عباس والحسن البصري والطبري وابن كثير[1] ، ذلك ما يسميه قطب بالتفسير الفقهي المتجدد والمناضل ، إنه « الفقه الحركي » الديناميكي .

إن ظن قطب في بعض الفقهاء كان المادة الخصبة التي أنبتت « الحركيين » أو المتطرفين « القطبيين » في خلال السبعينيات ، فظهرت منهم جماعة التكفير والهجرة ومجموعات الجهاد التي استوحت أفكارها من بعض الكتابات مثل « الفريضة الغائبة » لمحمد عبد السلام فرج في عام 1981 .

هذا الكتيب لم يكن ذات فائدة أو ربما على الأقل كان له دور ثانوي في التربية والتكوين والمعرفة . ولكن كان له تأثير بارز في فكرة « هجرة المجتمع » الحالي ، والتدبر المخلص للقرآن ، وتهيئة وحشد المجموعات للمواجهات العنيفة ، إنه تفسير حركي ، حي ، نضالي ، وليس أوراقا من كتب أو بحث علمي !

هذه النظرة المنهجية ترتبط كثيرا بأحد الموضوعات الهامة عند قطب : فكرة إحياء تجربة الأمة الإسلامية الأولى في مكة قبل الانتقال إلى المدينة ، ليست تجربة تتخذ كنموذج أو تقليد ، ولكن تجربة يجب تحقيقها فعليا ويتم تنفيذها عمليا .

---

(1) ابن عباس (متوفى عام 687) . ويعتبر أحد مؤسسي علم « تفسير القرآن » . وهو أصولي . وتستمد منه كافة كتب التفسير الأخرى الكثير من المعلومات . وله مكانة خاصة عند قطب حيث إنه « تجاوز ما يقول به علماء الكلام والفلاسفة من المسلمين » .

إن التفسير الحقيقي ، الحركي ، الحي ، هو تناول القرآن وتطبيقه في الوقت الحاضر ، ومن يوم لآخر في إطار النضال من أجل إقامة الدولة والمجتمع الإسلامي .

إذن ، كان من الطبيعي أن نستشعر « روح المثالية » في أعمال وحياة سيد قطب ، وذلك من خلال افتراضاته ، والمقتضيات المنهجية لتفسيره للقرآن .

إنها افتراضات تختلف تماما ـــ وخاصة في نتائجها النهائية – عما ورد من افتراضات في تفسير المنار ، حيث امتدح محمد عبده ورشيد رضا النظرة « التحررية » و « العقلانية » مقارنة بكتب التفسير الكلاسيكية ، وذلك في إطار الهدف العلمي وليس الهدف السياسي .

في واقع الأمر ، إن مبادرات « التفسير العقلي » عند خلف الله « 1947 » ، أو « التوافق مع الاكتشافات العلمية » عند كامل حسين « 1968 » . أو المبادرة التي كانت أقل عمقا عند مصطفى محمود « 1970 » ، بعد الدفعة القوية التي قدمها أمين الخولي[1] ، هذه المبادرات كلها كانت ثمارا لأعمال محمد عبده ورشيد رضا ، التي رفضها قطب إجمالا ، كما كانت نتاجا لأعمال « علماء الدين الأوائل » مثل ابن سينا وابن خلدون ، وقد انتقدهم قطب أيضا .

إن قطبا لا يقبل فهم وتفسير القرآن ، إلا بالقرآن ذاته ، كما لا يقبل إطلاقا « أي نقد تاريخي » أو اجتماعي للنص ، هذا النقد يتسم بأنه « بارد وغير مؤمن » ، هذا كله يتم الآن تحت سيطرة « المناضلين » « الحركيين » الذين يميلون إلى العنف !

في النهاية نلاحظ ، أنه إذا كان التمييز بين « القرآن المكي » و « القرآن المدني » شيئا ثانويا بالنسبة لتفسير المنار ، فإننا نجده أحد المحاور الرئيسية في كتاب الظلال .

---

(1) جومبير : المرجع السابق ص 9 – ويمكن الرجوع إلى كتاب الشيخ أمين الخولي « التفسير العلمي للقرآن » ، القاهرة 1957 .

ذلك لأن « القرآن المكي » هو الأكثر تعبيرا عن الحالة التي يعيشها العرب « غير المسلمين ! » في الوقت الحاضر .

فقد قدّر كتاب الظلال أن القرآن المدني لن يستطع الانتصار من جديد إلا بالقوة المسلحة كما كان الحال بعد الهجرة من مكة .

المبحث الثاني
« فعل القرآن »

اتخذ قطب في تفسيره للقرآن ــ مقارنة بكتب التفسير الكلاسيكية وبما عرضه عبده ورشيد رضا في تفسير المنار ــ منهج التأمل والتفكير « الحركي التجريبي » ، في إطار النضال على الحلبة السياسية في مكة ، في إطار هذا المنهج ، سنعرض فيما يلي الفكرة العامة التي نتجت عن « فعل القرآن » في المجتمع العربي في القرن السابع الميلادي وحسب ما ورد في النص القرآني .

يذكر قطب أن القرآن ، قبل كل شيء ، هو حقيقة ذات كينونة مستمرة ، كهذا الكون ذاته ، مثل الشمس ، ومثل الإنسان . ولذلك « فإن ما يدعو للسخرية أن نقول أو أن نقيّم القرآن على أنه « رجعي » أو « تقدمي » .

إن القرآن من نواميس الفطرة ، إنه حقيقة معجزة ، إن إعجاز القرآن أبعد مدى من إعجاز نظمه ومعانيه ، إنه معجزة من أمر الله ، إنه معجزة دينية وشرعية .

بعد قرون من البحث ، فإن المستشرقين لم يستطيعوا هم أنفسهم التعرف على خاصية الإعجاز في النص القرآني ، حيث إنهم ــ على سبيل المثال ــ يدعون أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عمل فرد واحد وأنه لا يمكن أن يكون قد كتب في الجزيرة العربية وحدها ، وأشار قطب في ذلك « الظلال 2195 – النحل آيات 90- 111 » إلى تلك الدعوة التي ظهرت في مؤتمر المستشرقين الذي عقد في الاتحاد السوفيتي في عام 1954 . وكان قطب أحد حضوره .

ويعرض قطب لإعجاز القرآن ، بالإشارة إلى تجربته الشخصية التي رواها في

الظلال « 821 » ، وذلك في رحلته على الباخرة التي حملته في نهاية عام 1948 إلى الولايات المتحدة في بعثة علمية لمدة عامين . حيث ذكر قطب امرأة يوغسلافية تأثرت كثيرا بالآيات القرآنية التي تلاها قطب عند إمامته لصلاة الجمعة على ظهر الباخرة ، وشهدتها مع غيرها من الأجانب ، ويرى قطب أن لغة القرآن هي التي أثرت فيها وأن إعجاز التركيب الجمالي للآيات هو الذي وصل إلى قلبها حيث إنها تجهل العربية .

وهكذا فإن القرآن ، وحتى في مقاطعه البسيطة ، يعتبر معجزة دائمة ومفتوحة لكل الأجيال الإنسانية ومن كل اللغات .

إنه معجزة ، ليست كالمعجزات العادية أو الخوارق المادية التي تنقضي في جيل واحد ولا يتأثر بها إلا الذين يرونها من ذلك الجيل ، إنهم المشركون الذين يطلبون الخوارق ، ولقد نبه الله إلى أن هذا الأمر لا يفعله الرسول .

فالقرآن وحده هو الآية والإعجاز ، وليس انشقاق القمر أو كسوفه في وقت ما هو علامة على الإعجاز ، إن ما ورد من روايات لبعض الأحداث هو تكريم من الله للنبي .

إن هذا القرآن يشهد بذاته على أنه ليس من صنع البشر ، فهو أكبر جدا من طاقة البشر ، ومعرفة البشر ، وآفاق البشر ، حتى لو افترضنا أن محمدا كان يقرأ ويكتب وعلى علم بكثير من الأمور « الظلال 2746 ــ المزمل » ، إنه تجريد العقيدة من كل وهم وكل شبهة ، إنه يجرد العقيدة أيضا من الأوهام والخرافات .

إن القرآن يقدم الأسس التي يمكن على أساسها قيام المجتمع الإنساني الكامل في كل العصور دون مواجهة الكذب والتلبيس والبلبلة .

والأكثر من ذلك ، أننا نجد أن لكل سورة من سور القرآن شخصيتها الخاصة وملامحها المتميزة ، ومحورها الذي تشير إليه موضوعاتها جميعا .

ونذكر هنا أن قطبا لم يتأثر أو يرتبك بالقضية التي أثارتها « التركيبة العثمانية »

في الترجمة اللاتينية للقرآن ، آخذا في الاعتبار أن في كل سورة توجد آيات كانت لها أسباب نزول خاصة بها . حيث يرى قطب أن محمدا هو الذي أمر بتجميع الآيات والسور على الشكل الذي نجده في القرآن الذي بين أيدينا .

فكل سورة تظهر لها ملامحها المتميزة ، ونكاد نحس أنها كائن حي متميز نستشعر تجاهه بالتعاطف والتجاوب ؛ فكل سورة من سور القرآن هي بالتأكيد آية من آيات الله .

هذه الملامح المميزة لكل سورة أو آية والتي حددت أسباب النزول ، قد قادت قطبا إلى قبول بعض الأحاديث « ضعيفة الإسناد » والتي تكون في ذات الوقت ، قد استندت إلى الواقع التاريخي الذي كان موجودا أثناء نزول الآية « الظلال 729 ـــ النساء ـــ آيات 87 - 94 » .

يقرر قطب من جهة أخرى ، أن الملامح المتميزة لإحدى السور أو الآيات لا تسمح لنا أن نتخيل أن إحدى السور تبيح ما تحرمه آية أو سورة أخرى .

فعلى سبيل المثال في موضوع تعدد الزوجات « الظلال 582 – النساء آيات 1 - 14 » ذكر قطب أن « شريعة الله ليست هازلة » . وهذا لم يمنعه أن يقبل نظرية « الناسخ والمنسوخ » « في إطار التعاليم الدينية ، ولمزيد من الإيضاح وزيادة المعرفة ، وليست في إطار من التشكك أو التعارض » .

ولذلك فإن قطبا ـــ وعلى العكس من رشيد رضا – قد حاول التقليل من استخدام هذه « النظرية التفسيرية » لأغراض الدفاع عن الدين « Fins apologétiques » .

وتوضيح ذلك ما قاله ـــ آخذا في الاعتبار الاعتراضات المستمرة من الشيوعيين المصريين ـــ إنه قد بيّن في مواقع مختلفة من كتاب الظلال ، أن القرآن لم يضع قاعدة على أساس استرقاق أسرى الحرب ؛ حيث إن الاسترقاق ليس حتميا في القرآن ، فإذا ما حدث وكان هناك اتفاق عام على عدم استرقاق الأسرى ، فإن الإسلام يرجع إلى قاعدته التي أنزلها الله وهي عدم الاسترقاق . « الظلال 3285 – محمد – آيات

1 - 15 » . فقطب قد مال إلى هذا الرأي لأن النصوص القرآنية واستقراء الحوادث وظروفها يؤيدانه .. إنه يسير مع اتجاه النص وروحه .

إذن فيما يتعلق بتعدد الزوجات والاسترقاق ، فإن قطبا قد اتخذ موقفا قاطعا ، معتمدا على الإيمان القوي « Type fidéiste » ، أقل « عقلانية » وأكثر « عقائدية » ، مقارنة بمحمد عبده ورشيد رضا .

أما بالنسبة للآيات الشيطانية التي تتعلق « بالغرانيق المكية » (الآيات 19-23 من سورة النجم ؛ الآية 52 من سور الحج) ، فقد أعلن قطب أنه قد قرأ تلك الروايات عما سمي « بحديث الغرانيق » الذي أورده ابن سعد في طبقاته وابن جرير الطبري في تاريخه . وهذا الحديث قال به ابن أبي حاتم (الظلال 2419 ، النجم) .

وأشار قطب إلى أن هناك روايات أخرى أجرأ على الافتراء تنسب قولة الغرانيق إلى الرسول ، وتعلل هذا برغبته في مراضاة قريش ومهادنتها لعدة أشهر حتى يتمكن المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة من العودة إلى المدينة . وقد رفض قطب هذه الروايات جميعا ، وذلك لأسباب ثلاثة : الأول : أنها مجافية لعصمة النبوة ؛ والثاني : مجافاتها لحفظ الذكر من العبث والتحريف ؛ والثالث : أن سياق السورة ينفيها نفيا قاطعا ، حيث إن ظاهر الحق النفسي يبين أنه لا يمكن للمشركين أن يسجدوا في نفس الوقت مع المسلمين عند سماعهم محمدا يتلو هذه الآيات – حتى دون توافق أو مهادنة – فلغير هذا السبب سجد المشركون ، ولغير هذا السبب عاد المهاجرون من الحبشة » .

إن الأسباب التي ساقها قطب ليس فيها ما يثير الدهشة بالنسبة لأي متخصص في التاريخ . فالرواية الخاصة « بحديث الغرانيق » ، والتي رواها ابن إسحاق ولم يهتم بها ابن هشام وأوردها أيضا الطبري ، تحمل طابع الوثيقة التي تثير الشك والريبة .

إن الحجتين الأوليين اللتين أوردهما قطب لهما طابع عقائدي : فالنبي لا يمكن أن يظن للحظة ما أنه ليس بنبي ، والقرآن في تركيبته وشكله العثماني لم يتضمن هذا الكلام الذي قال به المشركون « وإنهن لهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لهن

التي ترتجى » ، فهذه الحجج التي قدمها قطب ذات سلطان عقائدي ، تأخذ في الاعتبار بالدرجة الأولى الطابع الوثائقي المشكوك فيه للرواية .

ويوضح قطب في تعليقه على الآية الأخيرة من السورة والتي قدمها المشركون كحجة لسجودهم في آن واحد مع المسلمين : « إن هؤلاء إذا استمعوا إلى سورة النجم ، فأقرب ما يحتمل أن تصادف قلوبهم لحظة الاستجابة التي لا يملكون أنفسهم إزاءها ، وأن يؤخذوا بسلطان القرآن فيسجدوا مع الساجدين » ، وفي هذا الإطار يشير قطب إلى تجربته الشخصية عند سماع هذه السورة (الظلال 3419) .

ويستدرك قطب قائلا : إن حادثة السجود المشتركة هذه ربما لم تحدث إطلاقا . فالحديث الذي روى هذه الحكاية كان موضع شك ، حيث إن عودة المهاجرين من الحبشة لم تكن بسبب ما ورد فيه من شأن المهادنة ، ولذلك فليس من الضروري أن نذكر أن سبب عودة المهاجرين هو الهدنة بين محمد والمشركين عدة أشهر أو شهرين . وعلى ذلك فإن قطبا قد وضع تماما هذه الحادثة وهذا الحديث موضع الشك .

من جهة أخرى ، نجد أن قطبا قد استند إلى آيات أخرى (الظلال 2435 — الحج — آيات 42-57) ليوضح أن أصحاب الدعوات من الرسل قد نبههم الله إلى أن الشيطان يتربص بأمانيهم تلك لينفذ منها إلى صميم الدعوة . وإذا كان الله قد عصم أنبياءه ورسله ، فلم يكن للشيطان أن ينفذ من خلال رغباتهم الفطرية إلى دعوتهم ، فغير المعصومين في حاجة إلى الحذر الشديد من هذه الناحية خيفة أن يدخل عليهم الشيطان من ثغرة الرغبة في حرصهم على ما يسمونه « مصلحة الدعوة » وينسون في ذلك « منهج الدعوة » .

وهكذا تظهر لنا النتيجة النهائية التي وصل إليها قطب متشككا في حديث ورد في تاريخ الطبري ، حيث أشار إلى أن عودة المهاجرين من الحبشة ونقض الهدنة قد تم بعد نزول هذه الآيات التي تسمى « بآيات الغرانيق » .

من ناحية أخرى ، ميّز قطب بين « فعل القرآن » من جهة و « فعل الرسول »

من جهة أخرى ، فكيف يمكن إذن الالتقاء بين « الكلام الأبدي » وبين كلام النبي « البشر .. » ؟

الإجابة بسيطة جدا يقدمها قطب (الظلال 317 – الشورى الآيات 25 - 53) : « إننا لانعرف .. إنه عمل خارق في طبيعته .. إن قضية الاتصال بين الوحي من الذات العلية وبين نبي من البشر من أمور الغيب » . وهنا يستند قطب على شهادتين مباشرتين لعائشة ولزيد بن ثابت (الظلال 3171) .

من الموضوعات ذات الحساسية الخاصة في حياة الرسول « البشر » ، زواج محمد من زينب بنت جحش . وفي ذلك يذكر قطب أن الله قد أوحى إلى النبي أن ابنه بالتبني زيدا ، سيطلق زينب وأنه هو سيتزوجها .

هذا الأمر قد أحدث ردود فعل كثيرة ، حيث إنه كان مخالفا لعرف العرب ، وكان ذلك مثار تساؤل . فالوحي قد ألغى التبني وآثاره القانونية ، وأباح تعدد الزوجات للرسول . فكانت زينب الزوجة السابعة لمحمد .

يتبين قطب في معرض تناوله لهذا التساؤل أن ذلك أمر من أمور الشريعة والعقيدة وأن ذلك لا يرفضه إلا المنافقون .

ويضيف في ذلك : إن الرسول بشر ، وله من المشاعر والعواطف البشرية ، إن ذلك حقيقة تاريخية ، والقرآن يحدد التصور الإسلامي الواضح للقيم ، ويرسم الطريق الشعوري للإحساس بالدنيا والآخرة ، إن زواج الرسول من زينب كان لحكمة قضاها الله . وإن كل تشكيك هو من فعل المنافقين ، مثلما فعلوه في مواقف أخرى ، مثل قسمة الفيء بعد الانتصار على اليهود .

وهكذا نجد أيضا أن سيد قطب ، مثلما سبق في حادثة الغرانيق ، قد رفض الروايات المغرضة والمثيرة للشك ، والتي قد يعتبرها الآخرون وثائق تاريخية .

إذن ... الفعل القرآني هو فعل النهي كامل ومعجز ، وإن محمدا ما هو إلا بشر ، ولكنه ليس كعامة البشر ـــ وليس أميا ـــ وأنه في القمة العالية ، وهو الذي « أطاقت

روحه التجاوب المطلق مع حقيقة الوحدة الكبرى ، كما أطاق عقله تصور هذه الوحدة وتمثلها ، كما أطاق كيانه تمثيل هذه الوحدة في حياته الواقعة المعروضة للناس » .

إنه بشر حقيقي ، إنه رسول من البشر ، إلى البشر ، يعلمهم ، ويربيهم ، ويقود الأمة وينقلها من الضلال المبين إلى العلم (الظلال 506 – آل عمران – آيات 121-175) .

إنه لشيء عظيم ومشهد باهر ، رجل واحد لم يؤمن معه إلا قليل ، يواجه أعتى أهل الأرض ، وأغنى أهل الأرض ، وأكثر أهل الأرض حضارة مادية في زمانهم ، وذات يوم لابد أن يقف أصحاب الدعوة من قومهم موقف المفاصلة الكاملة ، فإذا القوم الواحد أمتان مختلفتان ، أمة تدين لله وحده وتلتف حول محمد ، وأمة تتخذ من دون الله أربابا ..

إنه نبي من البشر وليس من الملائكة ، يجري عليه ما يجري على البشر من معيشة ، ومن سلوك عملي لما يحياه الناس في حياتهم ، وتكون حياته أسوة دافعة لغيره من الناس في تطبيقه للكتاب الذي أنزل عليه ، فهل يا ترى كان هذا البشر شاعرا كما زعم المشركون ؟

في ذلك يجيب قطب (الظلال 2621 – الشعراء – آيات 192-227) : إنهم كانوا يقولون عن النبي إنه شاعر . فلهم عذرهم ، لأنهم لا يفقهون ما يقول .

فالشاعر — كما يراه قطب — هو أسير الانفعالات والعواطف المتقلبة . بما فيها من أشواق إنسانية إلى الجمال ، أما النبوة فهي اتصال دائم بالله ، وتلق مباشر عن وحي الله ، ومحاولة دائمة لرد الحياة إلى الله .

فطبيعة النبوة وطبيعة الشعر مختلفتان من الأساس ، ومنهج القرآن غير منهج الشعر ، هناك فرق شاسع بين القرآن وبين القصيدة ، بين صاحب الدعوة وبين الشاعر .

فالشاعر يكون أسيرا لحلمه الذي يتخيله ، أما النبي أو صاحب الدعوة فإنه يعمل

على تحقيق دعوته ، فهو نشيط ومناضل ، وكل مشاعره وانفعالاته تتحول بعمله إلى واقع وحقيقة .

تفكير رائع من سيد قطب ، هذا الإنسان الذي اهتم لسنوات عديدة بالأدب والتأليف الأدبي ، قبل أن يهتدي إلى الطريق الصحيح ، ويصبح مناضلا إسلاميا ضمن جماعة الإخوان المسلمين .

لقد قدم قطب صورة رائعة مثالية للقرآن ولمحمد ، صورة مثالية كان على قطب وزملائه من الإخوان أن يقتدوا بها (الظلال 620 – الشعراء – آيات 192 – 227)[1] .

إنه محمد بن عبد الله ــ الذي يضيف عنه قطب قائلا ــ إنه كان ملء السمع والبصر بين قومه قبل بعثته ، فقد كان عندهم ذا مكانة من بيته ، وهو من ذروة بني هاشم ، وهم من ذروة قريش .. كان عندهم ذا مكانة من خلقه ، وهو الملقب بالأمين ، ولقد ارتضوا تحكيمه بينهم في وضع الحجر الأسود قبل البعثة بزمن طويل .

ولكن ، بعد البعثة ، فإن هؤلاء الناس المكيين أنفسهم قد تآمروا ضده ، فلماذا ؟

يجيبنا قطب : إن الدعوة الجديدة كانت نقلة عظيمة بين الطبقة السائدة في الجزيرة ، والكهانة السائدة في دياناتها ، واختصاص طبقات بالذات بالسيادة والشرف وسدانة الكعبة والقيام بينها وبين العرب الآخرين .

وهنا يجب أن نشير إلى أن قطبا ــ على عكس رشيد رضا ــ قد أعطى اهتماما كبيرا للتمييز بين السور والآيات المكية ومثيلاتها « المدنية » ، حيث اختلف قطب في هذه النقطة مع التقاليد المتبعة . فعلى سبيل المثال ، لم يعتقد ــ بصورة لا تقبل الجدل ــ أن سورة القلم هي السورة الثانية في النزول بعد سورة العلق (الظلال 3650 - 3655 القلم) ، مخالفا في ذلك رأي غالبية المفسرين .

---

(1) ويمكن أيضا الرجوع إلى مجموعة رسائل حسن البنا ص 173 حول الهدف الذي يجب أن يتحقق .

فسياق السورة ـــ كما يعلق قطب ـــ وموضوعها وأسلوبها يجعلنا نرجح أنها نزلت بعد فترة من الدعوة العامة التي جاءت بعد نحو ثلاث سنوات من الدعوة الفردية ، في الوقت الذي أخذت فيه قريش تدفع هذه الدعوة وتحاربها .. والفترة الزمنية التي نزلت فيها هذه السورة تؤكد تماما أنها ولابد أن تكون قد نزلت مباشرة بعد سورة العلق أول سورة نزلت من الوحي .

اتخذ قطب نفس الاتجاه في مخالفة المفسرين ، (الظلال 2718 – العنكبوت آيات 1-13) ، وذلك عندما قرر أن سورة العنكبوت مكية ، وكانت بعض الروايات قد ذكرت أن الإحدى عشرة آية الأولى منها هي مدنية ، وذلك لذكر « الجهاد » و « المنافقين » فيها ، ولكن قطبا يرجح أن السورة كلها مكية ، حيث إن سبب نزول الآية الثامنة هو إسلام « سعد بن أبي وقاص » ، وإن إسلام سعد كان في مكة بلا جدال .

كذلك يوضح لنا قطب أن سورة هود كلها مكية أيضا (الظلال 1839) ، بالرغم من قول المفسرين إن الآيات 12 ، 17 ، 114 هي آيات مدنية .. ويشرح قطب السبب فيقول : إن السورة الحادية عشرة (سورة هود) قد نزلت في الفترة التي عانى فيها الرسول ، وزاد فيها عناد وتحدي مشركي قريش ، وبالذات في الفترة التي تلت وفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة ، وهي من أقسى الفترات التي مرت على النبي في مكة .

ويشير قطب إلى العقيدة التي كانت سائدة في مكة قبل الإسلام ، فيذكر أن العرب كانوا يعبدون صخرة بيضاء منقوشة (منحوتة) كانت تسمى « اللات » في الطائف ، ويعبدون شجرة تسمى « العزى » بمنطقة اسمها نخلة وهي بين مكة والطائف ، وكان آخرون يعبدون « مناة » بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة ـــ وكان بالجزيرة كثير من المعبودات تعظمها القبائل المختلفة ، ولكن هذه الثلاثة كانت أعظمها .. وكانوا يطلقون هذه الأسماء على الأصنام على أساس أنها آلهة أو ملائكة حيث كانوا يعتقدون أن الملائكة إناث .

ويضيف قطب : أن قريشا كانت تدّعي أنها من ذرية إبراهيم ، وهذا حق ، وأنها من ملة إبراهيم ، وهذا ما ليس بحق ، فقد أعلن إبراهيم كلمة التوحيد قوية واضحة ، وكان أول الموحدين .. ويزيد : أن العرب الذين أرسل إليهم محمد ، لم يرسل إليهم أحد قبله ، ولا يعرف التاريخ رسولا بين إسماعيل ، ولد إبراهيم وجد العرب ، وبين محمد .

وعلى ذلك يرى قطب أن اتجاه التوحيد عند العرب في القرن السابع الميلادي كان ميراثا لعقيدة إسماعيل (الحنيفية) .. فعقيدة العرب كان لها أصل من التوحيد ثم وقع فيها انحراف ، وكان العرب يعتقدون بالفعل أنهم على دين إبراهيم .

ولم ينكر قطب في ذلك التأثير المباشر للقبائل التي كانت تعتنق اليهودية أو المسيحية في جزيرة العرب ؛ فهذا التأثير قوّى شعور العرب بالانتماء إلى ملة إبراهيم ، فلقد كان العرب يعتقدون في الله الخالق وفي نفس الوقت كانوا يعبدون الأصنام التي كانت موجودة « في البيت الحرام » في مكة ، والتي تمثل آلهة كل القبائل في الجزيرة ، وكانت تمنح النفوذ والسلطة لأهل مكة .

في النهاية يؤكد قطب أن محمدا كان نبيا عربيا ، أرسله الله بلسان قومه ، كما أرسله الله نبيا للناس كافة ، وعلى ذلك ظلت دعوة العرب إلى التوحيد تمثل دعوة عالمية شاملة .

المبحث الثالث

الظروف الاجتماعية في مكة والمدينة

إن النقطة الأساسية في منهج قطب هي التركيز على « القرآن المكي » وتمييزه . في هذا الإطار كتب قطب مقدمة طويلة ، وبأسلوب بسيط لسورة الأنعام (الظلال 1004-1021) .

يرى قطب أن سورة الأنعام كلها مكية ، وقد نزلت على الرسول بجملتها في مكة في ليلة واحدة ، وربما باستثناء الآيات 91 — 92 — 141 — 151 — 153 . فهذه الآيات يقال إنها مدنية .

يعالج « القرآن المكي » قضية واحدة ، هي ، أن لا إله إلا الله ، وأن البشر عبيد الله ، فالقرآن المكي لم يعالج قضايا مثل القومية العربية ، أو القضايا الاجتماعية ، أو قضايا حربية ، أو تشريعية ، ولا حتى أخلاقية .

القرآن المكي ما هو إلا ثورة وعي وعقيدة وكل ما يتبع ذلك من أخلاقيات ، وسلطة وقانون ونظام اجتماعي .. هذه ثورة قلوب زلزلت القوى التي كانت تسيطر على البشر من الكهنة ورؤساء القبائل والأمراء وأصحاب السلطة ، كما زلزلت عرش الاستبداد في الدولة الفارسية والدولة البيزنطية .

إن القضية الأساسية لسورة الأنعام وللقرآن المكي كافة ، هي قضية العقيدة .. فالقرآن المكي لم يتعرض لشيء من الشريعة إلا ما يختص بتأصيل أصلها الاعتقادي ، حيث لم يكن للإسلام دولة تنفذ شريعته ، فصان الله هذه الشريعة حتى تقوم الدولة الإسلامية .

إن المشركين في مكة قد حاولوا التشكيك في حقيقة الوحي إلى الرسول ، لأنه يواجه اضطراب تصورهم لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، بينما هم سادرون في عبادة مالا يضرهم ولا ينفعهم من الشركاء ، على اعتقاد أنهم شفعاؤهم عند الله . وكانوا يطلبون خوارق مادية تثبت لهم صحة القرآن ، كما أن هؤلاء المشركين كانوا يزعمون لله الولد .

ويذهب قطب إلى أبعد من ذلك عندما يقرر أن « الثورة المكية » هي التركيز على الأمر بعبادة الله وحده ، والنهي عن عبادة غيره .

فالعربي في مكة الذي خوطب بهذا القرآن أول مرة ، لم يكن يحصر مدلول لفظ العبادة ، وهو يؤمر به ، في مجرد أداء الشعائر التعبدية ، بل إنه يوم خوطب به أول مرة في مكة لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبدية ، إنما كان يفهم منه ، عندما يخاطب به ، أن المطلوب منه هو « الدينونة » لله وحده في أمره كله ، فهو إيمان روحي قبل أن يكون فرضا تعبديا ثم فرضا اجتماعيا أو شرعيا أو قوميا .

من ناحية أخرى ، نجد أن قطبا يقول إن القرآن المدني يختلف عن القرآن المكي في المضمون والهدف ، وفي نفس الوقت فإن القرآن المدني يمثل صورة متميزة تعكس نشأة الدولة الإسلامية في المدينة .

لذلك ، طبق قطب أسلوب « التفسير الحركي » على الآيات المدنية بصفة خاصة لما فيها من خصوصية الحركة والنضال ، حيث يرى أن القرآن ذاته قد نزل في آيات تتميز عن بعضها البعض في الوقائع التاريخية ، حيث تقدم تفسيرا لكل واقعة تاريخية منفصلة .

فالقرآن يفسر الوقائع ، ومن خلال معرفة الملابسات أو الوقائع نستطيع أن نفهم معاني القرآن .. ويقدم قطب في ذلك تفسيرا « كلاسيكيا » ؛ فعلى سبيل المثال : نجده في سورة النساء (الظلال 554) يحاول أن يميز الآيات عن بعضها حسب وقت نزولها . فيقول بضرورة تفسير الظروف الاجتماعية لبناء الدولة الإسلامية الأولى في المدينة (الظلال 30 ــ البقرة آيات : 28 ــ 261 ــ 274) ، حيث يجب معرفة مدى

الارتباط بين محور سورة البقرة وموضوعاتها من جهة ، ومجمل الملابسات التي نزلت آيات السورة لمواجهتها ابتداء من جهة أخرى .

هذه الملابسات في عمومها هي الملابسات التي ظلت الدعوة تواجهها ، مما يجعل هذه التوجيهات هي دستور الدعوة . فمثلا كان الربا هو أحد القواعد الاجتماعية التي كانت سائدة في الجاهلية ، ولكن نجد القرآن قد تحدث عن تكليف البذل والإنفاق ، وقد تكررت الدعوة إلى الإنفاق في سورة البقرة ، هذا يوضح لنا تركيز السورة ، في المجتمع الإسلامي في المدينة ، على الإنفاق بدلاً من الربا (البقرة الآيات 261 – 274) .

من هنا ندرك طبيعة القرآن « فهو كائن حي متحرك . ونحن نراه في هذه الوقائع يعمل ويتحرك في وسط الجماعة المسلمة ، هذه الحركة وملابساتها تساعدنا على أن نراه يعمل ويتحرك في مشاعرنا ، وفي حياتنا ، كما كان يعمل ويتحرك في حياة الجماعة الأولى » .

إذن ، يجب أن نرجع إلى استشارة القرآن ، ويجب أن يكون تفسيرنا لا يتعلق فقط بالمعنى اللغوي الذي لا علاقة له بالقرآن ككائن حي متحرك .

فسورة البقرة تقدم إلينا الدستور والقانون الذي يجب أن نتحراه في شئون الحياة وفي المجتمع الإسلامي (الظلال 220 – البقرة – آيات 215 – 220) . فمجتمع المدينة هو المجتمع المتواد المتحاب المترابط المتضامن المتكامل المتناسق ، هذا المجتمع ظل في جملته خيرا من كل مجتمع آخر صاغته الجاهلية في الماضي والحاضر .

وكما تذكر لنا سورة البقرة (آية رقم 189) ، فإن هناك مواقف سأل فيها المسلمون نبيهم بروح من التفتح والحيوية عن شئون شتى ، هي الشئون التي تصادفهم في حياتهم الجديدة . ويريدون أن يعرفوا كيف يسلكون فيها وفق تصورهم الجديد ، ووفق نظامهم الجديد ، وعن الظواهر التي تلفت حسهم الذي استيقظ تجاه الكون الذي يعيشون فيه « إن ذلك قد صاغ شيئا فشيئا الشخصية المسلمة » .

ويوما بعد يوم ، وحدثا بعد حدث ، كانت هذه الشخصية تنضج وتنمو وتتضح

سماتها ، وكانت الأحداث تقسو عليهم حتى لتبلغ أحيانا درجة الفتنة . لقد كانت فترة عجيبة حقا ، فترة اتصال السماء بالأرض اتصالا مباشرا ظاهرا – ليست كما كان الحال في مكة حين اقتصر الأمر فقط على الدعوة – مبلورا في أحداث وكلمات ، وحيث كان الأمر بإنشاء الدولة وإقامة الشريعة .

في ذلك الحين كان كل مسلم يبيت وهو يشعر أن عين الله عليه ؛ فإذا حدث أن واجهت المسلم معضلة ، أو حَزَبَه أمر ، كان يعرف وينتظر أن تفتح أبواب السماء لينزل منها حل لمعضلته .. فياله من أمر هائل عجيب أن يوجه الله خطابه المعين إلى شخص معين .

ويتعجب صاحب الظلال (3316 ـــ الفتح ـــ آيات 1 - 17) .. ففي خلال عدة سنوات يتبين مدى ما طرأ على الجماعة المسلمة في موقفها كله من تغيرات عميقة ، ويتبين فيها مدى فعل القرآن في شئون الحياة اليومية ، فالدعوة قد ازدهرت في المدينة حيث استقرت الأوضاع بين المسلمين وقريش .

ولكن ، لابد من الابتلاء والاختبار .. فقد كانت فترة عصيبة ، تلك الفترة التي امتدت من بعد غزوة بدر إلى ما قبل صلح الحديبية .. هذه الفترة التي تصوّر المجتمع الإسلامي الناشئ ، دون استقرار الدولة وبغير سيطرتها الكاملة ، حيث كان يجب مواجهة موقف ودسائس يهود المدينة والمنافقين الذين كانوا مسلمين اسما فقط ، وليسوا مسلمين بقلوبهم .

من هذا كله يتضح لنا أن قطبًا قد ركز على أسباب النزول .. وعليه فإننا يجب قبل البدء في شرح النص القرآني أن نثبت رواية الحادث كما عرضتها كتب السيرة ، ولكن مع الاختصار المناسب ، فلا طائل وراء الجري مع هذه الروايات أو البحث في تفصيلات لأحد المواقف أو الدروس القرآنية ، حيث يكفي الإنصات إلى القرآن لنتعرف على الفارق بين سرد الله وسرد البشر للوقائع والأحداث .

ويشير قطب بصورة عامة إلى خصائص البيئة التي نزل فيها القرآن ، فهي بيئة زراعية أو بيئة بدوية ، حيث تبرز في هذه البيئة نعمة الأنعام (الظلال 2161 ـــ النحل ـــ آيات 1 - 21) .

لذلك لابد عند قراءتنا القرآن أن نستحضر في تصورنا كينونة الجماعة المسلمة الأولى حيث تنزل القرآن في مواجهة واقع معين .

إن معجزة القرآن البارزة أنه نزل في حياة أمة معينة في فترة من فترات التاريخ محددة ، وخاض بهذه الأمة معركة كبرى حولت مجرى تاريخها وتاريخ البشرية كله معها .

إنه مجتمع فريد أسس بعد مبايعة جماعة المسلمين للنبي « تحت الشجرة » في الحديبية ، حيث تأكد للمسلمين النصر القريب ، وبشروا بالمغانم الكثيرة التي سيأخذونها ، وحيث أنزل الله سكينته عليهم ، في نصر موصول بسنته التي لا ينالها التبديل ، وذلك كله في إطار من رحمة الله ورضاه عنهم ، مستبشرين بإثابته لهم بظهور دينه على الدين كله في الأرض جميعا .

حاول قطب أن يستشعر ويتصور وجوه وقلوب الرجال عند سماعهم سورة الفتح (الظلال 3325) ، هؤلاء الرجال السعداء الذين استحقوا هذا الرضا الإلـهي .. وفي ذلك يقول : « إنني أحاول اليوم من وراء ألف وأربعمائة عام أن استشرف صفحة الوجود في تلك اللحظة القدسية التي شهد فيها الوجود كله ذلك التبليغ العلوي الكريم . إن كل واحد منا يقول في نفسه : ألست أطمع أن أكون داخلا في هذا العموم ؟ » .

ولكن هل يا ترى سلّم قطب بالمشكلة الاجتماعية في العلاقات ، أولا : بين المسلمين السابقين في الإسلام – والذين كانوا قلة – وبين الجماعة المتزايدة العدد حيث دخل الإسلام من لم يتلق من التربية الإسلامية القسط الكافي ، وثانيا : بين المهاجرين والأنصار ؟

في هذا الخصوص يؤكد قطب بكل قوة أنها قضية نشأة أخرى وميلاد جديد ، على نفس الأرض وفي ذات الظروف ، وبدون حدوث انقلاب لا في الإنتاج وأدواته ، ولا في المادة وخواصها .. إنه صراع بين المنهج القرآني ومعالم الجاهلية في النفوس والأوضاع .

إن هذا المنهج المتنزل من السماء ، والتصور الذي أنشأه هذا المنهج كذلك ، هو

الذي يكافح الواقع المادي ويعدّله ويبدله ، ولم يكن قط الواقع المادي أو « النقيض الكامن فيه » أو تبدّل وسائل الإنتاج ، أو أي شيء من هذا « الهوس الماركسي » هو الذي اقتضى تغيير التصورات ومناهج الحياة وأوضاعها لتلائم هذا التبدل الذي تفرضه وسائل الإنتاج .. كان هناك شيء جديد واحد في حياة هذا الشعب (العربي) ، شيء هبط عليه من الملإ الأعلى ، فاستجابت له نفوس ، لأنه يخاطب فيها رصيد الفطرة الذي أودعه الله فيها .

لقد تم هذا كله ، لأن هناك رسالة علوية وتصورا عقائديا ، كل ذلك في عالم له أدبه مع الله ومع رسول الله . وأفضل مثال على ذلك نزول القرآن لينهى المسلمين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي ، مثلما حدث في يوم قدوم ركب بني تميم إلى الرسول في السنة التاسعة للهجرة .

إنه بناء اجتماعي جديد ، أسس على الإيمان والعقيدة والخوف من الله . إنه مجتمع المفلحين ، الذين يكوِّنون « حزب الله » .. أولئك المسلمون السابقون من المهاجرين والأنصار ، الذين نضج إيمانهم ولايجدون في أنفسهم عوجا ، يعيشون في نفس الجو الذي يوجد فيه المنافقون ومعسكرات المشركين واليهود في المدينة .

وهنا يجب أن نشير إلى أن قطبًا لم يول اهتماما في التفرقة والتمييز بين المهاجرين والأنصار ...

هذه هي البنية المثالية للمجتمع الإسلامي التي دعا إليها قطب (كما سنرى في الفصل السادس) لتكون أساسًا للثورة الاجتماعية الإسلامية في عصرنا الحاضر .

من ناحية أخرى ، في تفسيره للبيئة الاجتماعية في مكة والمدينة ، يذكر قطب أن يهود المدينة ــ وكما فعل سابقا مشركو مكة من قريش ــ ما لبثوا أن أحسوا بخطر الدين الجديد على مكانتهم التقليدية بوصفهم أهل الكتاب الأول ، وقد كانوا يتمتعون بمكانة عظيمة بين أهل يثرب بسبب هذه الصفة . وكانوا بذلك يستغلون الخلاف القائم بين الأوس والخزرج لتكون لهم الكلمة العليا في المدينة .

فلما وحَّد الإسلام الأوس والخزرج ، أصبح اليهود يكيدون للنبي ، لأن ذلك كان

خطرا على كيانهم ... ومنذ هذا اليوم لم تضعْ الحرب أوزارها قط بين الإسلام واليهود ... لقد بدأت أول الأمر حربا باردة ، بتعبير أيامنا هذه ، بدأت حرب دعاية ضد محمد وضد الإسلام ، فاستخدموا طريقة الدس بين بعض المسلمين وبعض ، بين الأوس والخزرج مرة ، وبين الأنصار والمهاجرين مرة ، واتبعوا طريقة اتخاذ بطانة لهم من المنافقين .. لقد كانت حربا مفتوحة على كل الاتجاهات . وكان أهم طوائفهم بني قينقاع ، وبني النضير ، وبني قريظة .

وحسب ما يذكر قطب فإن وقعة بني قينقاع كانت بعد غزوة بدر ، وقبل غزوة أحد . فلما انتصر المسلمون على المشركين في بدر ، كره اليهود ذلك وخافوا أن يؤثر ذلك على موقفهم في المدينة ؛ وعلى ذلك فإن الطوائف اليهودية الثلاث قد جلوا تباعا من المدينة وأجوارها . فكان منهم من سار إلى خيبر ومنهم من سافر إلى الشام . وكان بعض أشرافهم قد ساروا إلى خيبر .

وقد اعتمد قطب ، في تعليقه على واقعة بني النضير ، على الرواية التي ذكرت أن بني النضير قد نقضوا العهد « وثيقة المدينة » الذي كان بينهم وبين الرسول ، وذلك لما حاولوا الغدر به عندما ذهب إليهم يطلب منهم المشاركة في أداء دية قتيلين ، بحكم ما كان بينه وبينهم من عهد في أول مقدمه إلى المدينة . وقد حاصرهم المسلمون في حصنهم لمدة ست وعشرين ليلة . ثم سألوا الرسول أن يجليهم كما سبق إجلاء بني قينقاع ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح .

ويقرر قطب بوضوح أنه كان هناك ولاء بين المسلمين وبين جماعات من اليهود في أوائل عهد ظهور الإسلام في المدينة .

واتفق قطب مع رواية ابن عباس (الظلال 363 ــ آل عمران ــ الآيات 1-32) ، التي ورد فيها أنه بعد ما أصاب الرسول قريشا يوم بدر ، فإن الله قد وجه نداءه في سورة آل عمران إلى يهود المدينة أن يسلموا قبل أن يصيبهم ما أصاب قريشا في هزيمتهم ببدر . ولكنهم يرفضون الإيمان (الآيات 12-13) ، وكان ذلك في الوقت الذي لم يكن مأمورا فيه بقتال أهل الكتاب ولا بأخذ الجزية منهم .

ولذلك أكد قطب على أن الله كان أول من وجه النظر إلى خيانة اليهود وإلى أنهم سينقضون العهد « وثيقة المدينة » ، حيث إن الله قد وصفهم بالكفار ، وكان الخطاب في الآية الثانية عشرة موجها إلى اليهود (الظلال 364) .

ويضيف قطب أن اليهود كانوا دائما يشددون في دعواهم على أنهم أولياء الله من دون الناس وأنهم شعب الله المختار ، وأن بعثة الرسول في غيرهم لا تكون . إنهم أيضا اليهود الذين يقولون عن غيرهم من الأمم « جوييم » باللغة العبرية أي « أميون » ، نسبة إلى الأمم - بوصفهم هم شعب الله المختار وغيرهم هم الأمم — مما يشير — في رأي قطب — إلى دلالة كلمة « أمي » على الذي لا يكتب أو لم يتعلم [1] ، وكان اليهود ينتظرون مبعث الرسول الأخير منهم .

وهكذا نجد أن رأي قطب قد تراوح في بساطة بين « التفسير الاجتماعي » لعداوة يهود المدينة للإسلام وبين « التفسير العقائدي » لتلك العداوة .

أما فيما يتعلق بنصارى الجزيرة العربية ، فقد تناولهم قطب بحصافة ، ففي مقدمة تفسير سورة آل عمران (الظلال 352 - 362) ، تناول بالتعليق موضوع وفد نصارى نجران اليمن ، الذي قدم المدينة في السنة التاسعة للهجرة ، وذلك فيما يتعلق بالروايات التي وردت في نزول الآيات من 1 - 83 ، وأنها نزلت في الحوار مع هذا الوفد .

واستبعد قطب أن تكون السنة التاسعة هي زمن نزول هذه الآيات ، فقد اتخذ موقفا على أساس الحجة النقدية وفقا لمضمون النص ، مخالفا في الرأي أغلب الروايات الواردة في ذلك ، حيث رأى قطب أن الموضوع الذي تعالجه الآيات هو مواجهة شبهات النصارى ، وبخاصة ما يتعلق منه بالمسيح وعقيدة التوحيد الخالص .

---

(1) أشار قطب في ذلك في (الظلال ص 3563) إلى حديث الرسول « إنا نحن أمة أمية ، لا نحسب ولا نكتب » ، ويتفق قطب في تفسيره لكلمة « أمي » مع تفسير بلاشير عند ترجمته للقرآن إلى الفرنسية عام 1949 ، الجزء الأول . ص 6 - 10 .

في ظل هذه البيئة من الوثنية والصراع مع اليهود ، قدم قطب الهجرة كعنصر أساسي لإقامة المجتمع المسلم في المدينة (الظلال 740-754 النساء ، آيات 90 - 104) .

فالهجرة عند قطب هي فرض على كل مسلم لكي يربأ بنفسه عن فتنته في دينه . إن منهج قطب هنا جدير بالاهتمام ، إنه يقول « إن الهجرة قد كتبت على مجموعة محددة من المسلمين وفي حالة بعينها » ، ولكن يستدرك مشيرا إلى أن هذا الحكم يمضي إلى آخر الزمان ، متجاوزا تلك الحالة الخاصة التي كان يواجهها النص في تاريخ معين وفي بيئة معينة .

يمضي حكما عاما ، يلحق كل مسلم تناله « الفتنة في دينه » في أية أرض ، وتمسكه أمواله ومصالحه ، أو قرابته وصداقاته ، أو إشفاقه من آلام الهجرة ومتاعبها .. فكل مسلم — كما فعل الرسول وأصحابه — يجب عليهم الهجرة متى كان هناك — في أي أرض وفي أي مكان — دار للإسلام يأمن فيها على دينه ويجهر فيها بعقيدته ويؤدي فيها عباداته ، ويحيا حياة إسلامية في ظل شريعة الله ، ويستمتع بهذا المستوى الرفيع من الحياة .

وقد رأى قطب أن يستثني من ذلك من لا حيلة لهم في البقاء في دار الكفر ، والتعرض في الدين ، والحرمان من الحياة في دار الإسلام ، من الشيوخ الضعاف والنساء والأطفال ، فيعلقهم بالرجاء في عفو الله ومغفرته ورحمته بسبب عذرهم المبين وعجزهم عن الفرار .

هذه الفئة قد أخذ المشركون يسومونهم ألوانا من العذاب والتنكيل ويفتنونهم عن دينهم ، وقد فتن بعضهم عن دينهم فعلا ، واضطر بعضهم إلى إظهار الكفر تقية . ويرى قطب أن هذه التقية جائزة لهم يوم أن لم تكن لهم دولة يهاجرون إليها — متى استطاعوا — .

إنه تفكير رائع ، مخلص دائما لمضمون النص القرآني ، وإدراك واعٍ لموقف الشيعة من هذا الموضوع . ولكن من الصعب تطبيق ذلك وخاصة في الوقت الحاضر

حيث تحاول بعض الحركات الإسلامية أن تعرضه وتدعو للعمل به [1] .

حول الحروب التي قامت في زمن الدولة الإسلامية الأولى ، استشهد قطب بما كتبه ابن القيم الجوزية (الظلال 1431 ـــ مقدمة تفسير سورة الأنفال) ، ويعلن قطب أن الحركة الإسلامية تواجه الواقع الذي قابلته بما يكافئه ؛ تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات ؛ وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها ، تلك التي تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات ، وتخضعهم بالقهر والتضليل وتعبّدهم لغير ربهم الجليل .

ومن هنا كانت الأهمية بشرعية القتال في غزوة بدر . ويقدم قطب تعليقا على ما حدث يوم بدر فيذكر (الظلال 470– آل عمران – آيات 121 - 179) : أن مرد الأمر كله إلى الله ، الفاعلية كلها منه ، إن نزول الملائكة ليس إلا بشرى لقلوب المسلمين .

أما النصر فمن الله مباشرة ، ومتعلق بقدره وإرادته بلا واسطة ولا سبب ولا وسيلة . وهكذا يحرص السياق القرآني على رد الأمر كله إلى الله ، كي لا يعلق بتصور المسلم ما يشوب هذه القاعدة الأصيلة : قاعدة رد الأمر جملة إلى مشيئة الله المطلقة ، وإرادته الفاعلة ، وقدره المباشر .

وقد حرص القرآن على تقرير هذه القاعدة في التصور الإسلامي ، وعلى تنحية الأسباب والوسائل عن أن تكون هي الفاعلة . إن النصر من عند الله ، لتحقيق قدر الله . وليس للرسول ولا للمجاهدين معه في النصر من غاية ذاتية ولا نصيب شخصي ، كما أنه ليس له ولا لهم دخل في تحقيقه ، وإن هم إلا ستار القدرة تحقق بهم ما تشاء !

---

(1) يمكن الرجوع في ذلك إلى نسخة الحكم في قضية التكفير والهجرة ، ص 1528 ، حول وجوب الهجرة لجماعة شكري مصطفى . وكذلك إلى كتيب الفريضة الغائبة ، حول ضرورة إقامة الدولة الإسلامية بالقوة المسلحة .

وبعد النصر في بدر الذي كان فيه رائحة المعجزة ، وحتى إلى ما بعد غزوة أحد ، فإن حياة المسلمين كان يحيط بها ملابسات شتى في خلال هذه الفترة الزمنية . وهذا ما عكسته سورة آل عمران . بينما نجد أن سورة البقرة كانت تعكس حالة استقرار الجماعة المسلمة . ففي هذه الفترة وجدت بذرة النفاق في المدينة . ووجد هؤلاء المنافقون حلفاء طبيعيين لهم في اليهود ، وقد كان هناك قبل بدر من اضطروا لمنافقة أهلهم الذين دخلوا في الإسلام ، وأصبحت مجموعة من الرجال ومن ذوي المكانة فيهم مضطرة إلى التظاهر بالإسلام .

أما عن غزوة أحد ، فقد كانت هناك أسباب ظاهرية لما حدث في ذلك اليوم ، ولكن لم تعد هناك علاقة سببية بين الهزيمة التي وقعت وبين المحاربين أو الرماة ، كما أنها لم تكن موجودة بين الانتصار في معركة بدر وبين المحاربين الذين خاضوا هذه المعركة . فالسبب الرئيسي هو من تدبير مشيئة الله .

لقد كان هناك قدر الله وراء أفعال البشر . حتى في الوقت الذي ضعف فيه بعض المحاربين ، فإن شدة الابتلاء والهزيمة كانت أشق عليهم من كل ما نزل بهم ، ولكن الله تفضل عليهم بالعفو عنهم ، حتى أن الرسول كغيره من المسلمين في أحد ، اشتد عليه الابتلاء وجرح في المعركة ، وزعم المشركون أنه قتل ، فإن كل ذلك لم يغير من تدبير الله . ولا ينبغي أن يرتد المسلمون على أعقابهم إذا مات النبي .

وهنا لم يتردد قطب في أن يصرح بأن ما وقع في يوم أحد كان مطابقا لسنن الله في الأرض ، وأن ذلك من نواميس الحياة ، وأن هذه السنن والنواميس ليست إلا من حكمة الله ، أراد أن يمحّص بها المسلمين ، فالمؤكد أن الله كان عليما بأن هذا القتل وهذه الهزيمة سيصيبان المسلمين ، وأنهم سيصابون في أرواحهم وفي أبدانهم بأذى كبير ويقتل منهم الكثير ، ويعلم أيضا بما فعله الرماة بعدم إطاعتهم لأوامر الرسول !

إن الجوهر هو أن تدبير الله كان موجودا في أحد كما كان موجودا في بدر . إنه وجود كان فيه رائحة المعجزة في انتصار بدر ، ورائحة المعجزة في الابتلاء يوم أحد .

ففي يوم بدر كان المسلمون حوالي ثلاثمائة ، واجهوا حوالي ألف من المشركين ، وكان وراء المسلمين في المدينة مشركون لا تزال لهم قوتهم ، ومنافقون لهم مكانتهم ، ويهود يتربصون بهم .

أما عن أحد فقد لخص قطب وقائعها كما وردت في كتب السيرة ليوضح كيف أن المشركين كانوا جادين للأخذ بالثأر لما حدث لهم في بدر . وقد أقبلوا نحو المدينة مع نسائهم ليحاموا عنهن ولا يفروا .

فاستشار الرسول أصحابه : أيخرج إليهم ، أم يمكث في المدينة ؟ – وكان رأيه ألا يخرجوا من المدينة وأن يتحصنوا بها ، ولكن جماعة كبيرة من الصحابة – ومعظمهم من الشبان الذين فاتهم يوم بدر – أشاروا عليه بالخروج وألحّوا عليه في ذلك . فنزل الرسول عند رأيهم ، وألقى عليهم بذلك درسا نبويا عاليا .

فللشورى وقت ، حتى إذا انتهت جاء وقت العزم والمضي والتوكل على الله ، ولم يعد هناك مجال للتردد وإعادة الشورى والتأرجح بين الآراء . تم ذلك كله رغم أن الرسول كان يرى عاقبة المعركة . ولكنه في ذات الوقت كان يمضي نظام الشورى ، ونظام الحركة بعد الشورى .

كان يربي أمة ناشئة ، وليس على المسلمين إلا أن يردوا قضية النصر والخذلان بوصفهما نتيجة المعركة ـــ أي معركة ـــ إلى قدر الله ومشيئته .

ويحاول قطب أن يستخلص من ذلك درسا يفيد العالم الإسلامي في العصر الحاضر ، حيث يرى أن العالم الإسلامي أمام سيطرة الغرب يواجه ابتلاء مثل ابتلاء يوم أحد . إن روح الانتصار عند المسلمين يجب أن تتمثل في إقامة الشورى ، والتي تعتبر مكافئة للانتصار العسكري وعلى غرار ما حدث في فتح مكة .

ويشير قطب إلى أن المعركة الجدلية بين أهل الكتاب والجماعة المسلمة في المدينة بعد غزوة بدر ، قد انتقلت بعد معركة أحد إلى معركة أخرى ، ليست بالكيد والتدبير فقط ، ولكنها كذلك بالسيف والرمح والسنان .

من هذا التلخيص الجيد لمراحل الجهاد في الإسلام ، تتجلى سمات أصيلة وعميقة في « المنهج الحركي للدين الإسلامي » ، جديرة بالوقوف أمامها طويلا .

وعن فتح مكة ، فقد أوضح قطب بدقة أن الفتح كان هو الهدف الذي من أجله قدّر الله الخروج إلى قريش في عقر دارها ، وليس الهدف هو المغانم الوفيرة . وعلى العكس من أقوال العديد من رجال التفسير ، لم يقتنع قطب بأن سورة الفتح هي إشارة إلى فتح خيبر (الظلال 3322 – الفتح – آيات 18-29) . فالنص يومئ إلى أن المسلمين سيفتح عليهم فتح قريب يسير ، ويشير في ذلك قطب إلى أن المفسرين قد رأوا أن الله وعد أصحاب البيعة في الحديبية أن تكون مغانم خيبر لهم لا يشاركهم فيها أحد . ولعلهم يأخذون هذا مما وقع فعلا . فقد جعلها الرسول في أصحاب الحديبية ولم يأخذ معه أحدا غيرهم .

من هذا كله نستطيع أن نقول في النهاية ، إن سيد قطب في عرضه للظروف الاجتماعية التي نزل فيها القرآن قد ركز أساسا على أسباب النزول ، في الوقت الذي احتفظ فيه برؤيته في وجود « الفعل الإلـٰهي » في كل ما يقع من أحداث التاريخ « Théocentrique » . هذه الرؤية كان يتجاوز فيها ـــ إذا اقتضت الظروف – المستندات التاريخية ، التي يعتبرها صحيحة في ظروف معينة وغير صالحة في ظروف أخرى .

إنه من الصعب جدا حقا أن يكون الإنسان ذا إيمان وعقيدة قوية ، وفي ذات الوقت يكون مؤرخا لعقيدته ولمؤسساتها الدينية .

المبحث الرابع

القرآن والتاريخ

حقيقة أن الرؤية التي تقول بوجود إرادة الله ومشيئته في أفعال البشر « Théocentrique »[1] هي القاعدة الأساسية التي يرتكز عليها قطب وكل أصحاب العقائد الدينية ، وذلك عند مطالعتهم لتاريخ الأديان ؛ فكل حادثة قد وقعت مباشرة بأمر الله ومشيئته وقدره .. إنها إحدى النقاط الخطيرة سبق أن تناولها الأشعريون .

إن خلق الإنسان يندمج في القدرة .. هذا ما جعل سيد قطب – مثل غالبية المفكرين السنة – يميل إلى فكرة إعادة الخلق في كل لحظة ، لكل كائن ، ولكل فعل ، ولكل حادثة ، في تناسق تام ؛ فالعمل والثواب هما الطرفان الأساسيان اللذان يحققان هذا التناسق والانسجام في أعمال البشر .

كيف إذن يمكن الربط بين فكرة الثواب والخلق الإلـٰهي ، وبين قضية القضاء والقدر لكل عمل ، في كل من الدنيا والآخرة ؟ ، في هذا المجال نجد أن قطبا قد داخله الشك في المناقشات اللاهوتية التي أدت إلى تسرب الفلسفة الإغريقية القديمة إلى الفكر الإسلامي .

---

(1) هذه الفكرة « Théocentrique » تعني وجود أثر « لفعل » الله ، ولإرادته ومشيئته وقدرته في أفعال البشر ، بمعنى أن الله ومشيئته يوجد في « وسط » فعل الإنسان ، فالله هو الذي يقدر ويحقق بلا واسطة وبلا سبب ، وفي نفس الوقت « ففعل الله » يتوسط أفعال البشر . ولذلك فيمكن أن نستخدم هذه الكلمة بمعنى « التوسطية » كدلالة لوجود « فعل » الله ومشيئته .

الحقيقة ، أن النص القرآني أكد على كل من فكرة القضاء والقدر ــ دون استثناء ــ وحرية الإرادة ، ومسئولية الإنسان عن أفعاله ، فكيف يمكن تفسير وتأكيد هاتين الحقيقتين ؟

من المحال أن نقول إن كل تلك الأفعال من فعل الله وحده ، حتى تلك الأفعال التي ترد من الإنسان ، فهناك الرغبة ، والمجهود ، والتصرف أو العمل ، هذا كله يقدره الإنسان ، ولكن التوفيق في العمل يرجع إلى إرادة الله وحده .

فهناك ــ كما يشير قطب ــ الجانب القدري ، وهناك الجانب الاختياري في تصرفات الإنسان ، فكل فرد هو الذي يقرر بنفسه ويتصرف بذاته ، وعندما يعزم فإنه سيشعر « أن يد الله فوق يده » ، فلا يستبعد أن يكون تدبير الله غير تدبيره .

من هنا كانت الفكرة الإسلامية الصائبة والمطمئنة لمشيئة الله المباشرة في كل شيء ، وفي كل المواقف . فعلى سبيل المثال ، فإن موت الإنسان قد حدد له أجل مسمى ، فالله قد حدّد للإنسان ميلاده كما حدد له أجله .

أما بالنسبة للشكوى من ظروف الإنسان البسيطة ، وحول توفيق أهل السوء ، ومعاناة أهل الخير ، فإن هذا قد يجعل البعض يرتد عن طاعة الله القادر على كل شيء .. إن القضية كلها لا تكون ذات معنى . فكل ما يجب على الإنسان هو الإيمان بوجود الله ، خالق الإنسان وخالق أفعاله .

لذلك فإن قطبا قد عرض في كتاب الظلال (1132 – 1186 – 1189) أساس الشقاء العقلي والأخلاقي العظيم الذي يصيب الإنسان الذي فقد طريق الهداية والعقيدة ، وثقة وطمأنينة الإنسان الذي اهتدى إلى الله وإلى الحق .

وفي نظرته لفكرة القدر ، يطرح قطب مفهوما محددا للرؤية الإسلامية المتعلقة بالتاريخ الإنساني (الظلال 217 ، 281 ، 584) ، فالقرآن هو الحقيقة الأكيدة للتحولات الجديدة في واقع التاريخ الإسلامي ، حتى في الفترات التي يحدث فيها انحراف أجيال كاملة من المسلمين .

ففيما يتعلق بالقصص القديم فإن نظرة الإسلام التاريخية تختلف عن كل النظريات التاريخية الأخرى المتبعة . فواقع الناس في النظام الإسلامي هو الواقع التاريخي « الإسلامي » ، وعلى هذا الاعتبار تقوم النظرية التاريخية الإسلامية ، وهي تختلف تماما مع سائر النظريات التاريخية الأخرى ، التي تعتبر واقع الجماعة الفعلي هو التفسير العملي للنظرية أو المذهب ، وتبحث عن « تطور » النظرية أو المذهب في هذا الواقع الفعلي للجماعة التي تعتنقه ، وفي المفهومات المتغيرة لهذه النظرية في فكر الجماعة ! ، وتطبيق هذه النظرة على الإسلام ينافي طبيعته المتفردة ، ويؤدي إلى أخطار كثيرة في تحديد المفهوم الإسلامي الحقيقي « فالتاريخ مولود حديث لم يسجل من أحداث البشرية إلا القليل » .

في هذا الإطار قدم قطب (الظلال 1881-1885 – هود – آيات 25-49) فصل « أصل العقيدة » من كتاب عباس العقاد « الله » ، كنموذج لتلك الكتابات التاريخية .

لكن نلاحظ أن قطبا لم يحاول أن يتعرض بالتفصيل لقصة « الطوفان » ، فهذه القصة نجد لها العديد من الروايات في مختلف الأديان ، فقد رأى قطب أن « ظاهر النصوص القرآنية هو الذي يمكن أن يصل بنا إلى إدراك ذلك الحادث الكوني الذي جاء خبره الوحيد من القرآن كمصدر وثيق » ، وهنا يبدو أن قطبا يحاول أن يتعرف على التاريخ الإنساني القديم والحديث من خلال قراءة وفهم النصوص القرآنية .

فقد اعتبر قطب أن القرآن هو المصدر الوحيد لما ورد من القصص التاريخي ، حيث إنه قد حفظ من التحريف والتبديل ، وحيث يمكن أن نميز فيه بين القصص الحقيقي وبين الأساطير .

في هذا المعنى يعلن أن ما يسمى « بالكتاب المقدس » – سواء في ذلك « العهد القديم » المحتوي على كتب اليهود ، أو « العهد الجديد » المحتوي على أناجيل النصارى ـــ ليس هو الذي نزل من عند الله . « فالتوراة والإنجيل تم تحريفهما وخلطت بهما حكايات كثيرة وأساطير » .

« فالقرآن يبقى المصدر الوحيد الذي لم يحرف لرواية القصص التاريخي القديم ، ومن البدهي أنه لا تجوز محاكمة القرآن إلى التاريخ » .

سلم قطب بأن النص القرآني لا يعرض الحوادث عرضا تاريخيا مسلسلا بقصد التسجيل ، إنما هو يعرضها للعبرة والتربية واستخلاص القيم الكامنة وراء الأحداث .

ويذهب قطب إلى أن القول بأن دين الله هو دائما « مفهوم البشر لدين الله » (الظلال 1760 ــ يونس ــ آيات 1 - 25) ، وأنه من ثم « متطور في أصوله » يعرض هذه القاعدة الأساسية في دين الله ــ وهي ثبات حقيقته وميزانه ــ لخطر التميع والتأرجح .. والمسافة قصيرة بين هذا القول ، والقول بأن الدين من صنع البشر ، فالنتيجة النهائية واحدة ، والمنهج بجملته يستوجب الحذر الشديد منه ومن نتائجه القريبة والبعيدة .

إذن بمقتضى فكرة « وجود إرادة الله وقدره في أفعال البشر » (Théocentrique) ، نجد أن الإسلام كان ضروريا في القرن السابع الميلادي « لكي يحمل للإنسانية القيادة الجديدة للمبشرين ممثلة في الرسالة الأخيرة » .

ولكن لماذا نزلت رسالة الإسلام في جزيرة العرب ، ولماذا في هذا الوقت بالذات ؟ يجيبنا قطب على هذا التساؤل بقوله : إن الله قد أراد لهذه الرسالة الجديدة أن تبدأ من أرض حرة لا سلطان فيها لأي إمبراطورية من الإمبراطوريات . وأن ينشأ قبل ذلك نشأة حرة لا تسيطر عليه فيها قوة خارجة على طبيعته ، وحتى لا يتعرض لما تعرضت له المسيحية من تمزق .

فكانت مكة وما حولها بالذات هي أصلح مكان على وجه الأرض لنشأة الإسلام يومئذ ، فلم تكن هناك حكومة منظمة ذات قوانين وتشريعات وجيوش وشرطة وسلطان شامل في الجزيرة تقف للعقيدة الجديدة ، ولم تكن هناك ديانة ثابتة كذلك ذات معالم واضحة ، وكان للأوضاع الاجتماعية المخلخلة قيمتها كذلك في حماية نشأة الدعوة الجديدة ، وكان النظام القبلي هو السائد ، وكان للعشيرة وزنها في هذا النظام ،

وكانت اللغة العربية قد بلغت نضجها وأصبحت صالحة لحمل هذه الدعوة والسير بها في أقطار الأرض .

إنها مجموعة من الحجج والبراهين الملائمة ، يمكن أن يستوحيها كل من يريد دراسة علم الأديان ، والتاريخ الإسلامي ، وغيرها من العلوم .

وعلى عكس ذلك كله ، نجد فكرة « الضرورة التاريخية » التي قال بها ماركس ، قد رفضها قطب رفضا قطعيا ؛ « فالنبوءات الماركسية لا يمكن تحقيقها في الواقع العملي » .

ويفضل قطب مفهوم « سنن الله » (الظلال 1091) . حيث تقوم ضرورة تاريخية لا يمكن تحريفها .

فسنة الله وتفسيرها للواقع التاريخي المعروف تبين أن هناك أممًا لها من الحضارة والتمكين في الأرض ، تغرق في الانحطاط الداخلي الذي نلمسه في العذاب النفسي والشقاء الروحي والشذوذ الجنسي والانحلال الخلقي .. وهنا يعرض قطب للولايات المتحدة و « الدول المتقدمة » مثل فرنسا والسويد كنموذج حقيقي لسنة الله التي جاء بها القرآن .

إن ذلك يعني أن الانحراف الأخلاقي في إحدى الأمم سيؤدي إلى تدمير حضارتها ، ولكن دون « ربط سببي » بين الحالتين ودون تفسير مادي للتاريخ ، هذا التفسير المادي يرى أن الأمم ستتابع تقدمها حسب ما ترسمه لنفسها من مناهج .

وعلى ذلك يتراءى لنا أن « الصحوة » المفاجئة للعرب في الربع الأخير من هذا القرن لا يمكن تفسيرها بوضوح إلا من خلال القوة « المعجزة » للدعوة الإسلامية و « المنهج القرآني » : فجزيرة العرب تشهد منذ وقت بعض التحولات الاقتصادية الهامة ، دون أن نجد في ذلك دافعا اقتصاديا واضحا ومحددا .

إذن لا يمكن فهم التاريخ إلا من خلال مفهوم « وجود إرادة الله وقدره في أفعال

البشر » ، فنجد في كتاب الظلال (2754 – الروم – آيات 1-32) أن سورة الروم قد بشرت بغلبة الروم على الفرس ، وهذا يبرهن على أن الله يدافع عن المؤمنين (من النصارى) ضد عبدة الأوثان .

عندما أشار قطب إلى النظرة الدينية للتاريخ ، فإن فكرته قد تناولت بصورة طبيعية إنسان القرن السابع الميلادي ، فكل حادث ، ولو كان بسيطا ، يكشف عن عالمية الدعوة وارتباطها بأوضاع العالم كله من حولها ، حتى وهي ناشئة في مكة محصورة بين شعابها وجبالها .

فحكاية قصة يوسف الصديق كانت تهدف ــ في ظروف مكة ــ إلى توضيح أن ما جاء به مختلف الأنبياء ما هو إلا استمرار لعقيدة واحدة ، وتقدم إلى القرشيين قصة يوسف النبي الذي تآمر إخوته ضده ، وهم يجهلون الوحدانية الإلهية ، ولترسم لنا مسرح الأحداث بأبعاده العالمية في تلك الفترة التاريخية في زمن يوسف ، وزمن محمد في مكة .

إن القرآن ــ وعلى عكس الكتب السماوية الأخرى ــ يجرد هذه الروايات من طابعها الأسطوري الذي يخدع الجماهير ببريقه ، فالقرآن له خاصية مميزة تعطيه المكانة العليا على ما دونه من أنواع الأدب ، وهذه الخاصية هي : طابع العلم الإلٰهي الذي يظلل القرآن .

وفي ذلك نلاحظ أن قطبا يفصل بين النص القرآني وبين القواعد العامة للنقد التاريخي للنص التي تمثل ضرورة هامة للنصوص المقدسة الأخرى ، « فهذه النصوص تم تحريفها وإدخال إضافات أدبية عليها من اليهود والنصارى » «الظلال 2746 » .

إن الرسل ــ مثل محمد ــ لم يأتوا برسالات من عملهم ، فقد تلقوا العلم الإلهي وعاشوا الظروف الاجتماعية التي تؤهلهم ليكونوا قادرين على حمل ما يكلفون به ، فبعضهم كانت له القوة والسلطة والملك مثل يوسف وسليمان وداود .. أما موسى فكانت له تجربة شاقة ، حيث نشأ في حياة القصور ، ثم انتقل إلى حياة الجهد الشاق

في الدعوة وتكاليفها العسيرة ، وكانت دعوته لإعادة بناء أمة ، بل لإنشائها من الأساس .

إنه استنقاذ قوم ليصبحوا شعبا مستقلا له حياة خاصة تحكمها رسالة . إن إنشاء الأمم عمل ضخم شاق وعسير ، ولذلك فإن الله قد أعطى موسى السلطان وجعل فيه سطوة على القلوب حتى يستطيع إخضاع الطغاة .

وقد عرض قطب في كتاب الظلال (1960 – مقدمة تفسير سورة يوسف) للدور الذي قام به يوسف في زمن أسرة « الرعاة » ، الذين سماهم المصريون « الهكسوس » ، وما تلا ذلك من اضطهاد الفراعنة لبني إسرائيل .

ويذكر قطب أن التوحيد الناقص المشوه الذي عرف به « إخناتون » ، لعله لم يكن إلا أثرا من الآثار المضطربة التي بقيت من التوحيد الذي نشره يوسف في مصر ، وبخاصة إذا صح ما يقال في التاريخ من أن أم إخناتون كانت آسيوية ولم تكن فرعونية !

وهكذا فإن الصراع بين عقيدة التوحيد عند بني إسرائيل ، والوثنية عند الفراعنة هو السبب الرئيسي الذي أدى إلى طرد موسى وبني إسرائيل من مصر ، حيث إن عقيدة التوحيد هي إنكار ألوهية فرعون والوثنية الفرعونية جميعا ، كما أن انتشار عقيدة التوحيد الصحيحة يحطم القاعدة التي يقوم عليها ملك الفراعين .

وحتى يستمر قطب في ظلال القرآن فإنه يعرض لقصة موسى مع « العبد الصالح » كما وردت فقط في النصوص القرآنية ، حيث إن مختلف الروايات لم تفسر كثيرا بعض النقاط التي وردت في هذه القصة ، (الظلال 2279 – الكهف – آيات 60 ـــ 82 ، 2681 ـــ القصص الآيات 1-43) .

استنبط قطب من النص القرآني أن « طبيعة موسى طبيعة انفعالية واندفاعية ، كما يظهر من تصرفاته في كل أدوار حياته منذ أن وكز الرجل المصري الذي رآه يقتتل مع الإسرائيلي فقتله في اندفاعة من اندفاعاته ، ثم أناب إلى ربه مستغفرا معتذرا » .

إن تصرف موسى يندرج تحت فكرة « العصبية للقوم » ، وهذا شعور غير إسلامي فلا تعصب لقبيلة أو لقوم .

اهتم قطب أيضا بالنصوص القرآنية التي وردت عن سليمان وداود (الظلال 2461 ، 2890 – 2900 ، 2391 ، 3020) ، ولكنه يشير إلى أنه ليس من الضروري أن نحاول البحث عن تفسير لتسخير كل من الجن والريح لسليمان ، ولكن لابأس من التعرض بالتفصيل لحضارة سبأ في اليمن وحتى سقوط سد مأرب .

بالنسبة لما أوتيه سليمان من « علم الكتاب » ، يتساءل قطب لماذا يرى بعض المفسرين أن هذا الكتاب هو التوراة ، أو أنه يتعلق بأحد أسماء الله المقدسة ؟ ولكن — كما يقول قطب — هذا الكتاب هو « كتاب الكون » .

وعلى كل الأحوال فإن كلا من سليمان وداود قد اتجه إلى التفكير وإلى بناء حضارة ، حيث أساس الحكم فيها هو العدل .

ولكن لماذا التصور بأن إدريس وهو عربي — وهو ليس من أنبياء بني إسرائيل وكان سابقا على إبراهيم — يمكن أن يكون هو « أوزوريس » في اللغة المصرية القديمة ؟ ولماذا التصور بأن ذا القرنين هو ذاته الإسكندر الأكبر (حيث ذكر القرآن عنه أنه كان مؤمنا بالله وموحدا) . وقد ذكر البيروني أنه من حمير وأنه رحل بجيوشه إلى شمال إفريقيا ؟

رأى قطب أن هذه الروايات كلها لم تتأكد وأن كل ما ورد عنها من روايات وأساطير جاء نتيجة التحريف الذي قام به اليهود .

من ناحية أخرى أكد قطب في الظلال – من خلال ما ورد في القرآن من نصوص – على الدور الذي قام به إسماعيل ، ولد إبراهيم وأب العرب ، في نقل عقيدة التوحيد إلى العرب الأوائل .

كما عرض للظاهرة الشاذة الغريبة في تاريخ الجماعات البشرية ، وهي فاحشة الشذوذ الجنسي عند الرجال من قوم لوط (الظلال 2647 – النمل – الآيات 54 - 58) ، فيرى قطب أنه قد يشذ أفراد لأسباب مرضية نفسية أو ملابسات وقتية

فيميل الذكور لإتيان الذكور ، حيث لا توجد النساء في بعض الظروف .. أما الشذوذ في قوم لوط حيث كان هو القاعدة في بلد بأسره ، « فهو حادث غريب حقا في تاريخ الجماعات البشرية » .

يشير قطب أيضا إلى الحادث غير العادي والمعجز لحمل امرأة زكريا التي كانت عاقرا ، ومعجزة ولادة المسيح ، حيث إنها تعتبر عجيبة كبرى في عرف الناس شأنا عاديا لمشيئة الله المطلقة ، وحيث تعتبر خرقا لقاعدة مألوفة للناس ، حتى شاء الله أن يخرق هذه القاعدة المختارة في فرد من بني البشر (الظلال 397 — آل عمران ، الآيات 33 - 61) .

ويقرر قطب أن كل البحوث التي جرت لتفسير هذه المعجزات لا طائل وراءها إلا الشبهات ، وخلاصتها أن الله شاء أن ينشئ حياة على غير مثال ، فأنشأها وفق إرادته المطلقة التي تنشئ الحياة بنفخة من روحه .

المبحث الخامس

القرآن والعلوم الحديثة
قضايا منهجية

يرى قطب في هذا الموضوع أن القرآن يربط بين الحادث المفرد والحقيقة الكلية في مجال حي من الواقع ، ولا ينعزل بالحقائق المجردة في الذهن ، فالحقائق المجردة الباردة لا تؤثر في المشاعر ، ولا تستجيش القلوب للاستجابة ، وهذا فرق بين منهج القرآن في خطاب القلوب ومنهج الفلسفة والدارسين والباحثين .

ويفسر ذلك بقوله : إن النص القرآني يعمل أساسا في مجال التربية للجماعة الإسلامية ، فيكشف لها عن البواعث الفطرية الخفية التي من عندها يبدأ الانحراف ، ومن ثم يعرض النص القرآني الذي يتولى هذا التوجيه التربوي لرغائب الإنسان ودوافعه .

فالإسلام يمتاز هنا بمراعاته للفطرة البشرية وقبولها بواقعها ، ومحاولة تهذيبها ورفعها ، لا كبتها وقمعها ، والذين يتحدثون في هذه الأيام عن « الكبت » وأضراره ، وعن « العقد النفسية » التي ينشئها الكبت والقمع ، يقررون أن السبب الرئيسي للعقد هو « الكبت » وليس هو الضبط ، فحتى إذا سلمنا جدلا بصحة هذه النظريات النفسية فإننا نرى أن الإسلام قد ضمن سلامة الكائن الإنساني من هذا الصراع بين شطري النفس البشرية ، بين نوازع الشهوة واللذة ، وأشواق الارتفاع والتسامي ، وحقق لهذه وتلك نشاطها المستمر في حدود التوسط والاعتدال .

من هنا كانت أهمية التأثير الشعوري والفعلي للنص .. إنه يمس الوجدان .. إن الإنسان يستشعره بعمق بما يعرضه له من روايات وتصورات ، ومن استجابة لفطرة الإنسان ورغباته ، فيعترف الإسلام بهذه الفطرة ويلبيها في الحدود المأمونة .

ولقد روى قطب تجربته الشعورية الخاصة (الظلال 3420 — سورة النجم) ، حين كان بين رفقة يسمرون ، حينما طرق أسماعهم صوت قارئ للقرآن من قريب ، يتلو سورة النجم ، وشيئا فشيئا عاش قطب معه فيما يتلوه ، عاش مع قلب محمد في رحلته إلى الملإ الأعلى .. وعندما سمع « فاسجدوا لله واعبدوا » كانت الرجفة قد سرت من قلبه حقا إلى أوصاله ، وأدرك في هذه اللحظة ، أن كل من كان في لحظة نزول هذه الآية ، بما فيهم الكفار ، قد سجدوا ، « وتنصب كل هذه القوة الكامنة في السورة من خلال صوت محمد في أعصاب السامعين ، فيرتجفون ، ويسجد محمد والمسلمون ، فيسجدون » .

ومن هنا تأتي أهمية الإيمان بهذا الدرس الذي كله لمسات وجدانية متتابعة تنتهي كلها إلى هدف واحد : مواجهة الفطرة البشرية بدلائل توحيد الله وصدق الرسل واليقين باليوم الآخر والعدل فيه .

عند الحديث عن الإسلام والحقائق العلمية ، نجد أن منهج القرآن لم يلجأ إلى الأسلوب الجدلي ، كما هو الحال عند الفلاسفة وعلماء الكهنوت . إنما هو منهج يخاطب الفطرة البشرية بآيات الله الكونية ، فيقدم وجود هذا الكون ثم حركته المنتظمة المتسقة ، وتلك هي أقوى الأدلة المقنعة للقلب والعقل معا ، وكل الذين يمارون في هذه الحقيقة لا يقدمون دليلا معقولا . وكل ما يقدمونه هو محاولة للهروب من الله في أوروبا ، لأن الهروب من الكنيسة اقتضاهم هنالك الهروب من الله ! ثم أصبح يقال هنا وهناك لأنه الوسيلة للتخلص من مقتضى الاعتراف بألوهية الله .

يضيف قطب على ذلك أنه من العجيب أن في البلاد التي تسمى « إسلامية » يروج بكل وسيلة ، ظاهرة أو خفية ، لهذا الهروب الفاضح باسم « العلم » و « العلمية » ! فيقال إن « الغيبية » لا مكان لها في الأنظمة العلمية . ومن الغيب كل ما يتعلق بالألوهية !

« إن هذا القرآن لا يكشف عن أسراره إلاّ للذين يخوضون به المعركة ويجاهدون به جهادا كبيرا » (الظلال 1894) .. فالقرآن حسب طبيعته لا يفصل كثيرا في ماهية الظواهر الكونية وعللها . إنما يتخذ منها أداة لوصل القلب البشري بالوجود وخالق الوجود .

ويعرض قطب بعض الأدلة والبراهين على وجود الله مستعينا بما كتبه العلماء الغربيون الذين لديهم « عقيدة الإيمان » (الظلال 1117,1044) . فالله هو خالق خلقه ومالكهم ، وهو كذلك يرزقهم ، وعالم الغيب لابد له من عالم الشواهد ، فالتجربة تؤدي حتما إلى مجال يتجاوز تجارب العلم الإنساني .. إن الشواهد العلمية والبراهين والأسانيد الإلـٰهية هي حقائق مؤكدة .. إن الجحود والكفران لا نراهما إلا في فئة قليلة من الناس ، لأن الإنسان يتجه إلى الله ، وإلى الإيمان بالله بفطرته .

فالإسلام بنظرته الواقعية إلى الإنسان يعمل على إعلاء قيمة الفضيلة وتكبير قيم الإيمان . فهذه القيم هي التي يقوم عليها عهد استخلافه .. إنه عهد الفطرة المركوز في طبيعة كل حي ، أن يعرف خالقه ويتجه إليه بالعبادة ، كل ذلك دون أن تكون هناك خطيئة مفروضة على الإنسان ، فخطيئة الإنسان هي خطيئة شخصية .

إن الإنسان هو خليفة الله في الأرض ، فمن يجعل الناس خلفاء الأرض ؟ أليس هو الله الذي استخلف جنسهم في الأرض أولا ، ثم جعلهم قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل يخلف بعضهم بعضا في مملكة الأرض التي جعلهم فيها خلفاء .

فالإسلام يعمل إذن على تحقيق الرابطة بين فطرة الإنسان وبين عهد استخلافه على الأرض .

إن القاعدة التي يقوم عليها بناء العقيدة هي وجود الله ووحدانيته ، والإسلام يشير إلى هذه العقيدة دون تعقيدات . إن أسماء الله وصفاته تكمن في وحدانيته ، فله الوحدانية المطلقة ، وملكيته المطلقة لكل شيء ، وعلمه المحيط بكل شيء ، وهيمنته الكاملة على كل شيء ، وقدرته الكاملة وحفظه لكل شيء ، لاشفاعة عنده إلا بإذنه ، ولا علم إلا ما يهبه ويقدره .

هذه الوحدانية قد أكدتها الأدلة الكونية الشاهدة بالوحدة ، والأدلة النقلية النافية للتعدد ، والأدلة الوجدانية التي تلمس القلوب .

إذن ، الله واحد لا شريك له ، والقرآن هو كتاب الله المنزّل على محمد .

يقدم قطب ثلاثة أخطاء منهجية تتعلق بالحقائق العلمية ، يجب تجنبها عند قراءة القرآن (الظلال 182 – البقرة – آيات 189-203) .

الأول : تخيل البعض أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع . ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم أو الاستدلال له من العلم . على حين أن القرآن نهائي في حقائقه ، وكل ما يصل إليه العلم غير نهائي ولا مطلق .

الثاني : سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته . حيث إن البعض يحاول أن يبحث في القرآن عن أدلة أو معلومات علمية مادية كالتي يقدمها علم الإنسان .

الثالث : التأويل المستمر ـــ مع التمحل والتكلف ـــ لنصوص القرآن ، كي نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر وكل يوم يجد فيها جديد .

ولكن قطبًا يسلِّم مع ذلك بأن هذا الكلام لا يعني ألا ننتفع بما يكشفه العلم من نظريات وحقائق ، وألاّ نوسّع بما يكشفه مدى المدلولات القرآنية في تصورنا .

ولكن في الوقت نفسه لا نستطيع أن نقارن أو أن نربط بين الحقيقة القرآنية والاكتشافات العلمية ؛ فالحقائق العلمية الحديثة تدخل في إطار الفروض والنظريات التي تسمى « علمية » ..ومن هذه النظريات والفروض كل النظريات الفلكية ، وكل النظريات الخاصة بنشأة الإنسان وأطواره ، وكل النظريات الخاصة بنفس الإنسان وسلوكه ، وكل النظريات الخاصة بنشأة المجتمعات وأطوارها .. فالقرآن لا يدخل في إطار هذه النظريات والفروض .

وقد سَعِدَ قطب بالإشارة إلى عدد من العلماء الغربيين الذين يؤكدون أن العلم

الإنساني ليست له طبيعة « العلم الإلهي » أو « الوحي الإلهي » . أمثال أليكس كاريل ، جوليان هاكسلي ، وفرانك آلن ، ج .ب . سيتز . وآخرين [1] (الظلال 2572 ، 2934 ، 3093 ، 3111 ، 3149 ...) .

ويستدرك قطب (الظلال 439) أنه يمكن الاقتباس من نتائج العلوم البحتة والتجريبية والتطبيقية ، ولكن يجب أن نكون متشددين في أمر التلقي في شأن المسائل المتعلقة بالتصور الاعتقادي وتفسير الوجود الإنساني .

إن منهج الإسلام هو الذي يوجه العقل للمعرفة والانتفاع بكل إبداع مادي في نطاق منهجيته للحياة . فعلى سبيل المثال – كما يقول قطب – يجب ألا نجري بالقرآن وراء نظرية فلكية . ولا نطلب تصديقا للقرآن في نظريات البشر .. لذلك لا نحاول أن نوفق بين النصوص القرآنية والنظريات التي تسمى علمية ، وهي شيء آخر غير الحقائق العلمية الثابتة القابلة للتجربة كتمدد المعادن بالحرارة وتحول الماء بخارا أو تجمده بالبرودة .

إن القرآن ليس كتاب نظريات علمية ولم يجئ ليكون علما تجريبيا كذلك .. فقد يشير القرآن أحيانا إلى حقائق كونية (كالفتق أو انشقاق السماوات والأرض) ، لكننا لا نعرف كيف كان ذلك ، ومتى يحدث ذلك . فكل حركة كونية أشار لها القرآن يمكن أن تدخل في إطار النظرية العامة للكون ولكن لا يجب أن نطلب له تفسيرا وتأكيدا عن طريق العلم البشري .

إننا نتقبل النظريات الفلكية التي لا تخالف الحقائق المجملة التي قررها القرآن ، « فهذه النظريات قابلة للتعديل ، فنحن لا نحمل القرآن عليها ، إنما نجد أنها قد تكون صحيحة إذا رأينا بينها وبين النص القرآني تقاربا ، ووجدنا أنها تصلح تفسيرا للنص القرآني بغير تمحل . فنأخذ من هذا أن هذه النظرية أو تلك أقرب إلى الصحة لأنها أقرب إلى مدلول النص القرآني » (الظلال 3111) .

---

(1) أشار قطب أيضا إلى شارل أرنست ، ا . ك . موريسون وكتابه « العلم يدعو إلى الإيمان » ، كتاب ج . هـ . دينزون « العاطفة أساس الحضارة » . وسرد قطب مقتطفات من كتاب أحمد زكي « مع الله في السماء » حول تكوين الأرض . وكتاب العقاد « عقائد المفكرين في القرن العشرين » .

نأتي الآن إلى إحدى الأفكار الهامة للغاية في كتاب الظلال وهي التوافق بين القرآن والقوانين الطبيعية ، حيث ترتبط وتتوحد عقيدة التوحيد والعلم ، وحيث لا تكتشف حقائق الكون والطبيعة ويسخرها الإنسان لفائدته بالقوة والتسلط (كما ترى أسطورة بروميثيوس الإغريقية) ، وإنما يجري كل ذلك وفق إرادة الله المطلقة التي تختار الناموس الذي أودعه ذلك الكون .. إنه تناسق مستمر في طبيعة خلق الكون الذي يتجدد باستمرار .

وكنتيجة طبيعية لفكرة التناسق بين الإيمان وبين العلم ، فإن كتاب الظلال قد أشار إلى نظرية داروين وبصفة خاصة إلى النظرة الجديدة لهذه النظرية التي قدمها « جوليان هكسلي » . على أساس أن هذه النظرية تشرح عملية النشوء والارتقاء ، ولا تذكر تفصيلات هذه النشأة وأسبابها (الظلال 1262-1270 – الأعراف الآيات 10-25 ؛ 2142 – الحجر الآيات 26-48) .

ويبدي قطب تحفظه على الروح العلمية الحديثة التي تبتعد عن روح الإيمان وعن صفاء العقيدة ، حيث يذكر « أن العلم – بغير إيمان – فتنة » . فالعمل البشري هو الذي يحكم ويعلن سيادته في ميدان البحث العلمي في الكون والإبداع المادي فيه . إنه قد اكتشف بما توفر له من الدقة العلمية بعض الظواهر الكونية التي أشار إليها القرآن مثل الضغط الجوي ، وحركة دوران الأرض حول نفسها ، وحركة دوران الأرض حول الشمس ، وعن حاستي السمع والبصر في الإنسان .... إلخ .

وفي إشارة إلى النصوص القرآنية التي تعطي بعض الدروس التي يمكن الاستفادة منها لتجنب الكوارث التي قد يسببها العلم دون تحكيم الوعي والضمير ، يعرض قطب لما انتهت إليه البشرية اليوم ، إلى مرحلة جديدة من مراحل العلم بتحطيم الذرة واستخداماتها وما أحدثه تفجير القنبلة الذرية في هيروشيما ونجازاكي في اليابان ، إضافة إلى ما يسببه ذلك من الخوف والقلق والخطر الذي أصبح يحدق بالجنس البشري (الظلال 692 ، 3223 ، 3637 ، 3645 ، 2633) .

لقد أراد قطب بمنهجيته في استخدام لغتين متميزتين فيما يتعلق بالظواهر الكونية

والتي ظهرت متناسقة ، أن يتجنب المحاولات التي تبذل في القرن العشرين لتفسير القرآن على أساس تطابقه مع الاكتشافات العلمية .

وعلى ذلك فإنه عند تناوله للحقائق العلمية ، رفض قطب المناهج اللغوية التي لا تحمل في مضمونها أية حقائق حول الكون « حيث إن هذه المناهج لها طريق غير طريق القرآن ومجال غير مجال القرآن » . ولم يحاول أن يذهب إلى الحد الذي نميز فيه بين هذين الأسلوبين في التطور وفي اللغة .

مرة أخرى بالنسبة للحقائق العلمية ، كما سبق في عرضه لموضوع القرآن والتاريخ ، نجد أن قطبا عندما رفض وجود نظريات علمية في النصوص القرآنية ، قد قال في ذات الوقت بصدق النص القرآني الذي نهتدي إليه بصدق العقيدة وليس عن طريق التجارب العلمية . حيث يذكر في ذلك أن ما جاء في التنزيل هو العلم المستيقن ، وأن القرآن وحده هو الذي يستطيع أن يقدم المعرفة لبعض الحقائق العلمية مثل حقيقة الروح « هذه الحقيقة لا يستطيع أن يدركها أو يبلغها العقل البشري ، فالروح هي من أمر الله ، اختص بعلمها دون سواه » .

وهنا يتعجب قطب (الظلال 3731– سورة الجن) من كل المحاولات التي تبذل لتقديم تفسيرات علمية بشأن الروح . ويتساءل : كيف يستطيع الإنسان بعلمه أن يرتاد آفاق المجهول ويحاول أن يتعرف على نص يكشف له بعض الحقائق الغيبية ؟

ويضيف أنه من المضحك أيضا المحاولات التي تبحث في النصوص والأحكام الإسلامية ومعها حكمة محددة مستقاة مما عرفه البشر من واقعهم أو مما كشف عنه « العلم الحديث » . وذلك نجده فيما ذكر عن أن حكمة الوضوء قبل الصلاة هي النظافة ، وعن أن حكمة الصلاة على أنها تارة حركات رياضية تشغل الجسم كله وتارة بأنها تعويد على النظام : أولا في مواقيتها ، وثانيا في حركاتها ، وثالثا في نظام الصفوف والإمامة .... إلخ .

إذن ذلك كله من الخطورة بحيث إذا رحنا « نحدد » حكمة كل عبادة ، وحكمة كل حكم ونعلله تعليلا وفق « العقل البشري » أو وفق « العلم الحديث » ثم نجزم

بأن هذا هو المقصود ، فإننا نبعد كثيرا عن المنهج السليم في مواجهة نصوص الله وأحكامه ، كما نبعد كذلك عن الحد المأمون ونفتح الباب دائما للمماحكات التي قد تؤدي على سبيل المثال إلى إباحة لحوم الخنزير وغيرها .

لقد أراد قطب من ذلك أن يحفظ هذه الأحكام مما قد يشوبها من مداخلات العلم الحديث ، وحتى يظل لها طابعها الديني العقائدي . إننا نعتقد بأن قطبًا كان على صواب في عرضه لهذا الرأي .

ولنحاول الآن أن نستبين نقطتين هامتين في استكشافنا لموقف القرآن من العلوم الحديثة ، والنقطتان هما : أصل الكون وخلق الإنسان ، وهذا مجال توسع العلم فيه كثيرا ، والثانية أعمال المعجزات وعالم الغيب وهي مجال خاص بالقرآن .

فيما يتعلق بخلق الكون ، نجد أن قطبا قد استبعد كل الجوانب الفاسدة لتصورات المفسرين والمتكلمين التي تتناول موضوعات الاستواء والتسوية والسماوات السبع .... إلخ (الظلال 53 - 106) وفي ذلك يؤكد أن الجدل الذي ثار بين علماء المسلمين حول هذه التعبيرات ما هو إلا آفة من آفات الفلسفة الإغريقية والمباحث اللاهوتية عند اليهود والنصارى عند مخالطتها للعقلية العربية .

ويركز في ذلك أيضا على أن مدلول القرآن للخلق ليس للدلالة العلمية ولكنه ذو دلالة تربوية . إنها قاطعة في أن الله قد خلق هذا الإنسان لأمر عظيم . خلقه ليكون مستخلفا في الأرض ، فالإسلام قد قدم أفضل تصور لخلق الإنسان دون اللجوء إلى التفسيرات والتصورات الإغريقية أو ما قد يقدمه التصور العلمي الحديث . لقد صدر الكون عن خالقه عن طريق توحد الإرادة المطلقة القادرة لخلق هذا الكائن على الصورة المقدرة له بدون وسيط من قوة أو مادة .

وذهب قطب بعد ذلك إلى تفسير حقيقة « الأيام الستة » لخلق الكون (الظلال 3110 ، 2807) فيقول : إنها بلا شك أيام من « أيام الله » وليست هي قطعا من أيام هذه الأرض التي نعرفها . فأيام هذه الأرض هي مقياس زمني مستحدث بعد ميلاد الأرض . وأقرب ما نستطيع تصوره وفق ما وصل إليه علمنا البشري أنها هي

الأزمان التي مرت بها الأرض طورا بعد طور حتى استقرت وصلبت قشرتها وأصبحت صالحة للحياة التي نعلمها . إن التقديرات التي تقدمها النظريات عن الأطوار التي مرت بها الأرض قد تقترب من بعضها البعض ، ولكن في دراسة القرآن لا نلجأ إليها على أنها حقائق نهائية . وإن هي إلا نظريات قابلة للتعديل . فنحن لا نحمل القرآن عليها . إنما نجد أنها قد تكون صحيحة إذا رأينا بينها وبين النص القرآني تقاربا . إنها تفيد فقط في مجال العلم . ولا تفيد في تفسير القرآن .

أما فيما يتعلق « باستواء العرش » ، فإن ذلك رمز لاستعلائه على الخلق كله . وهنا لا يوجد مجال للحقائق العلمية . ولا سبيل إلى قول شيء عنه على الطريقة الصوفية أو على طريقة من يتحدثون بالفلسفة الأفلاطونية . وإن كل مدارس الفكر والإلحاد ترفض هذه الأفكار عن خلق العالم والتي ترى أن الكون إنما يسير وفق نظم أبدية . إن هذه المدارس الكافرة لا تستند إلى أي أساس علمي حقيقي . إنها لم تعبر إلا عن عجزها لتقبل حقيقة الإيمان وحقيقة الخلق كاملة .

أما عن بدء نشأة الخلية الحية الأولى في هذه الأرض وأنها نشأت من الطين ، فقد بيّن قطب (الظلال 2809 ؛ 183) أن الطين كان المرحلة السابقة لنفخ الحياة فيها بأمر الله . وهذا هو السر الذي لم يصل إليه أحد . لا ما هو . ولا كيف كان . ولا يذكر القرآن كيف تم هذا .

فهل كانت الخلية الأولى للخلق واحدة فقط أو كانت مجموعة ؟ أو بمعنى آخر ما هو نوع السلالة الأولى للإنسان التي خلقها الله ؟ إنه سر إلـٰهي لم يوح به إلى أحد .

إن نظرية دارون ما هي إلا افتراض وإنها ليست نهائية . فقد دخل عليها من التعديل في أقل من قرن من الزمان ما يكاد يغيرها نهائيا . وهي دائما معرضة للنقض والبطلان . بينما الحقيقة القرآنية نهائية . ويتعجب قطب من محاولة البعض للتوفيق بين القرآن وبين ماورد في نظرية دارون التي أثارت دهشة العالم عند ظهورها .

والآن نعرض للنقطة الثانية التي تتعلق بعالم الغيبيات[1] . هذه الغيبيات هي : الجنة ، النار ، الجن ، الشياطين ، الجنة الأرضية . وأمثال ذلك في القرآن غيبيات من الغيب « الذي استأثر الله بعلمه ، وعلم بحكمته أن لا جدوى للبشرية في معرفة كنهه وطبيعته ، وأن العقل البشري لم يوهب الوسيلة للاطلاع على هذا الغيب المحجوب . فليس سبيله إذن أن يتبجح فينكر . فالإنكار حكم يحتاج إلى المعرفة . وعلى ذلك ليس من المتصور أن يزعم البعض أن هناك سيطرة لأحد ما على هذه الغيبيات التي لا نعلم شيئا عنها » .

عند تناوله لموضوع الحياة الأخرى ، يقول : إنها ذات هدفين : أحدهما أنها ضرورية في أن تجعل الإنسان يحس بإنسانيته ، وضرورية لأن يتحلى العلم أيضا بالإنسانية . والثاني : أننا في الحياة الأخرى سنتعرف على الأشياء الغيبية التي لم يكن في استطاعتنا التعرف عليها .

ففي كثير من المناسبات تحدث القرآن عما يوجد في الجنة والنار ، كما تحدث عن طبيعة الملائكة والشياطين وكذلك عن الجن كمخلوقات خلقت من النار وليس لها علاقة بعالم الماديات . إنها ذات قوى خارقة . لا يمكن رؤيتها ولكنها تعيش بين الناس . ويوجد من بينهم المؤمنون ويوجد الضالون ، ومن يتمرد من هذا الجن يسمي شيطانا .

وقد تساءل قطب في تفسيره لسورة الأنعام هل أرسل الله إلى الجن رسلا منهم كما أرسل إلى الإنس ؟

إن من الغيب أيضا أننا لا ندرك كيف يتلقى الملائكة والأنبياء من الله . ولا نعرف كيف تكلم الله مع موسى على جبل سيناء . ولا كيف هبط روح الله على رسل شاول . فلا حاجة بنا إلى الخوض في شيء من هذا . ولا طائل من وراء الخوض في ذلك عن طريق تحضير الأرواح كما يرى العقاد .

---

(1) في ذلك الموضوع يمكن الرجوع إلى كتاب الظلال الصفحات : 59 ، 3632 ، 3027 ، 2313 ، 1096 ، 3407 ، 2201 ، 1261 ، 1263

كيف تلقى الأنبياء كلمات ربهم ؟ هل عن طريق أصوات مسموعة ، أو عن طريق روح القدس ؟ هل بفضل التكوين الداخلي الذي اختص الله به الأنبياء ، أو أن الأنبياء يستمعون إلى كلام الله بطريقة أخرى لا يعلمها البشر ؟ إننا لا ندرك شيئا من ذلك .

ومن الغيبيات أيضا رحلة الإسراء والمعراج التي صعد فيها محمد إلى السماء . وفي ذلك أيضا يرى قطب أنه لا طائل من إضاعة الوقت في محاولة البحث عن طبيعة الرحلة ، وهل تم المعراج بالروح أو بالجسد ، وشرح قطب كيف أن هذه الرحلة لم تستخدم كمعجزة لإقناع قريش بتصديق الدعوة . وإنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الأخير لمقدسات الرسل قبله واشتمال رسالته على هذه المقدسات وارتباط رسالته بهم جميعا . وقد استند قطب في كتابته عن هذا الموضوع على الراجح من مجموعة الروايات التي تؤكد حدوث الواقعة .

يرى قطب أيضا أنه لا فائدة من إضاعة الوقت إذا دخلنا في طبيعة الوزن وحقيقة الميزان في اليوم الآخر ، كما دخل فيه المتجادلون بعقلية غير إسلامية في تاريخ الفكر الإسلامي . وبالرجوع إلى الآية التاسعة من سورة الأعراف فإن حسبنا تقرير الحقيقة التي يقصد إليها سياق الآية من أن الحساب يؤمئذ بالحق . وإنه لا يظلم أحد مثقال ذرة ، وأن عملا لا يبخس ولا يغفل ولا يضيع .

في هذا الإطار نجد أن قطبًا مثلما وضح في موضوع عرش الرحمن – قد حاول الابتعاد عن خلع الصفات البشرية على الله وتشبيهه بالإنسان وأن يكون ذلك قصد الآيات التي وردت في ذلك . وقد رفض قطب كذلك هذا التصور في موضوع الظواهر الكونية والوقائع التاريخية القديمة وأعمال الخوارق والمعجزات والغيبيات والتكاليف الشرعية . فهو لا يحب أن يذهب في تيه التأويلات لبعض القصص المحدد في القرآن التي ترد على مغزى أنها عبرة وعظة نصل إليه بالإيحاء . فمثلا المراد في

الآية 243 [1] من سورة البقرة تصحيح التصور عن الموت والحياة وأسبابهما الظاهرة والبعث والفزع .... إلخ .

إن كل منهج في تصور المعجزات الإلهية غير منهج الإحالة إلى القدرة المطلقة هو منهج فاسد من أساسه . لأن أعمال الله غير خاضعة لمقاييس البشر وعلمهم القليل المحدود . إن العقل البشري هو أداة قاصرة بذاتها عن الوصول إلى الهدى ـــ بغير توجيه من الرسالة من عون وضبط ـــ وقاصرة كذلك عن رسم منهج للحياة الإنسانية . إن دور هذا العقل أن يتلقى عن الرسول . وليس دور العقل أن يكون حاكما على الدين ومقرراته من حيث الصحة والبطلان والقبول أو الرفض – بعد أن يتأكد من صحة صدورها من الله ، وبعد أن يفهم المقصود بها ، ولو كان له أن يقبلها أو يرفضها – بعد إدراك مدلولها لأنه هو لا يوافق على هذا المدلول . فهو إذن ملزم بقبول مقررات الدين متى بلغت إليه عن طريق صحيح ومتى فهم عقله ما المقصود بها وما المراد منها سواء كان مدلولها مألوفًا له أو غريبا عليه .

إذن الرسالة تخاطب العقل بمعنى أنها توقظه وتوجهه وتقيم له منهج النظر الصحيح في مقررات الدين وفي شئون الحياة كلها .

كذلك نجد أن قطبًا لا ينكر مبدئيا الفكر الإسلامي السابق – ولكن كما رأينا مرارا ـــ أنه كان حذرا بطبعه دائما . إنه لم يقبل المتجادلين وعلم الكلام . إنه يفضل في الغالب العلماء المعاصرين الذين يعتمدون في آرائهم على إيمانهم العميق ولا يرجحون العقل على الإيمان .

إننا نرى بعض تلاميذ قطب (الذين يسمون أنفسهم القطبيين) ينحون نفس الاتجاه ولكن عن جهالة وقلة معرفة [2] .

---

(1) ﴿ **ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم** ... ﴾ .

(2) محاضر محاكمة جماعة التكفير والهجرة ص 1523 ، 1528 . وكتاب محمد عبد السلام فرج « الفريضة الغائبة » .

نتائج الفصل الأول

بصفة عامة ، يمكن القول إن موقف سيد قطب من الاستشراق يتشابه إلى حد كبير مع موقف محمد رشيد رضا في تفسير المنار . ولكن يجب أن نشير إلى أن قطبًا كان حازما وقاطعا في موقفه .

انتقد قطب المفكرين المسلمين الذين ساروا على نهج الاستشراق وبصفة خاصة محمد عبده ورشيد رضا صاحبا تفسير المنار . حيث هاجم « الفكر المتحرر » لمدرسة عبده ومحاولتها تناول القرآن بعقلانية مبالغ فيها .

إننا ندرك إلى أي مدى كانت هذه المدرسة تعتمد أكثر على العقل ولكن بطريقة محدودة . بمعنى أن هذه « العقلانية » كانت في خدمة العقيدة ولم تكن متجاهلة لحقائق العقيدة والإيمان .

إن « عقلانية » محمد عبده كانت أساسا في مجال النقل ، مع حرصه على عدم إحلال النقل محل الاتجاه العقلي [1] . وقد أشرنا سابقا إلى أن قطبًا كان يفضل دائما الاعتماد على عقيدة الإيمان بالدرجة الأولى ليكون قبل « العقل » . ورغم ذلك لا يخفى علينا كيف كان محمد عبده دائما في موقف المدافع القوي عن العقيدة وعن الإسلام .

ولم يتردد قطب إطلاقا في أن يقرر حقيقتي : العقل والعلم من جهة ، والوحي الإلهي من جهة أخرى . هاتان الحقيقتان تجنبهما محمد عبده ورشيد رضا إلى أقصى قدر [2] .

---

(1) جوميير : المرجع السابق ، ص 68 ، 73 ، 81-82 .
(2) نفس المرجع ص 83 ، 86 .

كان كتاب الظلال أكثر تحفظا عند تناول موضوع التطابق بين القرآن والعلوم الحديثة : فقد تجنب ذلك مفضلا الارتكاز الدائم على الإيمان . وهذا لم يعمل به محمد عبده إلا نادرا .

فعلى العكس من عبده ورشيد رضا في تفسير المنار فإن قطبًا قد ركز على الجانب غير العقلي في القرآن . هذا الجانب يمكن أن يكون له تأثير قوي ووجود محسوس في النصوص القرآنية .

إننا نستطيع أن نذكر أنه إذا كان محمد عبده ورشيد رضا قد ركزا على السمة الطبيعية والبسيطة والعقلانية في الإسلام ، فإن قطبًا قد ركز إراديا على إبراز المضامين الإسلامية القوية والمتميزة ، مثل التكاليف الشرعية الإسلامية ، وقصص المعجزات ، والغزوات الحربية ، والوحي الذي أنزله الله على الأنبياء .

وخلافا عن سابقيه صاحبي المنار فإنه قد امتنع عن أن يشرح بالتفصيل بعض الأفعال النبوية . فقد أعلن أنه ليس من الضروري البحث عن كيفية نزول الوحي على الرسول وذلك لما تتميز به شخصية النبي من طبيعة استثنائية تميزه عن غيره من البشر .

في المقابل نجد أن كلاً من كتاب الظلال وتفسير المنار قد تشككا في التقاليد المتحررة (البدع) التي يستند أصحابها على النصوص القرآنية[1] . وفي نفس الوقت فإنهما لم يلجآ عند نقدهما للتاريخ لبعض الحقائق إلى الوثائق التاريخية واكتفيا بما ورد في القرآن والسنة من روايات – وربما كان ذلك في نظرنا خطأ تاريخيا ــ .

كانت لقطب رؤية أدبية تتعلق بالبيئة الاجتماعية العربية في القرن السابع الميلادي . وذلك عند تناوله أسباب النزول لكل نص قرآني . وهذه خطوة منهجية هامة ، بالرغم من رفضه التام لتناول القرآن على أنه وثيقة تاريخية عادية ، اللهم إلا إذا كان على سبيل الافتراض فقط .

---

(1) جومبير . المرجع السابق : ص 112 ــ 114 .

وعلى ذلك فإن كتاب الظلال يتميز عن تفسير المنار عند مقارنتنا لأفكاره بالأفكار الكاثوليكية التي ظهرت في بداية القرن العشرين ، والتي وقفت معارضة لحركة الإصلاح والتحديث في الفكر المسيحي .

وعليه فإن كل محاولات التحديث ــ كما يحاول أن يقدمه محمد أركون (البروفيسور بجامعة السوربون) على سبيل المثال ــ تكون عرضة للسخط والاستنكار . على أساس أنها محاولات لمسلمين يعملون ضد الإسلام[1] بالرغم من ادعاءاتهم بأنهم علماء مسلمون . فهؤلاء يتهمون بأنهم لهم أرباب أخرى من دون الله وأنهم أتباع أعداء الإسلام الذين يتربصون بالدين ويقفون بالمرصاد لأقل غموض في أحد النصوص القرآنية .

اتفق الكتابان في المحاولات التي تهدف إلى تناول التاريخ بمفهومه الحديث . بالرغم من أن قطبًا كان أكثر تفهما ووعيا في هذا المجال . حيث ركز من البداية على الصفة غير التاريخية للقرآن . ولكن لماذا لم يذهب في موقفه حتى النهاية ؟!.

وتشكك الكتابان في الأهمية الإنسانية والعقائدية لبعض الوقائع التاريخية القديمة ــ التي لم يتناولها علم التاريخ الحديث ــ وأشار إليها القرآن في العديد من النصوص القرآنية . نفس التشكك كان واضحا أيضا تجاه النظرة الحديثة التي تتناول تاريخ الأديان .

أما فيما يتعلق بالغيبيات ، فقد اختلف كتاب الظلال عن مثيله تفسير المنار . فقد رفض قطب كل تفسير للغيب عن طريق عالم الروحانيات والتنويم المغناطيسي[2] . كما كان متشككا في الفلاسفة وعلماء اللاهوت . ورفض أفكار ابن سينا وابن خلدون التي تناولت علم التنجيم والتنبؤات الغيبية (بالرغم من أن هؤلاء الفلاسفة قد نالوا قدرا كبيرا من التعظيم من قبل محمد عبده) .

---

(1) جوميير . المرجع السابق ، ص 109-111 .

(2) نفس المرجع ، ص 72-73 حول السحر ، 163 حول معجزات المسيح .

وبالنسبة للأمور التي تكتنفها الأسرار (الخفية) ، مثل خلق العالم وخلق الإنسان والمسيح ، كان قطب حاسما وقاطعا أكثر من تفسير المنار . فيقول بأنها مغامرة خطيرة أن ندعي أن العلوم في وقتنا الحاضر بإمكانها أن تضع تفسيرا نهائيا لهذه الأمور الغيبية[1] . فعلى سبيل المثال ، فإن في القضايا التي تتناول حمل مريم العذراء وولادة المسيح ، والسماوات السبع ، وتعددية الأصل البشري ، وهيئة وشكل الجن ... إلخ ، كان قطب رجل دين وعقيدة من الطراز الأول ، وكان أكثر تحررا من القيود الأخرى عند عرضه لآرائه في هذه القضايا .

لقد اعتمد قطب دائما على الإيمان والعقيدة . وكان أقل اعتمادا على العقل البشري حيث كان نادرا مايوافق على بعض اتجاهات العقل عند تناوله لبعض القضايا والأمور .

يجب أن نشير إلى أن كلا من الظلال وتفسير المنار قد اعتمد على كتب التفسير الكلاسيكية القديمة ، وبصفة خاصة تلك التي كانت أقل ارتباطا بعلم الأديان الحديث . ولكن في نفس الوقت نرى أن اتجاه تفسير المنار ضد « التقليد »[2] لم يتخذ نفس المعنى الذي نستكشفه في كتاب الظلال .

فكلمة التقليد في عرف جماعة الإخوان المسلمين – وابتداء من حسن البنا – تشير إلى التقليد الأعمى للغرب وللعلماء الغربيين . وعندما نتحدث في الفصل السابع عن « الفقه الحي » سنرى أن قطبا قد رأى أن قضايا الاجتهاد المعارض لتقليد الغرب غير المسلم تعتبر ميزة كبيرة يمكن أن نواجه بها النظرة التقليدية القديمة لبعض الفقهاء .

إن هذا التطور ذو دلالة كبيرة . ويكشف بوضوح تباين الهدف والغاية فيما بين محمد عبده ورشيد رضا من ناحية وسيد قطب من ناحية أخرى . أضف إلى ذلك أن دعوة سيد قطب للعودة إلى الأصول قد وصلت إلى مدى بعيد جدا ، إلى

---

(1) جومبير . المرجع السابق ص 108 ، 162 ، حول حمل مريم العذراء ، 165 حول تفسير جزء عم ، ص 18 - 21 حول السماوات السبع ومناطقها ، 155 ، 324 حول افتراض محمد عبده بتعدد أنواع البشر .
(2) نفس المرجع ص 100 .

الحد الذي رأى فيه أن تجاوز مدارس علم الكلام التي اندثرت مع الزمن هي علامة أخرى للتجربة المادية التي تبرهن على إعجاز القرآن .

في الحقيقة إن العلامات التي تميز قطبا عن محمد عبده ورشيد رضا هي تلك العلامات التي تميز منهج قطب عن منهج محمد أركون[1] .

فقد أغفل محمد أركون الجانب الإيجابي « للعقلانية » . بمعنى أنه استبعد بالدرجة الأولى تناول الدين كما بعث به الرسول . حيث حاول أن يمارس نوعا من « العقل المتسائل » « Questionnaire la Raison » الذي يتجاوز في آن واحد كلا من « العقل اللاهوتي » (الذي يستنبط بصفة عقائدية مفاهيم الكتب المقدسة) « والعقل النقدي » « La Raison Critique » التجريبي التاريخي (الذي يتناول الكتب المقدسة كوثائق تاريخية بمعزل عن التصور الديني الذي يحيط بها) إضافة إلى « العقل التكويني » « La Raison reconstruit » اللغوي (الذي يعتبر أيديولوجية أخرى) . لقد فعل ذلك كله في محاولة لفهم النصوص الدينية كنتيجة وكأصل لمعطيات مادية أكثر مما تكون لها صفة دينية .

يرى أركون أيضا أن القاعدة الأساسية « للخطاب القرآني » (Le discoure Coranique) نجدها في المقام الأول في مستوى الكلام الذي كان يقول به الرسول . هذا الكلام الذي ينفرد بظروف ملموسة لكل آية تتصف بالدقة والتمايز عن غيرها . أيضا هذا الكلام يمثل جزءا كبيرا من النص الديني المكتوب ، وهو غني بتجربة النبوة التي عاشها محمد بصفته الشخصية وبتجربة الجماعة المسلمة الأولى .

إن الناس جميعا وفي كل زمان — وفي وقتنا الحاضر على وجه الخصوص — يمكنهم أن يحاولوا إدراك المعنى الأصلي والأساسي لهذا الكلام المتميز الشامل .

إنها نظرة لا تنطلق من منهج علم الأديان الذي يتتبع أثر النص ويفسره ، ولكنها تنطلق من تحديد أو تعريف واضح للمعطيات اللغوية للقرآن ، والتي تمثل مادة غنية قابلة للتحليل اللغوي في مختلف « منطلقات الخطاب القرآني » .

---

(1) يمكن مراجعة كتاب محمد أركون « قراءات في القرآن » . ميزونيف ولاروس . بارس ، 1982 .

إن القرآن كنص ديني جوهري هو نص يدرك المؤمنون الذين يتحدثون به أو الذين يستمعون إليه أنه وحي من الله إلى الرسول . لذلك فإن وجهات النظر العلمانية التي تتناول النص الديني ليست نظرة غير لاهوتية في داخل علم اللاهوت وهي ليست أيضا نظرة لا دينية من هذا المنطلق .

فمحمد أركون هو أحد الأصوليين في هذا المعنى الذي ينطلق فيه أساسا من جوهر النص القرآني . إنه يدرك تماما خاصية الكمال في « الخطاب » الديني للرسول . وقد وعى ــ متشابها في ذلك مع قطب ــ إعجاز القرآن في إطار من الكمال المتميز الذي لا يضاهيه نص آخر .

واختلف أركون مع قطب – بكل تأكيد – في بعض النقاط الرئيسية . فلم يعتبر أركون أن القرآن نص ديني له طبيعة خاصة ومختلفة عن طبيعة التوراة والإنجيل . فحسب ما يراه فإن صفات القرآن كوحي إلهي لا يمكن تقليده هي جزء من التفسير الديني (العقائدي) الذي ندركه من خلال النص القرآني في ذاته .

لقد حاول أن يستخدم أسلوب النقد التاريخي والتفسيري حتى عندما كان يرفض النظرية « التأريخية » . إن المصادر الأدبية قد أتاحت له الفرصة أن يستند ، في إدراك وفهم معاني القرآني ، على نفس علوم التفسير التي تستخدم في التوراة والإنجيل .

ويوضح أركون أنه لا يوجد « معنى علمي » عند محاولتنا مقارنة نظرية دارون ، حول خلق الكون والإنسان ، بما ورد في النصوص القرآنية . حيث إن هذه النصوص لها حكمة خاصة لا يمكن التعرف عليها أو إدراكها .

فإذا كان قطب قد رفض أيضا إجراء هذه المقارنة ، فلقد كان ذلك بدافع خاصية كمال القرآن وعصمته من كل خطإ . وإذا كان قد قبل بعض الحقائق التاريخية التي وردت في القرآن على أساس عقائدي فقط وعلى إيمان صادق ، فإنه قد قبلها كإنسان مؤمن حاول أن يكتشف بأسلوب نقدي التصورات الاجتماعية المختلفة للمجتمع الإسلامي .

لقد عاش قطب في القاهرة فيما بين 1950 ، 1960 حيث حدث الفصل الشديد بين العقيدة وبين العقل . بين الحقائق العلمية وبين المعرفة الدينية . بين العقل الديني وبين العقل الوضعي ... إلخ . إن ذلك يماثل الفصل الذي حدث في أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين وانتقل إلى أرض الإسلام كأفضل مظهر من مظاهر العلم الحديث .

وتناول كل من قطب وأركون هذه النقطة في دراساتهم . ولكن قطبا لم يتجاهل فقط علم النفس وعلم الاجتماع ولكن تجاهل أيضا « العلوم الإنسانية » بمفاهيمها المعاصرة .

ولكن كان لقطب ميزة كبيرة تميز بها عن محمد عبده ورشيد رضا عندما رفض — على قدر الإمكان — منطق الانقسام والتفرقة . لقد ساعد ذلك على تنظيف الساحة الإسلامية من القضايا الخاطئة ومن العقبات الكاذبة التي لا أهمية لها .

إن قطبا رجل أصولي حسب منطق المسلمين « العقلانيين » . ورجل مجدد على نفس نهج الفلاسفة « رينان ، لوازي »[1] . وبالرغم من افتراضاته العقائدية التي احتفظ بها ، فإن خطابه يعتبر في رأينا أكثر تطابقا مع النص القرآني مقارنة بتفسير المنار عند دفاعه عن الدين .

لقد قدم قطب تفسيره للقرآن في ذات الوقت الذي كان يقوم فيه بنشاطه النضالي سواء داخل السجن أو خارجه حيث نكتشف خاصية الكمال في « الخطاب الديني » الصادق ؛ ولذا يمكن أن نطلق على هذا التفسير اسم « تفسير المجاهد » .

إن خطوات قطب كانت على عكس خطوات أركون التي اعتمد فيها على التساؤل والنقد . لقد أراد قطب أن يدخل التجديد الفعلي على الأفكار التي كانت موجودة بصورة « شفافة » مستوحاة من النص القرآني ، وذلك لمواجهة الأفكار التي قال بها عبد الناصر .

---

(1) من المفكرين الفرنسيين في القرن التاسع عشر .

إننا نعتبر محمد أركون أكثر تقاربا لقطب من كل كتب التفسير التي ظهرت في عهد عبد الناصر ، ابتداء من تفسير الشيخ محمود شلتوت ، وحتى التفسير الذي يقدمه مصطفى محمود ، وعلمانية كامل حسين ، مرورا بكتب المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وبعض التفاسير التي تقدمها عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطىء » وآخرون ممن قدموا دراساتهم في تفسير القرآن .

الفصــل الثاني
المرأة والأسرة في الإســلام

المرأة والأسرة في الإسلام

يجب أن نشير في البداية إلى أننا سنتناول موضوع هذا الفصل دون انحياز لأي فكرة من الأفكار ودون تقديم أحكام مسبقة . إننا إذا قبلنا أن نقدم تحرر المرأة الأوروبية منذ حوالي خمسين عاما ، فإن ذلك سيظهر وكأننا نقدم نموذجا ضروريا للعالم أجمع بغض النظر عن الثقافات والتقاليد الدينية التي تميز بعض مناطق العالم . وهنا أيضا سيظهر وكأن أفكار سيد قطب تحاول أن تتجاهل هذا النموذج وتضع عليه هالة من التعتيم والإظلام التام .

ترى الغالبية العظمى من المثقفين العرب المعاصرين أن هناك تناقضا مذهبيا عميقا بين الإسلام وبين مظاهر تحرر المرأة في الغرب ، فمظاهر هذا التحرر ، عند هؤلاء المثقفين ، تمثل إحدى النقاط الهامة التي يرفضها الإسلام . وعلى عكس هؤلاء نجد المثقفين في الحركات الإسلامية قد حصروا أفكارهم في الدفاع عن هذا المجال بما يعطيهم الإسلام من مواقف عقائدية .

إذن وبكل تأكيد ـــ وحتى إذا رغب البعض عند ذلك أو قبلوه – فإنه قد حدث في التقاليد الإسلامية ، ويحدث ، وسيحدث مستقبلا محاولات لتحرير المرأة في المجتمع الإسلامي مثلما حدث في أوروبا وأمريكا في إطار من التقاليد المسيحية . فالتقايد الإسلامية تتشابه مع التقاليد المسيحية في التركيز على حقيقة واحدة وواضحة ، وهي أن الأسرة حقيقة طبيعية وأساس كل تكوين اجتماعي .

هذا الموقف من الأسرة قد وضع كقاعدة وأساس مبدئي لا يقبل الجدل . فكل ما يقال عن تحرير المرأة في المسيحية أو في الإسلام سنجده متطابقا في أمور شتى ، منها ما يتعلق بدور الزوجة ، دور الأم ، دور الفتاة ، والشخصية الاجتماعية والاقتصادية للمرأة .

ومن السهل جدا أن نقدم إلى أي مدى ـــ في إطار نظرته للعائلة ـــ قد ساهم الإسلام بصورة عظيمة في تحرير المرأة ، وبصورة أكثر فعالية من كل من المذهب

الكاثوليكي عند الرومان ، والمذهب البروتستانتي ، في المحاولات التي نعطيها في الوقت الحاضر أهمية كبرى مثل الاستقلال المادي للمرأة ، واستقلالها القانوني والمدني ، وتكافؤ الفرص ، وتنظيم عملية الطلاق ، حيث تمثل هذه القضايا الأولوية في عملية تحرير المرأة .

وهناك قضايا أخرى ذات صبغة إسلامية تتعلق بالأحوال الشخصية للمرأة ، والتي تعتبر مثار استغراب ودهشة مقارنة بالتقاليد المسيحية العلمانية ؛ منها تعدد الزوجات للرجل الواحد ، واحتجاب المرأة في البيت وعدم خروجها للعمل ، لبس الحجاب أو الخمار ...إلخ .

ففيما يتعلق بالنقاش القائم حول الأسرة والحالة العائلية ، لم يظهر إطلاقا في الإسلام أي مظهر من مظاهر الرفض الراديكالي للأسرة والزواج مثلما حدث في المرحلة الأولى من المسيحية حيث بدأ تكوين مجتمع المسيحية دون زواج وإنجاب النسل . فالمسيح لم تكن له زوجة وبالتالي لم يكن أبا . فحالته العائلية كانت « غير منظمة » إلى درجة كبيرة ، مقارنة بالحالة العائلية التي نتعرف عليها في حالة تعدد الزوجات ، أو بصورة عامة مقارنة بالعلاقات الحميمة التي يمكن أن تقوم بين الجنسين . فقد هجر المسيح — وهو في شبابه — علاقاته الأسرية وبصفة خاصة مع أمه . وقد حرض حوارييه أن يهجروا عائلاتهم ، لمن لديه عائلة ، وأن يهجر الزواج كل من لم يتزوج بعد ، ويتبعوه في دعوته .

من ناحية أخرى ، إن تعدد زوجات محمد – في إطار محدد – كان خارجا عن مألوف النظام العائلي ونظام الزواج الذي كان سائدا في جزيرة العرب في ذلك الوقت . ونجده أيضا — مثلما فعل المسيح — قد هجر عائلته ولكن بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة اللذين كانا يدافعان عنه .

وقد وضع محمد نظام تعدد الزوجات في إطار شرعي ، ووفق نظام الزواج ، بصورة محددة وواضحة . في حين أننا نجد أن شرعية الرهبانية في الدين المسيحي — مع ممارسة الفصل بين الجنسين مناقضين في ذلك ما كان يفعله المسيح — لم تظهر إلا في مرحلة لاحقة بعد المسيح .

إن ما ذكرناه ، والذي يمكن أن يمثل بعض الافتراضات ، كان ضروريا لإزالة سوء الفهم لموقف الإسلام من المرأة .

تناول كتاب « في ظلال القرآن » الأحوال الفاسدة التي أحاطت بالمرأة في مجتمع الجاهلية ، ثم تناول القوانين الإسلامية الأساسية المتعلقة بالمرأة في المجتمع الإسلامي المثالي ، ثم « فقه القرآن » في الزواج ، وفي الحياة الزوجية ، وحقوق الأبوة والنسب . وتناول بعد ذلك موقف القرآن من الزنا ومن بعض حالات العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج . وتناول في النهاية رؤية القرآن لتعدد الزوجات ، وقضايا الطلاق وميراث المرأة .

المبحث الأول

دونية المرأة في مجتمع الجاهلية

وحفظ شخصية المرأة في مجتمع القرآن

ذكر قطب في كتاب الظلال (601 النساء ، الآيات 15-23) أن السمة الأولى للجاهلية ــ في كل زمان ــ كما نرى في جاهليتنا الحاضرة التي تعم وجه الأرض – هي الفوضى الجنسية والانطلاق البهيمي ، بلا ضابط من خلق أو قانون . واعتبار هذه الاتصالات الجنسية الفوضوية مظهرا من مظاهر « الحرية الشخصية » . فقد يتسامح الجاهليون في حرياتهم « الإنسانية » كلها ولا يتسامحون في حريتهم « البهيمية » هذه .

في المجتمعات الجاهلية تتعاون جميع الأجهزة على تحطيم الحواجز الأخلاقية وعلى إفساد الضوابط الفطرية في النفس الإنسانية . وإذا راجعنا الأدب القديم سنجده يعكس هذه السمات الهابطة ويغذيها . فنرى ذلك في شعر امرئ القيس في جاهلية العرب ، كما نجد لها نظائر في أشعار الجاهلية الإغريقية والجاهلية الرومانية . كما نجد لها نظائر في الآداب والفنون المعاصرة في جاهلية العرب والجاهليات الأخرى المعاصرة أيضا .

إن تبذل المرأة وهذا الانطلاق البهيمي ينتهيان دائما ــ كما قال المودودي سابقا ــ بتدمير الحضارة وتدمير الأمة التي يشيع فيها – كما وقع في الحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية والحضارة الفارسية قديما – وكما يقع اليوم في الحضارة الأوروبية وفي الحضارة الأمريكية أيضا .

ولكن ماذا عن الحضارة الإسلامية ؟ يجيبنا قطب على هذا التساؤل بأنه قد انحرف جيل من الأجيال الإسلامية لمدة طويلة في احتقار المرأة وازدرائها . إذ أمسى بعض الرجال يتنقلون بين الزوجات كما يتنقل الخليل بين الخليلات . إذ أنشئوا « الحريم » في هذه الصورة المريبة .. فليس ذلك شأن الإسلام . وليس هؤلاء هم الذين يمثلون الإسلام ، إن هؤلاء إنما انحدروا إلى هذا الدرك لأنهم بعدوا عن الإسلام ، وإنهم يعيشون في مجتمع لا يحكمه الإسلام ولا تسيطر فيه شريعته . أما ما وقع في بعض العصور من الاستكثار من الإماء وتجميعهن في القصور واتخاذهن وسيلة للالتذاذ الجنسي البهيمي ، أما هذا كله فليس هو الإسلام ولا يجوز أن يحسب على النظام الإسلامي ولا أن يضاف إلى واقعه التاريخي .

ففي المجتمع العربي في القرنين السادس والسابع الميلادي – كما يعلمنا قطب – ومثل مجتمعنا الذي نعيش فيه ، كيف بنا في هذا المجتمع الذي بدت فيه المرأة أداة للمتعة والانحطاط الجنسي . كيف بنا في هذا المجتمع الذي يعطي صورة هابطة وملوثة للمرأة . إن هذا المجتمع الذي نعيش فيه هو عصر مريض تهيج فيه الفتن وتثور فيه الشهوات .

لقد كانت المرأة إذا مات عنها زوجها في الجاهلية العربية يرثها الرجال كما يرثون البهائم والمتروكات . فكان بعضهم إن شاء تزوجها . وإن شاءوا زوجوها وأخذوا مهرها . أو حبسوا المرأة على الصبي فيهم حتى يكبر فيأخذها ، وإلى غير ذلك من الأمور التي تهبط بإنسانية المرأة . فلما جاء الإسلام كانت له نظرة كريمة لتكرم المرأة وترفع من إنسانيتها ، فحرَّم كل ذلك .

عكف قطب بعد ذلك على عرض الحياة الزوجية للرسول وتوضيح بعض الوقائع للمسلمين (الظلال 2688-2518-2853 ، 2874 ، 3611) فيذكر : أن الآباء كانوا يعرضون بناتهم على الرجال على عهد الرسول . بل كانت النساء تعرض نفسها على النبي أو من يرغب في تزويجهن منهم « سورة الأحزاب ، الآية 49 » . فلقد عرض عمر ابنته حفصة على أبي بكر فسكت وعلى عثمان فاعتذر ، فلما أخبر النبي بهذا طيب خاطره ، ثم تزوجها الرسول . وهكذا – كما يرى قطب – بمثل هذه

البساطة والوضاءة سار المجتمع الإسلامي يبني بيوته ويقيم كيانه .

أما فيما يتعلق بحديث الإفك ، والذي أطلقه أحد المشركين عندما تأخرت عائشة عن القافلة ثم صحبها أحد البدو المسلمين حتى بيتها ، وحادثة زواج الرسول من زينب بنت جحش . فقد أوحى الله إلى الرسول بآيات من القرآن تبرئ عائشة وترضي نفسها . كما أنزل الله آيات التخيير عندما طالبت زوجات الرسول بالنفقة . فلقد حددت الآيات الطريق لزوجات الرسول ، فإما الحياة الدنيا وزينتها ، وإما الله ورسوله والدار الآخرة . ولقد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة اختيارا مطلقا .

لقد ركز قطب على القضايا التي كانت تمثل صورة من الانفعالات والاستجابات بين الرسول وزوجاته حيث كان في عصمة النبي في هذا الوقت تسع نساء . وأنزل الله من الآيات ما يبين به لرسوله ما يحل له من النساء وما في ذلك من خصوصية لشخصه ولأهل بيته ، بعدما نزلت سورة النساء التي تجعل الحد الأقصى للأزواج أربعا . ولقد كان صعبا على زوجات الرسول أن يفارقهن .

ولقد نظر الله إليهن فاستثنى الرسول من ذلك القيد وأحل له استبقاء نسائه جميعا في عصمته حتى لا يحرمن من شرف النسب إليه بعدما اخترن الله ورسوله .

والزوجات هنا : عائشة وحفصة ابنتا صاحبيه أبي بكر وعمر . وأم حبيبة بنت أبي سفيان ، وأم سلمة ، وسودة بنت زمعة ، وزينب بنت خزيمة ، من المهاجرات اللواتي فقدن أزواجهن وأراد النبي تكريمهن . وزينب بنت جحش ، ثم جويرية بنت الحارث من بني المصطلق ، وصفية بنت حيي بن أخطب ، هؤلاء كن قد أصبحن « أمهات المؤمنين » ونلن شرف القرب من الرسول .

استند قطب إلى بعض الروايات ليعرض لنا الأسباب التي أدت إلى تعدد زوجات الرسول ، حيث ذكر أن من هذه الأسباب أسبابا سياسية أو إنسانية ، حيث إن بعض زوجاته لم يكن ذوات جمال ولا شباب . وإنه قد تزوج زينب بنت جحش لأن ذلك كان تعويضا لها عن طلاقها من زيد الذي زوجها الرسول منه فلم تفلح الزيجة . وزواجه من جويرية أو صفية حيث كانتا من السبى وأعتقهما وتزوج بهما لتوثيق العلاقة بالقبائل وتكريما لهما .

وهكذا ترى أن لكل زوجة من أزواج الرسول قصة وسببا في زواجه منها . وهن فيما عدا زينب بنت جحش وجويرية بنت الحارث لم يكن شواب ولا ممن يرغب فيهن الرجال لجمال ، وكانت عائشة هي أحب نسائه إليه .

إنه ليس في حاجة أبدا إلى نفي عنصر الجاذبية في بعض نساء الرسول لأنه لا حاجة أبدا إلى نفي مثل هذه العناصر الإنسانية من حياة النبي . فقد اختير ليكون إنسانا ، ولكن إنسانا رفيعا وهكذا كان .

إن تجربة تعدد الزوجات في حياة الرسول تعرض صورة من انعكاس الانفعالات والاستجابة في حياة الرسول وفي حياة الجماعة الإسلامية كذلك . فهذه الرابطة الزوجية تم تنظيمها أمام الجماعة الإسلامية بتقديم الأسباب والأمثلة لهذه الرابطة عن طريق النصوص القرآنية التي أوحى بها الله حسب المناسبات التي تتعلق بها . وكذلك تم تنظيم العلاقة بين المسلمين وبين بيوت الرسول ونسائه حيث أوحى الله أيضا بالآيات القرآنية التي تحدد وتنظم دخول المسلمين إلى بيوت الرسول وكيفية الحديث إلى نسائه .

ويقرر قطب أن نظام الأسرة في الإسلام لم يكن نتيجة لما قد تفرضه المرأة ، ولكنه نظام جرت به حكمة الله ملبيا فطرة الإنسان واستعداداته ورفعها إلى المستوى الإنساني . إن هذا النظام هو ما أوحى به الله على لسان نبيه إجابة على طلب نسائه للنفقة وموقف الرسول بعد طلاق زينب من زيد . فنظام الأسرة في الإسلام مرجعه إلى الله وحده .

ففي الجماعة الإسلامية الأولى ، كان قد أنشئ مجتمع مسلم — في المدينة — يهيمن عليه الإسلام . يهيمن عليه بتصوره النظيف للحياة البشرية . ويهيمن عليه بتشريعه المنبثق من هذا التصور . وبحكم وجود هذا المجتمع كان الأمر سهلا للمرأة كي تصوغ نفسها كما يريد الإسلام ، وكان المرجع في هذا المجتمع ، مرجع الرجال والنساء جميعا ، إلى الله ورسوله .

أما الآن فنحن في موقف متغير . نحن نعيش في جاهلية ؛ جاهلية مجتمع ، وجاهلية

تشريع ، وجاهلية أخلاق ، وجاهلية تقاليد وآداب ونظم . والمرأة تتعامل مع هذا المجتمع الجاهلي ، وتشعر بثقل وطأته الساحقة حين تهم أن تلبي الإسلام .

ويشير قطب « الظلال 1268 ، الأعراف آيات 11 ــ 19 ، 189 » إلى أن خلق حواء لم يمكث طويلا بعد خلق آدم وأنه تم على نفس الطريقة التي تم بها خلق آدم .

ولقد أبدى قطب تشككه بتأثير اليهود في تفسير القرآن على النحو الذي يظهر فيه خلق حواء بخلاف ذلك قائلا : والسنّة التي نعلمها عن كل خلق الله هي الزوجية . وإن النص وأمثاله في القرآن لا يتحدث عن أن لآدم زوجًا من جنسه ، وإن كل الروايات التي جاءت عن خلقها من ضلعه مشوبة بالإسرائيليات ، ولا تتفق مع السنّة في خلق المرأة . فالقرآن قدّم طبيعة العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة في إطار للحكمة العليا من خلق الجنسين في عمارة الأرض وترقية الحياة .

ويعلن قطب أن الزينة حلال للمرأة ، تلبية لفطرتها . والإسلام لا يقاوم هذه الرغبة ولكن ينظمها ويضبطها . فأما ما ظهر من الزينة في الوجه واليدين فيجوز كشفه .

إن جمال الخلقة لا يكون في الكشف الجسدي والتعري ولا إبراز مفاتن الجسد وإبراز لا يجب السماح بإظهاره كما يفعل الفن الهابط . فالإسلام رد للمرأة اعتبارها كشخصية إنسانية وبما يتماشى مع فطرتها في إظهار أنوثتها الآدمية .

إن القرآن قد حمل معه إصلاحات قيِّمة لحالة المرأة : فأصبح للمرأة حق صريح شخصي في صداقها تحصل عليه بنفسها ، وليس كما كان واقعا في المجتمع الجاهلي من هضم هذا الحق في صور شتى ، واحدة منها كانت في قبض الولي لهذا الصداق وأخذه لنفسه وكأنما هي صفقة بيع هو صاحبها . وأيضا واحدة منها كانت في زواج الشِّغار . .

وللمرأة الحق في اتخاذ قرار الزواج بنفسها ولم تعد صفقة بين الوليين لا حظ فيها للمرأة . فالإسلام قد جعل الزواج التقاء نفسين عن رغبة واختيار . وحرم الإسلام زواج المرأة بالإكراه . وأصبح للمرأة الحق في الميراث مثلها مثل الرجل . لقد أوجب

الإسلام أن يؤدي الزوج الصداق « نحلة » – أي هبة خالصة لصاحبتها – وأن يؤديه عن طيب نفس وارتياح خاطر . فإذا طابت نفس الزوجة بعد ذلك لزوجها عن شيء من صداقها – كله أو بعضه – فهي صاحبة الشأن في هذا ، تفعله عن طيب نفس وراحة خاطر .

ويؤكد لنا قطب أن القرآن قد فرض على كل من الرجل والمرأة بعض الواجبات ، فالمرأة يجب أن تكون قانتة ، مطيعة عن إرادة وتوجُّه ورغبة ومحبة ، لا عن قسر وإرغام وتفلت ومغالظة . كما يجب على المرأة أيضا أن تكون حافظة لحرمة الرباط المقدس بينها وبين زوجها في غيبته . فلا تبيح من نفسها في نظرة أو نبرة مالا يباح إلا له هو . فعليها أن تحفظ نفسها . فليس الأمر أمر رضاء الزوج ، أن تبيح زوجته من نفسها ، في غيبته أو في حضوره ، ما لا يغضب هو له ، أو ما يمليه عليه وعليها المجتمع . ولا يجب أن تتهاوى المرأة أو الرجل أمام ضغط المجتمع المنحرف . ولا يجب أن ينتظر حتى يقع الفساد في المجتمع في وضع لا تصلح معه تربية ولا إعداد للناشئين في المحضن الخطير ، ومآله بعد ذلك إلى تصدع وانهيار للمؤسسة العائلية كلها وتشرد للناشئين فيها .

ولذلك كان لابد من المبادرة باتخاذ الإجراءات المتدرجة في العلاج حتى يصل الأمر إلى الضرب . فقد أبيح للرجل ضرب امرأته . وقد حدّد ذلك بأن يكون الضرب ضرب تأديب مصحوبًا بعاطفة المؤدِّب المربي . هذه الإجراءات كلها لا موضع لها في حالة الوفاق بين الشريكين ، على ألا يكون هناك الانحراف المرضي الذي يعينه علم النفس التحليلي بالاسم .

فقطب لم يأخذ بتقارير علم النفس كمسلمات « علمية » . فهو لم يصبح بعد « علما » بالمعنى العلمي (كان ذلك عند عودة قطب من بعثته التعليمية في الولايات المتحدة) وكما يقول الدكتور « ألكسيس كاريل » : فربما كان من النساء من لا تحس قوة الرجل الذي تحب هي نفسها أن تجعله قيّما عليها وترضى به زوجا إلا حين يقهرها عضليا !

من خلال هذه النظرة لحفظ شخصية المرأة ، أشار القرآن إلى احتجاب المرأة

في بيتها . فبقاء المرأة في بيتها هو إيماءة لطيفة إلى أن يكون البيت هو الأصل في حياتهن وهو المقرُّ وما عداه استثناء طارئ لايثقلن فيه ولا يستقررن . إنما هي الحاجة تقضى ، وبقدرها .

ولا يصح خروج المرأة للاختلاط ومزاولة الملاهي والتسكع في النوادي والمجتمعات .... إلخ ، فإن قيام الرجل بالأعمال المنزلية بدلا من زوجته المتغيبة عن منزلها سيمثل خطرا على منزل الزوجية وعلى ضياع هيبة الرجل وما يخلفه ذلك من أخطار اجتماعية تهدد المجتمع .

لقد كان النساء في عهد الرسول يخرجن للصلاة غير ممنوعات شرعا من هذا . وكانت المرأة تخرج متلفعة لا يعرفها أحد ولا يبرز من مفاتنها شيء كما تروي عائشة في أحاديثها . فلقد تجنبت النساء التبرج عند خروجهن أو مشيهن بين الرجال كما كانت تفعل النساء في الجاهلية .

بهذا المقياس يرى قطب أننا نعيش في فترة جاهلية عمياء . غليظة الحس . وصل فيها التبرج إلى درجة العري الكامل للجسد .

إن خروج الفتاة أو المرأة المتزوجة من بيتها إلى النوادي والمجتمعات هو الارتكاس في الحمأة الذي يرد البشر إلى مراتع الحيوان حيث نشاهد الحيوانية الجنسية في كل مكان .

إن الاختلاط بين الجنسين يحمل في نتائجه خطرًا كبيرًا على الإنسانية حيث يمثل الانكفاء على مرحلة الجاهلية .

إن خروج المرأة إلى العمل للكسب لا يمكن أن يهب للبيت جوه وعطره ، ولا يمكن أن يمنح الطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها . وبيوت الموظفات والعاملات ما تزيد على جو الفنادق والخانات .

إننا نتفهم ما يفرضه القرآن على المرأة من ضرورة لبس الحجاب – الذي يمثل ضرورة في وقتنا الحاضر ـــ وذلك لحماية المرأة والفتيات والأسرة . فالنساء من أهل

بيت النبي وأيضا النساء المسلمات كافة كن يخرجن إلى الصلاة في المسجد ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس .

حتى خروج المرأة للجهاد ، فإننا نجد أن الله لم يكتب الجهاد على المرأة ولم يحرمه عليها ــ ولم يمنعها منه ــ حين تكون هناك حاجة إليها . « فالجهاد لم يكتب على المرأة لأنها تلد الرجال الذين يجاهدون » .

المبحث الثاني

الزواج ــ الحياة الزوجية ــ حقوق الأبوة

يصف قطب ما فعله قوم لوط « الظلال 2613 ، 2733 » بأنه خطيئة شاذة عرفوا بها في التاريخ . فالشذوذ الجنسي بإتيان الذكور وترك النساء هو انحراف في الفطرة شنيع . فإن ذلك لا يتمشى مع فطرة الكون وقانونه . وعجيب أن يجد فيه أحد لذة .

فاللذة التي يجدها الذكر والأنثى في التقائهما إن هي إلا وسيلة الفطرة لتحقيق المشيئة ، وهي امتداد للحياة عن طريق التزواج والتوالد . هذه الفطرة ــ كما يشير إليها قطب ــ بأنها تتمثل في النكاح ــ وهو الزواج ــ وهي أعمق وأقوى وأدوم رابطة تصل بين اثنين من بني الإنسان .

فلابد إذن من توحد القلوب والتقائها في عقدة لا تحل . ولكي تتوحد القلوب يجب أن يتوحد ما تنعقد عليه ، وما تتجه إليه . والعقيدة الدينية هي أعمق وأشمل ما يعمر النفوس ويؤثر فيها .

لقد كانت النشأة الأولى للجماعة المسلمة في مكة لا تسمح في أول الأمر بالانفصال الاجتماعي الكامل الحاسم ، كالانفصال الشعوري الاعتقادي الذي تم في نفوس المسلمين . لأن الأوضاع الاجتماعية تحتاج إلى زمن وإلى تنظيمات متريثة .

فلما أراد الله للجماعة المسلمة أن تستقل في المدينة وتتميز شخصيتها الاجتماعية كما تميزت شخصيتها الاعتقادية . بدأ التنظيم الجديد يأخذ طريقه . وحرّم النكاح بين المسلمين والمشركين . لقد بات حراما أن ينكح المسلم مشركة أو ينكح المشرك مسلمة . حرام أن يربط الزواج بين قلبين لا يجتمعان على عقيدة .

يعود قطب إلى الزواج الشرعي « الظلال 620 ، 632 » حيث يذكر أن نظام المجتمع الإسلامي يتعارض مع ما ينتشر في الغرب من « شيوعية » الاتصال الجنسي ، وعلاقات الحب ومباشرة الجنس قبل الزواج ، والتهوين من شأن روابط الأسرة .

إن الفوضى في العلاقات الجنسية ـــ كما يقول قطب ـــ قد أدت إلى تحطيم الحضارات الغربية وبدأت آثارها تظهر في أمريكا والسويد وإنجلترا . ولكن آثار هذه الفوضى قد ظهرت في فرنسا مبكرة . إن أول ما قد جرّ على الفرنسيين تمكن الشهوات منهم ، اضمحلال قواهم الجسدية وتدرجها إلى الضعف يوما بعد يوم وتناقص تعداد الأمة الفرنسية بشكل خطير وانتشار الأمراض السرية الفتاكة . هذا كله جعل فرنسا تركع على أقدامها في الحروب التي خاضتها منذ سنة 1870 إلى اليوم . وكما ذكر المودودي فإن هذه الكارثة التي حدثت في عام 1940 كانت قد بدأت أسبابها وظواهرها بعد الحرب العالمية الأولى .

أما في السويد فإن حوادث الانتحار والتفكك الأسري ما هي إلا نتيجة لما يسمى « حرية الحب » وسيطرة الماديات على الحياة ، وحرية « عدم الإيمان بالله » وظهور الحركات التحريرية من سلطان الكنيسة على الإطلاق .

ويشير قطب إلى ما كتبه « بول بيورو » من « أن العادة الجارية في طبقة العاملين في فرنسا أن المرأة منهم تأخذ من خدنها ميثاقا ـــ قبل أن يعقد بينهما النكاح ـــ أن الرجل سيتخذ ولدها الذي ولدته قبل النكاح ولدا شرعيا له » .

نلاحظ أن قطبا لا يني يتحدث في هذا الموضوع . فتجربته ومعرفته واطلاعه على كل ما يكتب عن الحضارة الأمريكية والأوروبية حول هذه الموضوعات قد أقنعه تماما أن أفضل زواج هو الزواج الذي يتم على الطريقة الإسلامية : « زواج علني ، تتخصص فيه امرأة بعينها لرجل بعينه » . هذا الزواج يحقق فطرة الإنسان في وجود الطفل الإنساني الذي يحتاج إلى فترة رعاية أطول من الفترة التي يحتاج إليها طفل أي حيوان آخر . ذلك لأن قاعدة الحياة البشرية هي الأسرة .

فقد شاء الله أن تبدأ هذه النبتة من الأرض بأسرة واحدة : إذن فإن كل البشر

يجب أن يدركوا أن الأسرة هي قاعدة الحياة البشرية وأن الله أقام الأسرة الأولى من ذكر وأنثى ، ومن هذه الأسرة يبث رجالا كثيرا ونساء .

إذن هذه الأسرة تتكون من جماعة ، هذه الجماعة لابد لها من قائد أو رئيس . في هذا يذكر قطب « الظلال 649 - 655 ، النساء الآيات 1-35 » أن الذي خلق الإنسان جعل من فطرته « الزوجية » . ثم شاء أن يجعل الزوجين في الإنسان شطرين للنفس الواحدة . والتقاء شطري النفس الواحدة هو أساس لإنشاء مؤسسة الأسرة .

في سبيل تنظيم المؤسسة الزوجية حدد الله القوامة في هذه المؤسسة للرجل . ويقدم قطب من أسباب هذه القوامة : تفضيل الله للرجل بمقومات القوامة ، وما تتطلبه من خصائص ودربة ، و .. تكليف الرجل الإنفاق على المؤسسة . وبناء على إعطاء القوامة للرجل ، يحدد كذلك اختصاصات هذه القوامة في صيانة المؤسسة من التفسخ وحمايتها من النزوات العارضة . لأن هذه المؤسسة لا تضم شطري النفس الواحدة فحسب « ولكن تضم الفراخ الخضرة الناشئة في المحضن » .

إن هذا النظام هو نظام الأسرة الذي عرض أيضا في سورة البقرة ، الآيات 221-242 . ويشير قطب إلى أنه جانب من « دستور الأسرة » .

إن النظام الاجتماعي في الإسلام نظام الأسرة – بما أنه « نظام رباني للأسرة » . بمعنى آخر أنه النظام الفطري المنبثق من أصل التكوين الإنساني . بل من أصل تكوين الأشياء كلها في الكون على طريقة الإسلام في ربط النظام الذي يقيمه الإنسان بالنظام الذي أقامه الله للكون كله ، ومن بينه هذا الإنسان .

ويضيف قطب « الظلال 2826 » أن النظام الشيوعي قد حاول أن يتنكر لقاعدة الأسرة في بناء المجتمع فتخبط وما يزال يتخبط . وعلى الرغم من قاعدة النظام المذهبية الفلسفية ، فإن الفطرة أخذت تكافح في روسيا وتعود شيئا فشيئا إلى السيطرة والبروز .

وعن هيكل نظام الأسرة في الإسلام ، يذكر قطب أن الإسلام يحيط الرابطة الزوجية بكل الضمانات التي تكفل استقرارها واستمرارها . وفي سبيل هذه الغاية

يرفعها إلى مرتبة الطاعات ، ويعين على قيامها بمال الدولة للفقراء والفقيرات ، ويفرض الآداب التي تمنع التبرج والفتنة كي تستقر العواطف ، ولا تتلفت القلوب إلى هتاف الفتنة المتبرجة في الأسواق ـــ ويفرض حد الزنا وحد القذف ـــ ويجعل للبيوت حرمتها بالاستئذان عليها والاستئذان بين أهلها في داخلها . وينظم الإسلام الارتباطات الزوجية بشريعة محددة ، كما ينظم العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة .

فيما تقدم نلاحظ أن قطبا قد تجنب الإشارة إلى الجدل الدائر حول نظام الأسرة في المجتمع الإسلامي في وقتنا الحاضر ، كما لم يشأ التعرض لموضوع تعدد الزوجات الذي يثير الكثير من النقاش والجدل .

فلقد ركّز قطب على موقفه القوي المدافع عن العقيدة والدين . فيرى ضرورة وجود الأسرة المستقرة الهادئة لتنشئة الطفل . لقد ثبت أن الطفل بفطرته يجب أن يستأثر وحده بأمه فترة العامين الأولين من حياته ولا يطيق أن يشاركه فيها أحد .

وهنا يشير إلى إرضاع الأم لطفلها كضرورة يفرضها القرآن « الظلال 235 ، 245 » . ورغم ذلك نجد قطبا لا يتطرق إلى قضايا الرضاع التي أشار إليها القرآن في سورة الطلاق ، الآية السادسة .

ويضيف أن الطفل يحتاج أيضا إلى ملازمة أبويه أشد من حاجة أي طفل لحيوان آخر ، فالنظام الأوروبي ، في الكتلة الشرقية أو الغربية ، لا يخلو من أضرار مفسدة لتكوين الطفل وتربيته حيث يحرم الطفل من شعور الحب والحنان اللذين يحتاج إليهما في بداية حياته ، وذلك كما تحدثه أيضا المحاضن الجماعية من نتائج خطيرة على الطفل .

وعرض قطب في ذلك بعض ما ورد في كتاب « أنا فرويد » (أطفال بلا أسر) . وأوضح أن بعض الدول الأوروبية اضطرت إلى إقامة المحاضن الجماعية بسبب فقدان عدد كبير من الأطفال لأهليهم في الحرب الوحشية التي تخوضها الجاهلية الغربية المنطلقة من قيود التصور الديني ، والتي لا تفرق بين المسالمين والمحاربين في هذه الأيام ! أو التي اضطروا إليها بسبب النظام المشئوم الذي يضطر الأمهات إلى العمل تحت تأثير التصورات الجاهلية الشائنة للنظام الاجتماعي والاقتصادي المناسب للإنسان .

وهكذا فإن هذا النظام يضحي بالصحة النفسية لأغلى ذخيرة على وجه الأرض .. الأطفال .. رصيد المستقبل البشري .. في مقابل ماذا ؟ في مقابل زيادة في دخل الأسرة . أو في مقابل إعالة الأم ، التي بلغ من جحود الجاهلية الغربية والشرقية المعاصرة أن تنكل عن إعانة الأم التي لا تنفق جهدها في العمل .

ومن ذلك نعرف مدى الخطورة من اللجوء إلى « المحاضن الصناعية » أو إلى « الأم الصناعية » المشتركة . إننا نجد النظام الاجتماعي الإسلامي يقوم على أساس الأسرة ويحرص على العناية بالطفولة ليحقق لهذه الأسرة مقومات استقرارها ومستقبلها .

تناول قطب أيضا في كتابه بعض التغييرات الهامة جدا التي قال بها القرآن « الظلال 2819 - 2825 ، 2867 ، الأحزاب ، آيات 1 - 8 ، 36 - 48 » فقد تم إبطال التبني . إبطاله بسابقة عملية . يختار لها الرسول ، لشدة عمق هذه العادة في البيئة العربية وصعوبة الخروج عليها . ونظام التبني كانت له آثار واقعية في حياة الجماعة العربية . ولم يكن إبطال هذه الآثار الواقعية في حياة المجتمع ليمضي بالسهولة التي يمضي بها إبطال تقليد التبني ذاته . وقد مضى أن الرسول زوّج زيد بن حارثة الذي كان متبناه من زينب بنت جحش ، ابنة عمة الرسول ﷺ ليحطم بهذا الزواج فوارق الطبقات الموروثة .

ثم شاء الله أن يحمل نبيه بعد ذلك مؤنة إزالة آثار نظام التبني ، فيتزوج من مطلقة متبناه زيد بن حارثة . ويواجه المجتمع بهذا العمل .

ولم يتردد قطب في أن يشير إلى أن النص القرآني قد نزل بعد أن طلب من الرسول الزواج من زينب . وكانت هذه إحدى ضرائب الرسالة الباهظة التي حملها الرسول فيما حمل وواجه بها المجتمع الكاره لها كل الكراهية بالرغم مما أظهروه في ذلك من دهشة واستنكار .

ينتقل قطب بعد ذلك للحديث عن إبطال عادة الظهار – وهو أن يحلف الرجل على امرأته أنها عليه كظهر أمه فتحرم عليه حرمة أمه . ومن ساعتئذ يحرم عليه وطؤها . ثم تبقى معلقة ، لا هي مطلقة فتتزوج غيره ، ولا هي زوجة فتحل له . وكان في هذا من القسوة مافيه . ولذلك جاء القرآن ليبطل ذلك ويرفع عن المرأة هذا الخسف « الظلال 2819 ، الأحزاب آيات 1 - 8 ، 3505 المجادلة » .

إن هذه النظرة الصائبة لنظام الأسرة والنسب لم تكن — كما يقول قطب — إلا ما كان في حالة إبراهيم . عندما أدرك فطرة البشر : الرغبة في الامتداد عن طريق الذراري والأحفاد . ويكمل اللاحق ما بدأه السابق وتتعاون الأجيال كلها وتتسابق . فكيف يمكن للبعض أن يحاول تحطيم هذه الفطرة أو تعويقها . والذي على أساسه يقرر الإسلام شريعة الميراث ؟

إن التصور الإسلامي يقطع الوشائج والصلات التي لا تقوم على عروة العقيدة . وهو يفصل بين جيل وجيل إذا خالف أحد الجيلين الآخر في عقيدته ، بل يفصل بين الوالد والولد . فعرب الشرك شيء وعرب الإسلام شيء آخر . إن الإسلام يركز على ضرورة قيام الولد بواجباته نحو والديه ، ولكن هذه الواجبات تأتي في ترتيبها بعد وشيجة العقيدة .

عرض قطب لأنواع المحرمات من النساء « الظلال 607-610 ، النساء آيات 15 - 23 » . فيذكر عددا من طبقات هذا التحريم مشيرا إلى أن النص القرآني لم يذكر علة التحريم – لا عامة ولا خاصة – فكل ما يذكر من علل هو استنباط ورأي وتقدير . وتأتي قيمة هذه المحرمات من النص القرآني الواضح والصريح في هذا الموضوع .

ويرى قطب أن هذه المحرمات بعضها مؤبد وبعضها مؤقت ، وبعضها بسبب النسب ، وبعضها بسبب الرضاعة ، وبعضها بسبب المصاهرة . وقد ألغى الإسلام كل أنواع القيود الأخرى ، التي عرفتها المجتمعات البشرية الأخرى ، كالقيود التي ترجع إلى الأجناس البشرية وألوانها وقومياتها . والقيود التي ترجع إلى اختلاف الطبقات ومقاماتها الاجتماعية في الجنس الواحد والوطن الواحد .

ولكن قطبا لم يول الاهتمام إلى بعض العادات والتقاليد التي نراها في منطقة الشرق الأوسط : من حالات الزواج بين أبناء العم وبنات العمة وبنات الخال وبنات الخالة .... إلخ . حيث يرتبط الرجل بامرأة واحدة فقط من هذه القرابات ، وحيث يتم الزواج بالمقابلة أو ما يسمى بزواج « لُحْمي » . وهذا الموضوع قد عالجه القرآن

بحرص شديد عندما بيّن للرسول النساء اللائي يمكن أن يتزوج بهن « سورة الأحزاب الآية 50 » .

بصفة عامة — كما يشير قطب — فإن أيا ما كانت العلة في التحريم ، فنحن نسلم بأن اختيار الله لابد وراءه حكمة ، ولابد فيه مصلحة . وسواء علمنا أو جهلنا ، فإن هذا لا يؤثر في الأمر شيئا ولا ينقص من وجوب الطاعة والتنفيذ مع الرضا والقبول .

يحرم الإسلام على الرجل الزواج بزوجة أبيه بعد الطلاق أو بعد وفاة الأب . وحرم أيضا الزواج بأخت الزوجة أي الجمع بين الأختين في وقت واحد . وهذه الزيجات كانت تجيزها عادات العرب في الجاهلية . ولكن الإسلام لم يستند إلى عرف الجاهلية . وإن الأمر كله هو من شأن الله وحده .

وبعد أن يشير قطب إلى تحريم الإسلام مباشرة الرجل امرأته أثناء فترة الحيض ، حيث يوضح أن المباشرة في تلك العلاقة الزوجية وسيلة لا غاية ، وسيلة لتحقيق هدف أعمق في طبيعة الحياة ، نجده يركز على أن العقيدة لها دور كبير في محرمات الزواج . فالعقيدة الدينية هي أشمل وأعمق ما يعمر النفوس . ولذلك فإن الإسلام قد حرّم الزواج بين المسلمين والمشركين . لقد بات حراما أن ينكح المسلم مشركة . وأن ينكح المشرك مسلمة . ولكن هنا نتذكر أن الله لم يحرم زواج المسلم من كتابية — مع اختلاف العقيدة — ولكن الأمر هنا يختلف . إن المسلم والكتابية يلتقيان في أصل العقيدة في الله . وإن اختلفت التفصيلات التشريعية .

ويخبرنا قطب بأن هناك خلافا فقهيا في حالة الكتابية التي تعتقد أن الله ثالث ثلاثة ، أو أن الله هو المسيح بن مريم ، أو أن عزير ابن الله . أهي مشركة محرمة ؟ أم هي تعتبر من أهل الكتاب ؟ ويجيب قائلا : بأن جمهور العلماء قد قالوا إنها تعتبر من أهل الكتاب . ولكنه يميل إلى اعتبار الرأي القائل بالتحريم في هذه الحالة .

أما زواج الكتابي من مسلمة فهو محظور . لأنه يختلف في واقعه عن زواج المسلم بكتابية — غير مشركة — ومن هنا يختلف في حكمه . إن الأطفال يدعون لآبائهم

بحكم الشريعة الإسلامية ، كما أن الزوجة هي التي تنتقل إلى أسرة الزوج وقومه وأرضه بحكم الواقع .

في نفس الوقت ، يحذر قطب من زواج المسلم من امرأة من أهل الكتاب . حيث يرى أن هذه الزيجات شر على البيت الإسلامي . فالذي لا يمكن إنكاره واقعيا أن الزوجة اليهودية أو المسيحية أو اللادينية تصبغ بيتها وأطفالها بصبغتها . وبخاصة في هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه .

إن هذا التفسير الذي يقدمه قطب يتناسق مع أفكاره الحازمة القاسية التي تتعلق بشرك أو كفر اليهود والمسيحيين « سنتعرض لذلك في الفصل الثالث » . إنها إحدى النقاط التي نرى فيها سيد قطب مخلصا — إلى درجة كبيرة — للنص القرآني ، مقارنة بتفسير المنار ، والذي قد يعتبره البعض متشددا بدوره .

إننا نستطيع من خلال ذلك أن نلاحظ أن ما يسمى بالقوانين الإسلامية « الكلاسيكية » ، بعيدة جدا عن المفاهيم التي تضمنتها النصوص القرآنية .

المبحث الثالث

الزنا ــ التمتع بالسبايا

تناول قطب باستفاضة النظرة العقائدية بالنسبة للزواج ــ والتي تميز كل الديانات وذات اتجاهات متعددة ــ وذلك عند حديثه في قضايا الزنا والتمتع بالسبايا .

فيرى سيد قطب أن الإسلام يمضي هنا على طريقه في تطهير المجتمع وتنظيفه . وقد اختار ــ في أول الأمر ــ عزل الفاحشات من النسوة ، وإبعادهن عن المجتمع ، متى ثبت عليهن ارتكاب الفاحشة . وإيذاء الرجال الذين يأتون الفاحشة الشاذة ، ولم يحدد نوع الإيذاء ومداه . ثم اختار ــ فيما بعد ــ عقاب هؤلاء النسوة وعقاب الرجل أيضا عقوبة واحدة هي « حد الزنا » كما ورد في الآية الثانية من سورة النور ، وهي الجلد ، وكما جاءت بها السنة أيضا وهي الرجم . والهدف الأخير من هذه أو تلك هو صيانة المجتمع من التلوث والمحافظة عليه نظيفا عفيفا شريفا .

يعود قطب ليؤكد لنا أن في كل حالة وفي كل عقوبة يوفر التشريع الإسلامي الضمانات التي يتعذر معها الظلم والخطأ . فلابد أولا من شهادة أربعة رجال مسلمين بالغين ، من هذا المجتمع المسلم ، يعيشون فيه ، ويخضعون لشريعته . إن هذه الضمانات في الشهادة بقيت حين تغير الحكم . وأصبح هو الجلد أو الرجم . وهذا يشعر أن الحكم السابق ليس الحكم النهائي الدائم ، وإنما هو حكم فترة معينة وملابسات في المجتمع خاصة . حيث تغير الحكم كما ورد في سورة النور ، وفي حديث الرسول . ويشير قطب إلى أن التوبة والإصلاح تعديل أساسي في الشخصية والعمل والسلوك ومن ثم تقف العقوبة . وتكف الجماعة عن إيذاء هذين المنحرفين الشاذين .

من هذا نستطيع القول إن تدبر قطب وتأمله في القرآن جعله يتجنب الإشارة إلى ضرورة وجود أية محكمة قد تسمى « محكمة إسلامية » ، مهمتها محاكمة وإعدام الزاني أو الزانية أو الشواذ جنسيا .

وهنا يقرر أن الإسلام لا يعرف مثل هذا « الوباء السويدي » في الانحلال الأخلاقي والأسري ، الذي لاحظه في الولايات المتحدة أثناء بعثته التعليمية في الفترة من 1949 - 1951 . وذكر قطب « الظلال 636 » أن البوليس الأمريكي كان قد وضع يده على عصابة ضخمة ذات فروع في مدن شتى ، مؤلفة من المحامين والأطباء والمكاتب الخاصة ، مهمتها مساعدة الأزواج والزوجات على الطلاق بإيجاد الزوج أو الزوجة في حالة تلبس بالزنا . وهنا يسهل علينا إدراك مدى صدمة أحد المثقفين المسلمين أمام التقاليد القضائية في الغرب في فترة الخمسينيات والتي تسير إجراءاتها على هذا النحو .

موضوع آخر على جانب كبير من الأهمية عالجه قطب ويتعلق بالسبايا اللواتي كن يؤخذن أسيرات في حروب الفتح الإسلامي وهن متزوجات « في دار الكفر والحرب » . حيث تنقطع علاقاتهن بأزواجهن الكفار ، بانقطاع الدار ، ويصبحن غير محصنات ، فلا أزواج لهن في دار الإسلام . ومن ثم يكفي استبراء أرحامهن بحيضة واحدة ، يظهر منها خلو أرحامهن من الحمل . ويصبح بعدها نكاحهن حلالا — إن دخلن في الإسلام — أو أن يباشرهن من غير عقد نكاح من يقعن في سهمه .

ويرى قطب أن هؤلاء السبايا لهن حاجة فطرية أخرى لابد لهن من إشباعها وإلا التمسنها في الفاحشة . ولم يكن يجوز للمسلمين أن ينكحوهن وهن مشركات ؛ لتحريم الارتباط الزوجي بين مسلم ومشركة (لا يتحتم النكاح لإحلال السبية إذا دخلت في الإسلام ، ولكنه فقط يصير جائزا) . فلا يبقى إلا طريق واحد هو تحليل وطئهن بلا نكاح مادمن مشركات .

وفي حالة ما إذا كان من العسير افتداء السبايا ، فإن الإسلام قد أباح مباشرة ملك اليمين لمن هن ملك يمينه . وقد عرض هذا الموضوع على المجتمع الإسلامي الأول في المدينة ، ثم بعد ذلك بعد فتح مكة حيث وجد في المجتمع رقيق يتخلف من الحروب .

ويركز قطب بشدة على أن الإسلام قد جاء والرق نظام عالمي . واسترقاق أسري الحرب نظام دولي . فما كان يمكن والإسلام مشتبك في حروب مع أعدائه أن يلغى هذا النظام من جانب واحد . ومن هنا كان يجيء إلى المعسكر الإسلامي أسيرات ، تقضي قاعدة التعامل بالمثل استرقاقهن . ومن مقتضيات هذا الاسترقاق ألا يرتفعن إلى مستوى الزوجات بالنكاح . فأباح الإسلام حينئذ الاستمتاع بهن بالتسري لمن يملكهن خاصة إلى أن يتحررن لسبب من الأسباب الكثيرة التي جعلها الإسلام سبلا لتحرير الرقيق .

ولعل هذا الاستمتاع ملحوظ فيه تلبية الحاجة الفطرية للأسيرات أنفسهن ، كي لا يشبعنها عن طريق الفوضى في المخالطة الجنسية كما يقع في زماننا هذا مع أسيرات الحرب بعد معاهدات تحريم الرقيق . هذه الفوضى لا يحبها الإسلام !

نعود مرة أخرى لنتناول موضوع الزنا بشيء من التفصيل . فيذكر قطب أن بين قتل الأولاد والزنا صلة ومناسبة . وقد توسط النهي عن الزنا بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس . ففي الزنا قتل من نواح شتى . إنه قتل ابتداء لأنه إراقة لمادة الحياة في غير موضعها ، يتبعه غالبا الرغبة في التخلص من آثاره بقتل الجنين قبل أن يتخلق أو بعد أن يتخلق ، قبل مولده أو بعد مولده ، فإذا ترك الجنين للحياة ترك في الغالب لحياة شريرة ومهينة ، وهو قتل في صورة أخرى . قتل للجماعة التي يفشو فيها ، فتضيع الأنساب وتختلط الدماء ، وتذهب الثقة في العرض والولد ، وتتحلل الجماعة وتتفكك روابطها ؛ فتنتهي إلى ما يشبه الموت بين الجماعات .

باختصار ما من أمة فشت فيها الفاحشة إلا صارت إلى الانحلال . فأثار هذا الانحلال ظاهرة لاشك فيها بعد الحرب العالمية في أوروبا ، وكذلك في الولايات المتحدة ، ولكن آثار هذا الانحلال لم تظهر بعد بسبب حداثة هذا الشعب واتساع موارده .

ولذلك فإن القرآن يحذر من مجرد مقاربة الزنا . ومن ثم يأخذ الإسلام الطريق على أسبابه الدافعة ؛ توقيا للوقوع فيه ... يكره الاختلاط في غير ضرورة . ويحرم

الخلوة ، وينهى عن التبرج بالزينة ، ويحض على الزواج لمن استطاع ، ويوصي بالصوم لمن لا يستطيع ، ويكره الحواجز التي تمنع من الزواج كالمغالاة في المهور ، وينفي الخوف من العيلة والإملاق بسبب الأولاد ، ويحض على مساعدة من يبتغون الزواج ليحصنوا أنفسهم ، ويوقع أشد العقوبة على الجريمة حين تقع ، وعلى رمي المحصنات الغافلات بدون برهان .. إلى آخر وسائل الوقاية والعلاج ؛ ليحفظ الجماعة الإسلامية من التردي والانحلال .

ومن هنا كان البيان القوي الصارم لحد الزنا . وكانت الصرامة في إقامة هذا الحد . ويرى قطب أن صرامة هذا الحد ترجع إلى هدف تفظيع الفعلة وتشنيعها وليس كعقاب في حد ذاته . فحد الزنا كان في أول الإسلام ما جاء في سورة النساء وهو الأذى بالتعبير مع وجود أربعة شهداء ولكن بعد ذلك كان هذا العقاب الرادع والصارم الذي ورد في سورة النور .

في هذا الإطار أشار قطب إلى أن هناك خلافا فقهيا حول الجمع بين الجلد والرجم للمحصن وأن الجمهور على أنه لا يجمع بين الجلد والرجم . كما أن هناك خلافا فقهيا حول تغريب الزاني غير المحصن مع جلده . وحول حد الزاني غير الحر . ويضيف قطب أن ذلك هو خلاف طويل لا ندخل في تفصيله . إنما يمضي مع حكمة هذا التشريع . فيرى أن عقوبة البكر هي الجلد ، وعقوبة المحصن هي الرجم . فقد ثبت الرجم بالسنة . وثبت الجلد بالقرآن . ولما كان النص القرآني مجملا وعاما وكان الرسول قد رجم زانيين محصنين ، فقد تبين من هذا أن الجلد خاص بغير المحصن .

إن الإسلام وهو يضع هذه العقوبات الصارمة الحاسمة إنما أراد محاربة الحيوانية ، التي لا تفرق بين جسد وجسد ، أو لا تهدف إلى إقامة بيت ، وإنشاء حياة مشتركة . هذه الفعلة المستنكرة الشائنة هي التي جعلت الإسلام يتشدد في عقوبة الزنا . فالإسلام يريد أن يقيم العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الراقية ، التي تجعل من التقاء جسدين ، نفسين وقلبين وروحين . وبتعبير شامل التقاء إنسانين تربط بينهما حياة مشتركة ومستقبل مشترك .

إذن ــ وحسب ما يرى قطب ــ فإن الزواج هو الطريق الطبيعي لمواجهة الميول

الجنسية الفطرية . فالزنا هو نكسة حيوانية ، تذهب بكل هذه المعاني وتطيح بكل هذه الأهداف ، وترد الكائن الإنساني مسخا حيوانيا ، لا يفرق بين أنثى وأنثى ولا بين ذكر وذكر . فالإسلام يحاول دائما أن يدفع عن المجتمع كل الظروف التي تساعد على انتشار الفاحشة .

لذلك فإن قطبا يجيب على ما يتشدق به المتشدقون من استغناء المرأة عن الرجل بالعمل والكسب . فيرى أن المسألة أعمق بكثير مما يظن هؤلاء السطحيون عن فطرة الإنسان في ميله العميق نحو امتداد الحياة على الأرض ونحو الحياة الطبيعية . وألف كسب لا يغني المرأة عن حاجتها الفطرية في ذات الوقت الذي حافظ فيه الإسلام على حقوق المرأة المادية وحفظ لها كرامتها .

فالإسلام نظام للإنسان ؛ نظام إيجابي واقعي ، يتوافق مع فطرة الإنسان وتكوينه ، ويتوافق مع واقعه وضروراته . فلماذا إذن الزنا مع وجود السماح بتعدد الزوجات ؟ فالإسلام يوفر للمرأة أولا الحياة والمعيشة الكريمة ، ولا يجعلها عرضة للوقوع في براثن الفاحشة والرذيلة ، ونظرا لأن فترة إخصاب الرجل تمتد إلى سن السبعين وما فوقها ، بينما هي تقف في المرأة عند سن الخمسين أو حواليها ، إذن كان لابد من الانتفاع من هذا الواقع الفطري وحماية المجتمع من الفاحشة فكان إباحة تعدد الزوجات .

من جهة أخرى ، أننا نجد أن الإسلام في محاولته تضييق فرص الغواية والابتعاد عن عوامل الفتنة ، قد جعل للبيوت حرمة لا يجوز المساس بها . وجاء القرآن بالآداب العامة للمسلمين ؛ أدب الاستئذان على البيوت والسلام على أهلها ، حتى يقلل فرص النظرات واللقاءات التي يدبرها الشيطان . إن ذلك كله إجراء وقائي عن طريق تطهير المشاعر واتقاء أسباب الفتنة العابرة .

وهكذا نكون قد قدمنا باختصار عرض قطب للمشاعر الإنسانية العاطفية في إطار العلاقات الأخلاقية الجنسية في الإسلام في مقابل تشدد مسيحي ، وإباحية جنسية محزنة أثارت دهشة واستغراب هذا الرجل الناضج « الذي لم يتزوج » والذي حمل في داخله مشاعر عاطفية لم تخرج إلى النور في مرحلة الشباب .

المبحث الرابع

تعدد الزوجات - الطلاق - الميراث

يذكر قطب في كتاب الظلال « 578 ، النساء الآيات 1-14 » أن تعدد الزوجات مباح ولكن ليس إجباريا . إنه رخصة مع التحفظ . جاء بها الإسلام ، وتحت الرجال من العرب عشر نسوة أو أكثر أو أقل . بدون حد أو قيد ــ فجاء ليقول للرجال : إن هناك حدا لا يتجاوزه المسلم – وهو أربع – وأن هناك قيدا – هو إمكان العدل ــ وإلا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم .

إذن من الخطأ تصور أن الإسلام جاء ليطلق أو يبيح الحرية الجنسية . بل على العكس . جاء الإسلام لا ليطلق . ولكن ليحدد . يلتقط الإنسان من واقعه الذي هو فيه ، ومن موقفه الذي هو عليه ، ليرتفع به في المرتقى الصاعد . في غير إنكار لفطرته أو تنكر . وفي غير إهمال لواقعه . وفي غير عنف في دفعة أو اعتساف !

ويفسر لنا قطب ، أن هناك حالات واقعية في مجتمعات كثيرة ــ تاريخية ومعاصرة ــ تبدو فيها زيادة عدد النساء الصالحات للزواج على عدد الرجال الصالحين للزواج . إنه قانون ديموجرافي . إذن كان الأفضل هو إباحة تعدد الزوجات مع قيد العدالة . إن ذلك هو ما ارتضاه الإسلام . وإلا ظهرت الفاحشة في المجتمع وانتشر الزنا والبغاء وبقيت الفتيات دون زواج . فالفتاة لها متطلباتها الجنسية – مثل الصبى يجب إشباعها . وعلى ذلك فإن نظام تعدد الزوجات يحفظ المجتمع بأن يظل نظيفا متطهرا .

ويضيف سيد قطب سببا آخر لتعدد الزوجات : وهو سبب بيولوجي . فهناك

في المتوسط عشرون سنة من سني الإخصاب في حياة الرجل لا مقابل لها في حياة المرأة . فكيف نواجه في هذه الفترة رغبة الرّجل في أداء الوظيفة الفطرية الجنسية ؟ فهل نطلق الرجل يخادن ويسافح من يشاء من النساء ؟ وذلك لن يتفق مع حق المرأة وكرامتها ! وعلى ذلك أيضا كان تعدد الزوجات المقيد بالعدل بينهن هو أفضل وسيلة . حيث يحقق ضرورات الفطرة ، ويحتفظ للزوجة الأولى برعاية الزوجية ، ويحقق رغبة الزوجين في الإبقاء على عشرتهما وعلى ذكرياتهما .

أما في حالة عقم الزوجة ، مع رغبة الزوج الفطرية في النسل . فإن الحل الأفضل والأكيد هو أن يتزوج الرجل بأخرى ويبقي على عشرته من الزوجة الأولى . لأن تسعا وتسعين زوجة على الأقل من كل مائة — كما يقول قطب — سيتوجهن باللعنة إلى من يشير على الزوج بأن يطلق زوجته العقيم (كما هو حادث في وقتنا الحاضر) .

إن الإسلام لم ينشئ التعدد إنما حدده ، ولم يأمر بالتعدد ، إنما رخص فيه وقيده . ولذلك فليس هو الإسلام ، وليس من فعل الإسلام أن يتخذ بعض الرجال عدة نساء للاستمتاع والتسري كما يفعلون في الغرب حيث يحتفظ كل رجل بعدد من الخليلات .

وعلى ذلك إن ما يقع في المجتمع الذي ينتسب إلى الإسلام ، خارج على أصوله وموازينه ، فلا يجوز أن يحسب منه ؛ لأنه انحراف عنه . إن المجتمع المعادي للإسلام هو المسئول عن هذه الفوضى ، هو المسئول الأول عن « الحريم » في صورته الهابطة المريبة ، هو المسئول الأول عن اتخاذ الحياة الزوجية مسرح لذة بهيمية .

ويوضح قطب معنى العدل بين الزوجات فيقول : إنه العدل في المعاملة والنفقة والمعاشرة والمباشرة . أما العدل في مشاعر القلوب وأحاسيس النفوس ، فلا يطالب به أحد من بني الإنسان ؛ لأنه خارج عن إرادة الإنسان ، هذا العدل يكون على نحو ما كان النبي يقوم به بين زوجاته ، في الوقت الذي لم يكن أحد يجهل من حوله ولا من نسائه أنه يحب عائشة ويؤثرها بعاطفة قلبية خاصة .

ولقد رفض قطب تماما — مثلما فعل محمد عبده — التصور بأن الآية « الأخيرة »

التي نزلت حول العدل بين الزوجات قد نسخت غيرها من الآيات التي أباحت تعدد الزوجات دون التركيز على ضرورة العدل بين الزوجات .

ذكرنا سابقا أن قطبا قد أكدّ على أن تعدد الزوجات هو أفضل طريق لتجنب الطلاق « للمرأة العقيم أو للمرأة التي وصلت إلى سن اليأس » . كما رأينا كيف أن قطبا قد صدم بمسلسل الطلاق الذي يحدث في كل من أوروبا وأمريكا .

إنه يركز أساسا على الضرورة المطلقة للاستقرار العائلي . وضرورة وجود الأب والأم لتنشئة الطفل وتربيته . لذلك يذكر أن أبغض الحلال عند الله الطلاق . ولكن الطلاق لا يكون إلا علاجا أخيرا لحالة لا يجدي فيها سواه . إذا تعذرت الحياة الزوجية ، ويصبح الإمساك بالزوجية عبثا لا يقوم على أساس .

فالقرآن قد حدد ثلاث خطوات حتى يتم الطلاق . هذه الخطوات تتمثل في تحديد عدد مرات الطلاق في ثلاث : فالطلقة الأولى تكون محكًا وتجربة ، أما الثانية فهي تجربة أخرى وامتحان أخير فإن صلحت الحياة بعدها فذاك ، وإلا فالطلقة الثالثة دليل على فساد أصيل في حياة الزوجية لا تصلح معه الحياة (الظلال 247) .

ولكن قد يقول قائل : وما ذنب المرأة تهدد حياتها وأمنها واستقرارها بسبب كلمة تخرج من فم رجل عابث ؟ ويرد قطب : فكيف يا ترى يكون العلاج ، إن لم نأخذ بهذا العلاج ؟ سيكون في الأمر أكثر مهانة للزوجة وللعلاقة الزوجية ما لا يرضاه الإسلام ، الذي يحترم المرأة ويحترم العلاقة الزوجية ويرفعها إلى درجة العبادة لله . ولكن القرآن يبين أن هناك وقتا معينا لإيقاع الطلاق حيث يجب أن تكون المرأة في حالة طهر من حيض . ولذلك كان وجوب انتظار « العدة » حتى يتم التأكد من عدم وجود حمل . كما ركز الإسلام أيضا على حق المرأة في تملك الصداق . فليس في الإسلام طلاق على الشكل القضائي الذي يتم في الدول الإسكندنافية !

يبقى الآن أن نلقي الضوء على موضوع ميراث البنات والمرأة . فالشريعة الإسلامية قد أحدثت ثورة في المجتمع الجاهلي في القرن السابع الميلادي بإقرارها ميراث البنات والمرأة . فشريعة الله ــ كما يشير قطب ــ تجعل الميراث ــ في أصله ــ حقا لذوي القربى

جميعا ــ حسب مراتبهم وأنصبتهم التي حددها القرآن ــ وذلك تمشيا مع نظرية الإسلام في التكافل بين أفراد الأسرة الواحدة . وفي التكافل الإنساني العام .

فعندما نزلت الفرائض التي فرض الله فيها ما فرض ، للولد الذكر ، والأنثى ، والأبوين ، كرهها الناس ــ أو بعضهم ــ وكان ذلك منطق الجاهلية العربية وهي تواجه فريضة الله وقسمته العادلة الحكيمة « الظلال 591 » ، وهذا منطق يجمع بين الجهالة وسوء الأدب مع الله . فليس الأمر في هذا أمر محاباة لجنس على حساب جنس . إنما الأمر أمر توازن وعدل ، بين أعباء الذكر وأعباء الأنثى . فالرجل مكلف ــ على الأقل ــ ضعف أعباء المرأة في التكوين العائلي وفي النظام الاجتماعي الإسلامي .

ويأتي قطب في النهاية إلى تأكيد نظرة الإسلام إلى الشخصية الاقتصادية للمرأة . فكانت المساواة في حق التملك وحق الكسب بين الرجال والنساء من ناحية المبدإ العام . فسوّى الإسلام بين الرجل والمرأة أمام القانون وفي جميع الحقوق المدنية سواء المتزوجة وغير المتزوجة . فالمرأة بعد زواجها تظل محتفظة بأهليتها وبكامل حقوقها وشخصيتها المدنية الكاملة ، وبثروتها الخاصة المستقلة عن شخصية زوجها وثروته .

المبحث الخامس

نتائج الفصل الثاني

تشكل النصوص والأحكام القرآنية ، التي تتعلق بقضايا الميراث والطلاق وتعدد الزوجات والزنا واللواط والحقوق المالية للمرأة وخلق الله للإنسان ... إلخ ، — في رأي قطب — حقيقة إجمالية نهائية ومطلقة . هذه الأحكام إذا خرق أحدها أدى ذلك إلى تعطيل وإفساد الأحكام الأخرى .

إذن ما هو العمل في مجتمع غير إسلامي ؛ مجتمع لا يسير على شريعة الإسلام ، وتديره حكومة لا تتفق ومبادئ الشريعة الإسلامية ؟ أجاب قطب على هذا التساؤل إجابة قاطعة ، إنه مهما كان الأمر فيجب الحفاظ بكل قوة على الأسرة المسلمة في خصوصياتها ومظاهرها .

عرض قطب مفهوما خاصا لتحرير المرأة في المجتمع الإسلامي . هذا المفهوم استند على حجة وحيدة ، إذا طبقت في الواقع سيكون له وزن كبير وأهمية بالغة في نشر الأمن والسلام داخل المجتمع . هذه الحجة البالغة هي : التشريع الإلهي ، هذه الحجة تتطابق مع الطبيعة الإنسانية لكل من الرجل والمرأة ، ومع متطلباتها الأولية والجوهرية والتي لم تلوثها العادات والتقاليد .

إن أي حركة نسائية لا يمكن أن تقدم للمرأة أو توفي لها متطلباتها مثلما قدمته النصوص والأحكام القرآنية . فالقوانين والأحكام الكنسية ، التي تتعلق بالزواج وبالعلاقات الجنسية ، لا يمكن تعريفها على أنها كلام الله مقارنة بالنصوص القرآنية التي يمكن أن نقول عنها إنها كلام الله المنزل .

وطبقا لنصوص التشريع القرآني ، نجد أن قطبا لم يتقبل ثلاثة أمور ، اعتبرها شائنة ومحزنة وهي :

(1) الفوضى الجنسية المثيرة للرثاء ، ومظاهر اليأس والقنوط ، وتناقص تعداد السكان ، وغير ذلك من « مظاهر الانحطاط » التي تضرب مختلف المجتمعات الغربية .

(2) نظام الحريم والتمتع بالإماء ، الذي انتشر في زمن دول الخلافة . حيث يعتبرها قطب دولا غير إسلامية ، وحكامها ليسوا مسلمين . ويرى أن المرأة في هذه المجتمعات قد احتقرت كزوجة وأصبحت أمَة وعوملت كسلعة تباع وتشترى .

(3) المحاولات الواهية والمشكوك فيها للتوفيق بين النصوص القرآنية وما يسمى « بمقتضيات » أنماط الحياة في « العصر الحديث » . هذه المقتضيات رأى فيها قطب أنها تتطابق مع ما يشيع في الغرب من مظاهر الإباحية التي تهبط بإنسانية المرأة . وركز قطب على هذه الحقيقة كثيرا « فهذه الإباحية الجنسية المطلقة تضر بالمرأة . ولا يمكن أن تحقق للمرأة من الكرامة والاستمتاع مثلما تحقق لها العلاقات الزوجية الشرعية » .

يقدم القرآن الأسرة كتنظيم أساسي ذي خصائص محددة وجوهرية . هذا النظام لا يمثل مجرد توجيهات يجب اتباعها . بل إنه نظام يقوم على تشريع كامل يحقق استقرار الأسرة . هذا النظام صالح دائما لمسايرة مقتضيات المجتمع الإسلامي الذي يسعى إلى تطبيق مبادئ الشريعة في مجال تكوين الأسرة وتنظيم العلاقات الجنسية بين الزوجين .

إن هذا المنطق لا يقبل الجدل إذا نحن رجعنا إلى قواعد تفسير القرآن دون تدليس أو خداع بحيث يمكن لكل مسلم أن يستنبط الشواهد القرآنية للتشريع الإسلامي .

لقد رأينا في الفصل الأول أن قطبا لم يغامر باللجوء إلى التفسيرات المختلفة في هذا المجال . وهنا أيضا يظهر لنا بوضوح أن منهج قطب في التفسير يعكس رؤيته للنظام الإسلامي للتنظيمات الاجتماعية الأساسية في المجتمع الإسلامي . إذا كان الأمر كذلك ، فهل يمكن أن نستشعر — وكما يقدم المفكر الإسلامي محمد أركون — أن الإسلام كعقيدة يواجه خطرا محتملا مما يستوجب معه إصلاحا اجتماعيا إسلاميا ؟

أجاب قطب بمفهوم واحد ، هو التحرك بمقتضى النصوص القرآنية . كتاب الله . الذي أنزله بلسان عربي مبين . يسره الله للذكر . يصل إلى العقول والقلوب . فيزيدها قوة وشفافية . إنه كتاب يمنح الإنسان روح النضال والفدائية ، كما سبق أن فعل في الجماعة المسلمة الأولى .

إننا سنحاول الآن أن نلقي نظرة « مقارنة » على ما ورد في تفسير المنار حول الزواج والأحوال الشخصية للمرأة مع التعرف على بعض ما هو مطبّق من قوانين في العالم العربي .

قدم تفسير المنار[1] التقاليد الإسلامية الخاصة بالمرأة بصورة تؤكد ريادتها في مجال أحوال المرأة ومساواتها بالرجل في العصر الحديث . حيث ركز على الشخصية المستقلة للمرأة المسلمة المتزوجة في النواحي المادية والمدنية والقانونية . وذلك مقارنة « بالتقاليد الرومانية » و « التقاليد الجرمانية » . هذه التقاليد الأخيرة وصفها جومبير - كأحد فقهاء القانون - بأنها غير مناسبة لتحرير شخصية المرأة المدنية ، وأنها لا تعترف بالأهلية القانونية للمرأة . وذهب جومبير إلى الحد الذي يذكر فيه أن ثروة المرأة لم تكن أبدا معيارا لتحرر المرأة ، وإلا كان ذلك وسيلة تبيح المعاشرة الجنسية خارج إطار العلاقات الزوجية . وهذا الرأي يدعم وجهة نظر كل من كتاب الظلال وتفسير المنار حيث إنه يوضح ضرورة الربط بين الحرية والاستقلالية الاقتصادية للمرأة مع تحريم اللقاء خارج إطار العلاقات الزوجية .

إنه من الصعب ألا نعترف أن الحالة المادية للمرأة المسلمة - التي تتطابق مع مبادئ الشريعة - أفضل حالا من المرأة الغربية في العصر الحديث[2] . فالمرأة المصرية - من داخل الحرملك - قامت بأعمال كثيرة ، خاصة في فترة مابين الحربين

(1) جومبير . المرجع السابق ، ص 176 . تفسير المنار ، الجزء الثاني ص 376 ، الجزء الرابع ص 306 .
(2) كدّي نيكي . المرأة في الشرق الأوسط . ص 26 .

العالميتين ، وفترة النهضة الوطنية وثورة 1919 التي شاركت فيها نساء من الطبقات الاجتماعية الكبيرة .

فكانت المرأة تمثل نسبة كبيرة من العاملين في مجال التمريض والرعاية الطبية ، وكانت مثالا للملكية الزراعية في ظل نظام الالتزام ، وأسست المرأة المصرية نظام الوقف الخيري ، وأنشأت الجمعيات والمؤسسات الخيرية في كافة المجالات . وكان كل ذلك مقبولا طبقا لمبادئ الشريعة . كما كان ذلك أيضا مقبولا من الأزواج الذين اشترطوا ألا تمثل هذه « الثورة النسائية » عبئا ماديا إضافيا يجب الالتزام به .

وهكذا لم يكن كتاب الظلال على خطإ عندما أكد على السمة الأساسية والضرورية للاستقلال المادي للمرأة . ولكن نلاحظ أيضا أن قطبا قد حاول التقليل من شأن الحركات النسائية التي ظهرت في مصر ، مقدما حجة هامة ، وهي أن القرآن قد تضمن كل ما تنادي به المرأة من حرية ومساواة بالرجل . وعليه فإن هذه الحركات النسائية لم تأت بجديد ولم تقدم ما هو أفضل .

فسيد قطب والإخوان المسلمون يقدمون في هذا الإطار ما يمكن أن نسميه « التيار القومي النيوكلاسيك » . هذا التيار يتعارض بالدرجة الأولى مع « الطبقات الجديدة » التي مهدت لها المادية الغربية والإمبريالية الاستعمارية . هذه الطبقات حاولت أن تقوم بحركة إصلاحية معتدلة لمساواة الرجل بالمرأة وتحسين الأحوال الشخصية للمرأة في المجتمع .

كان لكتاب الظلال موقف متقدم عن مواقف كل من مصطفى كامل وقاسم أمين ومحمد عبده . إضافة إلى أن قطبا قد اشترك مع قاسم أمين ومحمد عبده ومع أفكار غالبية الإخوان في ضرورة تربية وتنشئة الفتيات وفقا لتعاليم الشريعة الإسلامية[1] .

إذا كان قاسم أمين قد ذهب إلى الحد الذي طالب فيه بضرورة تعليم المرأة حتى يمكن أن تشغل الوظائف الحكومية وتتقاضى أجرا عن الأعمال التي تقوم بها وبذلك

---

(1) جومبير . المرجع السابق ص 188 . تفسير المنار . الجزء الثالث ص 323-324 .

يمكن أن يتأكد لها استقلالها الاقتصادي[1] . فقد ركز كتاب الظلال ـــ مقارنة بتفسير المنار ـــ على ضرورة أن تكرّس المرأة جهودها لحياتها الزوجية وتربية الأطفال .

يمكن أن نشير ، على نحو عارض ، إلى أن معدل تعليم الفتيات في العالم الإسلامي ـــ في وقتنا الحاضر ـــ يمثل أضعف معدل في العالم . من جانب آخر نجد أن فارق المستوى التعليمي بين الرجل والمرأة في تزايد مستمر . أضف إلى ذلك ، أنه من الواضح أن المرأة العاملة في منطقة الشرق الأوسط تبدأ حياتها العملية في سن مبكرة نسبيا[2] . وذلك فيما تقوم به من عمل زراعي وحرفي ، ومن أعمال منزلية . هذا يشمل أيضا المرأة في الطبقات الغنية التي تتفرغ للعمل المنزلي أيضا في العالم الإسلامي ـــ وكما هو الحال في بقية مناطق العالم ـــ فإن تشغيل المرأة يمثل جانبا ضروريا وهاما . مع أن المرأة في بعض الأعمال قد تتقاضى أجرا أقل مما يتقاضاه الرجل .

لقد اكتفى قطب بالتحفظ ضد الحالة « المثيرة للشفقة » للمرأة العاملة التي لا يختلف بيتها عن جو الفنادق . في نفس الوقت رأى قطب أنه لا مانع من قيام المرأة بالأعمال الوظيفية « الحضرية » وأن تتقاضى أجرا مقابل ما تؤديه من أعمال . ولكن على شرط تجنب الاختلاط في العمل على قدر الإمكان . وكان وسواس قطب الدائم في ذلك هو ضرورة المحافظة على كيان الأسرة وعلى الحياة المعيشية داخل الأسرة الواحدة . إن قطبا يقدم دعوته للمسلمين في الوقت الذي نجد فيه أن معدل تشغيل المرأة المسلمة في الوظائف الحضرية هو أقل معدل تشغيل في العالم .

إن قوانين الميراث التي تخص المرأة والتي وردت في النصوص القرآنية ـــ حسب ما يرى قطب ـــ هي قواعد لا تقبل الجدل . وهذا يعني أنها تتطابق مع قوانين الفطرة . حيث إن المرأة مسئولة من زوجها ؛ لها عليه حق الإعالة . وبالتالي فليس

---

(1) كذى نيكي . المرجع السابق ، ص 278 .
(2) نفس المرجع ، ص 3 ، ص 10 .

من الضروري أن تسعى المرأة للعمل مادام الزوج متكفلا بها . ويتحدد دور المرأة في رعاية البيت والأولاد والقيام بالأعباء المنزلية .

هنا يجب أن نشير إلى أن قطبا قد امتنع عن أن يقدم تفسيرا قانونيا للنصوص القرآنية . إضافة إلى أنه قد تجنب الدخول في تفاصيل تقاليد « أهل السنة » في الميراث . هذه التقاليد تعطي بعض الامتيازات – دون سند قرآني واضح ـــ للرجل على حساب المرأة داخل الأسرة الواحدة .

كذلك تجاهل قطب التعرض للتفسير الذي تأثر ببعض العادات والتقاليد القديمة في منطقة الشرق الأوسط . حيث يتعلق الأمر بقضايا لبس المرأة الحجاب ، واحتجاب المرأة أو اعتكافها في البيت ، والزواج الذي ينظمه الآباء للأطفال الذين لم يبلغوا بعد سن البلوغ ، وتزويج الرجل لابنه البكر أو لأحد أبنائه من إحدى بنات العم ، والزواج المبكر للفتاة مما يزيد فترة الخصوبة لديها . كل هذه العادات والتقاليد لا نجد في النصوص القرآنية ما يشير إليها أو يؤكدها .

لقد كنا نتمنى أن يظهر حماس قطب في تفسيره في هذا المجال الذي تظهر فيه آثار الاستشراق في المذاهب الفقهية الإسلامية . وخاصة في التهجم على القيم العليا للشرف العائلي وتفضيل الأطفال الذكور . وهي من التقاليد التي أبطلتها النصوص القرآنية ، ومازلنا نجدها منتشرة في مختلف مدارس الفقه الإسلامي .

موضوع آخر تجنب قطب الدخول في مخاطر التعرض له ، وهو يتعلق بالإرشادات الأخلاقية التي وجهها القرآن للرجل المتزوج . ألم يكن في استطاعته أن يستخلص من النصوص القرآنية ما يحدث به تغييرا عميقا في القوانين الكلاسيكية التي تتعلق بالطلاق ؟

لقد فات قطبا بالتأكيد ـــ كما فات رشيد رضا أيضا ـــ ما قد تسببه تقاليد الزواج المبكر للفتاة دون سن الزواج – وهذا لا يتفق مع النص القرآني – وعلى مدى الأجيال من ارتفاع معدلات النمو السكاني . إننا نجد أن البلاد الإسلامية تتميز بأعلى معدل نمو سكاني في العالم . إن نتيجة هذا المعدل المرتفع هو انتشار مظاهر الفقر

بين السكان في دول العالم الإسلامي ، باستثناء الدول الخليجية القليلة السكان والغنية بثرواتها البترولية .

إن قطبا ــ مثل رشيد رضا ــ لم يشأ أن يميز بين النصوص القرآنية وبين التشريعات الخاصة بالأسرة التي نجدها في المدارس الفقهية المتعارف عليها في وقتنا الحاضر . بل إنه أضفى على هذه التشريعات – تحت اسم الشريعة – صفة القداسة التي لا تعطى إلا للقرآن .. كلام الله .

على كل الافتراضات فإنه قد حاول أن يقدم صورة متميزة للمجتمع الإسلامي .. « القرآني » . الذي لا يمكن انتقاده . وفي ذلك تكون له سابقة كبيرة مقارنة برشيد رضا .

من ناحية أخرى ، نطرح هذا التساؤل ، هل من الممكن ــ دون منهج تاريخي وأنتربولوجي للقراءة ودون تقديم افتراضات عقائدية مسبقة ــ أن نعزل رسالة « القرآن » حول المرأة والأسرة ، عن البيئة الشرق أوسطية بهيكلها العائلي التي لا تكاد تتغير ؟

إننا سنعود مرة أخرى إلى افتراضنا : إذا كانت الحالة العائلية « المثالية » أو الحالة « المثالية » للمرأة في القرآن ، تختلف عن الحالة العائلية أو حالة المرأة في الإنجيل ، فإن ذلك سيخلق بيئتين ثقافيتين في المجتمع الواحد ، لتلقي هذه المثاليات . وعلى ذلك فإن خسارة أحد الأطراف في أحد الجوانب ستعتبر كسبا للطرف الآخر ، كل ذلك بالرغم من أن الافتراض « العائلي » هو نفس الافتراض . ومن وجهة نظر إنسانية ، فإن ظروف المرأة في تلك الحالة لن تكون معروفة تماما . وسيكون تقدير تلك الظروف في إطار من إنكار قيمة العقل وقدرته على المعرفة ، ونظل مترددين بين الفوضى وبين ضياع المعرفة ودقة المعلومات . وعليه فإن نجاح أي حركة نسائية لن يكون إلا خارج إطار مفهوم الأسرة والعلاقات الزوجية .

ذكرنا سابقا أن كتاب الظلال قد تعرض لبعض النقاط الأساسية لنظام تعدد الزوجات ، وأحكامه ، وظروفه ، ومحدداته . وهنا نشير إلى أن قطبا كان له رأي

مخالف كلية للرأي المشهور الذي قال به محمد عبده[1] . حيث قدم الأخير سلسلة طويلة من الحجج لتعدد الزوجات دون أن يقول بتحريمه أو منعه إجمالا ، ومن بين هذه الحجج نذكر :

(1) عدم إمكانية العدل بين الزوجات ، بالرغم من محاولات الإنسان المسلم تحكيم ضميره في هذا الشأن .

(2) عدم إمكانية تربية وتنشئة الأطفال داخل الأسرة الواحدة التي تقوم على أساس تعدد الزوجات ؛ وذلك بسبب مظاهر الغيرة والتشكك التي قد تملأ نفوس الزوجات .. وفي ذلك ذكر عبده أنه لا يمكن تربية وتثقيف أمة ينتشر فيها نظام تعدد الزوجات[2] .

إن هذه الثغرة البسيطة التي فتحها محمد عبده قد ازدادت اتساعا في تركيا وفي تونس ، وعند الطائفة الإسماعيلية ، وعند الدروز ، حيث منع تعدد الزوجات ــ تحت اسم القرآن ــ حتى قيل بعدم شرعيته .

إن هناك بعض الدول مثل ألبانيا ، والجمهوريات الإسلامية التي كانت تابعة للاتحاد السوفييتي سابقا ، وفي إسرائيل ــ وعلى عكس تركيا في عهد أتاتورك ــ لم تعلن قوانين مطابقة للشريعة الإسلامية ــ ولكنها ألغت تماما نظام تعدد الزوجات . هذا الإلغاء لم يكن بأي حال من الأحوال في إطار أي تطوير أو تجديد في الشريعة . لقد استعاضوا عن الشريعة ببعض القوانين والنظم القضائية ، والتي بمقتضاها يمكن للمرأة « الزوجة » أن تفرض بعض الشروط في عقد الزواج ، ويعتبر ذلك تقليدا أساسيا في المذهب الحنبلي ، هذا الإجراء نجده أيضا في إيران « في عهد الشاه » ، وفي العراق ، وفي المغرب ، وفي سوريا .

وفي هذا المجال رأى قطب أن القوانين « الإصلاحية » التي تقتبس من القوانين المدنية « الغربية » تمثل خطرا كبيرا على واقع المجتمع الإسلامي .

---

(1) جوميير المرجع السابق . ص 179 . تفسير المنار ، الجزء الرابع ، ص 364-370 .

(2) جوميير . المرجع السابق . ص 181 . تفسير المنار ، الجزء الرابع ص 370 .

وبالنسبة لرشيد رضا ، ففي الوقت الذي نجد فيه أن رأيه قد تعارض مع رأي محمد عبده ، فإنه قد تطابق مع رأي قطب . فرشيد رضا عرض لبعض مبادئ تعدد الزوجات التي قال بها قطب .

ونضيف هنا ما قاله رشيد رضا وذكره جومبير أنه لا يوجد في أوروبا رجل إلا وقد ارتكب الزنا سواء علانية أو خفية[1] .

أكد قطب نقطتين هامتين :

(1) أن زواج الرسول من زينب بنت جحش لم تكن له أسباب سياسية أو عقلية فقط ــ كما يقول رشيد رضا[2] ــ وإنما كانت له أسباب عاطفية أيضا . فالرسول ، مثله في ذلك مثل كل البشر ، كان يتمتع بعواطف ومشاعر سامية .

(2) أن نظام التمتع بالسبايا ، غير المسلمات ، في وقت الحرب ، كان حلا جيدا ساهم في التغلب على إحدى الظواهر التي واجهت المجتمع الإسلامي الأول .

وكنتيجة طبيعية ، قيد كتاب الظلال الطلاق إلى أقصى درجة . في حين أن رشيد رضا قد عرض القوانين التشريعية المنظمة للطلاق ، واصفا إياها بأنها على درجة من العقلانية والتدرج ، مما يجعلها أكثر تقدما مقارنة بالقوانين والقواعد المدنية « العلمانية » المعمول بها في أوروبا .

ونكرر هنا أيضا ما رآه قطب بأن القوانين الغربية ، التي تعطي للطلاق صيغة قضائية ، هي قوانين تعتمد على الكذب والتدليس ، كما أنها تشجع على التمزق الأسري ، وانتشار الزنا . هذه القوانين تحط من شخصية المرأة ومن قيمة العلاقات الزوجية .

نضيف إلى ذلك أن قطبا لا يقرّ الطلاق إلا في إطار ما تفرضه النصوص القرآنية . وعلى ذلك ، فإنه لا يقبل بما يسمى « طلاق البدعة » (وهو الطلاق

---

(1) جومبير المرجع السابق ص 183 . تفسير المنار ، الجزء الرابع ص 351 .

(2) نفس المرجع . ص 184 . تفسير المنار ، الجزء الرابع ، ص 370-374 .

بالثلاث في طلقة واحدة) ، وذلك حتى تظل أمام الزوجين فرصة للتراجع ، وحتى يتم الطلاق في خطوات متدرجة ، كما عرضها في الظلال .

ودون أن يركز على طلاق « الخلعة » الذي تطلبه الزوجة ، أبدى قطب تحفظه حول تطبيق فكرة « الطلاق القضائي » في المجتمع الإسلامي .. حيث يرى في ذلك « تقليدا للوباء الإسكندنافي » الذي لا يتضمن المحظورات التي فرضها القرآن لوقوع الطلاق .. إذن ، وعلى خلاف الأفكار التي يقول بها « المثقفون » المسلمون « المعاصرون » ، فإن قطبا لا يرى في ذلك « الطلاق القضائي » أي مظهر من مظاهر تحرير المرأة .. بل على العكس ، ففي تقديره أن إمكانية الطلاق الشرعي المتعقل والمتدرج هو في جوهره مظهر من مظاهر تحرير المرأة وحصولها على حقوقها .. يتشابه ذلك بتقييد تعدد الزوجات بالعدل بينهن أو إباحة التعدد في ظروف بعينها .

في الواقع ، أن منطق قطب حول مثالية العلاقات الزوجية والأسرية ، والأفكار التي عرضها ودافع عنها في هذا المجال ، تعتبر أكثر وضوحا وصراحة ، مقارنة بما عرضه محمد عبده ورشيد رضا . أما فيما يتعلق بالزواج ، فقد ركز قطب بقوة — على خلاف كل المذاهب الفقهية – على الحرية المطلقة لكل من الشاب والفتاة في اختيار شريك الحياة . فالزواج هو رابطة بين زوجين ، ذكر وأنثى ، على أساس من شريعة الله ، وهذا ما لم يشر إليه الكثير من الفقهاء ، الذين اعتبروا أن عقد الزواج هو مجرد عقد كغيره من العقود ، يكون موضوعه الفتاة المتزوجة ، ويكون المهر أو الصداق جزءا ضروريا وركنا أساسيا لصلاحية العقد .

إذا كان محمد عبده قد ذهب إلى نفس المعنى الذي قال به قطب عند تناوله لتعدد الزوجات ، فإن قطبا لم ير أي تعارض بين مفهوم الزواج كرابطة كاملة بين زوجين ، وبين مفهوم تعدد الزوجات ، فكما سبق ورأينا فإنه يرى أن تعدد الزوجات — بخلاف الطلاق — يمكنه أن يتيح للزوج أن يحتفظ إلى النهاية بزوجته الأولى ، إنها فكرة يمكن الدفاع عنها مقارنة بما كان موجودا في النظام المعمول به في ظل البرجوازية في أوروبا الرومانية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وأيضا مقارنة بنظام المبادلة أو الطلاق التعسفي أو الودي ، أو غير ذلك من المظاهر التي نجدها منتشرة في أوروبا في عصرنا الحاضر .

إن ما يثير الانتباه حقا في موضوع الطلاق في الإسلام هو أن الرجل ـــ وحده فقط ـــ له الحق والسلطة في التطليق (حتى في طلاق الخلع) . إن هذا المبدأ لم يناقش أو يوضح إلا في إطار الحاجة الطبيعية « لرئيس » يقود الأسرة ، هذه « الرئاسة » من الصعب أن تقوم بها المرأة ، إننا نجد أنه من غير المقبول أن يكون للمرأة الحق في « قيادة » الأسرة . وهذا ما نجده في الشرق الأوسط ، وحسب ما تقرره النصوص القرآنية التي تقرر للرجل « الرئاسة الطبيعية » [1] .

نشير أيضا إلى بعض الأفكار الجديدة التي عرضها كتاب الظلال مقارنة بتفسير المنار : ففي موضوع الزنا ، نجد أن تفسير المنار[2] – حسب تفسيره للنص القرآني – يقدّر أن الزنا لا يعني فقط الزنا بين الرجل والمرأة ، والعلاقات الجنسية بين الشباب غير المتزوج ، إنما يدخل فيه أيضا العلاقات الجنسية بين الرجال الشواذ (اللواط) ، ويكون فيه العقاب هو الموت . بينما مر قطب سريعا على موضوع اللواط . وركز على خاصية العفو والصفح عن الزنا للمرة الأولى .. ويكفر عنه بالجلد أو بالرجم الذي لا يصل إلى حد الموت .

من ناحية أخرى ، أعلن قطب ضرورة حظر الزواج على المسلم من المشركات أو الكتابيات ، في حين أن رشيد رضا[3] قد أباح زواج المسلم من المشركات « في الوقت الحاضر » مثل الهندوس والبوذيات واليابانيات ، ومن الكتابيات أيضا ، فهؤلاء جميعا يتميزون تماما عن المشركات في زمن الجماعة الإسلامية الأولى .

لقد فتح قطب الباب ـــ دون قصد مما لاشك فيه ـــ للمتشددين « القطبيين » الذين ظهروا في فترة السبعينات والثمانينات . هؤلاء الذين يقولون بإعادة إحياء الحياة

---

(1) سورة النساء ، آية 34 ، سورة البقرة ، آية 228 .

(2) جوميير المرجع السابق ، ص 186 ، 213 . تفسير المنار ، الجزء الثامن ، ص 517-522 ، الجزء السادس ، ص 181 - 182 . سورة النساء ، الآيات 15-17 ؛ سورة النور ، الآيات 2 - 10 .

(3) جوميير . المرجع السابق ، ص 213-214 . تفسير المنار ، الجزء السادس ص 185-196 .

الإسلامية الأولى على أساس إقامة علاقات زوجية وأسرية ، للمسلمين « الفعليين » بعيدا عن نظام الزواج ونظام الأسرة في المجتمع الجاهلي المعاصر[1] ، لقد ذهب أحدهم إلى تحريم الزواج من الزناة داخل مجتمع الجاهلية !

بالنسبة لموضوع البر بالوالدين ، فإن رشيد رضا قد أكد على ضرورة بر الأولاد بآبائهم[2] دون وضع شروط لذلك ، بينما وضع قطب شروطا للاستمرار في العلاقات بين الأولاد والآباء في حالة اختلاف الديانات . حيث يجب على الأولاد قطع علاقاتهم مع آبائهم « غير المسلمين » . هذا ما يقول به ويطبقه أعضاء الجماعات الإسلامية في الوقت الحاضر .

وفيما يتعلق باختيار الشبان من الفتيان والفتيات لشريك الحياة ، فإن قطبا قد اتفق في الرأي مع رشيد رضا[3] ، حيث تترك الحرية لكل من الفتى والفتاة لاختيار شريك حياته ، وشدد قطب بقوة على هذه الفكرة .

وفي احتجاب المرأة في البيت ولبس الحجاب أو الخمار ، كان قطب أكثر حسما وصرامة مقارنة بمحمد عبده ورشيد رضا ، كما أنه لم يرغب في أن يقدم في ذلك أي استثناء أو مزية ــ كما قدم التاريخ في السابق – للمرأة في الطبقة الغنية « الحضرية » .

لقد وجد الظلال ، هنا ، أصالته وتعمقه . فقد ساهم في نشر إحدى العادات القديمة « الشرق أوسطية » التي تميزت بها الصفوة من أهل المدينة ، وأضاف لهذا التقليد الطابع الإسلامي ، لينشر المساواة بين الجميع . وكان لانتشار هذا التقليد تأثير فعلي ، حيث خفف عن المرأة في الطبقات الاجتماعية المتوسطة بعض أعباء العمل الشاق الذي لا تتقاضى عنه الأجر المناسب .

---

(1) أوراق قضية التكفير والهجرة ص 1360-1546 . وردت في كتاب أحمد يحيى كامل : مواجهة الفكر المتطرف في الإسلام ، 1980 .

(2) المرجع السابق ص 189 . تفسير المنار ، الجزء الأول ص 366 ، الجزء الخامس ص 84-88 .

(3) نفس المرجع ص 187 . تفسير المنار ، الجزء التاسع ص 546-549 .

في هذا الإطار ، نجد أن تشدد قطب في هذه النقطة – وهو هنا يقتفي أثر المودودي ــ سيكون خطوة كبيرة في « الجهاد » من أجل حقوق المرأة المسلمة ، ولكنه لم يصل إلى حد تطبيق هذه الأفكار .

لقد اكتفى قطب بأن يعرض الأثر الفعال لاحتجاب المرأة في البيت ولبس الحجاب – من حيث المبدأ – وليس إطلاقا كما نرى في نظام الحريم – في حماية الفتيات والمرأة المتزوجة والمحصنات .

وهذا لا يتفق مع ما يفعله بعض « القطبيين » حديثا .. حيث أضفوا على الحجاب صفة « الزي الإسلامي » للمرأة .

ومن المهم حقا أن نذكر بهذه المناسبة ، أن من ضمن مطالب المرأة في الغرب الاستغلال التجاري لمفاتن المرأة وجسدها من خلال الإعلانات والصور ، حيث تظهر المرأة مجردة من ملابسها ، في حين أنه في الجانب الآخر نجد أن الصيحات تتعالى في المجتمع الإسلامي مطالبة ومنادية بتحرر المرأة في الملبس وعدم التقيد بالحجاب !

احتجاب المرأة في البيت أو حرية الخروج ، لبس الحجاب أو عدمه ، فالمرأة على جانبي البحر المتوسط ، شماله وجنوبه ، تظل هدفا وموضوعا لاستمتاع الرجل . لماذا ؟ هذا التساؤل الذي لم يتطرق إليه قطب أو غيره من المفكرين ، أليس هو من صميم نظرية العلاقات الزوجية والنظام الأسري .. ومن حقوق المرأة بوجه عام ؟

الفصــل الثـالث

اليهـود والمسيحيون في المجتمع الإسلامي

اليهود والمسيحيون في المجتمع الإسلامي

حاول قطب في كتاب الظلال أن يحدد وضع أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين داخل المجتمع الإسلامي ، وقد رأينا في الفصل الثاني كيف أن قطبا يقف موقفا حذرا من الزواج المختلط بين المسلمين وأهل الكتاب .. هذا يوضح نقطة هامة في محاولة الفصل داخل المجتمع بين أمة المسلمين وبين أمة اليهود وأمة المسيحيين . قد يكون في ذلك نظرة تقليدية لأهل الكتاب في الإسلام .

فالقرآن عندما قدم لتطور الأحداث المأساوية التي وقعت بين الرسول والطوائف في المدينة ، وبينه وبين النصارى في جزيرة العرب ، وبخاصة نصارى نجران ، فإنه قد عرض أيضا في بعض النصوص تشددا محسوسا ضد اليهود والنصارى في الجزيرة ، حتى تم إجلاء اليهود من المدينة طائفة بعد الأخرى .

إن مختلف الآيات القرآنية التي نزلت بعد ذلك توضح دعوة الإسلام إلى التسامح الديني مع أهل الكتاب ونبذ كل دعوة للعنف والاضطهاد .

فما هو إذن موقف كتاب الظلال من هذا الموضوع ؟ ماذا يقول الظلال في وضع « أهل الكتاب » داخل المجتمع الإسلامي « المثالي » ؟ ما هو تقديره للديانات ، اليهودية والمسيحية ، التي بشرت بالإسلام ؟ كيف يصف معارضة اليهود والنصارى للإسلام عند بداية الدعوة ، وما نراه منهم من مواقف ضد الإسلام في الوقت الحاضر ؟ هل يتكلم الكتاب عن القتال والحرب ضد اليهود والنصارى ، كما يشير المعنى في بعض الآيات ؟ في هذا الإطار ، هل يمكن أن نصف كتاب الظلال « بالراديكالية » مقارنة بمواقف تفسير المنار ؟

المبحث الأول

التسامح والجزية

أشار قطب في كتاب الظلال إلى التسامح الكبير الذي فرضه الله في القرآن في مواجهة دسائس ومؤامرات اليهود والنصارى في بداية الدعوة ، فالقرآن يعلم المسلمين — كما علم الجماعة المسلمة الأولى — كيف يتقون كيدهم ويدفعون أذاهم ، ولكنه لا يحرضهم على مقابلة الدس والمكر بمثله .

فالمسلم بسماحة الإسلام يتعامل مع الناس جميعا وذلك « حبا لخير البشر لا حقدا على الذين آذوه » ، إذا كان المسلمون يعملون على تحطيم الحواجز الحائلة دون إيصال هذا الخير للناس ، فإن ذلك ليس حبا للغلب والاستعلاء والاستغلال ، ولكن من أجل إقامة النظام القويم الذي يستمتع الجميع في ظله بالعدل والسلام . لا لتركيز راية قومية أو لبناء إمبراطورية .

إن سماحة الإسلام هي حقيقة تؤكدها وتقررها النصوص الكثيرة في القرآن والسنة ، ويترجمها تاريخ الجماعة الإسلامية الأولى . وهي تعمل في الأرض وفق هذه النصوص .

إذن فكرة كتاب الظلال واضحة تماما وهي : التسامح في وجه كل من يكنّ للإسلام والمسلمين العداوة .

ومن هذا المنطلق كان فرض الجزية على البالغين من أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين شرطا عادلا فرضته الضرورة والظروف .. وذلك بحكم طبيعة التعارض والتصادم الذاتيين بين منهج الله ومنهج الجاهلية الممثلة في عقيدة أهل الكتاب

وواقعهم .. كما أن الواقع التاريخي قد أثبت حقيقة التعارض وطبيعة التصادم ، وعدم إمكان التعايش بين المنهجين .

وكان على الإسلام أن ينطلق لإزالة العوائق المادية من وجهه .. ولتحرير الإنسان من الدينونة بغير دين الحق ، على أن يدع لكل فرد حرية الاختيار ، إذن فالوسيلة العملية لضمان إزالة العوائق المادية وعدم الإكراه على اعتناق الإسلام في الوقت نفسه ، هي كسر شوكة السلطات القائمة على غير دين الحق ، حتى تستسلم ، وتعلن استسلامها بقبول إعطاء الجزية فعلا .

عندئذ ــ كما يذكر قطب « الظلال 136 » ــ تتم عملية التحرير فعلا ، فإن لم يقتنع الفرد بقي على عقيدته وأعطى الجزيرة ، لتحقيق عدة أهداف :

1 ــ أن يعلن بإعطائها استسلامه وعدم مقاومته بالقوة المادية للدعوة إلى دين الله الحق .

2 ــ أن يساهم في النفقات للدفاع عن نفسه وماله وعرضه وحرماته التي يكفلها الإسلام لأهل الذمة ويدفع عنها الاعتداء من الداخل والخارج .

3 ــ المساهمة في بيت مال المسلمين الذي يضمن الكفالة والإعاشة لكل عاجز عن العمل بما في ذلك أهل الذمة . لا تفرقة بينهم وبين المسلمين دافعي الزكاة .

إن الجزية هي نتيجة لجهاد الإسلام ومهادنته للمعسكرات المعادية له في زمن من الأزمان : « الإسلام لا يهادن هذه المعسكرات المعادية إلاّ أن تعلن استسلامها لسلطانه في صورة أداء الجزية ، ضمانا لفتح أبوابها لدعوته بلا عوائق مادية من السلطات القائمة فيها » ، في ذلك الوقت كان الحكام النصارى تابعين للسلطة البيزنطية .

إذن عندما يدفع أهل الذمة الجزية السنوية الواجبة عليهم ، فستكون هناك هدنة بينهم وبين المسلمين وتصبح العلاقات بينهم حسنة ، ولن يكون لأهل الذمة عذر في القيام بأعمال عدائية ضد المسلمين بالرغم من العداء المستحكم في نفوسهم بالنسبة للإسلام والمسلمين . ولكن المسلمين في ذلك الوقت سيتعاملون معهم بالحسنى

« فالإسلام لا يمانع أن يعامل المسلم بالحسنى من لا يحاربه في دينه ، ولو كان على غير دينه » .

ولكن الولاء شيء آخر غير المعاملة بالحسنى ، الولاء ارتباط وتناصر وتواد ، وهذا لا يكون إلا للمؤمنين الذين يرتبطون معه في الله ، ويخضعون معه لمنهجه في الحياة .

ويوضح قطب أن من الطبيعي أيضا أن الأهلية القانونية لأهل الكتاب في المجتمع الإسلامي تكون محدودة « إن الإسلام لا يستشهد على المسلمات – حين يقعن في الخطيئة — رجالا غير مسلمين » . ويشرح سبب ذلك : لأن غير المسلم غير مأمون على عرض المسلمة ، وغير موثوق بأمانته وتقواه ، ولا مصلحة له ولا غيرة كذلك على نظافة هذا المجتمع وعفته ، ولا على إجراء العدالة فيه . فاليهود والنصارى كانوا دائما يلبسون الحق بالباطل ، وكانوا يكرهون كل خير للمسلمين ويتربصون بهم السوء .

من ناحية أخرى ، يشير قطب (الظلال 599) إلى أنه لا يجب الاستطراد إلى الخلافات الفقهية حول من تؤخذ منهم الجزية ومن لا تؤخذ منهم . ولا عن مقادير هذه الجزية ولا عن طرق ربطها ومواضع هذا الربط .. فالقضية برمتها ليست معروضة اليوم .. وإذا كان المنهج الإسلامي منهجًا واقعيًا جادًا ، فإن نقطة البدء هي نقطة البدء في أول عهد الناس برسالة الإسلام .. أن يوجد في بقعة من الأرض ناس يدينون دين الحق ، ويدينون لله وحده بالحاكمية والسلطان والتشريع ويطبقون هذا في واقع الحياة . ويومئذ فقط ، سيكون هناك مجال لتطبيق النصوص القرآنية . ويومئذ يجوز الدخول في تلك المباحث الفقهية والاشتغال بصياغة الأحكام .

المبحث الثاني

اليهودية والمسيحية في القرآن

عرض قطب في كتاب الظلال الحجج والبراهين التي قدمها اليهود والمسيحيون في إطار دعوتهم العقائدية « الظلال 119 — 125 ، 411 - 413 » . هذه الحجج والبراهين تناولتها النصوص القرآنية بكل دقة ووضوح .

فالقرآن قد عرض في جزء كبير من سورة البقرة لادعاءات اليهود والنصارى ولحججهم وجدلهم ومحالهم إلى ملّة إبراهيم وما إذا كان يهوديا أو نصرانيا . وأكد القرآن موقفه غير القابل للجدل والمحاجة . وهو أن إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ... بل كان أصل ملّة الإسلام . فإبراهيم كان قبل اليهودية وقبل النصرانية ، وكان حنيفا مسلما ، كما أن إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا أيضا أسبق من موسى وأسبق من اليهودية والنصرانية ، وكانوا على الحنيفية الأولى وعلى الإسلام ، مما يبين المفارقة التامة في كل اتجاه بين اليهود المعاصرين وبين إبراهيم وأبنائه والأسباط .

من النقاط الهامة في الفصل بين اليهودية والإسلام موضوع تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، ويشير قطب في ذلك إلى أن توجُّه المسلمين في صلاتهم إلى بيت المقدس — وهو قبلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى — كان سببا في اتخاذ اليهود إياه ذريعة للاستكبار عن الدخول في الإسلام – إذ أطلقوا في المدينة ألسنتهم بالقول ، بأن اتجاه محمد ومن معه إلى قبلتهم في الصلاة دليل على أن دينهم هو الدين ، وقبلتهم هي القبلة ، وأنهم هم الأصل .. ولكن بعد ذلك جاء الأمر القرآني بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام بمكة .

هذا يدفعنا إلى تناول قضية الميثاق أو العهد « بين الله وخلقه من البشر » . في ذلك يقرر قطب أن ذلك العهد يرجع إلى بدء الخلق : حيث استخلف الله آدم في الأرض ومنحه مقاليد على عهد من الله وشرط . فأعطاه الله المعرفة التي يعالج بها هذه الخلافة ، على شرط أن الإنسان لا يعبد إلا الله وحده وأن يحيا على تطبيق شريعته .

هذا هو العهد الذي تجدد على عهد إبراهيم ، وعلى عهد استخلاف بني إسرائيل ، ثم على عهد الخلافة وتسليم مقاليدها للأمة الإسلامية الوافية بعهد الله .

ويذكر قطب أن أهل الكتاب حاولوا بادعاءاتهم احتكار عهد الله مع إبراهيم ، بأن يجعل في بيته النبوة ، واحتكار الهداية والفضل كذلك . ولكن هؤلاء كانوا قد خاسوا بعهدهم مع الله ، ونقضوا ذمة أبيهم إبراهيم . وعرفوا الحق ولبسوه بالباطل . واستحبوا الكفر على الإيمان ، عندئذ انتقل العهد إلى الأمة المسلمة التي حافظت عليه ، وحرصت عليه واستمسكت به .

فاليهود هم الذين يجعلون للأخلاق مقاييس متعددة . وكانوا يتعالون على غيرهم من قبل ، ويتعالمون لأنهم أهل الكتاب وهؤلاء « أميون » . وكانت الأمانة بين اليهودي واليهودي . أما غيرهم من « الأميين » فلا حرج على اليهود من غشهم وخداعهم . زاعمين أن إلـٰههم ودينهم يأمرهم بهذا ، واشتروا بعهد الله وبأيمانه ثمنا قليلا . فانتزع الله منهم هذا العهد ، وأناط الأمانة بغيرهم .

ويضيف قطب أن المسيحيين أيضا قد نقضوا عهد الله ، عندما أعلنهم عيسى أنه جاء ليسلم أمانة الدين الإلـٰهي التي حملها بعد موسى إلى الرسول الذي يبشر به .

وقد أشار كل من نولدك سوالي ، وبلاشير ـــ عند تفسيرهم للآية السادسة من سورة الصف – إلى أن المسيح قد بشّر برسول اسمه « أحمد » يكون خاتم الأنبياء . كما قدم الرازي تفسيرا مقاربا لما ورد في الإصحاح الرابع عشر والخامس عشر من إنجيل يوحنا حول بعث رسول يكون الحلقة الأخيرة من السلسلة الطويلة للرسل والأنبياء . وبيّن الرازي أيضا أن معنى كلمة « بارقليط » ، التي وردت في الإنجيل ، هو الرسول أو النبي .

في كل الأحوال ، إن عهد الله مطلق يشمل كل عهد ، وميثاق الله يشمل كل ميثاق ، فيترتب على العهد الإلهي والميثاق الرباني كل العهود والمواثيق مع البشر . سواء مع الرسول أو مع الناس ، ذوي قربى أو أجانب . فالذي يرعى العهد والميثاق فهو يرعى عهد الله المأخوذ على الفطرة في صورة الناموس الأزلي .

إنه ميثاق واحد ومنهج واحد ، وأمانة واحدة يتسلمها كل نبي ، حيث شاء الله أن يرسل كل رسول إلى قومه بلسانهم ، حتى إذا كانت الرسالة الأخيرة . أرسل الله محمدا ، ولكي يقطع الله الحجة على العرب باستمرارهم في الكفر . فقد جاءهم رسول منهم . وأنزل عليه الكتاب بلغتهم . رسول للناس كافة . فهو آخر رسول من الله للبشر ، فناسب أن يكون رسولاً إليهم أجمعين .

ولكن ، ألم تكن دعوة محمد هي نفسها دعوة عيسى ، وهي في ذات الوقت مهمة الكنيسة ؟ حول هذه النقطة ، كان قطب حاسما وقاطعا إلى درجة كافية . ونرى ذلك فيما ذكره في كتاب الظلال « 399-403 ؛ 376 ، 401 ، 414 ، 3198 - 3201 ، 802 ، 998-999 ... وغيرها » .

فقد ذكر قطب أن رسالة عيسى كانت لبني إسرائيل ، فهو أحد أنبيائهم ، ومن ثم كانت التوراة التي نزلت على موسى – وفيها الشريعة المنظمة لحياة الجماعة الإسرائيلية ــ هي كتاب عيسى كذلك . فالتوراة كانت كتاب عيسى كالإنجيل . فهي أساس الدين الذي جاء به . والإنجيل تكملة وإحياء لروح التوراة ، ولروح الدين التي طمست في قلوب بني إسرائيل ... وهذا ما يخطئ الكثير من المتحدثين عن المسيحية فيه ، فيغفلون التوراة ، وهي قاعدة دين المسيح وفيها الشريعة التي يقوم عليها نظام المجتمع ، ولم يعدّل فيها الإنجيل إلا القليل . أما الإنجيل فهو نفخة إحياء وتجديد لروح الدين ، وتهذيب لضمير الإنسان بوصله مباشرة بالله من وراء النصوص .

يجب أن نشير هنا إلى أن كلمة « الإنجيل » جاءت مفردة دائما في القرآن ... إن من طبيعة الدين المسيحي أن يتضمن تنظيما لحياة الناس بالتشريع . ولا يقتصر

على الجانب التهذيبي الأخلاقي وحده ، ولا على المشاعر الوجدانية وحدها ، ولا على العبادات والشعائر وحدها كذلك . فما الدين إلا منهج الحياة الذي أراده الله للبشر ، ونظام الحياة الذي يربط حياة الناس بمنهج الله .

ولا يمكن أن ينفك عنصر العقيدة الإيمانية عن الشعائر التعبدية ، عن القيم الأخلاقية ولا عن الشرائع التنظيمية . وهذا ما حدث للمسيحية . حيث انفصل فيها الجانب التشريعي التنظيمي عن الجانب الروحاني التعبّدي الأخلاقي . مما انتهى بالمسيحية إلى أن تكون نحلة بغير شريعة . وهنا عجزت عن أن تقود الحياة الاجتماعية للأمم التي عاشت فيها .

يقرر قطب أن ذلك لم يكن أمرا عاديا في الحياة البشرية ، إنما كان كارثة ضخمة تنبع منها الشقوة والحيرة ، اللتان تتخبط فيهما الحضارة المادية اليوم . سواء في البلاد التي لا تزال تعتنق المسيحية أو التي نقضت عنها المسيحية وهي في الحقيقة لم تبعد كثيرا عن الذين يدعون أنهم مسيحيون .

فالمسيحية كما جاء بها السيد المسيح ، وكما هي طبيعة كل دين يستحق كلمة دين ، هي الشريعة المنظمة للحياة . هذا الدين الذي يدين له كل مؤمن به أن يؤدي شهادة لهذا الدين . وهو يؤدي هذه الشهادة كذلك حتى يجعل هذا الدين قاعدة حياته ونظام مجتمعه ، وشريعة نفسه ومجتمعه . وجهادًا لقيام هذا المجتمع وتحقيق هذا المنهج . هو شهادة أيضا لهذا الدين .

ويعلن قطب أن الحواريين قد ذكروا الإسلام بمعناه الذي هو حقيقة الدين . ودعوا الله أن يكتبهم مع الشاهدين لدينه . فهذا هو الإسلام كما فهمه الحواريون . وكما هو في ضمير المسلمين الحقيقيين . وهنا ينصح قطب بضرورة الرجوع إلى بحث المودودي حول « شهادة الحق » .

ولكن .. فبعد هذا الجيل من الحواريين ، ظهر علم اللاهوت المسيحي ، وبدأت شبهات النصارى في عيسى ونشأته ومولده . وأن عيسى هو الرب . أو هو الله . أو هو الابن . أو هو الأقنوم اللاهوتي الناسوتي ، إلى آخر ما انتهت إليه التصورات المنحرفة الغامضة المجانبة لفكرة التوحيد التي جاء الإسلام ليعلنها ناصعة واضحة .

إنه مع التوحيد الواضح المخلص ، لا مكان لعبودية إلا لله ، ولا مكان للاستمداد والتلقي إلا من الله . لا في شريعة أو نظام . ولا في أدب أو خلق . ولا في اقتصاد أو اجتماع .

ومن ثم كان التميز والتفرد لطبيعة الحياة الإسلامية بإعلان الوحدانية المطلقة والتوجه إلى الله في كل نشاط وكل اتجاه . وهنا يؤكد قطب أنه بعد قرون من التصورات الفاسدة والمنحرفة فإنه قد ثبت وتقرر وحدة الدين ووحدة الحق . حيث يقرر القرآن وحدانية الجهة التي تتنزل منها الأديان والكتب والرسالات . وأن القرآن هو تصديق لما نزلت به التوراة والإنجيل ومبين للحق الذي تضمنته الكتب المنزلة .

ويشير قطب بعد ذلك إلى الفِرَق والطوائف اليهودية التي كانت موجودة عندما جاء المسيح . وكيف أن لكل من هذه الطوائف موقفا خاصا من بعثة المسيح . من أهم هذه الطوائف : طائفة الصدوقيين . نسبة إلى « صدوق » . وإليه وإلى أسرته ولاية الكهانة من عهد داود وسليمان . وحسب الشريعة لابد أن يرجع نسبه إلى هارون أخي موسى . وكانوا بحكم وظيفتهم واحترافهم متشددين في شكليات العبادة وطقوسها . وكانوا ينكرون « البدع » ، في الوقت الذي يترخصون في حياتهم الشخصية ، ويستمتعون بملاذ الحياة . فلما جاء المسيح بالتوحيد الذي أعلنه وجاء معه بشريعة التسامح قبل الشكليات والطقوس حاربه المحترفون الذين يقومون على مجرد الأشكال والطقوس . وهنا أضاف قطب : أنه يكاد يتصور رجال الدين المحترفين في زماننا هذا . فهو طابع واحد مكرر لهؤلاء الرسميين المحترفين من رجال الدين ، الذين يراهم الناس في كل حين !

وعندما ذهب المسيح إلى ربه ، اختلف أتباعه من بعده ؛ اختلفوا شيعا وأحزابا . بعضها يؤلهه . وبعضها ينسب لله سبحانه بنوته . وبعضها يجعل الله ثالث ثلاثة أحدها المسيح بن مريم . ولقد حرفوا الإنجيل الذي أنزل على عيسى . وظهرت أربعة أناجيل . كلها كتبت بعد فترة من عهد المسيح . وقد كتبت معها أناجيل كثيرة . ولكن هذه الأناجيل الأربعة اختيرت قرب نهاية القرن الثاني للميلاد ، واعتبرت رسمية واعترف بها .

ومن بين الأناجيل التي كتبت في فترة الأناجيل الكثيرة : إنجيل برنابا .. وهو يخالف الأناجيل الأربعة المعتمدة في قصة قتل وصلب المسيح .. ومن ناحية أخرى ، يذكر قطب أن هناك فرقا كبيرا بين الحواريين وبين أصحاب محمد ، فالحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى ، فآمنوا به ، ومع هذا فهم بعد ما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا ، يطلبون خارقة جديدة . تطمئن بها نفوسهم . ويعلمون منها أنه صدقهم . ويشهدون بها له لمن ورائهم ، أما أصحاب محمد ، فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم . ولقد صدّقوا رسولهم . ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن .

أشار قطب أيضا إلى أن قصة المائدة ــ كما وردت في القرآن ــ لم ترد في كتب النصارى . ولم تذكر في هذه الأناجيل التي كتبت بعد عيسى بفترة طويلة . لا يؤمن معها على الحقيقة التي تنزلت من عند الله . وهذه الأناجيل ليست إلا رواية بعض القديسين عن قصة عيسى . وليست هي ما أنزله الله عليه وسماه الإنجيل الذي آتاه . إن ما ورد في هذه الأناجيل ، وبخاصة ما ورد في إنجيل متى ، كان صورة أخرى عما نزل به القرآن .

أما عن المسيح ذاته ، فإن قطبا يوضح أن ما جاء من القصص في القرآن حول مولد مريم وتاريخها ، ومولد عيسى وتاريخ بعثته وأحداثها ، يظهر بطريقة لا تدع مجالا لإثارة أي شبهة في بشريته الكاملة . وأنه واحد من سلالة الرسل وطبيعته من طبيعتهم ، ويفسر الخوارق التي صاحبت مولده وسيرته تفسيرا لا تعقيد فيه ولا غموض .

إن معجزة خلق المسيح مثلها في ذلك معجزة خلق الإنسان الأول « آدم » . من غير أب وغير أم . فلماذا كان ذلك ؟

يجيب قطب عن التساؤل بقوله : لقد أراد الله أن يضرب للناس مثل عيسى بن مريم ليذكرهم بحرية القدرة وطلاقة الإرادة ، وأنها لا تحتبس داخل النواميس التي تختارها . ولم يتكرر حادث عيسى لأن الأصل هو أن تجري السنة التي وضعها الله وأن ينفذ الناموس الذي اختاره .

فالمسيح قد خلق مباشرة « بكلمة من الله » ، إنها نفخة من روح الله ، ولكن ما هذه النفخة ؟ أهذه النفخة هي الكلمة ؟ والكلمة هي عيسى ، أو هي التي منها الكينونة ؟

يخبرنا قطب أن هذه التساؤلات وأمثالها من أمور الغيب . ومن نظام الخلق . ويجب أن نجهلها . لأنها لا تزيد مقدرتنا على الاضطلاع بوظيفة خلافة الأرض ، مادام إنشاء الحياة ليس داخلا في تكليف الاستخلاف . ويتساءل قطب عن كلمة « روحنا » في سورة مريم . أهي نفسها التي في سورة التحريم ؟ وهل مدلولها واحد ؟ ويميل في رأيه إلى أنها ذات مدلولين : فهي في سورة مريم تعني جبريل ، الروح الأمين ، وهو رسول الله إلى مريم . أما في سورة التحريم ، فهي تعني الروح الذي نفخ الله منه في آدم . فإذا هو إنسان . ونفخ منه في فرج مريم ، فإذا البويضة حية مستعدة للنمو .

ويعود قطب ليؤكد أننا لا ندرك شيئا عن ماهية الروح بمعنى جبريل ، ولا عن ماهية الروح بالمعنى الآخر ، فكله غيب .

من التصورات المنحرفة الأخرى لشبهات النصارى التي وضحها القرآن وعرضها قطب في كتابه فكرة أن المسيح جاء مخلصا للبشر وأنه يتحمل خطاياهم . فهذه الفكرة تخالف أن الإنسان لا يحمل وزر إنسان آخر .

الفكرة الأخرى التي رأى قطب أنه تم تحريفها هي قضية قتل عيسى وصلبه . حيث إن هذه القضية يخبط فيها اليهود ، كما يخبط فيها النصارى بالظنون . فاليهود يقولون إنهم قتلوه . والنصارى يقولون إنه صلب ودفن ، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام .

فما من أحد من هؤلاء أو هؤلاء يقول ما يقول عن يقين ، فقد تضاربت الروايات وتداخلت . بحيث يصعب الاهتداء فيها إلى يقين ، إلا ما يقصه رب العالمين . وما يقرره القرآن : إنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه . وإن الله رفعه إليه .

والقرآن لا يدلي بتفصيل في هذا الرفع . أكان بالجسد والروح في حالة الحياة ؟ أم كان بالروح بعد الوفاة ؟ ومتى كانت هذه الوفاة وأين ؟ فهذه كلها أمور غيبية تدخل في المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله .

وهنا يميل قطب إلى الرواية التي وردت في إنجيل برنابا ، حيث تم قتل وصلب يهوذا ، عندما ألقي عليه شبه المسيح . وأن المسيح قد رفع إلى السماء في صحبة الملائكة التي تسبح إلى الأبد .

إن فكرة رفع المسيح أو صعود المسيح إلى السماء هي دلالة على أن الشهداء هم أناس قتلوا وفارقتهم الحياة التي نعرف ظواهرها . ويفارقون الحياة كما تبدو لنا في ظاهرها . ولكن ـــ كما يقول قطب في تفسيره للآية 169 من سورة آل عمران ـــ هؤلاء الشهداء ليسوا أمواتا ولكنهم أحياء عند ربهم . ونحن لا نعرف طبيعة هذه الحياة . فهي من الغيبيات التي لا يعلمها إلا الله .

من الغيبيات التي يوضحها القرآن لأهل الكتاب : النار . حيث يذكر قطب أن كل ما يقوله أهل الكتاب من أنهم لن يدخلوا النار إلا أيامًا معدودات ، وأن كل ما رتّبوه على هذا التميع في تصور عدل الله في جزائه من أمانٍ خادعة هو باطل لا يقوم على أساس .

أمر آخر من الأمور الغيبية : أمر الساعة . فيعرض قطب أنه قد وردت أحاديث شتى عن نزول عيسى إلى الأرض قبيل الساعة ، وهو ما تشير إليه الآية ﴿ **وإنه لعلم للساعة** ﴾ ، بمعنى أنه يعلم بقرب مجيئها ، فذلك كله من الغيب . حدثنا عنه الرسول وأشار إليه القرآن .

خلاصة القول ، حول المسيح ، إن الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية قد اختلفتا حول بشرية المسيح . وظلتا مختلفتين . كما اختلفوا أيضا حول موت المسيح .

فجاء القرآن يقول كلمة الفصل بين هؤلاء جميعا . وعندما حرّف اليهود التوراة وعدّلوا تشريعاتها ، جاء القرآن يثبت الأصل . ويحدث الجميع حديث الصدق عن تاريخهم وأنبيائهم .

إن هؤلاء اليهود والنصارى يمثلون المجموعة التي تكوِّن أهل الكتاب في جزيرة العرب ؛ المجموعة التي آتاها الدين والكتاب ، وعاشوا في بيئة من المشركين .

هذه المجموعة من أهل الكتاب التي نزلت فيها النصوص القرآنية أوائل العهد بالهجرة ، هؤلاء أرادوا أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله — إلى الطاغوت — قد يكونون جماعة من المنافقين . وقد يكونون جماعة من اليهود الذين كانوا يُدعون — حين تجد لهم أية قضية مع بعضهم البعض أو مع أهل المدينة – إلى التحاكم إلى كتاب الله فيها .. التوراة أحيانا ، وإلى حكم الرسول أحيانا – كما وقع في بعض الأقضية – فيرفضون ويتحاكمون إلى العرف الجاهلي الذي كان سائدا .

لقد زعموا أنهم مؤمنين . ولكن يريدون أن يتحاكموا إلى غير ما أنزل الله . فأشار القرآن إلى هؤلاء المنافقين الذي يظهرون الإسلام ، وأصبحوا موالين لليهود في المدينة ، وعملوا للمكيدة ضد دين الله ، والجماعة المسلمة ، وللقيادة المسلمة كيدا شديدا .

ولذلك نزل القرآن لبيان معنى الدين ، وحد الإيمان ، وشرط الإسلام . كما عمل في نفس الوقت على تطهير المجتمع الإسلامي ، وفي ذلك يشير قطب إلى الآيات العديدة من القرآن التي نزلت لإنصاف يهودي .. فرد ، من اتهام ظالم ، وجهته إليه عصبة من المسلمين من الأنصار ، نزلت الآيات لتنصف يهوديا من تلك الفئة التي تؤذي الرسول أشد الإيذاء ، وتنصب لدعوته وتكيد له وللمسلمين . وكانت المسألة هي تطهير هذا المجتمع الجديد . إذ تعلق الأمر بإقامة العدل بين الناس . وإقامة هذا المجتمع على القاعدة الطيبة النظيفة التي لا تدنسها شوائب الهوى والعصبية .

من جهة أخرى ، يوضح لنا قطب حكمة الله في اختيار الجزيرة العربية موضعا لهذه الرسالة الأخيرة « الظلال 3142-3146 ؛ 819 ، 449 ، 450 ؛ 551 » : لقد كانت مكة أصلح مكان على وجه الأرض لنشأة الإسلام يومئذ . كانت الأرض المعمورة – عند مولد هذه الرسالة الأخيرة – تكاد تتقاسمها إمبراطوريات أربع : الرومانية ، والفارسية والهندية والصينية . وكانت الإمبراطوريتان الرومانية والفارسية هما ذواتي الأثر الحقيقي في الحياة البشرية وتطورها .

وكانت الديانتان السماويتان قبل الإسلام – اليهودية والنصرانية — قد انتهيتا إلى

أن تقعا — في صورة من الصور — تحت نفوذ هاتين الإمبراطوريتين ، حيث تسيطر عليهما الدولة في الحقيقة ، ولا تسيطران على الدولة ، ولقد وقعت اليهودية فريسة لاضطهاد الرومان تارة ، ولاضطهاد الفرس تارة . أما المسيحية فقد ولدت في ظل الدولة الرومانية التي اضطهدت العقيدة الجديدة . فلما انقضى عهد الاضطهاد الروماني ، ودخل الإمبراطور الروماني في المسيحية ، دخلت معه أساطير الرومان الوثنية ، ومباحث الفلسفة الإغريقية الوثنية كذلك ، وطبعت المسيحية بطابع غريب عليها . فلم تعد هي المسيحية السماوية الأولى .

في هذا الوقت جاء الإسلام لينقذ البشرية كلها . وكان لابد وأن يبدأ رحلته من أرض مكة . جاء الإسلام ليؤكد ميلادًا جديدًا للإنسان . ميلادًا للإنسان المتحرر من العبودية للعباد ، بالعبودية لرب العالمين .

ومن ثم لم تقم في تاريخ الإسلام « كنيسة » تستذل رقاب الناس ، بوصفها الممثلة لابن الله ، أو للأقنوم المتمم للأقانيم الإلٰهية المستمدة سلطانها من سلطان الابن أو سلطان الأقنوم . ولم تقم كذلك في تاريخ الإسلام سلطة مقدسة تحكم « بالحق الإلٰهي » زاعمة أن حقها في الحكم والتشريع مستمد من قرابتها أو تفويضها من الله !

وقد ظل « الحق المقدس » للكنيسة والبابوات في جانب ، وللأباطرة الذين يزعمون لأنفسهم حقا مقدسا كحق الكنيسة في جانب آخر ، ظل هذا الحق أو ذاك قائما في أوروبا باسم « الابن » أو مركب الأقانيم . حتى جاء « الصليبيون » إلى أرض الإسلام مغيرين . فلما ارتدوا أخذوا معهم من أرض الإسلام بذرة الثورة على « الحق المقدس » . وكانت فيما بعد ثورات « مارتن كينج » و « كالفن » و « زنجلي » ، المسماة بحركة الإصلاح . على أساس من تأثير الإسلام . وهنا نلاحظ أن قطبا يتفق في رأيه — هامشيا — مع آراء محمد عبده ومدرسته .

يعود قطب إلى مصير أهل الكتاب « الراشدين المتعقلين » . فيعرض أن القرآن يقرر أن فريقا منهم يؤمن إيمان المسلمين . وقد انضم إلى موكب الإسلام معهم وسار مسيرتهم . فآمنوا بالكتاب كله . ولم يفرقوا بين الله ورسله . ولم يفرقوا بين أحد

من رسله . إنهم صورة وضيئة للمؤمنين من أهل الكتاب ؛ فقد آمنوا إيمانا صادقا عميقا ، وكاملا شاملا ، وانضموا للصف المسلم ، وقاموا على حراسة هذا الدين ، وحققوا سمة الأمة الإسلامية التي انضموا إليها : « خير أمة أخرجت للناس » .

واعتبر قطب أن الصابئين مثلهم مثل اليهود « الظلال 942 » . فالذين آمنوا هم المسلمون . والذين هادوا هم اليهود . والصابئون هم في الغالب تلك الفئة التي تركت عبادة الأوثان قبل بعثة الرسول . وعبدت الله وحده على غير نحلة معينة . ومنهم من العرب أفراد معدودون .

إذن من البديهيات ، أن محمدا هو خاتم النبيين . وأنه أرسل إلى البشر كافة ، وأن الناس جميعا على اختلاف مللهم ونحلهم مدعوون إلى الإيمان بما جاء به ، وفق ما جاء به . ومن لا يؤمن به رسولا ، ولا يؤمن بما جاء به جملة وتفصيلا ، فهو ضال ، لا يقبل الله منه ما كان عليه من دين قبل هذا الدين .

من هذا كله يتضح لنا – وكما أشرنا في بداية هذا الفصل – أن مكانة أهل الكتاب في المجتمع الإسلامي ــ وكما يراها قطب ــ ليست موضع اتهام . وهذا يمس إلى جانب كبير إحدى النقاط الرئيسية لفكر سيد قطب : وهي عداوة اليهود والمسيحيين للإسلام من جهة ، والقتال في الإسلام ضد اليهود والنصارى من جهة أخرى . وهذا ما سنتناوله في المباحث التالية .

المبحث الثالث

عداوة اليهود والمسيحيين للإسلام

تناول كتاب الظلال فكرة أفعال الشرك عند اليهود والمسيحيين ، ثم أعمالهم العدوانية المستمرة ضد الإسلام ، كما قدم تفسيرا لتاريخ العقيدة المسيحية بهدف توضيح هذين الاتجاهين « الشرك والعداوة » .

فحسب ما يشير قطب فإن الآيات 29 - 35 من سورة التوبة هي الآيات النهائية الصحيحة التي تتعلق بأهل الكتاب ، هذه الآيات نسخت الآيات الأخرى في سورتي البقرة والمائدة .

ففي هذه الآيات من سورة التوبة ، يبين السياق القرآني ضلال عقيدة أهل الكتاب هؤلاء ، وأنها تضاهي عقيدة المشركين من العرب والوثنيين من قدامى الرومان وغيرهم . إنهم لم يستقيموا على العقيدة الصحيحة التي جاءت بها كتبهم . فلا عبرة إذن بأنهم أهل الكتاب . فقالت النصارى « المسيح ابن الله » ، وما تزال عليه عقائدهم حتى اللحظة ، منذ حرفها بولس ثم تم تحريفها على أيد المجامع المقدسة . أما اليهود فقد قالوا إن « عزير ابن الله » .

إذن هؤلاء المشركون من أهل الكتاب لم يعودوا على « دين الله » ، ولم يعودوا أهل « دين » يقبله الله .. فأهل الكتاب قد خانوا عهد الله وميثاقه الذي جدده على لسان رسله العديد من المرّات .. فإذا نحن اعتبرنا أن كلمة الله هي الفصل – كما هو الحق والواقع – لم يكن لنا أن نحسب حسابا لأثر المواجهة لأهل الكتاب بهذه الحقيقة . ولم يكن لنا أن نتناصر نحن وإياهم لدفع الإلحاد عن الدين .

فأهل الكتاب قد أدخلوا الكفر والإلحاد على دينهم ، وأصبح رجال الدين منهم يتولون الحاكمية على الأرض ، وانتزعوا السلطان واغتصبوه باسم الحكم الإلهي المقدس . وفرضوا على الناس القوانين البشرية وأصبحوا متسلطين على رقاب العباد .

ولقد نص الرسول على أن « الاتباع » في الشريعة والحكم هو « العبادة » التي صار بها اليهود والنصارى « مشركين » مخالفين لما أُمِرُوا به من « عبادة » الله وحده . وقد ورد في كتاب الظلال حديث الرسول الذي ينص على أن الاتباع في الشريعة والحكم هو العبادة التي تخرج من الدين وأنها هي اتخاذ بعض الناس أربابا لبعض .

ونلاحظ أن قطبا أخذ في الإكثار من النص القرآني ﴿ **الذين كفروا من أهل الكتاب** ﴾ ابتداء من سورة « ق » وما تلاها من سور . كما نجد أنه قد ميّز بين اليهود والنصارى الذين آمنوا بالكتاب ، أما الآخرون الذين أمعنوا في الكفر والظلم « فليس من شأن الله أن يغفر لأمثال هؤلاء . وليس من شأن أحد أن يشفع كما يتوهمون : فهم ليسوا « شعب الله المختار » كما أنهم ليسوا « أبناء الله » أيضا » .

فقد أشركوا باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، واعترفوا لهم بحق التشريع من دون الله ووصفوهم بأنهم يقيمون الأموات ويبعثونهم أحياء . وقد كانوا — كما حكى القرآن — من أنهم ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله** ﴾ ، ولم يكونوا عبدوهم مع الله ، فحق عليهم وصف الشرك . حيث إنهم خالفوا الفطرة السليمة التي تشهد بوحدانية الله ، هذا الشرك قد تمثل في قول اليهود « إن عزير ابن الله » ، وزعم النصارى « أن المسيح ابن الله » ، مثلما زعم العرب في الجاهلية أن « الملائكة بنات الله » ، فليس هناك فرق بين هؤلاء جميعا في أنهم مشركون ، فهؤلاء المشركون واليهود والنصارى هم قوم الجاهلية الأولى .

فإذا كان الله قد خاطب المشركين في مكة بهذا ، فإن أهل الكتاب كما يخبرنا الله يعلمون أن القرآن كتاب منزل من الله بالحق ، ولكنهم يتحولون إلى شرائع كتب أخرى من صنع البشر . إنهم يتركون كتاب الحق ويتبعون الظن الذي لا يقين فيه . إنهم يصدون عن كتاب الله ويكفرون بآيات الله ، وهم شهداء على صحتها وهم

من صدقها على يقين . إنهم يحاولون أن يصدوا المؤمنين عن منهج الله ، وأن ينشروا الظن والفساد في المجتمع الإسلامي .

ويستطرد قطب معلنا أن هذا العدوان اليهودي والمسيحي هو من فطرتهم الفاسدة في العدوان ضد المسلمين ، هذه الأمة التي أراد الله لها أن تحمل الرسالة الموجهة إلى الجنس البشري وأن تحفظ العهد والميثاق الذي نقضه اليهود والمسيحيون . ولذلك فإن الإسلام والمسلمين سيظلون دائما في صراع مستمر ضد أعداء الله وأعداء الدين .

لقد استغرق اليهود في الأساطير والخرافات المزعومة في كتب « العهد القديم » كالذي جاء في أسطورة برج بابل في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين .

لقد بلغ من التوائهم وسوء أدبهم مع الله أن يحرّفوا الكلام عن المقصود به . والأرجح أن ذلك يعني تأويلهم لعبارات التوراة بغير المقصود منها ، وذلك لكي ينفوا ما فيها من دلائل على الرسالة الأخيرة ، وكذلك من أحكام وتشريعات يصدقها الكتاب الأخير ، وتدل وحدتها في الكتابين على المصدر الواحد . وتبعا لهذا على صحة رسالة النبي محمد ﷺ .

إن كتلة اليهود قد ظلت طوال أربعة عشر قرنا تشن الحرب على الإسلام والمسلمين . منذ أن جاورهم الإسلام في المدينة إلى اللحظة الحاضرة . وما من كيد كاده أحد للإسلام في تاريخه كله – بما في ذلك كيد الصليبية العالمية والاستعمار بشتى أشكاله – إلا كان من ورائه اليهود . أو كان لليهود فيه نصيب !

أما بالنسبة لذكر اليهود أن عزير ابن الله وأنه وجّه قلبه لالتماس شريعة الرب ، فقد رفض قطب – عند تناوله لهذا الموضوع – النقد التاريخي الذي عرضه رشيد رضا في تفسير المنار ، ولكنه أشار إلى أن النص القرآني « الآية الثلاثين من سورة التوبة » هو دليل قاطع على أن اليهود ـــ أو بعضهم على الأقل ـــ وبخاصة يهود المدينة ـــ زعموا هذا الزعم وراج بينهم .

ونقل قطب في كتابه فقرات مطولة من تفسير المنار[1] ، الذي استند في عرضه لهذا الموضوع على دائرة المعارف اليهودية وقاموس الكتاب المقدس . كما اعتمد على ما كتبه بعض العلماء حول « عزير » والأشعار غير القانونية « أبو كريف » ، وما كتبه الفيلسوف اليهودي « فيلو » وهو قريب من الفلسفة الوثنية في الهند .

ولكن – كما يذكر قطب – يتضح من وراء حكاية القرآن لقول اليهود هذا ، تقرير حقيقة ما عليه فريق من أهل الكتاب من فساد الاعتقاد ، الذي لا يتفق معه أن يكونوا مؤمنين بالله .

أما المسيحيون ، فقد عانوا بدورهم من اختلاف في تصوراتهم العقائدية التي تبتعد كثيرا عن حقيقة العقيدة التي جاء بها المسيح . وإن جميع مذاهبهم قد انحرفت عن رسالة المسيح القائمة على التوحيد كبقية الرسالات وقضت على أصل فكرة التوحيد قضاء نهائيا .

اعتمد قطب في عرضه هنا على مضمون النصوص القرآنية ، وعلى ما ورد في تاريخ المجامع المقدسة .

فانحرافات التصورات المسيحية حكى القرآن عنها .. منها قولهم : إن الله ثالث ثلاثة .. وقولهم : إن الله هو المسيح بن مريم . واتخاذهم المسيح وأمه إلٰهين من دون الله ، واتخاذهم رهبانهم أربابا من دون الله .

ويشرح قطب هذه الانحرافات العقائدية بمحددات سياسية اعتمادا على ما نقله من دراسة توماس أرنولد[2] . حيث أشار قطب إلى كيف كانت التيارات السياسية تخلق هذه الاختلافات المذهبية ، وكيف أن كراهية مصر والشام وما إليهما للحكم الروماني كانت سببا في رفض المذهب الروماني الرسمي ، والتمذهب بمذهب آخر ، « فكأنما العقيدة لعبة تستخدم في المناورات السياسية والوطنية » .

---

(1) تفسير المنار . الجزء الرابع ، ص 378-385 . أشار إليها قطب في كتاب الظلال ص 1635 .

(2) توماس أرنولد . ميراث الإسلام . لندن ، مطبعة جامعة أكسفورد 1931 ، ورد ذكره أيضا في تفسير المنار .

لقد عاشت عقيدة التوحيد بعد المسيح في تلامذته وفي أتباعه . وأحد الأناجيل الكثيرة التي كتبت ــ وهو إنجيل برنابا ــ يتحدث عن عيسى بوصفه رسولا من عند الله . ثم وقعت بينهم الاختلافات . فمن قائل : إن المسيح رسول من عند الله كسائر الرسل . ومن قائل : إنه رسول نعم ولكن له بالله صلة خاصة . ومن قائل : إنه ابن الله لأنه خلق من غير أب ، ولكنه على هذا مخلوق لله . ومن قائل : إنه ابن الله وليس مخلوقا بل له صفة القدم كالأب .

واستنادا على ما كتبه ابن البطريق أحد مؤرخي النصرانية ، وعلى كتاب تاريخ الأمة القبطية ، يذكر قطب « الظلال 864 » أن « مجمع نيقية » اجتمع في عام 325 ميلادية لتصفية هذه الخلافات . ولكن الإمبراطور الروماني « قسطنطين » اختار الرأي الذي يقول بألوهية المسيح . وسلّط أصحابه على مخالفيه وشرد أصحاب سائر المذاهب ، وبخاصة القائلون بألوهية الأب وحده وناسوتية المسيح ، وهم أتباع « آريوس » .

ثم سار خلاف جديد حول « روح القدس » . فاجتمع « مجمع القسطنطينية الأول » عام 381 ليحسم الخلاف في هذا الأمر . حيث تقررت ألوهية روح القدس في هذا المجمع ، مثلما تقررت ألوهية المسيح في مجمع نيقية . وتم « الثالوث » من الأب . والابن . وروح القدس .

ثم سار خلاف حول اجتماع طبيعة المسيح الإلهية وطبيعته الإنسانية . أو اللاهوت والناسوت . فقد رأى « نسطور » بطريرك القسطنطينية أن هناك أقنوما وطبيعة . فأقنوم الألوهية من الأب وينسب إليه ، وطبيعة الإنسان وقد ولدت من مريم . فمريم أم الإنسان ــ في المسيح ــ وليست أم الإلـٰه ! فخالفه في هذا الرأي أسقف روما وبطريرك الإسكندرية وأساقفة أنطاكية . واتفقوا على عقد مجمع رابع . وانعقد « مجمع إفسس » عام 431 ميلادية ، وقرر أن مريم العذراء والدة الله وأن المسيح إلـٰه حق وإنسان ، معروف بطبيعتين ، متوحد في الأقنوم .

وهكذا استمرت الخلافات في أمر عيسى .

ونلاحظ هنا أن قطبا قد أشار دائما إلى الصفة السياسية لكل مجمع من هذه المجامع . وقد رأى أن أحدا من هذه المجامع لم يكن يمثل مجمعا كنائسيا حقيقيا . فالمشكلة الكبرى ، هي أن الإمبراطور الروماني قسطنطين جمع مجمعا من الأساقفة بلغ عدد أعضائه ألفين ومائة وسبعين أسقفا . فاختلفوا في عيسى اختلافا شديدا . و لم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاثمائة وثمانية .. اتفقوا على قول ، فمال إليه الإمبراطور ونصر أصحابه وطرد الآخرين وشرد المعارضين وبخاصة الموحدون .

ويضيف قطب أنه لما كانت العقائد المنحرفة قد قررتها مجامع شهدتها جموع الأساقفة ، فإن السياق ينذر الكافرين الذين ينحرفون عن الإيمان بوحدانية الله . حيث صدر حكم الله بالكفر الصريح على من يقولون إن المسيح هو الله أو إنه ابن الله .

بعد ذلك ينقل قطب عن تفسير المنار ملخصا في عقائد النصارى حول فكرة « الثالوث » وحسب ما عرضه قطب ، فإن عقيدة التثليث كلها لم تصاحب النصرانية الأولى . إنما ذلك فرضته الاضطهادات التي أنزلها الأباطرة الرومان والمجامع المقدسة على الموحدين . وما تزال فكرة « التثليث » تصدم عقول المثقفين من النصارى ، فيحاول رجال الكنيسة أن يجعلوها مقبولة لهم بشتى الطرق .

لقد حُصِرَ تفكير هؤلاء المثقفين في ألا يفكروا إلا في خدمة فكرة التثليث . لقد تطورت عندهم فكرة البنوة وفكرة التثليث . وفسروا البنوة بأنها ليست عن ولادة كولادة البشر . ولكن عن « المحبة » بين الأب والابن . وأن يُفَسر الإلـٰه الواحد في ثلاثة .. بأنها « صفات » لله في « حالات » مختلفة . وإن كانوا ما يزالون غير قادرين على إدخال هذه التصورات المتناقضة إلى الإدراك البشري . فهم يحيلونها إلى معميات غيبية لا تنكشف إلا بانكشاف حجاب السماوات والأرض .

وهنا يقرر قطب أن القرآن قد أنصف عيسى بن مريم وأمه . وأنصف الحق والعقيدة الصحيحة . وأنصف كذلك عيسى بن مريم من غلو النصارى في شأن المسيح ، ومن الأساطير الوثنية التي تسربت إلى النصرانية السمحة من شتى الأقوام وشتى الملل ، التي احتكت بها النصرانية ، سواء في ذلك أساطير الإغريق والرومان ،

وأساطير قدماء المصريين وأساطير الهنود !

وقد تناول علم الأديان الوضعي ، الذي ظهر في أوروبا في القرن التاسع عشر ، هذا الموضوع أيضا . حين أشار إلى تحول المسيحية إلى عقيدة الأساطير . وكان ذلك يمثل الانحدار السهل للشعور .

ويستطرد قطب « الظلال 815 » أن النصارى الموحدين ظلوا يقاومون الاضطهادات التي أنزلها الأباطرة الرومان والمجامع المقدسة الموالية للدولة « الملوكانيون » إلى ما بعد القرن السادس الميلادي .

إن الإسلام لم يفعل إلا أنه قد جاء ليقرر وجه الحق في هذه القضية . حيث يقرر وحدانية الله . ويوضح أن المسيح ليس إلا عبد الله ورسوله . شأنه في ذلك شأن بقية الرسل . ولكن لم يجد الإسلام من اليهود والنصارى إلا العداء والمكيدة .

فإن كان اليهود لا يزالون يقودون الحملة ضد الإسلام في كل أرجاء الأرض اليوم في حقد خبيث وكيد لئيم . فإن هذا الواقع قد حفظ كذلك للنصارى الصليبيين أنهم اتخذوا من الإسلام موقف العداء منذ واقعة اليرموك بين جيش المسلمين وجيش الروم .

لقد تجلت أحقاد الصليبية على الإسلام وأهله في الحروب الصليبية المشهورة طوال قرنين من الزمان . كما تجلت في حروب الإبادة التي شنتها الصليبية على الإسلام والمسلمين في الأندلس . ثم في حملات الاستعمار والتبشير على الممالك الإسلامية في أفريقيا أولا ، ثم في العالم كله أخيرا .

ولقد ظلت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية حليفتين في حرب الإسلام بهدف الإجهاز عليه . وهم يستهدفون الإسلام لأنهم يعرفون من تاريخهم كله ، أنه لم يغلبهم إلا هذا الدين يوم كان يحكم الحياة ، وأنهم غالبو أهله طالما أن أهله لا يُحكِّمونه في حياتهم ، مع توهمهم بأنهم ما يزالون مسلمين مؤمنين بالله !

لقد يئسوا من هذا الدين ، وأن يحوِّلوا المسلمين عن دينهم عن طريق التبشير أو

الاستعمار . ولكنهم استطاعوا أن يصلوا بأفكارهم إلى المثقفين ممن يدّعون أنهم مسلمون .

إن أهل الكتاب يعلمون جيدا حقيقة هذا الدين ، وهم — جيلا بعد جيل — يدرسون هذا الدين دراسة دقيقة عميقة فاحصة .. لا لأنهم يبحثون عن الحقيقة . إنما هم يقومون بهذه الدراسة لأنهم يبحثون عن مقتل لهذا الدين ! لأنهم يبحثون عن منافذه ومساربه إلى الفطرة ليسدوها أو يُميِّعوها !

بهذا نكون قد عرضنا كيف قدم قطب لعداوة اليهود والنصارى للإسلام في اتجاهين متميزين . ولكنهما – في النهاية – قد وصلا إلى اتجاه واحد في وقتنا الحاضر . إذن ما هو العمل ؟ كيف يقاوم المسلمون اعتداءات اليهود والنصارى ، دون أن تنتهك مبادئ التسامح وحرية العقيدة التي يتصف بها الإسلام ، مقارنة بالكنيسة المسيحية وبأحبار اليهود ؟ الإجابة يمكن أن نستنتجها عبر الصفحات التالية .

المبحث الرابع

القتال ضد اليهود والنصارى

عرض قطب في كتاب الظلال[1] لتطور موقف الإسلام من أهل الكتاب . فبدأ عرضه بتفسير معنى « الولاية » التي ينهى الله الذين آمنوا أن تكون بينهم وبين اليهود . فهذه « الولاية » تعني التناصر والتحالف معهم ولا تتعلق بمعنى اتباعهم في دينهم . وكان هذا الولاء بالتحالف والتناصر قائما مع جماعات من اليهود قبل الإسلام وفي أوائل العهد بقيام دوله الإسلام في المدينة حتى نهاهم الله عنه وأمر بإبطاله .

إن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب . ولكنه منهي عن الولاء لهم بمعنى التناصر والتحالف معهم . إن سماحة المسلم مع أهل الكتاب شيء ، واتخاذهم أولياء شيء آخر . فلا يمكن قيام ولاء وتناصر بين أحد من أهل الكتاب هؤلاء وبين المسلم الذي يدين بوحدانية الله كما جاء بها الإسلام .

فأهل الكتاب ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ، وحتى يعترفوا بالإسلام دينًا . لا يقبل الله من الناس دينًا سواه . إن المسلمين لا يملكون في هذا الأمر إلا حماية أهل الكتاب « أهل الذمة » ، الذين

(1) يمكن الرجوع إلى الصفحات التالية : 909-915 ، 964-966 ، 1629-1634 ، 1650 ، 31 ، 9323 ، 3504 ، 432 ، 860-868 ، 2828 ، 64-70 ، 432-444 ، 451 ، 730 ، 943-952 ، 960 ، 3557 ، 2817 ، 3529 ، 1628 ، 1891 ، 1032-1034 .

يقيمون في المجتمع الإسلامي ، ضد كل عدوان امتدادا لما فعله المسلمون السابقون عندما كان العالم كله يطاردهم – أي اليهود – من قرن لقرن ، فلا يجدون إلا العالم الإسلامي يفتح أبوابه ويقدم لهم الحماية وحرية العقيدة .

ويشير قطب إلى أن الآيات 29 - 35 من سورة التوبة تتضمن تعديلات أساسية في القواعد التي كانت تقوم عليها العلاقات من قبل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب – وبخاصة النصارى منهم – فلقد وقعت المواقع قبل ذلك مع اليهود ، ولكن حتى هذا الوقت لم يكن قد وقع منها شيء مع النصارى .

والتعديل البارز في هذه الأحكام الجديدة هو الأمر بقتال أهل الكتاب المنحرفين عن دين الله حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . فلم تعد تقبل منهم عهود موادعة ومهادنة إلا على هذا الأساس . أساس إعطاء الجزية . وفي هذه الحالة تتقرر لهم حقوق الذمي المعاهد . إنهم لا يكرهون على اعتناق الإسلام عقيدة . فالقاعدة الإسلامية المحكمة هي : « لا إكراه في الدين » ، ولكنهم لا يتركون على دينهم إلا إذا أعطوا الجزية ، وقام بينهم وبين المجتمع المسلم عهد على هذا الأساس .

من ناحية أخرى ، يعلن قطب أن حرب المسلمين لا تكون إلا ضد المنافقين وأهل الكتاب الذين يطعنون في الدين ويعينون أعداء الإسلام .. ويستثنى من هذه الحرب من يلجأ إلى معسكر بينه وبين الجماعة الإسلامية عهد – عهد مهادنة أو عهد ذمة — ففي هذه الحالة يأخذون حكم المعسكر الذي يلتجئون إليه .

إن وضع أعداء الإسلام من أهل الكتاب تجاه الإسلام وأهله ليس وليد مرحلة تاريخية معينة . كما أن حربهم للإسلام والمسلمين لم تكن وليدة فترة تاريخية معينة . فهي لا تزال معلنة وستبقى كذلك . إنهم يعملون ضد طبيعة الكون حين يرفضون عقيدة التوحيد التي تساير فطرة الإنسان . ويعارضون مسيرة ناموس البشر في العقيدة والإيمان . ويظهرون بأنهم على إيمان ثم يرفضون تحكيم شريعة التوراة والإنجيل وما بعثه الله على أنبيائهم ورسلهم .

إن الأحكام النهائية في العلاقات بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم هي المنهج

الحركي الواقعي للإسلام . ولذلك فإن ما قد يكون من سلام بين الإسلام وبين أعدائه من أهل الكتاب لا يلبث أن ينتهي مع تجدد مكائدهم ودسائسهم .

وكما نعرف ـــ يقول قطب ـــ إن هذه الحرب هي حرب عقيدة وإيمان ، وليست حرب اقتصاد ولا قومية أو إستراتيجية . فهذه الحرب التي يشنها أعداء الإسلام منذ التاريخ البعيد لم يخب أوارها حتى اللحظة الحاضرة . بنفس الوسائل ، ونفس الأساليب . لا يتغير إلا شكلها . أما حقيقتها فباقية ، وأما طبيعتها فواحدة .

لقد كان اليهود هم أول من اصطدم بالدعوة في المدينة ، حيث كانت لهم قوة عسكرية ، وقوة اقتصادية وقوة تنظيمية . كما كانت لهم قوة سياسية في استغلال الفرقة والخصام بين الأوس والخزرج والقيام بدور الحكم بينهم . فلما جاء الإسلام وآخى بين الأوس والخزرج . بدأت كراهيتهم للإسلام وعداوتهم للرسول .

إن فقد اليهود لمكانتهم وشعورهم بالخطر من عزلهم عن المجتمع المدني ، جعلهم يقفون من دعوة الإسلام والرسول نفس الموقف الذي وقفوه مع نبيهم موسى من جحود وإنكار ونكثهم لعهد الله معهم . إنهم أعداء هذه الأمة في تاريخها كله ، كما كانوا أعداء هدي الله في ماضيهم كله .

فاليهود كانوا يتصيدون كل حجة ، وكل شبهة ، وكل حيلة ، لينفذوا منها إلى الطعن في صحة الرسالة المحمدية ، وإلى بلبلة الأفكار وإشاعة الاضطراب في العقول والقلوب . فعلى سبيل المثال : إنهم يقولون ما بال القرآن يحلل من الأطعمة ما حرم على بني إسرائيل ؟ وهنا يردهم القرآن إلى الحقيقة التاريخية التي يتجاهلونها للتشكيك في صحة ما جاء في القرآن ، من أنه مصدق للتوراة . وأنه مع هذا أحل للمسلمين بعض ما كان محرما على بني إسرائيل . هذه الأطعمة حرمها الله على بني إسرائيل حسب ما حرمه إسرائيل على نفسه . إلى جانب مطاعم أخرى حرمها الله عليهم عقوبة لهم على معصيات ارتكبوها ، وكل ذلك مذكور عندهم في التوراة .

ويقرر قطب أن اليهود هم أهل غدر وخيانة . ناكثون للعهود وناقضون لمواثيق الله ومواثيق أنبيائهم . والثمن والمال والكسب الدنيوي المادي ، كله شنشنة يهود

من قديم . فهذه سماتهم التي لا تفارقهم . وما تزال هذه حالهم في المجتمع الإسلامي على مدار التاريخ . لذا كان على المسلمين في المدينة طردهم من المدينة أولا . ثم من الجزيرة العربية كلها أخيرا .

يوضح قطب بعد ذلك أن الأمة الإسلامية قد وجدت لقيادة البشرية . فكيف تتلقى إذن أو تثق فيما يقدمه لها أعداؤها ؟ إن الإسلام يحذر الأمة الإسلامية من اتباع غيرها ويبدأ بتحذيرها من اتباع أهل الكتاب .

إن طاعة أهل الكتاب والتلقي عنهم واقتباس مناهجهم وأوضاعهم تحمل ابتداء معنى الهزيمة الداخلية . كما لا يجب التلقي عنهم في أي أمر يختص بالعقيدة والتصور أو بالشريعة والمنهج .. وخاصة في مجال التصور الإيماني ، وفي تفسير الوجود ، وغاية الوجود الإنساني ، وفي منهج الحياة وأنظمتها وشرائعها ، وفي منهج الأخلاق والسلوك أيضا . فهذا كله ما حذر الله الأمة الإسلامية عاقبته ، وهي الكفر الصُّراح .

لذلك كان لابد من قطع الروابط والوشائج العائلية والقبلية معهم . كما يجب قطع روابط التناصر والتعاون . ثم ها هم أولاء يعيدون موقف اليهود القديم مع المسلمين والوثنيين . فيؤيدون الوثنية حيثما وجدت ضد الإسلام . وليس الصراع بين الهند وباكستان على كشمير وموقف الصليبية منها ببعيد .

لقد شهد التاريخ نقض اليهود لعهودهم مرة بعد مرة وتحرشهم بالمسلمين . وتابعوا دائما كيدهم للإسلام . كانوا عناصر أساسية في إثارة الفتنة الكبرى التي قتل فيها الخليفة عثمان بن عفان . وانتثر بعدها شمل التجمع الإسلامي إلى حد كبير . وكانوا رأس الفتنة فيما وقع بعد ذلك بين علي ومعاوية . وقادوا حملة الوضع في الحديث والسيرة وروايات التفسير . وكانوا من الممهدين لحملة التتار على بغداد وتقويض الخلافة الإسلامية .

ثم إن الذي كان وراء إثارة النعرات القومية في دولة الخلافة الأخيرة ، ووراء الانقلابات التي ابتدأت بعزل الشريعة عن الحكم واستبدال « الدستور » بها في عهد السلطان عبد الحميد ، ثم انتهت بإلغاء الخلافة جملة على يدي « البطل » أتاتورك .

يهودي . وسائر ما تلا ذلك من الحرب المعلنة على طلائع البعث الإسلامي في كل مكان على وجه الأرض وراءه يهود ! فكل من ماركس وفرويد ودوركايم هم من اليهود . وهم مؤسسو التيار المادي الملحد الذي يحطم القيم المقدسة والأخلاقيات العامة .

إنهم يستهدفون الإسلام ــ قبل أي دين آخر ــ لأنهم يعرفون من تاريخهم كله ، أنهم لم يغلبهم إلا هذا الدين . وأخبث المعسكرات التي عملت ومازالت تعمل في تخريب القاعدة الصلبة التي يقوم عليها التجمع الإسلامي الفريد في التاريخ ، كان هو المعسكر اليهودي الخبيث . الذي جرّب سلاح « القومية » في تحطيم التجمع المسيحي . وتحويله إلى قوميات سياسية ذات كنائس قومية . وبذلك حطموا الحصار المسيحي حول الجنس اليهودي . ثم ثنوا بتحطيم الحصار الإسلامي حول ذلك الجنس الكنود !

وكذلك فعل الصليبيون في المجتمع الإسلامي ــ بعد جهد قرون كثيرة ــ في إثارة النعرات الجنسية والقومية والوطنية بين الأجناس الملتحمة في المجتمع الإسلامي . ولكن هذه المرة قد تم لهم ذلك بمساعدة بعض من يظنون أنفسهم مسلمين . الذين درسوا على أيدي الأوروبيين وتشربوا بمبادئ الغرب والصليبية .

وما تزال الأيام تكشف حالة المنافقين وأهل الكتاب حيثما التقى المؤمنون بهم في أي زمان وفي أي مكان . بشكل واضح للعيان . ولقد شهدت الاشتباكات في الأرض المقدسة بين المؤمنين الفدائيين وبين اليهود مصداق ذلك .

إننا نجد في سورة الإسراء أن هناك حلقة من سيرة بني إسرائيل لا تذكر في القرآن إلا في هذه السورة . وهي تتضمن نهاية بني إسرائيل التي صاروا إليها ، ودالت دولتهم بها . وتكشف عن العلاقة المباشرة بين مصارع الأمم وتفشي الفساد فيها . فعندما عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد سلّط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها . ثم عادوا إلى الإفساد فسلّط عليهم عبادا آخرين . حتى كان العصر الحديث فسلّط

عليهم « هتلر » . ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة « إسرائيل » التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات .

وليسلطن الله عليهم من يسومونهم سوء العذاب . تصديقا لوعد الله القاطع . وفاقا لسنته التي لا تتخلف . وإن غدا لناظره قريب ! .

نتائج الفصل الثالث

مقارنة بما ورد في تفسير المنار ، نجد أن كتاب الظلال كان أكثر راديكالية عند تناوله موضوع أهل الكتاب . في نفس الوقت ، كان أكثر دراية بهذا الموضوع كما كان أكثر ميلاً للتعرف على تاريخ المسيحية في قرونها الأولى . هذه المحاولة لم نلاحظ ما يماثلها للتعرف على اليهودية وعلى تاريخ اليهود . أيضا هناك تطابق تام في الأفكار بين قطب ورشيد رضا حول كثير من النقاط . اللهم إلا في بعض محاولات قطب للتغاضي عما يرى أنه لا يتماشى مع فهمه الخاص لمضمون النصوص القرآنية .

إننا لن نعود إلى تناول ما سبق أن طرحه قطب من أفكار حول شخصية المسيح وتعاليمه . فالظلال على عكس تفسير المنار[1] قد حاول الابتعاد عن التعمق في موضوع صلب المسيح وموته .. فأصل ذلك الموضوع – كما يقدّر قطب – هو من افتراضات وتصورات اليهود والمسيحيين . وتابع رشيد رضا الروايات التي وردت في إنجيل برنابا . بينما عالج قطب الموضوع بالاسترسال في تفسير الآيات القرآنية التي تتحدث عن حياة الشهداء . هؤلاء الشهداء يحيون عند ربهم ، حيث إنهم لم يموتوا بالمعنى المتعارف عليه لدى البشر .

أيضا فإننا لن نتناول ما تقول به الطائفة اليهودية من أن عزير ابن الله . فكما ذكرنا آنفا ، فسر قطب ذلك بأن ادعاء اليهود هو مظهر من مظاهر التصورات المنحرفة التي نراها في الوضع الداخلي لليهودية . مشيراً في ذلك إلى كتابات « فيلو » وما تأثرت به التصورات اليهودية من الأساطير الهندوسية والوثنية .

---

(1) جومبير . المرجع السابق ، ص 312-313 . تفسير المنار الجزء السادس ص 40 - 54 :

وقدّر قطب – ويشاركه في ذلك رشيد رضا – أن موقف اليهود والنصارى في وقتنا الحاضر يتشابه مع موقفهم السابق مع الجماعة الإسلامية الأولى . حيث إنهم جميعا قد وقفوا من الإسلام موقف العداء . ورفضوا أن يكون الإسلام آخر الرسالات ، كما رفضوا أن يكون هو دين الله الذي لا يقبل دين غيره . إنهم برفضهم هذا أصبحوا كفارا ، بغير دين[1] .

وكان أن ذهب قطب بالموضوع إلى أقصى حد ، بسبب رؤيته « الجهادية » والسياسية . « فالمعسكر الإسلامي » هو معسكر الإنسانية وحرية الاعتقاد[2] . لذلك فإنه في حرب دائمة ومستمرة ضد أعداء العقيدة من أحبار ورهبان . وضد « الأباطرة » ــ الذين يدعون لأنفسهم شرعية « الحق الإلهي » ــ وأتباعهم في العصر الحديث .

ورأى رشيد رضا أن المسيحية أصبحت ذات اتجاه سياسي مع عصر قسطنطين . واعتبر أن الحضارة الأوروبية المعاصرة قد تراجعت عما جاءت به المسيحية الحقيقية ، في الوقت الذي تحولت فيه المسيحية إلى أفكار متنازعة طرحتها المجامع الكنسية[3] .

بينما نجد أن قطبا قد رأى في ذلك نتيجة منطقية لتطور المسيحية . فقد اهتم كثيرا بدراسة التاريخ للمسيحية . وركز بوضوح على مذهب « آريوس » و « اليكسندرين » . كما أنه عرض بطريقة جيدة دون شك لظهور الإسلام كإحياء لمذهب « آريوس » في التوحيد . الذي ينكر وحدة جوهر الأقانيم الثلاثة ، وينكر بالتالي ألوهية المسيح . ورأى قطب في هذا المذهب المسيحية الحقيقية المخلصة للمسيح عيسى بن مريم .

كما أشار قطب – وكان محقا في ذلك – إلى أن السبب في عدم وجود محاولات لتصحيح مفهوم المسيحية للتطابق مع ما نزل به المسيح – في المذهب الكاثوليكي –

---

(1) نفس المرجع ، ص 302-303 .

(2) الظلال ، ص 1891 ، سورة هود آيات 25-49 .

(3) جوميير ، المرجع السابق ، ص 318-319 . وحول عقيدة المسيحية ص 307-308 .

هو ضخامة واتساع الجانب السياسي والبوليسي الذي تمتعت به المجامع الكنسية وما مارسته من اضطهاد ضد محاولات الانفصال عن الكنيسة الرومانية . وبصفة خاصة المحاولات التي ظهرت في مصر[1] .

إذن كان من الطبيعي أن يعتقد قطب أن المسيحية وما اختلط بها في العصر الحديث من مظاهر الاستعمار والإمبريالية ، ما هي إلا نظام سياسي – ديني ، مقارنة بالإسلام كدين وعقيدة . فالمسيح لم يأت بالمسيحية لكي يفصل بين الدين والعقيدة وبين الحياة والسياسة .

وقد اقتنع قطب بأن الإنجيل الذي نزل على عيسى ـــ قبل أن يحرف بواسطة علماء اللاهوت ـــ هو بمثابة « دستور » اجتماعي وسياسي وقانوني ، في المقابل نجد أنه اختلف مع رشيد رضا حول هذه النقطة . حيث رأى قطب أن تأثير اليهود على المسيحية قد ظهر في بداية « النهضة » التي أدت إلى الفصل بين الكنيسة والدولة ، أي بين الدين وبين نظم الحياة الاجتماعية والسياسية ، وبالتالي فإن محاولة قصر الجانب الروحي « الفردي » على المسيحية قد تسبب في مظاهر الكفر والانحطاط الأخلاقي التي انتشرت في الغرب .

أما فيما يتعلق بالعقائد المسيحية ، التثليث وتجسد الله في المسيح ، فإن كتاب الظلال قد تضمن الكثير من المعلومات . كما كان أكثر إدراكا لطبيعة هذه العقائد مقارنة بما ورد في تفسير المنار . فقطب أدرك جيدا أن عقيدة التثليث لا تعني الإيمان بالأقانيم الثلاثة على درجة واحدة . وأكد أيضا أن المجامع الكنسية قد أجبرت رجال الفكر المسيحيين على الوقوع في المواقف المتناقضة في قضية العقيدة . لذلك فإن عقولهم قد وجهت إلى اتجاه خاطئ ، كما تعرضوا لضغوط قاسية لعدة قرون مما أنتج « العقلانية » المبالغ فيها ، والتي أدت بدورها إلى الإلحاد المادي والمثالية المادية ، فأية جاهلية تسيطر على العالم الآن !

---

(1) يرجع في ذلك إلى كتاب فرانسيس دفورنيك « تاريخ المجامع الكنسية » نيويورك 1961 .

لقد كان الإسلام على علاقة – كما يرى الظلال – بالتحول الذي طرأ على الروحانية المتجردة من الماديات بعد فترة المادية الملحدة التي ظهرت في المسيحية . وهنا كانت رؤيته أكثر مما قدمه تفسير المنار[1] . على جانب آخر تطابق رأي قطب مع رشيد رضا في اعتبار أن الحضارة الأوروبية ــ وأيضا الأمريكية عند قطب ــ تتجه إلى انحطاط ملموس ، متمشية في ذلك مع النواميس والسنن الإلهية في التاريخ .

وعلى ذلك فإن انتشار الإسلام في العالم أجمع سيكون أمرا أكيدا . ولكن الفارق في هذا ، بين رشيد رضا وقطب ، أن الأول يرى أن هذه « المنطقية التاريخية » وما يليها من انتشار الإسلام يمكن أن توجه بأسلوب الدعوة المنظمة المستمرة . في حين أن قطبا قد ركز على أسلوب الدعوة السياسية والعسكرية والثورية .

من هذا يتضح أن منهج قطب في مواجهة أهل الكتاب يقوم مباشرة على ضرورة العمل السياسي « الشامل العالمي » وعلى فكرة « الجهاد الهجومي » . وهذا ما لا نلاحظه من خلال تفسير المنار .

يجب أن نضيف أن كتاب الظلال قد اهتم كثيرا بمحاولة فهم طبيعة العقيدة المسيحية والتطور الحديث للحضارة التي اعتمدت على المسيحية . كما أنه تناول بصورة شاملة وبسيطة موضوع اليهود ، واليهودية ، والصهيونية السياسية في فلسطين .

فكما رأينا ، قدم قطب صورة واضحة لطبيعة اليهود ، التي لم تتغير من عهد موسى وحتى الحرب العربية الإسرائيلية في وقتنا الحاضر . وكان قطب أكثر تقديرا من – رشيد رضا – لما وقع من تحريف للكتب المقدسة على أيدي اليهود .

شدد كتاب الظلال في تحليله على الجانب الاجتماعي والاقتصادي لليهود في المدينة . واتخذ من ذلك مثالا لكل مراحل تطور العلاقات بين اليهود والمسلمين عبر التاريخ . ففساد إيمان اليهود بحبهم للمال كان دائما صفة أساسية لطبع اليهود . وقد

---

(1) جوميير . المرجع السابق ص 321-325 . خطاب « هربرت سبنسر » إلى محمد عبده حول الانحطاط في أوروبا . تفسير المنار . الجزء الثامن . ص 406 ، 463 .

عاب قطب – كما فعل رشيد رضا – ادعاء اليهود بأنهم « شعب الله المختار »[1] .
وأضاف قطب ، في معان محددة ، أن المسلمين بعد أن اختصهم الله بدعوة الإسلام ، يجب أن تكون لهم الأفضلية في قيادة البشرية ، مقارنة باليهود والمسيحيين .. الأعداء الطبيعيين الذي يقفون دائما ضد دعوة الإسلام[2] .

إن الوعد الذي تلقاه إبراهيم وإسماعيل « وليس إسحاق » تختص به الأمة المسلمة التي خرجت من قريش . فهم أحفاد إسماعيل بن إبراهيم [3] . ولكن نلاحظ أن قطبا – مثل رشيد رضا – قد تجنب التعرض للجدل الدائر حول الوعد الإلهي « بأرض الميعاد » . هل هو للعرب . أم لليهود .

وشرح قطب أن سبب ما يحدث للعرب من ضعف هو نتيجة للمؤامرات والدسائس التي تدبرها وتكيدها الإمبريالية والصهيونية ضد الإسلام والتي ستنتهي حتما بخروج الإسلام منتصرا[4] .

إذن من خلال الرؤية التي يطرحها كتاب الظلال ، نجد أن الأفكار التي تدور حول عقائد المسيحية واليهودية ووجودها السياسي والديني تؤدي بالضرورة إلى التفكير في « الجهاد الإسلامي » ضد الكفار وأعداء الإسلام ، الذين يحاولون دائما إعاقة دعوته وتدبير الدسائس ضده .

ومن هنا ندرك المعنى الذي عرضه قطب حول مكانة ووضع أهل الكتاب داخل المجتمع الإسلامي الذي تقوم عليه حكومة إسلامية . حيث يتعين على أهل الكتاب دفع الجزية في مقابل حمايتهم وتمتعهم بحقوقهم المدنية والقانونية وحريتهم في العقيدة .

(1) نفس المرجع ص 305 .
(2) كتاب الظلال ص 218 ، 416 ، 437 ، 1646 .
(3) الظلال ص 110-115 .
(4) الظلال ص 372 ، 535 .

في هذا المجتمع يتسامح الإسلام مع أهل الكتاب . ولكن لا يتسامح مع الذين يضمرون العداوة للإسلام من داخل أو خارج المجتمع الإسلامي .

إنه موقف واضح . سبق أن عرضنا له في بداية هذا الفصل . وهو يختلف إلى حد ما مع ما عرضه تفسير المنار . حيث إن الأخير يميز في موقفه بين المسيحيين العرب والمسيحيين الأوروبيين[1] .

إن رؤية كتاب الظلال تعكس بوضوح النظرة الراديكالية « العقائدية » بالنسبة لليهود والمسيحيين والتي ميزت حركة الإخوان المسلمين : ابتداء من وقت حسن البنا . حيث وقعت عدة حوادث ضد اليهود بمصر . مرورا بموقف الشيخ الغزالي 1949 من الاتجاه الوطني الذي ظهر بين المسلمين والأقباط في ثورة 1919 . وحتى فترة السبعينات حيث ظهرت الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وما وقع من أحداث عنف من الجماعات الإسلامية في المناطق التي يعيش فيها المسلمون والمسيحيون[2] .

ولكن بالنسبة لقطب ـــ كما هو بالنسبة لتلاميذه ، فإن الجهاد الحقيقي ليس ضد الأقليات التي تعيش داخل المجتمع الإسلامي . ولكنه الجهاد ضد الجاهلية المعاصرة وضد من يدعون أنهم مسلمون .

إن أحداث العنف التي وقعت بين المسلمين والأقباط ربما تكون قد صدرت عن مجموعات تعمل على إحياء مبادئ الشريعة الإسلامية وتطبيقها . ولكن كيف يكون ذلك دون إدخال تعديلات ضرورية على النظام التشريعي والقانوني وأيضا العمل على تطور النظام السياسي للدولة .

---

(1) جوميير . المرجع السابق ، ص 319 – تفسير المنار ، الجزء العاشر ص 387 .
(2) رفعت السعيد . الإخوان المسلمون . ص 70 وما بعدها .

الفصل الرابع
الجهاد في سبيل الله

الجهاد في سبيل الله

نأتي هنا ــ بلا شك ــ إلى جوهر ومضمون دعوة سيد قطب ، وإلى إحدى الرؤى الهامة لتناول « الميراث الأصولي » .

إن كتاب الظلال لا يتعرض من قريب أو بعيد – في موضوع الجهاد – لقضايا التكتيك الحربي . بل يقدم بعض اللمحات عن القانون الدولي . إنه من خلال صفحاته يعبر عن روح الجهاد .. إنها روح تبعث من جديد .

فقطب قد اجتهد في أن يصور لنا معنى الجهاد في الإسلام . فهو ليس جهادًا روحيًا وأخلاقيًا فقط . إنما هو أيضا جهاد دعوة وتبشير إلى جانب الجهاد العسكري .

وفي ذلك يبن قطب اتجاهاته بوضوح . مقارنة باتجاهات رشيد رضا والآخرين الذين يعملون في سبيل الدعوة الإسلامية . فالإسلام هو جهاد . عدل . تكامل . قوة وصلابة .. إنه دعوة عالمية للإيمان وحرية العقيدة .

لهذا رفض كتاب الظلال أن تكون دعوة الإسلام محدودة في إطار الجزيرة العربية .

فابتداء من عام 628 ميلادية نزلت الآيات القرآنية التي تحرض المسلمين على الجهاد ونشر دعوة الإسلام .

المبحث الأول

روح الجهاد عند المسلم

يهدف النص القرآني إلى أن يقرر في ضمير المسلم أن دينه هو المنهج الإلٰهي للبشرية في صورته الأخيرة . إن شعور المسلم بهذه الحقيقة ، وإدراكه لقصة العقيدة ، ولنصيبه هو من أمانتها في الأرض . يستتبع شعوره بتكاليف هذه الأمانة شعورا يدفعه إلى صدق النية في الجهاد لإظهار دينه على الدين كله – كما أراد الله – وعدم التردد بين القول والفعل ، ويقبح أن يعلن المؤمن الرغبة في الجهاد ثم ينكص عنه . هذا الجهاد كما تشير النصوص القرآنية هو القتال في سبيل الدعوة .

ذلك الجهاد أو القتال الذي يحبه الله أن يكون في سبيله . القتال في تضامن مع الجماعة المسلمة داخل الصف . والقتال في ثبات وصمود « صفا كأنهم بنيان مرصوص » .

وهذا تكليف فردي في ذاته ، ولكنه فردي في صورة جماعية . في جماعة ذات نظام . ذلك أن الذين يواجهون الإسلام يواجهونه بقوى جماعية ، ويؤلّبون عليه تجمعات ضخمة . فلا بد لجنود الإسلام أن يواجهوا أعداءه صفا . إنه جهاد متواصل في سبيل الله وفي سبيل إعلاء دينه .

فالمسلم – كما يؤكد قطب – يجب أن يجاهد في سبيل الله . ولكن الله يريد أن يخلي بين المؤمنين . المعركة بين الإيمان والكفر . وبين الحق والباطل . فهي معركته . وهي حربه التي يتولاها بذاته . إن دورهم حين ييسره الله لهم هو طرف من قدرة الله في حربه مع أعدائه . فهم أداة يفعل الله بها أو لايفعل . وهو في الحالين فعال لما يريد . وهو في الحالين يتولى المعركة بذاته وفق سنته التي يريد .

ولكن هذا كله لا يمنع ـــ بكل تأكيد ـــ أن تكون حالة السلام الدائم هي هدف الإسلام . إن الإسلام دين سلام ، وعقيدة حب ، ونظام يستهدف أن يظل العالم كله بظله . والسلام هو أساس شريعة الإسلام الدولية . التي تجعل حالة السلم بينه وبين الناس جميعا هي الحالة الثابتة ، لا يغيرها إلا وقوع الاعتداء الحربي وضرورة رده ، أو خوف الخيانة بعد المعاهدة ، وهي تهديد بالاعتداء ، أو الوقوف بالقوة في وجه حرية الدعوة وحرية العقيدة ، وهو كذلك اعتداء . وفيما عدا هذا فهو السلم والمودة والبر والعدل للناس أجمعين .

إن المسلمين المجاهدين يجب أن يكونوا مخلصين في إسلامهم وعقيدتهم . حيث نجد أن الله لم يأمر الرسول بفتح مكة إلا في السنة السادسة للهجرة « 628 ميلادية » . وذلك لأن في هذا الوقت – وهذا الوقت بالذات كما يرى قطب – أصبحنا أمام جماعة نضج إدراكها للعقيدة . إنها جماعة قد تجانست مستوياتها الإيمانية واطمأنت نفوسها لتكاليف هذا الدين . ولم تعد محتاجة إلى حوافز عنيفة الوقع كي تنهض بهذه التكاليف « الظلال 3312 – الفتح الآيات 1 - 12 » .

إن هذا الأجل يتناسق مع ما سبق أن بشره به الله الجماعة المسلمة من مغانم كثيرة وفتوح . وما أحاطها به من رعاية وحماية في هذه الرحلة ، وفيما سيتلوها ، وفيما قدر لها من نصر موصول بسنته التي لا ينالها التبديل أبدا . لقد عَلِمَ الله ما في قلوب هذه الجماعة من حمية لدينهم لا لأنفسهم . وعلم ما في قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز ، فأنزل سكينته عليهم حتى يتلقوا حكمته في اختيار الصلح والمهادنة ، وحتى يظلوا طائعين مسلمين صابرين .

ويشير قطب « الظلال 3286 » إلى أنه إذا كان الله قد طلب من المسلمين الصبر ، فليس ذلك عن ضعف عسكري ، ولكنه ابتلاء منه لقوة إيمان هذه الجماعة المسلمة . فالله يريد لعباده المؤمنين أكرم ما في النفس البشرية من طاقات واتجاهات . فليس أكرم في النفس من أن يعز عليها الحق الذي تؤمن به ، حتى تجاهد في سبيله ، فتقتل وتقتل .

يريد الله ليريهم . فيظل يخرج من نفوسهم كل هوى وكل رغبة في أعراض

هذه الأرض الفانية . مما يعز عليهم أن يتخلوا عنه . ويظل يقوي في نفوسهم كل ضعف ويكمل كل نقص .

ويريد ليصلحهم . ففي معاناة الجهاد في سبيل الله ، والتعرض للموت في كل جولة ، ما يعود النفس الاستهانة بهذا الخطر المخوف .

ثم هذه هي الأسباب الظاهرة لإسلام الجماعة البشرية كلها ، عن طريق قيادتها بأيدي المجاهدين الذين فرغت نفوسهم من كل أعراض الدنيا وكل زخارفها ، وهانت عليهم الحياة وهم يخوضون غمار الموت في سبيل الله .

ثم نقف أمام هذه الحقيقة الهائلة . حقيقة حياة الشهداء في سبيل الله . فهي حقيقة مقررة من قبل في قول الله : ﴿ **ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون** ﴾ . حيث يتعهدهم الله في حياتهم المستمرة . فيزيدها هدى . ويزيدها صفاء . ويزيدها إشراقا .

وأخيرا يحقق لهم ما وعدهم في إدخالهم جنة الخلد . وهنا أورد قطب حديثًا عن تعريف الله الجنة للشهداء . رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده « الظلال 3287 » .

ويضيف قطب عند تفسيره لسورة « محمد » : أن الله يحرض المؤمنين على التجرد له ، والاتجاه إلى نصرة نهجه في الحياة . ويتساءل : كيف « ينصر المؤمنون الله » ؟ .

ويجيب : أن نصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه ومحاولة تحكيمهما في الحياة بدون استثناء .

وفي كلتا الحالتين : حالة القتل ، وحالة النصرة ، يشترط أن يكون هذا لله وفي سبيل الله . إنه لا جهاد ، ولا شهادة ، ولا جنة ، إلا حين يكون الجهاد في سبيل الله وحده ، والموت في سبيله وحده ، والنصرة له وحده ، في ذات النفس وفي منهج الحياة .

وأيضا لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون الهدف هو أن تهيمن شريعة

الله ومنهاجه في ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم ، وفي أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء .

وفيما عدا هذا ليست هناك شهادة ولا استشهاد . وفيما عدا هذا ليس هنالك جنة ولا نصر . ولهذا – حسب ما يرى قطب – فإن هذا شرط الله على الذين آمنوا . فأما شرطه لهم فهو النصر وتثبيت الأقدام .

إن توجيه المؤمنين لقتال الكفار يقرر أصل الدعوة إلى الجهاد . فالمؤمنون على الحق الثابت الذي ينبغي أن يتقرر في الأرض ، ويستعلي ويهيمن على أقدار الناس والحياة ليصل الناس بالحق وليقيم الحياة على أساسه . بمعنى أن ينبع عملهم هذا من إيمانهم الحقيقي الصحيح .

يؤكد قطب ــ ونحن في ذلك ننحاز إلى رأيه بشدة ــ أنه لا قيمة لعمل صالح بغير إيمان . هذا الإيمان لابد أن يتجلى بكل تأكيد في الجهاد . فلا يكفي أن يجاهد المؤمنون . إنما يجب الصبر على تكاليف الدعوة أيضا . التكاليف المستمرة المتنوعة التي لا تقف عند الجهاد في الميدان . فربما كان الجهاد في الميدان أخف تكاليف هذه الدعوة التي يطلب لها الصبر ، ويختبر بها الإيمان .

إن الحرب الفعلية هي ابتلاء من الله ، لينكشف المجاهدون والصابرون ، ويتميزوا ، وتصبح أخبارهم معروفة ، ولا يقع الالتباس في الصفوف ، ولا يبقى مجال لخفاء أمر المنافقين ، ولا أمر الضعاف والجزعين . وهذا يبدو لنا هدفًا رئيسيًا للجهاد « أو القتال » في سبيل الله .

ويتناول قطب موضوع الشهداء « الظلال 3287 ، 481 ، 517 » . فيذكر أن الشهداء الذين يقتلون في سبيل الله ليسوا أمواتا بل أحياء عند ربهم . يتلقون رزقه لهم استقبال الأحياء . فهم لم يموتوا موتا حقيقيا وذلك على غرار عيسى بن مريم ، الذي أشار قطب إلى أنه لم يمت حقيقة على الصليب .

وهنا يعطي قطب للشهادة معنى النصر ، ومن بين الأمثلة التي يعرضها استشهاد الحسين بن علي . فيرى أن استشهاد الحسين كان عن عقيدة وإيمان قويين في سبيل الله . فكان استشهاده نصرا « الظلال 3086 – غافر الآيات 56-77 » : « فما من شهيد تهتز له الجوانح بالحب والعطف ، وتهفو له القلوب وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين . يستوي في هذا المتشيعون وغير المتشيعين » .

ويعود قطب للأمر الصادر للمسلمين بالقتال في سبيل الله ، فيعلن أنه مع أن الأمر الذي كان صادرا للمسلمين في مكة هو أن يصبروا وألا يردوا العدوان بالعدوان ، إلا أنه قد صدر لهم أمر آخر بعد الهجرة وأذن لهم في القتال .

وقد ذكر القرآن أن صفة الانتصار من البغي صفة أساسية ثابتة . وأن الأمر الأول بالكف والصبر كان أمرا استثنائيا لظروف معينة .

إن الكف والصبر من الصفات الأساسية للجماعة المسلمة . ويشير قطب إلى أن الآيات التي تتضمن تلك الصفات قد نزلت في مكة لكي تهيئ تلك الجماعة المسلمة حتى تصبح بها صالحة للقيادة العملية للبشرية .

إن ما يفتقده أولئك الذين لا يصبرون على حكم الله هو المعرفة الحقيقية لمعنى الجهاد في الإسلام . فهؤلاء – كما يرى قطب – لا يعقلون حقيقة المعركة بين الإيمان والكفر ، وبين الحق والباطل ، وبين الدعاة إلى الله الواحد والطغاة الذين يستكبرون في الأرض بغير الحق . إنها معركة قديمة بدأت منذ فجر البشرية . ونهاية هذه المعركة هي انتصار صف الحق وانحدار أهل الكفر والباطل .

هذا الانتصار يتحقق بالشهادة أو صلاح القلوب وثباتها على الحق بعد النصر .

إنه نصر حقيقي على مدى التاريخ البشري . بالرغم من أن الناس يقصدون معنى النصر على صورة معينة معهودة لهم ، قريبة الرؤية لأعينهم . ولكن صور النصر شتى . وقد يتلبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة .

إننا في حاجة إلى أن نراجع ما استقر في تقديرنا من الصور ، ومن القيم . قبل

أن نسأل : أين وعد الله لرسله وللمؤمنين بالنصر في الحياة الدنيا ! إن هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر في صورته الظاهرة القريبة . ذلك حين تتصل هذه الصورة الظاهرة القريبة بصورة باقية ثابتة .

لقد انتصر الرسول في حياته . لأن هذا النصر يرتبط بمعنى إقامة هذه العقيدة بحقيقتها الكاملة في الأرض . فهذه العقيدة لا يتم تمامها إلا بأن تهيمن على حياة الجماعة البشرية وتصرفها جميعا . فشاء الله أن ينتصر صاحب هذه العقيدة في حياته ، ليحقق هذه العقيدة في صورتها الكاملة . ويترك هذه الحقيقة مقررة في واقعة تاريخية محددة مشهورة .

فوعد الله قائم ما دام الإنسان يرضى ويقبل بإرادة الله . وذلك معنى من معاني النصر . النصر على الذات والشهوات . وهو النصر الداخلي الذي لا يتم نصر خارجي بدونه بحال من الأحوال .

وهنا يركز قطب على أن لب الرسالة بقي في المدينة كما كان في مكة وهو : التبشير والإنذار ، وإنما جعل القتال لإزالة الموانع المادية دون حرية الدعوة ولحماية المؤمنين حتى لا تكون فتنة . فالنص صادق في مكة وفي المدينة على السواء . وهكذا فإنه بعد الكف عن رد العدوان بالعدوان ، كان أمر الله بالإذن بالقتال . فالشعائر والعبادات لابد لها من حماية تدفع عنها الذين يصدون عن سبيل الله وتمنعهم من الاعتداء على قداسة المعابد وحرمة الشعائر .

ولم يتردد قطب أن يذكر الخاصية الدفاعية للحرب التي آذن بها الله في سورة الحج : فالإسلام مع هذا لا يعد القتال غاية لذاته ، ولا يأذن به لغاية أكبر من المهادنة والموادعة . إن السلام هو غاية الإسلام . ولكنه السلام الذي لا اعتداء فيه ولا ظلم ولا بغي ولا عدوان . أما حيث يقع البغي والعدوان على أي مقوم من مقومات الإنسانية الفاضلة فالإسلام لا يرض حينئذ بسلام يقوم على هذا العدوان .

ويؤكد قطب أن سورة الحج مشتركة بين مكية ومدنية كما يبدو من دلالة آياتها . وعلى الأخص آيات الإذن بالقتال ، وآيات العقاب بالمثل ، فهي مدنية قطعا .

فالمسلمون لم يؤذن لهم في القتال والقصاص إلا بعد الهجرة وبعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة « الظلال 2405 » .

ولكن إذا لم يكن الهدف هو القتال من أجل القتال وليس لتحقيق السلام بالمعنى العام ، فلماذا يأذن الله للمسلمين بالقتال ؟ وفيم إذن يكتب عليهم الجهاد ؟ وفيم إذن يقاتلون فيصيبهم القتل والجرح ، والجهد والمشقة ، والتضحية والآلام ؟

يجيب قطب على هذه التساؤلات « الظلال 2425 » : إن حكمة الله في هذا هي العليا ؛ وإن لله الحجة البالغة . إن الله لم يرد أن يكون حملة دعوته وحماتها من « التنابلة » الكسالى الذين يجلسون في استرخاء ، ثم يتنزل عليهم نصره سهلا هينا بلا عناء ، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة ويتوجهون إلى الله بالدعاء كلما مسهم الأذى ووقع عليهم الاعتداء !

نعم إنهم يجب أن يقيموا الصلاة ، وأن يرتلوا القرآن ، وأن يتوجهوا إلى الله بالدعاء في السراء والضراء . ولكن هذه العبادة وحدها لا تؤهلهم لحمل دعوة الله وحمايتها . إنما هي الزاد الذي يتزودونه للمعركة .

يجب أن يتربى المسلم ذاته من النصر والهزيمة ، ومن الكر والفر ، والقوة والضعف ، والتقدم والتقهقر ، ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة ، إلى آخر ذلك مما تنتج عنه المعركة .

جانب آخر للإجابة على التساؤلات السابقة : إن المسألة ليست هي النصر ، إنما هي تربية الجماعة الإسلامية ، التي تعد لتتسلم قيادة البشرية . البشرية بكل ضعفها ونقصها ، وبكل شهواتها ونزواتها ، وبكل جاهليتها وانحرافها « الظلال 484 ، آل عمران ، 121-179 » .

من ناحية أخرى ، ركز قطب على جهاد النفس « الظلال 2718 » ، فجهاد النفس أحد الخصائص المهمة في الفترة المكية . وتعمق وجودها في المدينة . هذا الجهاد هو جهاد ضد الفتنة التي تعرضت لها الجماعة الإسلامية الأولى . إن الأمر يتعلق هنا – كما يذكر قطب – بالجهاد ضد كل ألوان العبودية لغير الله ، ضد عبودية

الاعتقاد ، والأعراف ، والتقاليد ، والتشريعات ، وضد كل تكاليف العبودية لحاكمية التشريع البشرية .

فإذا كانت المرحلة الأولية للحركة الإسلامية في مكة ضد الشرك هي البلاغ ، فإن قطبا قد أعلن « الظلال 2071 » : إن وظيفة الرسول في مكة تحددت « بالبلاغ » . ذلك أن « الجهاد » لم يكن بعد قد كتب . فأما بعد ذلك فقد أمر بالجهاد ــ بعد البلاغ ــ وهذا ما ينبغي ملاحظته في الطبيعة الحركية لهذا الدين .

وهنا يتعجب قطب من الذين يقدمون تفسيرا لحركة الدعوة بأن مهمة الدعاة إلى الله تنتهي عند البلاغ ، ولا يربطون بين البلاغ وبين الجهاد ، كما أن هناك آخرين لا يلغون الجهاد إنما يقيدونه !

ولكن قطبا يرى أن « البلاغ » يظل هو قاعدة عمل الرسول وقاعدة عمل الدعاة بعده إلى الدين الإسلامي ، وهذا البلاغ هو أول مراتب الجهاد .

المبحث الثاني

الجهاد ، رسالة ... وتطهير للنفس

عرض قطب رؤيته في الجهاد في المقدمة الطويلة التي كتبها عند تفسيره لسورة الأنفال « الظلال 1429-1469 » . أيضا في مقدمة تفسيره لسورة التوبة وآياتها 93-129 « الظلال 1693-1740 » . وعند تفسيره للآيات 15-104 من سورة النساء « الظلال 701-740 » . وكذلك الآيات 65-179 من سورة آل عمران « الظلال 409-499 » . والآيات 104-260 من سورة البقرة « الظلال 108-295 » .

إن الأمر يتعلق هنا – كما سنرى – بآخر النصوص القرآنية التي نزلت . وتتناول الدعوة إلى الجهاد أو إلى القتال .

فالجهاد في الإسلام هو جهاد في « سبيل الله » . هو جهاد لتقرير ألوهية الله في الأرض ، جهاد لإقامة مملكة الله في الأرض ، ومن ثم ينبغي له أن ينطلق في « الأرض » كلها ، لتحرير « الإنسان » كله . وذلك بلا تفرقة بين ما هو داخل في حدود الإسلام وبين ما هو خارج عنها . فكلها « أرض » يسكنها « الإنسان » .

فالإسلام ــ كما يؤكد قطب ــ دين ذو منهج حركي ، لا يفقهه إلا من يتحرك به ، فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه .

ويقرر قطب « الظلال 1736 » أن الآيات 111-129 من سورة التوبة ــ التي تتعلق بغزوة تبوك ــ هي من النصوص القرآنية النهائية الأخيرة . وأشار إلى أن بعض الذين يتعرضون لتفسير آيات الجهاد في القرآن يريدون أن يتلمسوا لهذا النص النهائي

الأخير قيدا من النصوص المرحلية السابقة ، فيقيدوه بوقوع الاعتداء أو خوف الاعتداء !

والنص القرآني بذاته مطلق ، وهو النص الأخير ! فلماذا ؟ يجيب قطب : أن ذلك هو الأمر الأخير . الذي يجعل « الانطلاق » بهذا الدين هو الأصل الذي ينبثق منه مبدأ الجهاد . وهذه الحركة الجهادية هي التي سارت عليها الفتوح الإسلامية كما سار عليها الرسول وخلفاؤه من بعده بصفة عامة .

إذن هذه هي روح الجهاد التي ألفت قاعدة المجتمع المسلم الصلبة القوية . إنها تقرير لطبيعة « البيعة الإسلامية مع الله على الجهاد في سبيله » .

ويوضح قطب من يجب الجهاد ضدهم : هم المشركون والملحدون والمنافقون و « مساجد الضرار » الكثيرة التي يتحتم الكشف عنها وإنزال اللافتات الخادعة عنها .

هنا نجد أنه قد ركز على أعداء الدعوة الإسلامية عند بداية ظهورها . وهم المنافقون الذين عاشوا داخل المجتمع الإسلامي ، والأعراب الذين حاولوا الوقوف في وجه الدعوة . هذا التصنيف قد نزلت به الآيات بعد العودة من تبوك « الظلال 1702 » . وكان مجموع هؤلاء يمثل صفوف الناس من حول الدعوة في الجزيرة بعد غزوة تبوك . وكان الله يكشف أرض الحركة كلها وما عليها ومن عليها لرسوله . هذا الكشف النهائي الكامل قرب نهاية المطاف في الجولة الأولى لهذا الدين ، في موطنه الأول ، قبل أن ينطلق إلى الأرض كلها بإعلانه العام بالعبودية لله وحده ، وتحرير « الإنسان » في « الأرض » .

ولقد اقتبس قطب فقرات مطولة من كتاب المودودي حول طبيعة الجهاد في الإسلام والتي وردت في كتابه تحت عنوان « الجهاد في سبيل الله » « الظلال 1444 - 1452 » .

مال قطب إلى اعتبار الجهاد عنصرا هاما وأصيلا في العقيدة الإسلامية ، حيث يذكر أن الشيعة تعتبر الجهاد ركنا من أركان الإسلام . ويضيف هنا أن قوة التكليف بالجهاد تؤيد هذا الشعور العميق بجدية هذا العنصر وأصالته . ولقد أفاض « القطبيون » في تفسير ذلك بعد وفاة قطب ! .

وفيما يلي مقتطفات من أحد النصوص التي وردت في كتاب الظلال حول الجهاد ، وذلك في مقدمة تفسير سورة الأنفال « الظلال 1433 - 1443 » :

« هناك من يحاولون أن يحصروا الجهاد في الإسلام فيما يسمونه اليوم : « الحرب الدفاعية » ، والجهاد في الإسلام أمر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم ، ولا بواعثها ، ولا تكييفها كذلك « .... » إنه الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها « .... » إن الإسلام يهدف ابتداء إلى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الإنسان للإنسان . ثم يطلق الأفراد بعد ذلك أحرارا بالفعل في اختيار العقيدة التي يريدونها بمحض إرادتهم « .... » إن هذا الإعلان لتحرير « الإنسان » في « الأرض » من كل سلطان غير سلطان الله ، بإعلان ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين ، لم يكن إعلانا نظريا فلسفيا سلبيا . إنما كان إعلانا حركيا واقعيا إيجابيا ، إعلانا يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله« ..... » وإذا كان « البيان » يواجه العقائد والتصورات ، فإن « الحركة » تواجه العقبات المادية الأخرى ، وفي مقدمتها السلطان السياسي القائم على العوامل الاعتقادية التصورية ، والعنصرية الطبقية ، والاجتماعية والاقتصادية المعقدة المتشابكة « ..... » ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ شكل « الحركة » إلى جانب شكل « البيان » ، ذلك ليواجه « الواقع » البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه « ... » إن هذا الدين ليس إعلانا لتحرير الإنسان العربي : وليس رسالة خاصة بالعرب ! إن موضوعه هو « الإنسان » « ... » والذي يدرك طبيعة هذا الدين يدرك معها حتمية الانطلاق الحركي للإسلامي في صورة الجهاد بالسيف – إلى جانب الجهاد بالبيان – ويدرك أن ذلك لم يكن حركة دفاعية ــ بالمعنى الضيق الذي يفهم اليوم من اصطلاح « الحرب الدفاعية » – كما يريد المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام هجوم المستشرقين الماكر أن يصوروا حركة الجهاد في الإسلام ــ إنما كان حركة اندفاع وانطلاق لتحرير « الإنسان » في « الأرض » ... بوسائل مكافئة لكل جوانب الواقع البشري « .... » إنه لا مجال لمحاولة البحث عن أسانيد لإثبات أن وقائع الجهاد الإسلامي

كانت لمجرد صد العدوان من القوى المجاورة على « الوطن الإسلامي » – وهو في عرف بعضهم جزيرة العرب – « ... » الإسلام حين يسعى إلى السلم ، لايقصد تلك السلم الرخيصة ، وهي مجرد أن يأمن على الرقعة الخاصة التي يعتنق أهلها العقيدة الإسلامية . إنما هو يريد السلم التي يكون الدين فيها كله لله . أي تكون عبودية الناس كلهم فيها لله ، والتي لا يتخذ فيها الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله « ... » إن الكفّ عن القتال في مكة لم يكن إلا مجرد مرحلة في خطة طويلة « ... » وذلك لأنه كان مكفولا للدعوة في مكة حرية البلاغ « ... » أما في المدينة – في أول العهد بالهجرة – فقد كانت المعاهدة التي عقدها رسول الله مع اليهود من أهلها ومن بقي على الشرك من العرب فيها وفيما حولها ، ملابسة تقتضيها طبيعة المرحلة كذلك . لأن هناك مجالا للتبليغ والبيان ، لا تقف له سلطة سياسية تمنعه وتحول بين الناس وبينه ، فقد اعترف الجميع بالدولة الإسلامية الجديدة ، وبقيادة رسول الله في تصريف شئونها السياسية « ... » والذين يبحثون عن مبررات للجهاد الإسلامي في حماية « الوطن الإسلامي » يغضون من شأن « المنهج » ويعتبرونه أقل من « الموطن » « ... » حقيقة أن حماية « دار الإسلام » حماية للعقيدة والمنهج والمجتمع الذي يسود فيه المنهج . ولكنها ليست هي الهدف النهائي . وليست حمايتها هي الغاية الأخيرة لحركة الجهاد الإسلامي « ... » والمسافة قد لا تبدو كبيرة عند مفرق الطريق ، بين تصور أن الإسلام كان مضطرا لخوض معركة لا اختيار له فيها ، بحكم وجوده الذاتي ووجود المجتمعات الجاهلية الأخرى التي لابد أن تهاجمه . وتصور أنه هو بذاته لابد أن يتحرك ابتداء ، فيدخل في هذه المعركة « ... » إن المستشرقين صوروا الإسلام حركة قهر بالسيف للإكراه على العقيدة . والمستشرقون يعرفون جيدا أن هذه ليست الحقيقة « ... » فالجهاد هو جهاد لتقرير المنهج وإقامة النظام . أما العقيدة فأمرها موكول إلى حرية الاقتناع ، في ظل النظام العام ، بعد رفع جميع المؤثرات ... » .

إننا نرى على وجه اليقين أن هذا النص هو نص أصلي ، دقيق وواضح للغاية ، يعكس قدرا كبيرا من الإدراك والفهم . ويمكن ملاحظة أن الإطار العام لهذا النص يكون جزءا هاما في مقدمة تفسير سورة الأنعام « الظلال 1013 » .

إن العقيدة الإسلامية – كما يراها قطب – يجب أن تتمثل في نفوس حية ، وفي تنظيم واقعي ، وفي حركة تتفاعل مع الجاهلية من حولها ، كما تتفاعل مع الجاهلية الراسبة في نفوس أصحابها ــ بوصفهم كانوا من أهل الجاهلية قبل أن تدخل العقيدة في نفوسهم وتنتزعها من الوسط الجاهلي . بمعنى آخر ، إن المعركة الحقيقية التي خاضها الإسلام ليقرر « وجوده » لم تكن هي المعركة مع الإلحاد ، حتى يكون مجرد « التدين » هو ما يسعى إليه المتحمسون لهذا الدين ! و لم تكن هي المعركة مع الفساد الاجتماعي أو الفساد الأخلاقي . فهذه معارك تالية لمعركة « وجود » هذا الدين ! لقد كانت المعركة الأولى التي خاضها الإسلام ليقرر « وجوده » هي معركة « الحاكمية » وتقرير لمن تكون .

أفاض قطب في قراءاته بتأكيد أهمية الجهاد . وذلك على سبيل المثال في تفسيره لسورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة النساء « الظلال 741 ، 746 ، 732 ،710 ، 714 ، 409 - 411 ، 294 - 295 ، 276 ، 187 » .

« لابد للإسلام من نظام ولابد للإسلام من قوة ، ولابد للإسلام من جهاد . فهذه طبيعته التي لا يقوم بدونها إسلام يعيش ويقود » .

وعرض قطب للمراحل « المتدرجة » التي نزلت فيها أحكام القتال « الظلال 184 » وفي ذلك يذكر : لقد كان الكفّ عن الجهاد في مكة . وذلك حتى لا تقع حرب دموية داخل البيوت . فقد كان المسلمون حينذاك فروعا من البيوت . وكانت هذه البيوت هي التي تؤذي أبناءها وتفتنهم عن دينهم . ولو أذن للمسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم يومذاك ، لكان معنى ذلك الإذن أن تقوم معركة في كل بيت وأن يقع دم في كل أسرة . مما يجعل الإسلام – في نظر البيئة العربية – يبدو دعوة تفتت البيوت ، وتشعل النار فيها من داخلها . وبعد الهجرة إلى المدينة نزلت بعض الأحكام الموافقة لمقتضيات الموقف في بدء المناجزة بين المعسكرين الأساسيين . معسكر الإسلام ، ومعسكر الشرك . وهي في الوقت ذاته تمثل بعض الأحكام الثابتة في القتال بوجه عام . وذلك بعد أن انعزلت الجماعة المسلمة كوحدة مستقلة ، تواجه سلطة أخرى في مكة ، تجند الجيوش وتقود الحملات ضدها . وهذا وضع متغير عما كان عليه الوضع الفردي في مكة .

ويقرر قطب في ذلك ، أن الكفّ عن القتال كان تربية وإعدادا لنفس المسلم على الصبر وضبط النفس حتى تكون الظروف مهيئة للدخول في القتال . وهكذا يقف المسلمون على أرض صلبة مقتنعي الوجدان بأنهم يخوضون معركة لله . ليس لأنفسهم منها نصيب . وليست لقومهم ولا لجنسهم . إنما هي لله وحده . فمكة كانت « دار حرب » في الوقت الذي كانت فيه وطن المهاجرين . يجب أن يقاتل لاستنقاذ المسلمين المستضعفين منها .

ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون جهاد في الإسلام تحت أي جنسية من الأجناس . إنما يحارب المسلم تحت شارة النصر للإسلام . وهذا هو الجهاد . إنه القتال في سبيل الله وليس في سبيل المغانم والمكاسب . إنه القتال لمنهج الله وشريعته . إنه دعوة إلى الهجرة إلى دار الإسلام والحث على انضمام المسلمين المتخلفين في دار الكفر والحرب إلى الصف المسلم المجاهد في سبيل الله بالنفس والمال .

إنه جهاد المجتمع المسلم الذي تفوق في التنظيم الاجتماعي الذي قام عليه . ليس غلبة معركة بالسلاح فحسب ، ولكن غلبة حضارة فتية على حضارات شاخت . غلبة منهج على مناهج ونموذج من الحياة على نماذج .

إنها معركة العقيدة بين الإسلام وبين أعدائه من المشركين والمنافقين ومن اليهود والنصارى . – وهنا يشير قطب — إنهم الآن الصهيونية العالمية والصليبية العالمية – بالإضافة إلى الشيوعية العالمية – جميعا يخوضون المعركة أولا وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التي نطحوها طويلا .

هؤلاء الأعداء — كما يرى قطب — قد غيّروا أعلام المعركة . لم يعلنوها حربا باسم العقيدة . إنما أعلنوها باسم الأرض ، والاقتصاد ، والسياسة ، والمراكز العسكرية . وما إليها . وألقوا في روع المخدوعين الغافلين أن حكاية العقيدة قد صارت قديمة لا معنى لها ! ولا يجوز رفع رايتها ، وخوض المعركة باسمها ! ولكنها معركة العقيدة .

هذه هي الفكرة العامة للقتال في الإسلام كما يعرضها كتاب الظلال . قتال ذو

معنى روحي أو نفسي ، وقتال ذو معنى عسكري . ولكن لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر . إنه جهاد عالمي لإقامة نظام اجتماعي وأخلاقي . وليس من أجل أرض أو وطن . إنه معركة عقيدة . ومعركة تحرير . إنه جهاد من أجل حرية العقيدة وحرية الدعوة .

وفي ذلك يذكر قطب أن البعض يقولون بوجود تناقض أو تعارض بين الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله وبين الدعوة إلى حرية العقيدة . ويرد عليهم : إن الجهاد في سبيل الله هو أحد القواعد التي تكفل للإنسان حرية العقيدة . إن الوقوف في وجه هذه الحرية يدل على التحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد الميتة ، في مقابل حرية الإيمان .

إذن القتال في الإسلام ليس له هدف من الأهداف التي عرفتها البشرية في حروبها . إنه ليس قتالا لتسويد طبقة على طبقة أو جنس على جنس . إنه قتال لإعلاء كلمة الله في الأرض .

المبحث الثالث

المقاتلون – الغنائم – الأسرى

إن الإسلام قد فرض القتال حتى تتحقق للناس حرية الاعتقاد ، ولكن هذا القتال يجب أن يسبقه إعلان ، وتخيير بين : قبول الإسلام ، أو أداء الجزية ، أو القتال . هذا القتال يسبقه أيضا نبذ العهد إن كان هناك عهد ، في حالة الخوف من الخيانة . والأحكام النهائية تجعل العهد لأهل الذمة الذين يقبلون مسالمة الإسلام وأداء الجزية ، ولا عهد في غير هذه الحالة إلا أن يكون بالمسلمين ضعف يجعل الحكم المتعين في حالتهم هذه هو الحكم المرحلي الذي كان في حالة تشبه الحالة التي هم فيها .

يوضح قطب أن الله قد أمر النبي ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين . وفي قطاع الجهاد أيضا نلتقي بالحرب المشبوبة على الجماعة المسلمة من أهل الكتاب – وبخاصة اليهود – وحلفائهم من المنافقين في المدينة والمشركين في مكة . هذه المعركة الدائمة المتجددة ، وتلك المؤامرات التي لا تنقطع من اليهود ضد الجماعة المسلمة .

ونستذكر هنا الدعوة إلى الإنفاق الذي هو فريضة المال اللازمة لفريضة الجهاد ، قبل أن يأتي يوم لا توجد فيه شفاعة . هذا الإنفاق فريضة في جميع الأحوال وبخاصة في الحالة التي كانت فيها الجماعة المسلمة تتجهز للغزو في سبيل الله . نعم فقد كانت احتياجات المعركة كبيرة . فالجماعة الإسلامية كانت لها معاركها الخارجية مع أعدائها في المدينة خاصة . وكان يجب الاستعداد الحقيقي لمواجهتها . كانت تلك معركة البناء . بناء هذا المجتمع الجديد .

لقد كانت معركة للتفوق الثقافي والأدبي وفي البناء الروحي والخلقي والاجتماعي والتنظيمي قبل أن يكون تفوقا عسكريا أو اقتصاديا أو ماديا . فالحاجة ملحة لقتال الكفار والمشركين . كما أنها ضرورية لحماية المجتمع الإسلامي الذي يقوم في « دار الإسلام » . هذا المجتمع ـــ كما يرى قطب ـــ يستحق أن تصان فيه الدماء ، وتصان فيه الأموال ، ويصان فيه النظام العام . بينما « دار الحرب » التي لا تطبق الشريعة الإسلامية فهي ليست حمى . فأرواحها وأموالها مباحة ، لا حرمة لها عند الإسلام ـــ إلا بعهد من المسلمين حين تقوم بينها وبين « دار الإسلام » المعاهدات .

ويضيف قطب مشددا « الظلال 190 » : أن الأمر لم يكن « وقاتلوهم » إنما قال : ﴿ **واقتلوهم** ﴾ حيث وجدتموهم في أية حالة كانوا عليها ، وبأية وسيلة يملكونها . فيقاتل المسلمون الكافرين ولا يكفون عنهم حتى يقتلوهم . والانتهاء الذي يستأهل غفران الله ورحمته ، هو الانتهاء عن الكفر ، لا مجرد الانتهاء عن قتال المسلمين أو فتنتهم عن الدين .

هذا المبدأ ـــ كما يرى قطب ـــ ما يزال قائما ومفروضا على المسلمين حتى يقضوا على القوى المعتدية الظالمة . إنه الأمر للمسلمين بقتال هؤلاء الذين قاتلوهم ومازالوا يقاتلونهم ، وبقتال من يقاتلهم في أي وقت وفي أي مكان . ولكن دون اعتداء . إنه أمر يترتب عليه أن يقاتل المسلمون لاستنقاذ الضعاف من إخوانهم المسلمين الذين لا يستطيعون الهجرة من دار الحرب وراية الكفر ، وضمهم إلى الجماعة المسلمة في دار الإسلام .

إن الإسلام قد فرض أيضا قواعد للقتال – كما يشير الظلال 2682 – فالمسلمون كما فعل موسى من قبل قد عرفوا طبيعة المعارك التي لا تنتهي والاشتباكات التي لا تثمر . فلا قيمة لمثل هذه الاشتباكات التي لا تضر ولا تفيد . وجميع المسلمين يجب أن يشاركوا في القتال وأن ينتظموا تحت قيادة واحدة قوية . ولذلك كانت شدة مدى كراهية الإسلام للقعود عن الجهاد في سبيل الله ، والقعود عن الانضمام للصف المسلم المجاهد .

لذلك أيضا كان مدى عمق عنصر الجهاد وأصالته في العقيدة الإسلامية حيث عدته الشيعة ركنا من أركان الإسلام . ومن هنا كان التخلف عن الجهاد للقادرين – أيا كانت الأسباب – أمرا مستنكرا عظيما ، بعدما بايعوا الرسول على الجهاد . هذا في الوقت الذي كان فيه كثير من فقراء المسلمين الراغبين في الجهاد لايجدون ما يزودون به أنفسهم ، ولا ما يتجهزون به من عدة الحرب . وكانوا يجيئون إلى النبي ﷺ يطلبون أن يحملهم إلى ميدان المعركة .

من ناحية أخرى ، اعتبر قطب أن مجموعة الآيات 15-23 من سورة النساء بمثابة درس للمسلمين بعد غزوة أحد ، وقبل الخندق . فصورة الصف المسلم التي تبدو من خلال هذه الآيات توحي بهذا « الظلال 701-707 » : إنها الوصية للذين آمنوا : الوصية من القيادة العليا التي ترسم لهم المنهج ، وتبين لهم الطريق . والقرآن يرسم للمسلمين الخطة العامة لمعركة الجهاد في سبيل الله . لا في سبيل الأمجاد والاستعلاء في الأرض ، ولا في سبيل المغانم والمكاسب ، ولا في سبيل تسويد طبقة على طبقة أو جنس على جنس ، ولا في سبيل الأسواق والخامات . إنما هو قتال لإعلاء كلمة الله في الأرض ، وإقرار منهجه في الحياة .

ففي معركة أحد ، ضعف فريق من الرماة أمام إغراء الغنيمة ، ووقع النزاع بينهم وبين من يرون الطاعة المطلقة لأمر الرسول . وانتهى الأمر إلى العصيان . وانقلب النصر إلى هزيمة . وشابت المطامع جلاء الإخلاص والتجرد الذي لابد منه في معركة العقيدة .

فمعركة العقيدة ليست ككل معركة . إنها معركة في الميدان ومعركة في الضمير . ولا انتصار في معركة الميدان دون الانتصار في معركة الضمير . إنها معركة لله ، فلا ينصر الله فيها إلا من خلصت نفوسهم له ، ذلك ما يؤكده النص القرآني في قصة داود « الظلال 270 – البقرة الآيات 243 - 252 » .

إن المقاتلين في سبيل الله لا يطلبون ثواب الدنيا ولا ثواب الآخرة . إنهم أكثر أدبا مع الله ، وهم يتوجهون إليه ، بينما هم يقاتلون في سبيله . إنهم لا يطلبون من الله

إلا غفران الذنوب ، وتثبيت الأقدام . والنصر على الكفار . فحتى النصر لا يطلبونه لأنفسهم ، إنما يطلبونه هزيمة للكفر وعقوبة للكفار . إنه الأدب اللائق بالمؤمنين في حق الله . وهؤلاء الذين لم يطلبوا لأنفسهم شيئا ، أعطاهم الله من عنده كل شيء . أعطاهم من عنده كل ما يتمناه طلاب الدنيا وزيادة . وأعطاهم كذلك كل ما يتمناه طلاب الآخرة ويرجونه .

ويعلم القرآن المسلمين « صلاة الخوف » . فهذه الصلاة - كما يقول قطب « الظلال 748 » - سلاح من أسلحة المعركة . وكان النص القرآني هو التعبئة الروحية الكاملة تجاه العدو : فالمسلمون متفوقون في إيمانهم بإله واحد يعرفونه حق المعرفة ، ويشعرون أنه معهم في المعركة . متفوقون كذلك في إيمانهم بهدف يقاتلون من أجله ، ويشعرون أنه أرفع الأهداف جميعا . متفوقون أيضا في تصورهم للكون والحياة ولغاية وجودهم الإنساني ، تفوقهم في تنظيمهم الاجتماعي الناشئ من تفوق منهجهم الرباني .

ويقرر قطب أن النصر دائما من عند الله . إنه يعطي النصر وفقا لقدرته وتدبيره . فالمقاتل لا يملك شيئا من أسباب النصر . إنما هي مشيئة الله وحكمته . فأمر هذا الدين ، والجهاد لإقامته وتقرير نظامه في الأرض كلها من أمر الله . وليس للبشر فيها من شيء ، إلا أن يؤدوا واجبهم ، ثم يكون ما يشاء الله كيف يكون . فكل ما يتعرض له المقاتل من قتل أو ابتلاء يدرك المسلم أنه من مجال تقدير وتدبير الله . فكل ما يقع من نتائج ، فهو يتلقاه بالطمأنينة والرضا والتسليم ، وأنه لم يكن بد أن يقع كما وقع ، ولو أنه هو قدم أسبابه بفعله .

فالمشركون والمنافقون اتخذوا من مقتل الشهداء في أحد مادة لإثارة الحسرة في قلوب أهليهم . ولكن هؤلاء لم يدركوا السنن التي تسير عليها الحياة : سراؤها وضراؤها ، ولكن صاحب العقيدة مدرك لسنن الله ، متعرف على مشيئة الله ، مطمئن إلى قدر الله وأن ما وقع وقع وفقا لقدر الله وتدبيره وحكمته .

ويقدم قطب الانتصار في بدر كدليل آخر « الظلال 470 » : النصر من الله

مباشرة ، ومتعلق بقدرته وإرادته ، بلا واسطة ولا سبب ولا وسيلة . ليس للرسول ولا للمجاهدين معه في النصر من غاية ذاتية . كما أنه ليس له ولا لهم دخل في تحقيقه ، وإن هم إلا ستار القدرة تحقق بهم ما تشاء .

وفي هذا المجال يجب على المقاتل في سبيل الله **أولا** : أن يكون دائم الاتصال بالله بالذكر . إن ذكر الله عند لقاء العدو يؤدي وظائف شتى . إنه الاتصال بالقوة التي لا تغلب ، والثقة بالله الذي ينصر أولياءه . وهو في الوقت ذاته استحضار حقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها .

ثانيا : طاعة الله ورسوله ، لكي يدخل المؤمنون المعركة مستسلمين لله ابتداء ، فتبطل أسباب النزاع التي أعقبت الأمر بالطاعة . فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه . فإذا استسلم الناس لله ورسوله ، انتفى السبب الأول الرئيسي للنزاع بينهم — مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة — ومن ثم هذا التعليم بطاعة الله ورسوله عند المعركة . وهي طاعة قلبية عميقة لا مجرد الطاعة التنظيمية في الجيوش التي لا تجاهد لله .

ثالثا : الصبر على تكاليف المعركة . فهو الصفة لابد منها لخوض المعركة .

لهذا كله لابد من أمير يقود المعركة . أمير قوي . قادر على أن يقرر ويحكم بين الآراء والأفكار . أمير قادر على ضبط الأهواء المختلفة التي قد تظهر بين المقاتلين .

في النهاية يشير قطب إلى جزاء الذين يستشهدون في سبيل الله « الظلال 517-519 » : حقيقة أن الذين قتلوا في سبيل الله ليسوا أموتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . لم ينقطعوا عن حياة الجماعة المسلمة من بعدهم ولا عن أحداثها . فهم متأثرون بها ، مؤثرون فيها . والتأثير والتأثر أهم خصائص الحياة . فما هي رزية إذن ولا خسارة أن يستشهد في سبيل الله من يستشهد .

وهكذا يقدم لنا قطب الاختبار الروحي والعملي العظيم الذي يواجهه المقاتلون في سبيل الله .

أضاف قطب بعض الملاحظات حول الغنائم وأسرى الحرب . وهاتان النقطتان سنتناولهما في الفصل الخامس عند تعرضنا لقضية المال والعدالة الاجتماعية في الإسلام .

ولكن يمكن الإشارة إلى أن الغنيمة يمكن الحصول عليها دون قتال كما حدث في حادث بني النضير . حيث كانت أموالهم فيئا خالصا لله وللرسول ، ولم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا جمال . فقسمها الرسول على المهاجرين خاصة دون الأنصار ، عدا رجلين من الأنصار فقيرين . بمعنى أنه قد وزعه حسب الحالة المادية لكل فرد حيث سارع الرسول لإقامة الأوضاع الطبيعية في المجتمع الإسلامي ، كي يكون للفقراء مال خاص ، وكي لا يكون المال متداولا في الأغنياء وحدهم . إلى جانب أن الإسلام قد جعل أربعة أخماس الغنيمة للمجاهدين فقراء وأغنياء ، بينما جعل الفيء كله للفقراء .

ويركز قطب من ناحية أخرى على أن القتال في الإسلام لم يكن أبدا هدفه الحصول على الغنائم كما هو الحال في الحروب الأخرى . فالغنائم التي حصل عليها المسلمون كانت وعدًا من الله بشر به المؤمنين بعد صلح الحديبية . وهنا يتساءل قطب عن تلك الغنيمة : أهي فتح مكة ؟ أهي فتح خيبر ؟ أهي فتوح مملكتي كسرى وقيصر ؟ أهي فتوح المسلمين التي تلت هذه الوقائع جميعا ؟ ويجيب : إن أقرب ما يناسب السياق في الآيات 18 ، 19 من سورة الفتح أن تكون هي فتح مكة . « الظلال 3325 » .

أما بالنسبة لأسرى الحرب ، فقد كان قطب حريصا على دقة التفكير والتعمق في دراسة هذه القضية . ولقد كان في تقديره أنه لا يوجد تعارض بين ما ورد في « سورة محمد » وما ورد في « سورة الأنفال » وذلك عند تناولنا لتزايد عدد الأسرى في موقعة بدر . فهؤلاء الأسرى كان الحكم فيهم إما أن يطلق سراحهم بعد الحرب بلا مقابل أو فداء لأسرى المسلمين . وإما أن يطلق سراحهم مقابل فدية من مال أو عمل أو في نظير إطلاق سراح المسلمين المأسورين « الظلال 3282 - 3285 » .

ويؤكد قطب أنه لا يوجد في الآية « الرابعة من سورة محمد » حالة ثالثة . كالاسترقاق أو القتل . بالنسبة لأسرى المشركين . ولكن الذي حدث فعلا أن رسول الله والخلفاء من بعده استرقوا بعض الأسرى – وهو الغالب – وقتلوا بعضهم في حالات معينة .

ويعود قطب معلقا حول ما ورد عن الآية في كتاب « أحكام القرآن للإمام الجصاص الحنفي » ويخلص إلى أن النص الذي ورد في سورة محمد هو النص الوحيد المتضمن حكم الأسرى وأنه هو الأصل الدائم للمسألة .

إذن ليس هناك حكم باسترقاق أو استعباد أسرى الحرب من حيث المبدأ . ولكن ظهر الاتجاه إلى الاسترقاق لمواجهة أوضاع عالمية قائمة ، وتقاليد في الحرب عامة . ولم يكن ممكنا أن يطبق الإسلام في جميع الحالات النص العام : ﴿ **فإما منا بعد وإما فداء** ﴾ . في الوقت الذي يسترق أعداء الإسلام من يأسرونه من المسلمين . ومن ثم طبقه الرسول في بعض الحالات ، فأطلق بعض الأسرى منا . وفادى ببعضهم أسرى المسلمين ، وفادى بعضهم بالمال . وفي حالات أخرى وقع الاسترقاق لمواجهة حالات قائمة لا تعالج بغير هذا الإجراء .

ويختتم قطب تعليقه مستنتجا أن الاسترقاق ليس حتميا ، وليس قاعدة من قواعد معاملة الأسرى في الإسلام . وهذا هو الرأي الذي استوحاه من النص القرآني الحاسم . ومن دراسة الأحوال والأوضاع والأحداث .

نتائج الفصل الرابع

أشار جوميير[1] إلى أن الأفكار التي وردت في تفسير المنار حول القتال في سبيل الله تتركز حول الحرب أو القتال من أجل حماية العقيدة ونشر دعوة الإيمان في جميع أنحاء الأرض .

وفي كتاب الظلال نجد أن القتال في سبيل الله قد اتخذ معنيين : أولهما : فرض الجهاد في سبيل الله على كل فرد داخل « القلة » المسلمة . وثانيهما : تركيز القتال ضد المنافقين ومن يدعون بأنهم مسلمون ، ثم القتال ضد أعداء الجماعة المسلمة في الخارج .

فنظرة الظلال هذه تتماشى تماما مع مضمون النصوص القرآنية . وعلى ذلك فإنها نظرة « أصولية » بالمعنى الكامل . فهي تؤكد على ضرورة العودة إلى مفهوم النص وتطبيقه كما هو .

من ناحية أخرى ، تطابق رأي قطب تماما مع رشيد رضا[2] في أنه يجب أن تعطي الأولوية للجهاد الروحي والنفسي ، قبل الاهتمام بأي جهاد آخر .. وذلك تطبيقا لما ورد في النص القرآني الذي يحدد المنهج الحركي للنظام السياسي للمجتمعات الإسلامية . خلافا لمنهج العلمانية الذي طرحه أتاتورك .

---

(1) جوميير . المرجع السابق ، ص 279-281 .

(2) نفس المرجع ، ص 262-263 .

وكان رشيد رضا قريبا جدا من فكر قطب عندما أعلن أنه لم يلاحظ ، طوال حياته ، أن هناك أحدًا من المسلمين يحرك ساكنا أمام الغزو الاستعماري . ويخاطب أمة القرآن بأنها لن تحقق وجودها دون تطبيق ما ورد في النصوص القرآنية . ويعلن للأتراك أن الإسلام هو القوة الروحية الأكثر « ديناميكية » على الأرض . وأن الحضارة لا تستقيم دون الفضيلة . والفضيلة لا يمكن أن تتحقق إلا في ظل عقيدة الإيمان . وأن الحكومة الإسلامية هي وحدها القادرة على تحقيق مبادئ الأخوة والمساواة في مواجهة ما تدعو إليه الثورة البلشفية . ويقرر في النهاية أن المسلمين في الوقت الحاضر أكثر جاهلية من العرب في زمن الجاهلية الأولى .

من خلال هذه الكلمات « المنطقية » استطاع قطب أن يصل إلى نتائج أكثر حسما وتشددا مما وصل إليه رشيد رضا . فالأخير قد توقف عند حد مهمة الدفاع عن الإسلام . بينما تجاوز قطب هذه المهمة بمراحل عديدة . ويمكن ملاحظة ذلك فيما عرضه رشيد رضا من أسباب « دنيوية » واجتماعية لانتصار المسلمين[1] . خاصة في المرحلة الأخيرة لدعوة الرسول .

لقد حاولنا في الصفحات السابقة لهذا الفصل أن نقدم أهمية « عامل » السببية أو الإرادة الإلهية المباشرة لانتصار المسلمين . الذي ركز عليه قطب دائما .

أيضا ، إذا كان رشيد رضا قد اتجه بتفكيره إلى كتابات ابن خلدون ، في تحليله لأسباب الانحطاط الداخلي في المجتمعات الإسلامية ونهايتها بعد وفاة الرسول وعن المعجزات التي تحتاج إليها هذه المجتمعات ، فإن سيد قطب اعتقد تمام الاعتقاد في استمرارية « المعجزة القرآنية » واستمرارية المجتمع الإسلامي إذا سار المجتمع على هدي القرآن . حيث عرض قطب لدروس عديدة يمكن استيعابها من النصوص القرآنية . خاصة تلك النصوص التي عالجت العقاب الجماعي ، والكوارث التي نزلت ببعض المجتمعات .

---

(1) يمكن الرجوع إلى ما ورد في المبحث الأول من الفصل الأول لهذا الكتاب ، وإلى كتاب قطب « الفن الإسلامي » .

لقد كان قطب يهدف من وراء ذلك إلى توضيح المصائب « الحتمية » التي تقع للمجتمعات التي تأخذ بالأسباب « البشرية » فقط ، وتعيش عصر الجاهلية . بمعنى أن ذلك قد يحدث للمجتمعات الإسلامية التي لا تسير وفق منهج الشريعة والقرآن . وقد أضاف « القطبيون » في فترة السبعينات أن « المقاتلين في سبيل الله » ــ بدلا من الكوارث الطبيعية التي كانت تحدث في الماضي ــ هم « المسئولون » الآن ، عن القضاء على كل نظام لا يقيم مبادئ الشريعة الإسلامية .

نشير هنا إلى أنه إذا كانت دراسات قطب قد اتخذت جانب النقد الأدبي والتحليل السياسي للنص القرآني ، فإنها قد قادت أنصارها ــ كنتيجة منطقية ــ إلى نتائج تختلف تماما عما عرضه أحمد خلف الله أو عباس العقاد . فاتجاه دراسات قطب « الروحي » كان تصوفيا ، عقائديا ، وسياسيا . بينما كان اتجاه الآخرين دفاعيا ، عقليا ، وتربويا [1] . وهما اتجاهان لمدرستين مختلفتين في التفكير .

اتفق قطب مع رشيد رضا في أن الحضارة الأوروبية والأمريكية هي حضارة مؤقتة معرضة للزوال .

فهذه الحضارة تحمل في داخلها عوامل انهيارها . ولكنهما كانا قد اختلفا في تفسير أسباب الهزيمة في موقعة أحد . فقطب يقرر أن أسباب الهزيمة العسكرية لم تكن بسبب عدم إطاعة جماعة الرماة لأوامر الرسول ، ولكن كانت هناك أسباب إلـٰهية . حيث أراد الله أن يعلم ويطهر ويبتلي هذه الجماعة المسلمة الناشئة .

إذن ، تميز منهج قطب تماما عن منهج رشيد رضا . فقطب رفض تماما الأفكار التي تقارن بين القتال في سبيل الله وبين « الحرب الدفاعية » [2] . بينما حاول رشيد رضا أن يبسط المهمة بأن يتحدث في ظروف الجهاد أو القتال عن كلمة

---

(1) جوميير ، المرجع السابق ص 226-269 ، تفسير المنار ، الأجزاء ؛ الحادي عشر ص 345 ؛ الثامن ص 463 ؛ الجزء الخامس ص 268 - 270 ؛ التاسع ص 28 ، 77-78 ؛ العاشر ص 22-23 ، 38-39 .

(2) جوميير المرجع السابق ص 270-271 ، تفسير المنار ، الأجزاء ، الثاني ص 211 ، 314 ؛ الثالث ص 36-39 ؛ الرابع ص 62 ؛ العاشر 85 ، 203 ، 309 ؛ الحادي عشر ص 255 .

« فتنة » بمعنى الاضطهاد ، وليس بمعنى العصيان أو الاحتلال ، أو بمعنى الكفر والإلحاد كما ورد في تفسير الطبري أو البيضاوي .

لقد جمع قطب كل هذه الدلالات ليؤكد أن الإسلام يجب أن يقيم دولته ونظامه الاجتماعي ، دون مهادنة ، بمعنى آخر التصدي لكل القوى والنظم التي تعمل على تضليل وفتنة المؤمنين ، وزرع بذور الشقاق والانقسام داخل صفوف المجتمع الإسلامي . والتي تعمل على اضطهاد الإسلام في الداخل والخارج . لذلك فإن الحرب عند قطب هي حرب عقيدة . ليست لإكراه أحد على الدين . ولكنها تفتح الطريق لحرية الاعتقاد وحرية الإيمان . فالآية التي تقول ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ هي دعوة للجهاد من أجل حرية العقيدة .

في هذا الإطار أيضا ، نجد أن قطبا يدعم فكرة رشيد رضا في أن السلام في المجتمع الإسلامي يجب أن يتحقق بالمواجهة العسكرية ضد كل من يقف أمام انتشار الدعوة الإسلامية[1] .

وأشار قطب ـــ كما فعل رشيد رضا ـــ إلى أنه كان من واجب المسلمين في المدينة القتال ضد الكفارلكي ينقذوا إخوانهم المسلمين الذين لم يتمكنوا من الخروج من مكة . إضافة إلى أنه كان من الضروري عليهم أن يستخدموا القوة لكي يتخلصوا من يهود المدينة الذين أعلنوا عداءهم للإسلام .

وهنا لم يكن هدف قطب أن يعرض للخاصية الدفاعية للقتال في سبيل الله ، ولكن ليحدد الأهداف والأغراض التي قامت من أجلها هذه الحرب[2] . وعلى ذلك فإن فكرة « الحذر الدائم من اليهود ، والتي تمثل جانبا هاما من فكر قطب في الجهاد في سبيل الله ، لا نجد ما يماثلها في تفسير المنار . وقد ارتبطت هذه الفكرة دائما بحالة الحرب ضد غير المسلمين – دون تمييز – ذات الطابع الروحي والنفسي وأحيانا طابع سياسي واجتماعي ، أي الصراع بين دار « الإسلام » ودار « الحرب » .

---

(1) نفس المرجع ص 272 ، تفسير المنار : الحادي عشر 279 - 280 ؛ الثاني ص 103-104 .

(2) نفس المرجع ص 273 ، تفسير المنار : السادس ص 437 ؛ الثاني ص 316 ، العاشر ص 193-194 .

حول هذه النقطة الأخيرة « دار الإسلام ودار الحرب » كان التعارض الواضح بين قطب ورشيد رضا بالرغم من أن رأيهما ينتمي إلى مدرسة واحدة في التشدد . ففي حين يرى رشيد رضا أنه لا يحق أن نعلن الحرب دون أسباب ضد كل من لم يستجيبوا لدعوة الإسلام ماداموا لا يضمرون أي عداء للمسلمين[1] ، أما بالنسبة لقطب فإن من الحق ومن الواجب القتال ضد كل من لا يحمل عقيدة الإسلام ، كما أنه لايحق إتمام أي معاهدة سلام معهم إلا في حالات استثنائية مؤقتة .

وهنا نجد أن قطبا كان أكثر وفاء لفكر ابن تيمية مقارنة برشيد رضا الذي لم يحاول أن يتبع التفكير « الحنبلي » لأستاذه . وعليه فإن العدو ـــ بالنسبة لقطب كما هو بالنسبة لابن تيمية ـــ يمكن أن يكون عدوا داخل المجتمع ، ويمكن أن يكون هو « الفتنة » أو « التضليل » أو الاضطهاد أو أي محاولة لتقسيم الأمة . فقطب في هذا يظهر وكأنه أحد أنصار فكر ابن تيمة في القتال .

فابن تيمية يرى ـــ حسب ما يذكره هنري لاوست [2] ـــ أن كل جماعة ترفض أن ترتكز على أحد تعاليم الإسلام التي نقلت بالتواتر وأجمع عليها علماء الإسلام ، يجب أن تحارب ، حتى يكون الدين كله لله . ولقد ذهب من يدعون أنفسهم « بالقطبيين » في ذلك الاتجاه ـــ في فترة السبعينات والثمانينات ـــ إلى أبعد من ذلك .

وفي هذا المعنى كان قطب شاحذا همم الإخوان عندما وصّى بضرورة القيام بالأعمال الفدائية ضد الإنجليز في منطقة القناة وضد أعوانهم ممن يدّعون الإسلام[3] . ومن هنا أيضا كانت دعوة بعض الجماعات الإسلامية بفريضة القتال ضد كل « أنظمة الكفر » داخل البلاد التي يقال إنها إسلامية[4] .

---

(1) نفس المرجع ص 276-277 . حيث أشار إلى كتاب أحمد خلاف ، وعرضه لموقف رشيد رضا ومدرسته .

(2) هنري لاوست : محاولة حول المذاهب الاجتماعية والسياسية عند ابن تيمية ، القاهرة ، 1939 . ص 364 . وأشار إليه جوميير ص 278 .

(3) مقالة لسيد قطب – مجلة الدعوة – عدد 4 سبتمبر 1951 ، ص 4 . وأشار إليها جوميير ص 279 .

(4) يرجع في ذلك إلى فريضة القتال ضد الحكومات غير الإسلامية في تفكير جماعة حزب التحرير الإسلامي 1974 ؛ جماعة التكفير والهجرة 1977 ؛ جماعة الجهاد 1981 . وكذلك كتاب جيل كيبيل « النبي وفرعون » باريس 1984 . وكتاب أوليفييه كاريه عن الإخوان المسلمين . باريس 1984 .

ويجب الإشارة إلى أن قطبا قد رفض رفضا قاطعا أفكار محمد عبده التي ترى أنه يمكن للمسلمين أن يعيشوا في ظل نظام غير إسلامي[1] .

من ناحية أخرى ، استطاعت بعض الجماعات الإسلامية بعث وإثارة اتجاه « الخوارج » والمذهب الشيعي باعتبار الجهاد أحد أركان الإسلام . وقد دعت هذه الجماعات إلى ضرورة قتل « الطغاة » . وقد سبق أن اتخذ الهضيبي موقفا متحفظا من هذا الرأي ، وذلك في كتابه « دعاة .. لا قضاة » . مع ملاحظة أن هذه الجماعات قد تناولت أفكار الأفغاني بعمق ، بينما قبل رشيد رضا هذه الأفكار « باستهانة » كبيرة ، إلى جانب أنهم ذهبوا إلى الحد الذي اعتبروا فيه كلام رشيد رضا عن « العناصر الانتهازية » داخل المجتمع مجرد « عظة »[2] .

من جهة أخرى ، استخدم قطب تقسيما جديدا للعالم بدلا من التقسيم الكلاسيك : دار الإسلام ودار الحرب . حيث كان تقسيمه غير جغرافي : مجتمع الإسلام ، ومجتمع الجاهلية . وهذا الأخير هو كل مجتمع لا يطبق مبادئ الشريعة الإسلامية . هذه الرؤية سمحت لقطب أن يرفض « التمييز » التقليدي ، الذي قال به رشيد رضا وهو : « أرض الجزيرة العربية ، الجزء الباقي من العالم »[3] .

إن كل ما ورد في القرآن من « نظم » – في رأي قطب – يجب أن يطبق في مواجهة كل سلطة سياسية أو نظام اجتماعي « غير إسلامي » في أي زمان وفي أي مكان . إن الجماعات المخلصة والمتحمسة للعقيدة عليها واجب مقدس في أن تعمل على نشر الدين في جميع أنحاء العالم دون إكراه ، بالرغم من كراهية الآخرين لذلك .

إن ما تدعو إليه بعض الجماعات أو ما يعلنه بعض الأفراد أثناء محاكماتهم من أنهم ينتمون بأفكارهم إلى « مدرسة محمد عبده » أو إلى تعاليم سيد قطب ، سيدفع البعض

---

(1) جوميير . المرجع السابق ص 281 ، تفسير المنار ، الجزء الخامس ص 357 .

(2) يمكن الرجوع إلى كتاب رشيد رضا « تاريخ الإيمان » حول تفكير الأفغاني في « قتل الطغاة » في النظرية والتطبيق حيث كان رشيد رضا متحفظا حول هاتين النقطتين ص 25 ، 64 ، 188 . وأيضا كتاب جوميير ص 280 ؛ تفسير المنار ، الجزء السادس ص 431-432 .

(3) جوميير : المرجع السابق ، ص 283 .

إلى تصور الإسلام دينا يدعو إلى العنف والتعصب والإكراه[1] . هذه الجماعات ترتكز في منهجها في الحياة والموت على الآية 191 من سورة البقرة : ﴿ **والفتنة أشد من القتل** ﴾ . وعلى ذلك فإن « الفتنة » عندهم هي كل محاولات التضليل والإغواء وكل محاولات الدسيسة والوقيعة بين المسلمين، وكل أنواع الاضطهاد الذي يتعرض له المسلمون من الخارج أو من داخل البلاد التي تدعي أنها « إسلامية » .

إن كتاب الظلال في عرضه القوي لموضوع « الجهاد في سبيل الله » كان — بكل تأكيد — متابعا للتطور التربوي والسياسي لمنهج القرآن ، كما كان راسخا في أفكاره عند تفسير آيات الجهاد في سورتي المائدة والتوبة . وقد اعتبر قطب هذه الآيات هي آخر ما نزل في القرآن من آيات الجهاد .

وفي كل الأحوال ، كان منهج قطب حول الجهاد متوافقا مع كتب التفسير ذات الاتجاه العلمي ، مثلما كان متوافقا مع اتجاه كبار رجال التفسير . وبالرغم من ذلك فإن خطواته كانت خطوات أصولية « تعتمد على النص » ، خارج إطار المدارس الأخرى . فالدعوة للإسلام لا تقتصر على جزيرة العرب ؛ وفي نفس الوقت لابد من التقيد بالنص القرآني ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ . إذن لا مجال لمن يزعم بأن القتال في الإسلام هو « قتال دفاعي » دون العمل على نشر الدعوة .

لقد اتجه قطب إلى التفسير « الحرفي » للقرآن . فالمنافقون كانوا هدفا للعديد من النصوص ، لذلك فإنهم يمثلون أحد الأهداف الرئيسية لفكر سيد قطب .

والجهاد في الإسلام يجب أن يبدأ بجهاد النفس . إنه جهاد تربوي مستمر . جهاد عقائدي ، وسياسي ، وعسكري . ليس مشابها في طبيعته للحروب التي تنشأ بين البشر في عالم اليوم . إنه اتجاه يخالف الاتجاه الذي ارتضاه رشيد رضا[2] .

---

(1) نقض كتاب الفريضة الغائبة . الشيخ جاد الحق علي جاد الحق « مفتي الديار المصرية » . جريدة الأهرام 8 يناير 1982 .

(2) جوميير . المرجع السابق ص 266 ، تفسير المنار ، الجزء العاشر ص 22-23 ، التاسع ص 28 - 77 - 78 . وذلك حول تحالف الجيوش الأوروبية في الحرب العالمية الأولى 1914-1918 على أساس العقيدة الوطنية .

إن اتجاه قطب بتجنب إعلان « الحرب العدوانية » ضد الآخرين ـــ دون الابتعاد عن مضمون النص القرآني ـــ هو في جوهره أكثر ترابطا من محاولات تفسير المنار في الدفاع عن الدين .

في هذا الإطار ، يمكننا أن نضيف ـــ وفقا لاتجاه قطب ـــ أن الحالة الحاضرة للأمة الإسلامية تماثل إلى حد كبير حال الجماعة المسلمة في مكة حيث نزلت الآيات القرآنية لتعلم وتربي هذه الجماعة وتهيئها لمرحلة الجهاد ضد عالم الجاهلية . إنها فكرة تقترب من أفكار حسن البنا . ونجدها أيضا عند بعض الجماعات الإسلامية المعاصرة في كل من مصر وسوريا .

إذا كانت هذه الأفكار تتقارب أو تتباعد فإنها جميعا تدعو إلى تهيئة وتقوية الأمة الإسلامية على المدى البعيد . ومن ذلك ندرك مدى أهمية ما ذكرته زينب الغزالي في كتابها عن الإخوان المسلمين قد « قرروا فيما قرروا – بتعليمات من سيد قطب والهضيبي – أن تستمر مدة التربية والتكوين والإعداد والغرس لعقيدة التوحيد في النفوس . والقناعة بأنه لا إسلام إلا بعودة الشريعة الإسلامية وبالحكم بكتاب الله وسنة رسوله لتصبح شريعة القرآن مهيمنة على كل حياة المسلمين . قررنا أن يستغرق برنامجنا التربوي 13 عاما ، عمر الدعوة في مكة »[1] .

حقيقة أن قراءة سيد قطب المتميزة للآيات القرآنية التي تناولت موضوع الجهاد في سبيل الله قد سمحت « بتسرب » بعض مظاهر هذه الفريضة في مجال العمل السياسي بدلا من الأفكار « الحديثة » التي عرضها محمد عبده ورشيد رضا .

وهكذا وفي إطار الظروف العالمية الحاضرة ، فإن رؤية قطب في القتال في سبيل الله تعتبر أحد « المتغيرات » في مجال « القتال الثوري » تماما مثلما كانت أفكار رشيد رضا قد تطابقت مع مفهوم « الحرب الدفاعية » في أوروبا في فترة العشرينات .

وفي هذا الإطار أيضا يمكن أن نعتبر اتجاه أحد أفراد الجماعات الإسلامية ، باتخاذه

---

(1) زينب الغزالي : أيام من حياتي ص 35 .

« شي جيفارا » مثلاً أعلى ، مطابقا مع اتجاه رشيد رضا في إشادته بالبسالة الوطنية للجنوب الفرنسي في عام 1914 .

لقد اعتبر كتاب الظلال الجهاد في سبيل الله واجبا على كل مسلم حتى لا يعتبر متقاعسا عن أداء فريضة من فرائض الإسلام وبالتالي يتعرض للجزاء الإلهي . إننا نستحضر هنا القتال الذي اشترك فيه الإخوان المسلمون في فلسطين في سنوات 1936-1939 ، قتالهم ضد الإنجليز في منطقة قناة السويس 1947-1949 ، اشتراكهم في الضباط الأحرار في فترة 1951-1952 . وأيضا مساهماتهم في حرب بورسعيد في أكتوبر ونوفمبر من عام 1956 .

كما نستعرض ما تعرض له الإخوان من اضطهاد وتعذيب ابتداء من نوفمبر 1954 ، واستيعابهم للدرس ، والانتظار والتحضير للوقت الملائم « للثورة الإسلامية » بقيادة « الجماعة المسلمة المستضعفة » « الظلال 1434 » . ذلك بالرغم من ملاحظتنا أن قطبا كان يستخدم في معظم الأحوال تعبير « حركة إسلامية » أكثر من استخدامه لمصطلح « الثورة الإسلامية » .

الفصـل الخامس

المال والعدالة الاجتماعية في الإسـلام

المال والعدالة الاجتماعية في الإسلام

يخبرنا كتاب الظلال أن الجهاد في سبيل الله يهدف إلى إقامة المجتمع الإسلامي الذي يقوم على دعائم العدالة الاجتماعية . هذا المعنى كان مضمون أول الكتب الإسلامية التي كتبها سيد قطب ، ألا وهو ، « العدالة الاجتماعية في الإسلام » [1] .

تحدث العالم — في نهاية الأربعينات وطوال الخمسينات — عن ضرورة تحقيق « العدالة الاجتماعية » ، إلى أن ظهرت « الاشتراكية الناصرية » « 1952 - 1961 » كأحد نقاط الاختلاف مع الأفكار الدقيقة لجماعة الإخوان المسلمين .

إن اعتراض الإخوان على « اشتراكية عبد الناصر » لم ينبع من اعتراضهم على هذه « الاشتراكية » باعتبارها الرؤية الأساسية التي طرحها الضباط الأحرار — الذين اعتقلوا وأعدموا الإخوان — ولكن اعتراضهم كان ذا طابع سياسي بحت . وكان من المنطقي حينئذ أن تكون هذه الاعتقالات الجماعية من أهم الأسباب التي أدت إلى انتشار المعارضة ضد « اشتراكية عبد الناصر » في الفترة 1961 - 1970 م .

إن أفكار عبد الناصر حول الاشتراكية ربما يكون قد طرحها اعتمادا على حساباته بأنه سيحصل على تأييد عبد القادر عودة ، الرجل الثاني في هيئة الإخوان المسلمين بعد الهضيبي الذي تولى مسئولية المرشد العام في سنة 1951 ، عودة ، هذا القانوني الشاب ، ذو الثقافة القانونية الفرنسية . دفع حياته — كما حدث لقطب — ثمنا لرفضه طلب عبد الناصر المساعدة في صياغة مشروع دستور جديد للدولة في عام 1954 [2] .

---

(1) سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الإسلام ، القاهرة 1949 — ترجم إلى الإنجليزية : ت . هاردي . واشنطن ، 1955 .

(2) حسن العشماوي : الإخوان والثورة ، القاهرة 1977 ، ص 31 - 32 . ريتشارد ميتشل . الإخوان المسلمون ، ص 109 .

فالأفكار الاجتماعية التي أعلنها عبد القادر عودة هي نفس الأفكار التي عرضها سيد قطب ، والتي كانت أكثر دقة واعتدالا [1] ؛ فقطب كان رجل الأدب الذي تعرف على دراسات علم النفس والدراسات التربوية الأمريكية ، وكان أيضا الإنسان الذي تناسق تفكيره ــ كعضو جديد في جماعة الإخوان ــ مع الأفكار التي دعى إليها الشيخ « الشاب » محمد الغزالي ؛ هذا الأخير كانت لديه الشجاعة أن يطلق فكرة « الاشتراكية الإسلامية » قبل أن تعلن الصيغة « البعثية » حول « الاشتراكية العربية » .

لقد شرح الشيخ الغزالي في مقدمة كتابه [2] أن السلطة الملكية تطابق تفكيرها مع أفكار الشيوعيين حول هذه الصيغة فيما بين عامي 1948-1949 . هذا التعبير جعل « الشيوعيين المصريين » يقاتلون في عام 1948 جنبا إلى جنب مع الإخوان المسلمين ، بالرغم مما كان بينهم من عداء مستحكم وعنيف فيما بين 1946-1947 . وتجدد هذا الموقف في عام 1954 حيث عمل الإخوان والشيوعيون معا لمواجهة الاضطهاد البوليسي ، بتوزيع نفس المنشورات السياسية[3] .

وفي أثناء حملة الاعتقالات التي تعرض لها الإخوان في نهاية 1954 م، وجدوا أنفسهم مع الشيوعيين في نفس السجون ومعسكرات الاعتقال وحتى في الفترة مابين 1958، 1964 . هذا كله أتاح للجانبين فرصة الدخول في مناقشات مطولة حول فكرة العدالة الاجتماعية [4] ، بالرغم من المحاولات التي بذلت للفصل بينهما .

إننا نرى أن الأفكار الاجتماعية التي وردت في كتاب الظلال على جانب كبير من الأهمية لسببين :

---

(1) عبد القادر عودة : المال والحكم في الإسلام ، القاهرة 1953 .

(2) الشيخ محمد الغزالي : الإسلام والمنهج ، القاهرة 1949 ، ص 6 .

(3) ريتشارد ميتشل : المرجع السابق ، ص 39-47 ، 140 - 141 ، 281 .

(4) عبد الحليم خفاجي : حوار مع الشيوعيين في سجون عبد الناصر ، الكويت 1979 . تقديم التلمساني .

الأول : أن هذه الأفكار ربما تختلف جوهريا عن الأفكار التي سبق عرضها في كتاب « العدالة الاجتماعية في الإسلام » الذي ظهر في عام 1949 . أو ربما تكون مختلفة أيضا عن الأفكار التي طرحها قطب عن الإسلام والقتال ضد الرأسمالية في عام 1952 .

إننا نستطيع أن نفترض ذلك لعدة أسباب : أولها : أن بعد هذا التاريخ ظهر تأثير فكر المودودي على قطب . هذا المفكر الباكستاني ، كان رئيسا « للجماعة الإسلامية » ، ووقف موقفا معارضا لكل شك في الاشتراكية ، وارتبط اسمه بالتحفظ حول الملكية العقارية الكبرى[1] .

وثانيها : أن « اشتراكية عبد الناصر » التي تلت عام 1961 تميزت بشدة الاضطهاد ضد الإخوان ، والاتجاه إلى جانب « الشيوعيين المصريين » مما دعا الإخوان إلى الوقوف موقف العداء والكراهية ــ دون تحفظ ــ ضد أي نوع من أنواع الاشتراكية . وثالثها : أن السعودية التي كانت تمثل الملجأ والمورد المالي للإخوان اتجهت إلى الرأسمالية أكثر من توجهها الاشتراكي .

الثاني : المواجهة الشديدة مع الأفكار الاجتماعية للشيوعيين والتأثير الكبير لهذه الأفكار . وفي هذه النقطة سنجد أن كتاب الظلال اختلف – بدرجة محسوسة – مع تفسير المنار .

وقبل أن نبحث في كتاب الظلال عن موقفه من قضايا الملكية ، والميراث ، والزكاة ، وتحريم الربا ، نرى أن نعرض أولا للمدلول الإسلامي – حسب ما يراه قطب – للمال ، كموضوع أو كأثر للعهد الأساسي بين الله وبين البشر . عهد أو وعد سبق ذكره عند الحديث عن أهل الكتاب وعن الجهاد .

---

(1) ناصر أحمد الشيخ : في مواجهة اشتراكية الإسلام . مكسيم رودنسون : الإسلام والرأسمالية ص 36-37 . المودودي : الإسلام والمعركة مع الرأسمالية .

المبحث الأول

المال ... ووعد الله للإنسان

يبدأ قطب تأمله – كرجل دين – بتناول موضوع الثروات المادية وتوزيعها الجغرافي . كما عرض ثمار تجربته الروحية التي تتعلق بالملكية وإنفاق المال . هذه التجربة لم يكن لها دور أو معنى إلا من خلال الإيمان العميق بالله الخالق . والحاكم الواحد للكون .

لقد تجنب الإسلام تماما التعقيدات « اللانهائية » التي نجدها في الأفكار المسيحية واليهودية التي تدور حول القيمة أو الاستحقاق ، وحول التخالص أو الاستبدال . فإذا كان هناك أثر لإرادة الإنسان – كما يقول ماكس فيبر — فلا يمكن أن يكون هناك قضاء وقدر[1] .

كان قطب ذا حساسية متميزة — عندما خاطر بتناول المجال الاقتصادي والاجتماعي في الإسلام — حيث كان القضاء والقدر يمثل جانبا هاما من حياته الخاصة ؛ وقد تجاوز لغة التهذيب والإرشاد التي استخدمها كل من رشيد رضا ومحمد عبده والأفغاني ، وذلك بعد مرحلة « حماس الشباب » الإسلامي التي احتوتها محاولات « الماسونية » ، ومحاولات القضاء على مظاهر الصوفية في الإسلام ؛ حيث نظر إليها كعامل غير اقتصادي وغير منتج[2] .

---

(1) ماكس فيبر « أخلاقيات البروتستانتية ... وروح الرأسمالية » ، باريس . بالون ، 1968 ، ص 30 .

(2) إيلي قدوري « الأفغاني وعبده ... » لندن ، 1966 ، ص 16-17 « نقض زندقة الأفغاني » ، ص 45-51 ، =

يبدأ قطب حديثه عن عهد الله « الظلال 2057-2059 » فيذكر أنه عهد مطلق يشمل كل عهد . وميثاق الله مطلق يشمل كل ميثاق . إنه عهد قديم وجديد ؛ قديم مع الفطرة البشرية المتصلة بناموس الوجود كله ، المدركة إدراكا مباشرا لوحدة الإرادة التي صدر عنها الوجود ووحدة الخالق صاحب الإرادة . فالعهد الإلٰهي والميثاق الرباني يترتب عليه كل العهود والمواثيق مع البشر ، سواء مع الرسول أو مع الناس .

إنه عهد وأمانة يجب مراعاتها . وهذه من القوائم الأخلاقية التي يقيم الإسلام عليها نظام المجتمع . ورعاية الأمانات والعهود في الإسلام تبدأ من رعاية الأمانة الكبرى التي قبل أن يحملها الإنسان . ومن رعاية تلك الأمانة وهذا العهد تنبثق رعاية سائر الأمانات والعهود في معاملات الأرض . وقد شدد الإسلام على الأمانة والعهد وكرر وأكد ، ليقيم المجتمع على أسس متينة . إنه نظام اجتماعي. هو حق لكل إنسان بوصفه « إنسانا » . فهذه الصفة ــ صفة الناس ــ هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الإلٰهي . وهذه الصفة يلتقي عليها البشر جميعا : مؤمنون وكفار ، أصدقاء وأعداء .

ويشرح قطب أن الأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل – متى حكمت في أمرهم – هذا العدل الذي لم تعرفه البشرية قط – في هذه الصورة – إلا على يد الإسلام ، وإلا في حكم المسلمين ، وإلا في عهد القيادة الإسلامية للبشر .

في الحقيقة ، إن التكافل قاعدة أساسية في المجتمع الإسلامي . فالإنفاق في سبيل الله والصدقة جانب هام من جوانب الحياة الإسلامية العامة . يقابل ذلك الربا ؛ ذلك النظام يحمل عليه الإسلام والقرآن حملة قاصمة .

هذه المبادئ الثلاثة : التكافل ، الإنفاق ، نبذ الربا . تمثل قاعدة هامة للعلاقة بين الإنسان والمال . هذه القاعدة يؤكد عليها الإسلام كقاعدة سليمة ينهض عليها بناء المجتمع الإسلامي .

= 63-64 » حول مذهب « اللا إرادية » القائل بإنكار قيمة العقل وقدرته على المعرفة في الفكر الماسوني عند الأفغاني وعبده والتي لم ينقضها أو يدحضها رشيد رضا » .

فالمسلم يجب أن يكون صادقا في إيمانه ، ناهضا بتكاليف الإيمان ؛ حتى يستطيع أن يعيش وأن يعطي المال قيمته الحقيقية . ولكن لماذا يفعل المسلم ذلك ؟ إنه يجب أن يدرك بداية أن الأشياء المادية ليس لها إلا قيمة زهيدة في حياة الإنسان . إنها لن تغني عنه شيئا في الآخرة .

إن المال لا قيمة له مقابل ما يقوم به الإنسان من عمل في الحياة الدنيا . إن المال لا يفتدي الإنسان في الآخرة . ولكن ما يقدمه من عمل ومن خير يدفعه إليه إيمانه العميق هو الذي ينفعه . وذلك لأنه لا جزاء على بذل وأن لا قيمة لعمل إلا أن يرتبط بمنهج الإيمان وإلا أن يكون باعثه الإيمان . يقول الله هذا ويقرره ، فلا تبقى بعده كلمة لإنسان ولا قيمة لجدال .

بمعنى آخر ، إنه إذا كان ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا** ﴾ . فهذا يوضح أنهما زينة ولكنهما ليسا قيمة . فما يجوز أن يوزن بهما الناس ولا أن يقدروا على أساسهما في الحياة . إنما القيمة الحقة للباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال والعبادات .

إن الحياة لابد لها من ضوابط . والإسلام يقيم هذه الضوابط في حياة الناس . يقيمها ويحددها بدقة ووضوح ، ويربطها كلها بالله . هذه الضوابط هي « المصلحة » ، مادام أن الله هو الذي أقامها للناس . هي المصلحة ولو رأى فرد ، أو رأت مجموعة ، أو رأت أمة من الناس أو جيل أن المصلحة غيرها فالله يعلم والناس لا يعلمون . هذه الضوابط يسميها الله « العقود » . فالمقصود إذن بالعقود هو كل ضوابط الحياة التي قررها الله والتي يجب على المسلم أن يوفي بها ولا يقبل التعامل إلا بها .

إن الأمر يتعلق هنا ــ كما يعرض قطب ــ بالتذوق الحقيقي لمعنى العدالة ؛ والتحقق الواقعي لهذا المعنى في ضمائر الناس وحياتهم ، والوصول إلى هذه الذروة السامقة الوضيئة . لم تقع إلا في هذا المنهج الإسلامي . إن المنهج الرباني وحده هو الذي يبلغ بالناس ما بلغ على بساطة الأشكال وبساطة الأوضاع .

ويضيف قطب : ليس معنى هذا أن نلغي التنظيمات القضائية الجديدة . ولكن

معناه أن نعرف أن القيمة ليست للتنظيمات . ولكن للروح التي وراءها . هذه الروح القادرة على أن تخلص الإنسان من الأهواء التي يمكن أن يتأثر بها وهي حب الذات وحب الأهل والأقربين . والتعصب للعشيرة والقبيلة والأمة والدولة والوطن .

إذن إننا نشاهد كثيرا من الطيبين الصالحين ، العاملين في الحياة . مضيقا عليهم في الرزق . ويؤكد قطب في ذلك « الظلال 771 - 776 » أننا لا نرى ذلك إلا في جماعة لا يسودها العدل بين الجهد والجزاء . ولكن هؤلاء الأفراد الطيبين في هذه الجماعة يمتعون متاعا حسنا . حتى لو ضيق عليهم في الرزق . فطمأنينة القلب إلى العاقبة ، والاتصال بالله ، والرجاء في نصره وفي إحسانه وفضله ، عوض عن كثير ، ومتاع حسن للإنسان الذي يرتفع درجة عن الحس المادي الغليظ . أما جزاءَ الله له بعد ذلك فهو فضل من الله وسماحة فوق الجزاء .

ويبوح قطب بما كان في داخله عند تفسير الآيات الثلاث الأول من سورة فاطر « الظلال 2922 — 2923 » . حيث واجهته هذه الآيات وهو في عسر وجهد وضيق ومشقة . واجهته في لحظة جفاف روحي وشقاء نفسي . لقد أدرك عن يقين وإيمان أن المال والولد ، والصحة والقوة ، والجاه والسلطان .. تصبح مصادر قلق وتعب ونكد وجهد إذا أمسكت عنها رحمة الله . فإذا فتح الله أبواب رحمته كان فيها السكن والراحة والسعادة والاطمئنان .

نعم إن المال ضروري لإشباع حاجات الإنسان من مسكن ومأكل وغيرها . ولكن في الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية : فيها الاتصال بالله والثقة به والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه ، وفيها الصحة والهدوء والرضا والبركة ، وسكن البيوت ، ومودات القلوب .

وكنتيجة طبيعية ، فإن البحث وراء المال والثروة ليس فرضا . وإن خيل إلى بعض الناس أن اتباع العقيدة والخلق يفوت بعض الكسب الشخصي ويضيع بعض الفرص . ولكن المؤمنين الصادقين في إيمانهم وعقيدتهم هم الذين يستطيعون أن يعملوا لتحقيق مصالحهم المادية وفق الظروف وحسب الفرص الحسنة ، ويكون لهم الكسب الطيب والرزق الحلال .

ويشير قطب إلى الموقف الشديد الذي وقفه القرآن من غطرسة المترفين من كبار قريش حين استكبروا بما لديهم من أموال وثروات وأولاد . واعتقدوا أن ما وهبهم الله إياه دليل على رضاه عنهم . هؤلاء لا يعلمون أن الله يغدق على أهل الشر استدراجا لهم ليزدادوا سوءا أو بطرا وإفسادا ، وعندها يصب عليهم غضبه وعذابه . لقد اعتذروا عن اتباع الرسول مخافة أن يفقدوا سلطانهم على قبائل العرب المجاورة . وأن يتخطفهم أعداؤهم فيفقدوا أرضهم وثروتهم !

وفي هذا يكرر قطب أن القرآن يفصل بين أعراض الحياة الدنيا والقيم التي ينظر الله إليها . ويقرر أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . وأن هذه المسألة وغضبه مسألة أخرى ولا علاقة بينهما .

فالمسلم الحق هو صاحب القلب المؤمن بحقيقة التوحيد ، الذي يقطع الرحلة على هذه الأرض على هدي . فهو يعرف مصدرا واحدا للحياة والقوة والرزق ، ومصدرا واحدا للنفع والضرر ، ومصدرا واحدا للمنح والمنع . إن سبب ذلك ـــ يقرر قطب « الظلال 2660 » ـــ هو وجود الله ووحدانيته وأنه خالق هذا الكون . فالرزق متروك لحكمة صاحب الخلق والتدبير . والرزق من السماء والأرض متصل ببدء الخلق وبإعادته .

فرزق البشر كله معقود بإرادة الله في أول أسبابه ، في تصميم هذا الكون ، وفي عناصر الأرض والجو . وهي أسباب لا قدرة للبشر عليها إطلاقا ، ولا تتعلق بعملهم بتاتا . فالله لطيف بعباده يرزق من يشاء ؛ يرزق الصالح والطالح ، والمؤمن والكافر .

والقرآن يبين أن بسط الرزق وقبضه ليست له علاقة بالقيم الثابتة الأصيلة . وهو أمر منفصل عن الحساب والجزاء ، وعن الرضا والغضب ، يتبع قانونا آخر من سنن الله . فالله وحده هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . وأن رضاه وغضبه مسألة أخرى ولا علاقة بينهما . يا لها من رؤية قاطعة ورائعة .

ولكن هذا لا يمنع أننا نجد في القرآن مواضع متكررة ظهر فيها الارتباط بين صلاح القلوب واستقامتها على هدي الله ، وبين تيسير الأرزاق ، وعموم الرخاء . وهذه

القاعدة التي يقررها القرآن في مواضع متفرقة ، قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله ، ومن سنة الحياة . كما أن الواقع العملي يشهد بتحققها على مدار القرون .

وقد نشهد ــ كما يعلن قطب ــ في بعض الفترات أمما لا تتقي الله ولا تقيم شريعته ، وهي ــ مع هذا ــ موسع عليها في الرزق ، ممكن لها في الأرض . ولكن هذا إنما هو الابتلاء . ثم هو بعد ذلك رخاء مؤقت ، تأكله آفات الاختلال الاجتماعي والانحدار الخلقي ، أو الظلم والبغي وإهدار كرامة الإنسان .

أيضا لا يمنع ذلك من أن نجد قطبا يذكر في الظلال « 3186 » أن رزق المعاش في الحياة الدنيا يتبع مواهب الأفراد ، وظروف الحياة ، وعلاقات المجتمع . وتختلف نسب التوزيع بين الأفراد والجماعات وفق تلك العوامل كلها . ولكن السمة الباقية فيه ، والتي لم تتخلف أبدا – حتى في المجتمعات المصطنعة المحكومة بمذاهب موجهة للإنتاج وللتوزيع ــ أنه متفاوت بين الأفراد .

إن الحكمة في هذا التفاوت هي أن يسخر الأفراد بعضهم بعضا . فعجلة الحياة حين تدور تسخر بعض الناس لبعض حتما . وليس التسخير هو الاستعلاء .. استعلاء طبقة على طبقة ، أو استعلاء فرد على فرد .. كما يحاول الكثيرون من دعاة المذاهب الموجهة أن يتخذوا من ذلك موضع هجوم على الإسلام ، ونظمه الاجتماعية والاقتصادية . كما أن بعض المسلمين يقفون يجمجمون أمام هذا الوضع ، كأنما يدفعون عن الإسلام تهمة تقرير الفوارق في الرزق بين الناس ، وتهمة تقرير أن الناس يتفاوتون في الرزق ليتخذ بعضهم بعضا سخريا !

فطبيعة هذه الحياة البشرية قائمة على أساس التفاوت في مواهب الأفراد والتفاوت فيما يمكن أن يؤديه كل فرد من عمل ، والتفاوت في مدى إتقان هذا العمل . وهذا التفاوت ضروري لتنوع الأدوار المطلوبة للخلافة في هذه الأرض . وعن هذا التفاوت في الأدوار يتفاوت الرزق .

خلاصة القول إن الله هو الرازق . ورزق المعاش في الحياة يتقرر حسب مواهب

الإنسان وكفاءته ومكانته داخل المجتمع . والمال في ذاته لا قيمة له ، كما أن لا قيمة لعمل إلا أن يرتبط بمنهج الإيمان وإلا أن يكون باعثه الإيمان . هذا هو عهد الله للإنسان ؛ أن يبسط له الرزق . وأن يجعل المال متداولا بين الأفراد حتى لا يكون حكرا للأغنياء وبالتالي يتضاعف المال والثروة في المجتمع .

أليس ذلك كله لرفاهية الإنسان المادية . وسعادته الروحية . وتحقيق العدالة بين الأفراد .

المبحث الثاني

الملكية في الإسلام

إن الحقيقة الناشئة من حقيقة الألوهية الواحدة ، هي أن هناك إلٰها واحدا فهو المالك الواحد . هو « مالك الملك » بلا شريك . ثم هو من جانبه يُملك من يشاء ما يشاء من ملكه . يملكه إياه تمليك العارية . فهي ملكية معارة له خاضعة لشروط المملك الأصلي وتعليماته .

ولكن ما هي شروط ومحددات عقد الملكية بين الإنسان وبين الله ؟ يجيب قطب « الظلال 767 » : بداية ، أخذ الإسلام بتبديل التقاليد الشائهة البدائية ، وأنشأ مكانها تقاليد إنسانية رائعة لا تحد . فقرر أن الملكية هي حق على أساس الحق الإنساني . فأعطى المرأة واليتيم والولدان الصغار حقوقهم بصفتهم الإنسانية . إنها نشأة جديدة ، لم تكن تطورا مسبوقا بأي خطوات تمهيدية له أو أنه انبثق من واقع مادي تغير فجأة في حياة الناس في المجتمع العربي .

بعد ذلك فإن أي تفاوت سيكون ظاهرة ملحوظة تابعة لاختلاف المواهب . وذلك حين تمتنع الأسباب المصطنعة الظالمة التي توجد في المجتمعات المختلة . ولكن التفاوت هنا سيكون طبيعيا سببه تفاوت الأفراد في مواهبهم وطاقاتهم في الحصول على المال وتنميته . وسترتبط بذلك الملكية الخاصة التي يقرر الإسلام أنها حق لكل إنسان . ولكنها تتغير ــ بالطبع ــ حسب مداها ، ويظهر في سورة الحشر « الظلال 3525 » توزيع الفيء على مجموعة خاصة من المسلمين ــ المهاجرين ــ ولكن العدالة تتحقق في الملكية والتوزيع .

والمسلم ــ مع اعتراف الإسلام بالملكية الفردية ــ ليس حرا في إنفاق أمواله الخاصة كما يشاء . إنما هو مقيد بالتوسط في الأمرين الإسراف والتقتير . ويفرض للجماعة حقوقها في هذا المال . فالمال في الإسلام أداة اجتماعية لتحقيق خدمات اجتماعية .

هذه القيود التي يفرضها الإسلام على الملكية الفردية ــ حسب ما يرى قطب ــ تجعل النظام الإسلامي لا يماثل النظام الرأسمالي . كما أن النظام الرأسمالي ليس منقولا عنه . فالنظام الإسلامي نظام فريد لا صلة بينه وبين النظام الرأسمالي من قريب أو بعيد . إلى جانب أن كل وضع ينتهي إلى أن يكون المال دولة بين الأغنياء وحدهم هو وضع يخالف النظرية الاقتصادية الإسلامية كما يخالف هدفا من أهداف التنظيم الاجتماعي كله .

وفي الشريعة الإسلامية ، إذا سرق السارق وهو مكفي الحاجة وغير محتاج لسلب ما في أيدي الآخرين ، فلا ينبغي لأحد أن يرأف به . أما حين توجد شبهة من حاجة أو غيرها ، فالمبدأ العام في الإسلام هو درء الحدود بالشبهات .

ويذكر قطب « الظلال 883 » أن عمر بن الخطاب لم يقطع في عام الرمادة . حينما عمت المجاعة . ولم يقطع كذلك في حادثة خاصة عندما سرق بعض الغلمان ناقة رجل من مزينة ، فأمر بقطعهم ، ولكن حين تبين له أن سيدهم يجيعهم ، درأ عنهم الحد .

ذلك لأن المجتمع المسلم يوفر لأهل دار الإسلام – على اختلاف عقائدهم – ضمانات العيش والكفاية . وضمانات التربية والتقويم . وضمانات العدالة في التوزيع ، وفي الوقت ذاته يجعل كل ملكية فردية فيه تنبت من حلال ، ويجعل الملكية الفردية وظيفة اجتماعية تنفع المجتمع ولا تؤذيه . ومن أجل هذا كله يدفع خاطر السرقة عن كل نفس سوية . فمن حقه إذن أن يشدد في عقوبة السرقة والاعتداء على الملكية الفردية ، والاعتداء على أمن الجماعة .

من ناحية أخرى يعلن قطب « الظلال 882 » أنه إذا تعطل الفرد لعدم وجود

العمل ، أو أداته ، أو لعدم قدرته على العمل ، جزئيا أو كليا ، وقتيا أو دائما . أو إذا كان كسبه من عمله لا يكفي لضرورياته . فله الحق في استكمال هذه الضروريات من عدة وجوه : أولا : من النفقة التي تفرض له شرعا على القادرين في أسرته . ثانيا : على القادرين من أهل محلته . وثالثا : من بيت مال المسلم أو من الدولة .

وهكذا يشدد الإسلام على حد السرقة حتى لا تقوم الملكية الفردية فيه إلا من حلال وأن يتحقق في المجتمع الإسلامي نظام يكفل الكفاية .

كذلك أيضا نجد أن الميراث — في كتاب الظلال — قد ظهر كأداة من أدوات التكافل الاجتماعي . فقد نزلت آيات المواريث التي تقرر انتقال جزء من المال حسب ما حددته الآيات من أن أنصبة معينة للورثة . وجزء آخر نزلت فيه آيات الوصية .

وقد حددت السنة نسبة الوصية ، فحصرتها في الثلث لا تتعداه والربع أفضل . وحكمة الوصية لغير الورثة تتضح في الحالات التي توجب فيها صلة القرابة البر ببعض الأقارب ، على حين لا تورثهم آيات الميراث لأن غيرهم يحجبهم . وهي لون من ألوان التكافل العائلي العام في خارج حدود الوراثة « الظلال 167 » .

ولما كانت روابط الأسرة — القريبة والبعيدة — روابط فطرية حقيقية ، جعل الإسلام التكافل في محيط الأسرة هو حجر الأساس في بناء التكافل الاجتماعي العام . وجعل الإرث مظهرا من مظاهر ذلك التكافل في محيط الأسرة . فوق ما له من وظائف أخرى في النظام الاقتصادي والاجتماعي العام . فإذا عجزت هذه الخطوة أو قصرت ، جاءت الخطوة التالية في محيط الجماعة المحلية المتعارفة لتكملها وتقويها . فإذا عجزت هذه جاء دور الدولة المسلمة لتتولى كل من قصرت في إعالتهم وكفالتهم ، جهود الأسرة ، وجهود الجماعة المحلية المحدودة .

إن التكافل في محيط الأسرة بصفة خاصة ينشئ آثارا طبيعية ملائمة للفطرة ؛ فشعور الفرد بأن جهده الشخصي سيعود أثره على ذوي قرابته — وبخاصة ذريته — يحفزه على مضاعفة الجهد ، فيكون نتاجه للجماعة عن طريق غير مباشر ؛ لأن الإسلام لا يقيم الفواصل بين الفرد والجماعة . فكل ما يملك الفرد هو في النهاية ملك للجماعة كلها عندما تحتاج .

من أجل هذه الواقعيات الفطرية والعملية في الحياة البشرية ، شرع الله قاعدة الإرث . حيث أعطى حق الإرث للرجال كما أعطاه للنساء ، ولم ينظر الإسلام في ذلك إلى الأفراد كما كان ينظر إليهم في الجاهلية حسب قيمتهم العملية في الحرب والإنتاج .

ويؤكد قطب أن نظام التوريث كما يقرره القرآن ، هو نظام تفتيت الثروة المتجمعة ، على رأس كل جيل ، وإعادة توزيعها من جديد . فلا يدع مجالا لتضخم الثروة وتكدسها في أيد قليلة ثابتة – كما يقع في الأنظمة التي تجعل الميراث لأكبر ولد ذكر ، أو تحصره في طبقات قليلة .

والميراث من هذه الناحية أداة متجددة الفاعلية في إعادة التنظيم الاقتصادي في الجماعة ، ورده إلى الاعتدال ، دون تدخل مباشر من السلطات ، ولكن عن طريق ما تستريح إليه النفس البشرية بروابط العائلة وصلات الدم . حيث إن دور الدولة يقتصر على بعض الحالات التي قررها الإسلام وأهمها رعاية اليتيم وماله حتى يبلغ أشده ويرشد ويستطيع أن يدبر ماله وأن يدافع عنه .

حالة أخرى يحق للجماعة التصرف فيها ، وهي أموال السفهاء . فالسفهاء ذوو المال ، الذين لا يحسنون تدبير المال وتثميره ، لا يسلم لهم ، ولا يحق لهم التصرف فيه والقيام عليه . إنما يعود التصرف إلى الدولة أو الجماعة حتى تحسن فيه لأنه – كما سبق أن ذكرنا – أن الإسلام لا يقيم الفواصل بين الفرد والجماعة . فكل ما يملك الفرد هو في النهاية ملك للجماعة كلها عندما تحتاج .

خلاصة القول إذن ، إن قطبا عند حديثه عن الملكية وتناوله لموضوعات السرقة ، والميراث ، كان متناسقا في رأيه مع ما ورد في القرآن من نصوص وتعبيرات تتطابق مع خصائص الفطرة الإنسانية التي تميل إلى الأمان وإلى التكافل الاجتماعي . ولكن يجب أن نشير هنا أنه لم يتناول في عرضه موضوع تراكم المال عن طريق « الوقف » العائلي . فقد تكلم كرجل يحلم بالمثالية وبكمال المجتمع . أو كرجل « مختبرات » يكتشف أصل الأشياء . وهو هنا لم يحدثنا كمؤرخ يعرض ما يراه من أفكار .

المبحث الثالث

الزكـــاة

يعتبر الإنفاق في سبيل الله ، ثاني الخصائص الأساسية للمنهج الإسلامي المتعلق بالمال . والإنفاق – حسبما يرى قطب – يشمل الزكاة « وهي فريضة سنوية يؤديها الفرد إذا كان يملك نصابا معينا ، ويدفع قيمة محددة حسب ما يملكه » والصدقة « وهي مبلغ يدفعه الفرد عندما يشاء لمن يشاء دون تحديد لقيمة أو لوقت » ، وسائر ما ينفق في سبيل الله في وجوه البر . هذا البر يميز أهل العدل والخير ، كما يميز الإنسان المؤمن بالله المخلص في إيمانه .

ويشير قطب إلى أن الإنفاق قد شرع قبل أن تشرع الزكاة ؛ لأنه الأصل الشامل الذي تخصصه نصوص الزكاة ولا تستوعبه . حيث ورد في حديث الرسول الذي أخرجه الترمذي : « إن في المال حقا سوى الزكاة » . وتقرير المبدأ على شموله هو المقصود في هذا النص السابق على فريضة الزكاة .

ويكرر قطب « الظلال 221 » أن البر هو جماع الخير . ولذلك فإن الإسلام قد جمع في آية واحدة بين أصول الاعتقاد . ووضع لذلك عنوانا واحدا هو « البر » أو هو « جماع الخير » أو هو « الإيمان » وربط بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والبر .

هذا الإنفاق ضروري من ناحية التضامن والتكافل بين أفراد الجماعة ، وإزالة الفوارق الشعورية بحيث لا يحس أحد إلا أنه عضو في ذلك الجسد . هذا الإنفاق تتحدد مصارفه في أن ينفق الفرد على نفسه ، وعلى الوالدين ، والأقربين ، واليتامى ،

والمساكين ، وابن السبيل . وكلهم يتضامنون في رباط التكافل الاجتماعي الوثيق بين بني الإنسان .

وفي تفسيره للآيات 215-220 من سورة البقرة يذكر قطب أن كل ما زاد عن النفقة الشخصية فهو محل للإنفاق . والعفو الذي ورد في الآية 220 هو الفضل والزيادة . والزكاة وحدها لا تجزئ . فهذا النص لم تنسخه آية الزكاة ولم تخصصه . فالزكاة قد لا تستغرق الفضل كله . والفضل كله محل للإنفاق بهذا النص الواضح .

ويتساءل قطب « الظلال 307 » أليس للباحثين النفسيين الحق عندما يقررون في هذه الأيام أن رد الفعل الطبيعي في النفس البشرية للإحسان هو العداء في يوم من الأيام ؟ ويجيب على ذلك : قد يكون هذا صحيحا في المجتمعات الجاهلية – وهي المجتمعات التي لا تسودها روح الإسلام ولا يحكمها الإسلام . أما الإسلام فقد عالج المشكلة على نحو آخر . عالجها بأن قرر في النفوس أن المال مال الله ، وأن الرزق في أيدي الواجدين هو رزق الله . وما الإنسان المعطي إلا حلقة في سلسلة دوران المال بين الناس .

من ناحية أخرى فإن الإسلام لا يريد أن يقيم حياة أهله على العطاء . فإن نظامه كله يقوم أولا على تيسير العمل والرزق لكل قادر ، وعلى حسن توزيع الثروة بين أهله بإقامة هذا التوزيع على الحق والعدل بين الجهد والجزاء . إنها القاعدة الأساسية للعدالة الاجتماعية في الإسلام .

ولكن هناك حالات تتخلف لأسباب استثنائية ، وهذه هي التي يعالجها بالصدقة : مرة في صورة فريضة تجبيها الدولة المنفذة لشريعة الله كلها ، ومرة في صورة تطوع غير محدود يؤديه القادرون للمحتاجين رأسا .. هؤلاء القادرون يعلمون يقينا أن هذا الإنفاق هو الوسيلة المضمونة لمضاعفة المال : إعطاؤه بلا مقابل وبلا انتظار رد ولا عوض من الناس . إنما هي إرادة وجه الله . فهو الذي يضاعف للمنفقين ابتغاء وجهه ، وهو الذي ينقص مال المرابين الذين يبتغون وجوه الناس .. ذلك حساب الدنيا ، وهناك حساب الآخرة وفيه أضعاف مضاعفة ، فهي التجارة الرابحة هنا وهناك .

وفي رؤيته لنوعية الإنفاق يذكر قطب « الظلال 310 » أنه يشمل جميع الأموال التي تصل إلى أيدي المؤمنين . يشمل ما كسبته أيديهم من حلال طيب ، وما أخرجه الله لهم من الأرض من زرع وغير زرع مما يخرج من الأرض ويشمل المعادن والبترول .

ومن ثم فإن النص القرآني يستوعب جميع أنواع المال ، ما كان معهودا على عهد النبي وما يستجد . فالنص شامل جامع لا يفلت منه مال مستحدث في أي زمان . وكله مما يوجب النص فيه الزكاة . أما المقادير فقد بينتها السنة في أنواع الأموال التي كانت معروفة حينذاك . وعليها يقاس وبها يلحق ما يجد من أنواع المال « الظلال 310 — البقرة ، الآيات 261-277 » .

لقد تعرض القرآن في سياق الآيات إلى القواعد التي تنظم بها حياة الجماعة الإسلامية . إن نظام التكافل والتعاون الممثل في الزكاة المفروضة والصدقات المتروكة للتطوع . وليس النظام الربوي الذي كان سائدا في الجاهلية . ومن ثم يتحدث عن آداب الصدقة . ويلعن الربا . إنه يبين آدابها النفسية والاجتماعية . الآداب التي تحول الصدقة عملا تهذيبيا لنفس معطيها ، وعملا نافعا مربحا لآخذيها .

ومن هنا كانت الزكاة أداة لتطهير الإنسان . إنها الانعتاق من ربقة الحرص والشح والضعف والأثرة . وبها يتحرر الإنسان من عبودية المال . إنها قيمة إنسانية في محيط الجماعة . إنها قيمة للتكافل والتعاضد .

ويقدم قطب « الظلال 161 » التعريف التالي الذي يحمل دلالة كبيرة في تحديد مفهوم الزكاة فيقول : « إيتاء الزكاة .. إنه الوفاء بضريبة الإسلام الاجتماعية التي جعلها الله حقا في أموال الأغنياء للفقراء ، بحكم أنه هو صاحب المال ، وهو الذي ملّكه للفرد بعقد منه ، من شروطه إيتاء الزكاة » .

ومن ثم يعطي قطب من خلال صفحات كتاب الظلال تطبيقات فعلية لمضمون هذا التعريف : فيذكر بداية أن الزكاة هي التكافل بين المؤمنين بالله ، فبعضهم أولياء

بعض ، ينتفعون برزق الله الذي أعطاهم على أساس هذا التكافل – لا على قاعدة الشيوع المطلق كما تقول الماركسية – ولكن على أساس الملكية الفردية المقيدة . إنها قاعدة للمجتمع المتكافل المتضامن الذي لا يحتاج إلى ضمانات النظام الربوي في أي جانب من جوانب حياته .

ويستدرك قطب « الظلال 329 » : إنه قد بهتت صورة « الزكاة » حتى أصبحت هذه الأجيال تحسبها إحسانا فرديا هزيلا ، لا ينهض على أساسه نظام عصري ! ليس المهم شكلية نظام الحياة . إنما المهم هو روحه . فالمجتمع الذي يربيه الإسلام بتوجهاته وتشريعاته ونظامه ، متناسق مع شكل النظام وإجراءاته . هذه حقيقة قد لا يتصورها الذين نشئوا وعاشوا في ظل الأنظمة المادية الأخرى . ولكنها حقيقة نعرفها نحن ــ أهل الإسلام ــ ونتذوقها بذوقنا الإيماني .

إن الله يعد الذين يقيمون حياتهم على الإيمان والصلاح والعبادة والتعاون أن يحتفظ لهم بأجرهم عنده ، ويعدهم بالأمن فلا يخافون ، والسعادة فلا يحزنون . في الوقت الذي يوعد آكل الربا والمجتمع الربوي بالقلق والخوف والتخبط والضلال . وشهدت البشرية ذلك واقعا في المجتمع المسلم ، وتشهد اليوم هذا واقعا أيضا في المجتمع الربوي !

إن الجماعة المسلمة يجب عليها أن تنبذ الربا من حياتها وأن تقيم هذه الحياة على الإيمان والعمل الصالح والعبادة والزكاة .

ويتساءل صاحب الظلال بعد ذلك من ذا الذي يدرينا اليوم مثلا أن يكون الناس في مجتمع مسلم تجبي فيه الزكاة وتنفق في مصارفها ، ويقوم فيه التراحم والتكافل بين أهل كل محِلَّة ، ثم بين كل أفراد الأمة ، وتقوم حياة الناس فيه على غير السرف والترف والمخيلة والتكاثر .. إلى آخر مقومات الحياة الإسلامية .. من يدرينا أن مجتمعا كهذا سيكون في حاجة إلى شركات تأمين ؟! وعنده كل تلك التأمينات والضمانات مع تلك الملابسات والقيم والتصورات ؟

إن كل ما هو أكيد هو أن الإسلام قد أقام قاعدة للتنظيم الاقتصادي ، تمثل جانبا

كبيرا من أسس النظريات الاقتصادية في الإسلام : فالملكية الفردية يعترف بها في هذه النظرية . ولكنها محددة بهذه القاعدة : قاعدة ألا يكون المال دولة بين الأغنياء ، ممنوعا من التداول بين الفقراء « الآية الثامنة من سورة الحشر » .

ولقد أقام الإسلام بالفعل نظامه على أساس هذه القاعدة ؛ ففرض الزكاة ، وجعل منها وسيلة لتحقيق التكافل الاجتماعي الذي على أساسه تقوم حياة المجتمع المؤمن ، وإقامة أسس الحياة الاقتصادية على المنهج الذي يكفل ألا يكون المال دولة بين الأغنياء ، وألا يكون تكدس المال في أيد قليلة سببا في الكساد العام بعجز الكثرة عن الشراء والاستهلاك مما ينتهي إلى وقف دولاب الإنتاج أو تبطئته ، كما يفضي إلى الفساد والاختلال في المجتمع . كل هذا الشر تحول دونه الزكاة ويحول دون منهج الله في توزيع المال ، وفي دورة الاقتصاد .

وقد جعل الإسلام حصيلة الزكاة في العام ، اثنين ونصفا في المئة من أصل رءوس الأموال النقدية ، وعشرة أو خمسة في المئة من جميع الحاصلات ، وما يعادل ذلك في الأنعام . وجعل الحصيلة في الركاز ، وهي كنوز الأرض ، مثلها في المال النقدي ، وهي نسب كبيرة .

كما جعل الإسلام للإمام « آية 103 من سورة التوبة » الحق في أن يأخذ فضول أموال الأغنياء « الآيات 219 ، 267 من سورة البقرة » فيردها على الفقراء ، وعلى مصارفها حسب ما ورد في النص القرآني .

وعلى الجملة ، فإن الإسلام نظام يبيح الملكية الفردية على الرغم من أنه قد أقام نظامه الاقتصادي كله بحيث يحقق قاعدته الكبرى التي تعد قيدا أصيلا على حق الملكية الفردية بجانب القيود الأخرى .

وبذلك تأخذ الزكاة مكانها في شريعة الله ، ومكانها في النظام الإسلامي ، لا تطوعا ولا تفضلا ممن فرضت عليهم . فهي فريضة محتمة . ولا منحة ولا جزافا من القاسم الموزع . فهي فريضة معلومة . إنها إحدى فرائض الإسلام . تجمعها الدولة المسلمة بنظام معين لتؤدي بها خدمة اجتماعية محددة .

إن الزكاة فرع من فروع التكافل الاجتماعي في الإسلام . وهذا النظام أشمل وأوسع كثيرا من الزكاة ؛ لأنه يتمثل في عدة خطوط تشمل فروع الحياة كلها ، ونواحي الارتباطات البشرية بأكملها ، والزكاة خط أساسي من هذه الخطوط .

وفي الحقيقة إنه قبل فرض الزكاة في السنة الثانية من الهجرة في المدينة قد كان أصل الزكاة معروفا في مكة ، ولكن كانت أمرا عاما يتطوع به المتطوعون ، غير محدود ، وأداؤه موكول إلى الضمير . وكانت الزكاة إحدى الخصائص التي تميز بين المؤمنين وتكافلهم وبين المشركين في مكة .

فأهل مكة كانوا مشغولين بجمع المال من التجارة ومن الربا ، وكان كبراء قريش هم أصحاب هذه المتاجر وأصحاب القوافل في رحلتي الشتاء والصيف . وكان هناك تكالب على الثراء ، وشح النفوس . وظل القرآن يعالج هذا الجشع وهذا الحرص . وحتى عندما نزلت الآيتان 24 ، 25 من سورة المعارج ، فإن الزكاة كانت على وجه التخصيص والصدقات كانت معلومة القدر . وهي حق في أموال المؤمنين ... وهنا يذكر قطب « الظلال 3698 » أن : لعل المعنى أشمل من هذا وأكبر . وهو أنهم يجعلون في أموالهم نصيبا معلوما يشعرون أنه حق للسائل والمحروم .

إن الإنفاق في سبيل الله يشمل كل مصلحة للجماعة ، تحقق كلمة الله . وبالتالي ليس فقط القتال هو الوسيلة الوحيدة للجهاد في سبيل الله . ولذلك فإن من واجب الإمام أو من يقوم بقيادة الأمة أن يأخذ من أموال الأغنياء فيردها على الفقراء ، وأن يوظف في أموال الأغنياء عند خلو بيت المال .

باختصار الزكاة هي « ضريبة اجتماعية » . وفي نفس الوقت يمكن للدولة أن تفرض من الضرائب ما تراه ضروريا لتيسير مصالح العباد وحراسة كلمة الله بين العباد . ولكن – كما يقرر قطب – هذه الدولة ، عندما تجبي هذه الضريبة ، يجب أن تكون دولة مسلمة منفذة لشريعة الله كلها وتكون هي وحدها صاحبة الحق في جبايتها « الظلال 316 » .

وكنتيجة طبيعية فإن الفقراء والمساكين وغير القادرين على العمل يكون لهم الحق

في الإعانة من بيت المال : فالإسلام يجعل الأفراد الأسوياء قادرين على الكسب ؛ لأن الأصل أن يستغني كل فرد بدخله . والإسلام يجعل تيسير العمل وكفاية الأجر حقا على الدولة واجبا للأفراد .

من هذا كله نجد أن قطبا قد أعطى اهتماما كبيرا لموضوع الزكاة . كما أنه استطاع تحديد دور الدولة بوجه عام . وحتى الدولة الإسلامية التي تمنى أن يكون لها دور في قيادة المجتمع . فقد ركز على مسئولية الفرد ، وتضامن الجماعة المسلمة وعلى واجبات كل من الفرد والجماعة في إطار رقابة الدولة ، بالرغم من أنه لم يعرض للمؤسسات التي تتولى مهمة الرقابة .

المبحث الرابع

تحريم الربا

الخاصية الثالثة للمنهج الإسلامي المتعلق بالأموال . هي تحريم الربا . فلماذا كان هذا التحريم بنص القرآن ؟ يجيبنا قطب « الظلال 2771 - 2772 ، الروم الآيات 33 - 60 » : أن ذلك لأنه إذا كان الله هو الذي يبسط الرزق ويقبض ، وهو الذي يعطي ويمنع وفق مشيئته ، ومادام المال مال الله ، أعطاه رزقا لبعض عباده . فالله صاحب المال الأول قد قرر قسما منه لفئات من عباده « الفقراء » . يؤديه إليهم من يضع يده على ذلك المال « الأغنياء » ومن ثم سميت الزكاة حقا . وعلى ذلك فإن الربا في جوهره هو الوجه الآخر المقابل للصدقة .

ويعرض قطب أن بعض الناس يحاول تنمية ماله بإهداء هدايا للموسرين من الناس كي ترد عليه الهدية مضاعفة : ولكن هذه الطريقة لا حرمة فيها كحرمة الربا المعروف . إن نص الآية 39 من سورة الروم يشمل جميع الوسائل التي يريد بها أصحابها أن تنمو أموالهم بطريقة ربوية في أي شكل من الأشكال .

والربا المباشر هو « أكل أموال الناس بالباطل » . وذلك عن طريق التقاضي بشأنها أمام الحكام اعتمادا على المغالطة في القرائن والأسانيد . واللحن بالقول والحجة . حيث يقضي الحاكم بما يظهر له ، وتكون الحقيقة غير مابدا له .

لقد عمل القرآن على أن يجتث الربا من جذوره وأن يقضي تماما على أسبابه . إن الربا هو استرداد للدّين ومعه زيادة حرام مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه ؛ ولذلك فالنص القرآني يحرم هذه الزيادة مهما كان شكلها ومقدارها .

ويقرر قطب أن الآيات 275-281 من سورة البقرة توضح الحملة المفزعة على ذلك النظام المقيت ، والتي تتكشف اليوم حكمتها على ضوء الواقع الفاجع في حياة البشرية ، أشد مما كانت متكشفة في الجاهلية الأولى . إن أمامنا اليوم من واقع العالم ما يصدق كل كلمة تصديقا حيا مباشرا واقعا . فالبشرية الضالة التي تأكل الربا وتؤكله تنصب عليها البلايا الماحقة الساحقة من جراء هذا النظام الربوي ، في أخلاقها ودينها وصحتها واقتصادها .

إن المجتمعات الربوية هي المجتمعات التي يكون فيها الفرد حرا في وسائل حصوله على المال ، وفي طرق تنميته ، كما هو حر في التمتع به . غير ملتزم في شيء من هذا بعهد من الله أو شرط ، وغير مقيد كذلك بمصلحة الآخرين . ومن ثم فلا اعتبار لأن يتأذى الملايين إذا هو أضاف إلى خزائنه ورصيده ما يستطيع إضافته .

وقد تتدخل القوانين الوضعية أحيانا في الحد من حرية هذا – جزئيا – في تحديد سعر الفائدة مثلا ، وفي منع أنواع من الاحتيال والنصب والغش والضرر . ولكن هذا التدخل يعود إلى ما يتواضع عليه الناس أنفسهم ، وما تقودهم إليه أهواؤهم ، لا إلى مبدإ ثابت مفروض من سلطة إلٰهية !

هذا ينتهي – كما انتهى في العصر الحديث – إلى تركيز السلطة الحقيقية والنفوذ العملي على البشرية كلها في أيدي زمرة ، لا يملكون المال وحده . إنما يملكون النفوذ . وليس لهم مبادئ ولا أخلاق ولا تصور ديني أو أخلاقي على الإطلاق .

إن النظام الربوي نظام معيب من الوجهة الاقتصادية البحتة . ويستشهد قطب في ذلك « الظلال 321 » بما ذكره « دكتور شاخت » ، الاقتصادي الألماني ، في محاضرة له بدمشق عام 1953 . حيث أعلن أن قيام النظام الاقتصادي على الأساس الربوي يجعل العلاقة بين أصحاب الأموال وبين العاملين في التجارة والصناعة علاقة مقامرة ومشاكسة مستمرة . فإن المرابي يجتهد في الحصول على أكبر فائدة . ولا يهتم كثيرا باستخدام هذه الأموال في العمليات الإنتاجية . إن هؤلاء المرابين يمثلون السبب الرئيسي للأزمات الاقتصادية الدورية العالمية ولما تتعرض له الدول والشعوب من فقر وديون واستعمار .

إن علاج هذا الداء لا يمكن أن يكون اقتصاديا أو تكنولوجيا فحسب ، وإنما لابد له أيضا من جانب أخلاقي وديني . ولذلك كان ربط الإسلام بين النظام الأخلاقي والنظام العملي . فهما معا يؤلفان نشاط الإنسان . وكلاهما عبادة يؤجر عليها في آخرته إن أحسن .

فيجب أن تستيقن نفوس المسلمين أنه لا إسلام مع قيام نظام ربوي في مكان . فالتصور الإسلامي يصطدم اصطداما مباشرا بالنظام الربوي ونتائجه العملية في حياة الناس وتصوراتهم وعقائدهم .

إن الإسلام حين يحرم التعامل الربوي يقيم نظمه كلها على أساس الاستغناء عن الحاجة إليه . وينظم جوانب الحياة الاجتماعية وفق تصوره ومنهجه الخاص . وعند ذلك لن يحتاج عند إلغاء التعامل الربوي إلى إلغاء المؤسسات والأجهزة اللازمة لنمو الحياة الاقتصادية العصرية نموها الطبيعي السليم . ولكنه فقط سيطهرها من لوثة الربا ودنسه . ثم يتركها تعمل وفق قواعد أخرى سليمة . ومن أولى هذه المؤسسات والأجهزة : المصارف والشركات وما إليها من مؤسسات الاقتصاد الحديث .

« إن من سوء الفهم وسوء التصور أن يعتقد الإنسان أن الربا ضرورة للنمو الاقتصادي والعمراني . وأن النظام الربوي هو النظام الطبيعي . كما أن القول باستحالة قيام الاقتصاد العالمي اليوم وغدا على أساس غير الأساس الربوي ليس سوى خرافة » « الظلال 323 » .

ويشير قطب إلى أنه يمكن الرجوع إلى البحوث التي كتبها أبو الأعلى المودودي عن الربا وعن أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة .

إن الربا الذي كان معروفا في الجاهلية ، والذي نزلت فيه الآيات لإبطاله كانت له صورتان رئيسيتان : ربا النسيئة ، وربا الفضل .

ربا النسيئة هو القرض المؤجل بزيادة مشروطة . فإذا حل الأجل ولم يكن عند صاحبه قضاؤه ، زاده وأخّر عنه .

أما ربا الفضل فهو أن يبيع الرجل الشيء بالشيء من نوعه مع زيادة . وقد ألحق

هذا النوع بالربا لما فيه من شبه به ، ولما يصاحبه من مشاعر مشابهة للمشاعر المصاحبة لعملية الربا .

ويعلن قطب في تفسيره للآية 131 من سورة آل عمران أن البعض يقول إن الربا المحرم هو الأضعاف المضاعفة . ويرد عليهم قائلا : إن هذا الوصف ليس وصفا تاريخيا فقط للعمليات الربوية التي كانت واقعة في الجزيرة والتي قصد إليها النهي هنا بالذات إنما هو وصف ملازم للنظام الربوي ، أيا كان سعر الفائدة .

ويحسم صاحب الظلال القول « 326 » بأن الأضعاف المضاعفة وصف لواقع ، وليست شرطًا يتعلق به الحكم . والنص الذي نزل في سورة البقرة قاطع في حرمة أصل الربا ــ بلا تحديد ولا تقييد – : ﴿ **وذروا ما بقى من الربا** ﴾ ... أيا كان !

ويريد البعض في الوقت الحاضر أن يقصر التحريم على صورة واحدة من صور الربا ــ ربا النسيئة ــ . ويجيبهم قطب بأن هذه المحاولة لا تزيد على أن تكون ظاهرة من ظواهر الهزيمة الروحية والعقلية . فالإسلام حين حرَّم الربا لم يكن يحرم صورة منه دون صورة . إنما كان يناهض تصورا يخالف تصوره ، ويحارب عقلية لا تتماشى مع عقليته .

إن الممولين المرابين يقرضون الصناعة والتجارة بالفائدة المحددة المضمونة . ويجبرون الصناعة والتجارة على أن تسير في طريق معين ليس هدفه الأول مصالح البشر وحاجاتهم التي يسعد بها الجميع .

أما بالنسبة للتجارة ، فإن العمليات التجارية قابلة للربح والخسارة . والمهارة الشخصية والجهد الشخصي والظروف الطبيعية الجارية في الحياة هي التي تتحكم في الربح والخسارة . أما العمليات الربوية فهي محددة الربح في كل حالة . وهذا هو الفارق الرئيسي . وهذا هو مناط التحريم والتحليل . فالتجارة وسيط نافع بين الصناعة والمستهلك . وهي خدمة للطرفين . وانتفاع عن طريق هذه الخدمة . « الظلال 639 » .

إن كل عملية يضمن فيها الربح على أي وضع هي عملية ربوية محرمة بسبب

ضمان الربح وتحديده . ولذلك كانت التجارة حلالا لانتفاء هذا العنصر من البيع ، ولأسباب أخرى كثيرة تجعل عمليات التجارة في أصلها نافعة للحياة البشرية . وعمليات الربا في أصلها مفسدة للحياة البشرية « الظلال 327 » .

أما الذين يتعاملون بالربا فها هو ذا القرآن ينذرهم بحقيقة العذاب في الآخرة ، كذلك ينذرهم بالمحق في الدنيا والآخرة جميعا . إضافة إلى أن الربا سيؤدي حتما إلى الأزمات الاقتصادية ، وإلى أن تعيش البشرية في تهديد دائم بالحروب المبيدة ، ولما نراه من واقع مؤلم في المجتمعات الغربية التي تعيش على الربا .

وعلى ذلك ـــ كما يقول قطب « الظلال 331 » – فإن الإمام مكلف – حين يقوم المجتمع الإسلامي ـــ بمحاربة الذين يصرون على قاعدة النظام الربوي ، ويعتون عن أمر الله ، ولو أعلنوا أنهم مسلمون . كما حارب أبو بكر مانعي الزكاة ، وحينما يعلن القرآن الحرب على المتعاملين بالربا ، فإن هذه الحرب أعم من القتال بالسيف والمدفع . فهي حرب على كل مجتمع يجعل الربا قاعدة نظامه الاقتصادي والاجتماعي . فهي الحرب معلنة في صورتها الشاملة الداهمة الغامرة . وهي حرب على الأعصاب والقلوب . وحرب على البركة والرخاء . وحرب على السعادة والطمأنينة .

ويؤكد قطب أن المرابين أصحاب رءوس الأموال العالمية هم الذين يوقدون هذه الحروب مباشرة أو عن طريق غير مباشر . فهم يلقون شباكهم فتقع فيها الشركات والصناعات ، ثم تقع فيها الشعوب والحكومات . أو يزحفون وراء أموالهم بقوة حكوماتهم وجيوشها . وأيسر ما يقع – إن لم يقع هذا كله – هو خراب البيوت ، وانهيار الأخلاق .

في مقابل هذه الفتن والحروب يجد قطب أن الآيات القرآنية 121-179 من سورة آل عمران تعكس لنا – قبل أن يدخل السياق في صميم استعراض معركة أحد – المعركة في أعماق النفس وفي محيط الحياة . حيث يجيء الحديث عن الربا والمعاملات الربوية وعن تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله . وعن الإنفاق في السراء والضراء ، والنظام التعاوني الكريم المقابل للنظام الربوي . ومجال أن يجتمع إيمان ونظام ربوي

في مكان . وحيثما قام النظام الربوي فهناك الخروج من هذا الدين جملة .

إن الإسلام عندما حرم الربا وأبطله فإنما أبطله منذ نزول النص . وترك للأفراد ما سلف منه ، ولم يأمر برد الفوائد الربوية . ولذلك فإن الإمام لا يملك أن يخالف ما جاء به الرسول . وواجب عليه أن يعمل على الدعوة إلى نبذ الربا وتحريمه ، وأن يتكفل بألا يكون المال دولة بين الأغنياء .

ولكن ماذا عن المدينين الذين لا يجدون ما يوفون به دَينهم ؟ يجيب القرآن بأن يعطَوا من الزكاة ليوفوا ديونهم ، بدلا من إعلان إفلاسهم كما تصنع الحضارة المادية بالمدينين من التجار مهما تكن الأسباب ! فالإسلام نظام تكافلي ، لا يسقط فيه الشريف ، ولا يضيع فيه الأمين ، ولا يأكل الناس بعضهم بعضا في صورة قوانين نظامية « الظلال 647 » .

أما تنمية المال فلها وسائلها البريئة النظيفة . لها وسيلة الجهد الفردي . ووسيلة المشاركة على طريقة المضاربة وهي إعطاء المال لمن يعمل فيه ، ومقاسمته الربح والخسارة . ووسيلة الشركات التي تطرح أسهمها مباشرة في السوق ــ بدون سندات تأسيس تستأثر بمعظم الربح – وتناول الأرباح الحلال من هذا الوجه . ووسيلة إيداعها في المصارف بدون فائدة – على أن تساهم بها المصارف في الشركات والصناعات والأعمال التجارية مباشرة أو غير مباشرة – ولا تعطيها بالفائدة الثابتة ــ ثم مقاسمة المودعين الربح على نظام معين أو الخسارة إذا فرض ووقعت « الظلال 332 » .

وهناك أيضا في الزراعة ــ كما يذكر قطب « الظلال 3524 » نظام إيجار الأرض وهو المزارعة . أي المشاركة في المحصول الناتج بين صاحب الأرض وزارعها . وفي ذلك يشير قطب أنه يوجد خلاف فقهي حول مفهوم أو دلالة المزارعة . ولكنه يرى أن الراجح الظاهر هو ضرورة تجنب تركيز الملكيات الزراعية الكبيرة في أيدي عدد قليل من الأفراد .

وهكذا نكون خلال هذه السطور قد حاولنا أن نعرض للنظرة « المثالية » للعدالة الاجتماعية والتكافل والتضامن كما يراها قطب . فهل كانت هذه النظرة « أصولية » . بمعنى أنها كانت أكثر إخلاصا وتناسقا مع ما ورد في النص القرآني ؟ .

المبحث الخامس

نتائج الفصل الخامس

إذا أردنا أن نستذكر أهم الاتجاهات الاقتصادية التي وردت في كتاب الظلال فإننا يمكن أن نشير إلى : أن الملكية الخاصة أو الفردية حق لكل فرد ، ولكن في إطار من الوظيفة الاجتماعية . وجود فريضة أو ضريبة اجتماعية تستوعب جميع الأنشطة الاقتصادية « الزكاة » . تحريم الكسب من المضاربة في أرزاق العباد . الدعوة إلى العمل . العمل التجاري الشريف . والتوظيف المنتج للموارد .

هذه الأمور تعكس لنا في ذات الوقت نظرة الإسلام للمال . إنها نظرة تعارض في جوهرها كل ما يؤدي إلى أن يكون المال دولة بين الأغنياء دون الفقراء . وقد فرض على الإمام أو السلطة السياسية في الدولة الإسلامية أن تعمل على تحقيق هذا النظام . .

فإذا قامت الدولة الإسلامية فإن معالجة القضايا والأمور التي تتعلق بالمال ، والمنازعات المالية وتحصيل الضرائب ، أو توزيع الزكاة ، أو أية أنواع أخرى من الضرائب ، يجب أن تتم في إطار نظام ديمقراطي يقوم على الشورى ، وفقا لما تنص عليه الآية 38 من سورة الشوري . كما يجب أن تتم جميع المعاملات المالية من خلال بيت مال المسلمين كما ورد في نص الآية 62 من سورة النور .

إن هذا التفسير السياسي ، مع التطبيقات الاقتصادية ، لمضمون النص القرآني في هاتين الآيتين يبين لنا بوضوح التوجه الاقتصادي العام لكتاب الظلال . فهل كان هذا التوجه متطابقا مع توجهات تفسير المنار ؟

بعيدا عما عرضناه من قراءات يسيرة وسهلة للقرآن ، فإنه من الواضح تماما أن آراء قطب – في موضوع المال – كانت متطابقة – بل تلتصق التصاقا مباشرا – مع فهمه وإدراكه العميق للنصوص القرآنية . وسنحاول في السطور التالية أن نعرض الآيات التي تعالج موضوع المال في الإسلام . إلى جانب التفسير الذي قال به كل من سيد قطب ، ورشيد رضا . وذلك حسب تاريخ التنزيل لتلك الآيات .

ونستطيع أن نذكر بداية أن هناك اختلافا واضحا بين قطب ورشيد رضا في تفسير مضمون هذه النصوص القرآنية .

من ناحية أخرى ، في نهاية الفترة المكية من عمر الدعوة ، قدم النص القرآني في سورة نوح المال كعنصر من عناصر الجزاء أو الثواب الدنيوي للمجتمعات التي تسير وفق شريعة الله . كما عرضت في نفس الوقت أن وجود المال بين أيدي الأغنياء سيجلب عليهم العذاب والانتقام إذا هم عارضوا الأنبياء ولم يتبعوا ما جاءوهم به « سورة نوح ، الآيات 11-12 » .

والنص القرآني لقصة موسى يعرض لنا كيف أن موسى كان فقيرا في مواجهة الغنى الفاحش لفرعون ، وكيف أن الذين يملكون المال دائما ما يعادون الأنبياء « سورة الزخرف ، الآيات 23-24 ، 59 ، 52 » .

وفي نفس هذه الفترة نزلت الآية الخامسة عشرة من سورة الملك التي تنص على أن الله قد خلق الأرض وسخرها للإنسان ، وأن الله قد رزق الإنسان بكل ما يحتاج إليه « الآية 21 من سورة الملك » .

وقد أمر الله الإنسان بالإنفاق ولكن دون إسراف أو تقتير « الآية 67 من سورة الفرقان » . وقد اختار الله المسلمين خلفاء له في الأرض ليوجه إليهم رسالته الأخيرة « الآية 62 من سورة النمل » .

ويعلن القرآن أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا ، ولكن الباقيات الصالحات خير عند الله « سورة الكهف الآيات 34 ، 46 » . والله وحده هو الذي يقدّر الأرزاق بين الناس في جميع أنحاء الأرض « سورة فصلت ، الآية العاشرة » . فالله هو الرازق .

وقد فضل بعض الناس على بعض في الرزق وفق تقديره هو . كما فرض على الإنسان أن ينفق المال حسب ما أمره به ، وألا يعتدي على مال اليتيم « سورة الإسراء ، الآيات 21 ، 26 ، 30 ، 34 » .

فلله ملك السموات والأرض ، وهو الذي يرزق الإنسان ويمنحه كل ما يحتاج إليه من نعم . فأعطاه المال ، واللبن ، والعسل ، وثمرات النخيل والأعناب ، وكل ما فيه شفاء للناس . كل ذلك كان عهدًا من الله للإنسان في الدنيا والآخرة « سورة النحل ، الآيات 52 - 55 ، 65 - 70 ، 90 - 95 ، 107 » .

وإذا كان الله قد منح المال للإنسان فإنه قد أمره بالإنفاق في سبيله بدلا من التعامل في الربا ، حيث لا يجني الإنسان من المعاملات الربوية إلا غضب الله « سورة الروم ، الآيات 37-39 » . فالمال مال الله القادر على أن يمنحه أو يمنعه « هود ، الآيات 3-9 » . لذلك يجب على الإنسان أن يكون عادلا مقسطا في الأخذ والعطاء بحيث لا يبخس الناس أشياءهم كما دعا شعيب قومه « هود ، الآية 85 » . فالمال لا يغني الإنسان إذا أراد الله عقاب قوم في الدنيا أو في الآخرة « القصص ، الآيات 59-63 » كما أنه لا يغني الإنسان إذا تصرف تصرف قارون « القصص ، الآيات 76-82 » .

الله فاطر السماوات والأرض ، ومالك كل ما خلق فيهما ، وهو يبسط الرزق لمن يشاء « الشورى ، الآيتان 11 ، 12 » . وفرض الله على الإنسان أن ينفق ماله على الأقربين والفقراء والمساكين « الشورى ، الآية 23 » .

والذين استكبروا ومن اتبعهم من المستضعفين في الكفر سينالهم نفس الجزاء في الآخرة ، فهؤلاء الذين استكبروا لن تقربهم أموالهم ولا أولادهم من الله « سورة سبأ ، الآيات 32 - 42 » .

فالله قد عرض على الإنسان عهده وميثاقه ، وأمر الإنسان أن يصل رحمه ، وأن ينفق ما منحه الله فيما أمره وإلى من أمره « سورة الرعد ، الآيات 20 - 22 » .

هذه هي رسالة القرآن في المال إلى المسلمين في مكة .

أما في المدينة فقد عرض الوحي الإنفاق كإحدى خصائص الجماعة المنسلمة « سورة

البقرة ، الآية الثالثة » . هؤلاء المؤمنون المنفقون هم الذين يحافظون على عهد الله وميثاقه « البقرة ، الآية 27 » . لذلك كان الإنفاق وإيتاء الزكاة من مقومات البر « البقرة ، الآية 177 » وذلك في نصاب من المال أو من الفضل « البقرة ، الآية رقم 219 » .

فالإنفاق يمكن أن يشفع للإنسان يوم القيامة « البقرة ، الآية 254 » . هذا الإنفاق يجب أن يكون في سبيل الله وطمعا في رضا الله وأجره ، وذلك دون انتظار المقابل ودون المنِّ على الآخرين وإيذائهم « البقرة ، الآية 261-277 » .

ويجب على المؤمنين أن يتجنبوا أعمال الربا حتى لا يتعرضوا لحرب من الله ورسوله . فإذا توقف الإنسان عن الربا فله أن يحتفظ بما سبق وحصل عليه من ربح بشرط ألا يعود مرة أخرى للربا . بل والأفضل للإنسان أن يقدم المال على سبيل الصدقة إذا لم يستطع المدين أن يرد الدين « البقرة ، الآيات 275-281 » .

يمكن للإنسان أن يحصل على المال عن طريق الميراث « البقرة ، الآية 180 » وليس عن طريق تنمِيته بالربا « البقرة ، الآية 188 » . فمتاع الحياة الدنيا مصيره الفناء والزوال « آل عمران ، الآيات 14 ، 17 » . وكل من يكفر بالله ستكتب له الذلة والمسكنة حيث لا ينفعه المال « آل عمران ، الآية 112 » والإنفاق أفضل من الاهتمام بجمع المال والتفاخر بالأولاد « آل عمران ، الآيتان 116 - 117 » . كما أن السعي إلى تجميع المال بمضاعفة الدَّين على المدين هو ربا أصلي « آل عمران ، الآية 130 » .

وقد نظم القرآن عملية الميراث ، وقد استبعد من ذلك السفهاء ومن به مس من الجنون . ولكن فرض الحفاظ على مال اليتيم حتى يبلغ أشده « النساء ، الآيات 7 - 32 » .

إن التجارة ليست عملا من أعمال الربا « النساء ، الآية 29 » كما أن للفقراء حقا معلوما في أموال المؤمنين المتقين « المعارج ، الآيتان 24 - 25 »

ولقد حددت الآيتان السابعة والثامنة من سورة الحشر المصارف الخمسة التي

يجب أن يوزع عليها الغنائم التي حصل عليها المسلمون من بني النضير . وخصت الآية الثامنة فقراء المهاجرين بالجزء الأعظم من الغنيمة .

بينما ذكرت الآية 53 من سورة التوبة أن الزكاة لا تقبل من الكافرين سواء أدوها كرها أو طوعا . وحددت مصارف الزكاة في ثمانية مصارف « التوبة ، الآيات 58-60 » . وقد رفض المنافقون أداء الزكاة المفروضة « المائدة ، الآيات 67 ، 75 ، 80 » .

أما الصدقات فإن مقدارها يتوقف على رغبة المؤمنين في الإنفاق « المائدة ، الآية 79 » . وتجمع نفقات الجهاد من أموال الراغبين في الجهاد بأموالهم بالإنفاق في سبيل الله « المائدة ، الآية 44 » . والمؤمنون حقا هم الذين يوفون بعقودهم « المائدة ، الآية الأولى » : فالله هو المنعم على المؤمنين « المائدة ، الآية الحادية عشرة » .

ويشير القرآن إلى أن المال لايمكن أن يغني أو يفدي الإنسان يوم القيامة « المائدة ، الآية 36 » . ولذلك فقد فرض الله حد القطع على الذين يعملون في الحصول على المال عن طريق السرقة (المائدة ــ الآية 38) .

هذا العرض الموجز لمضمون النصوص القرآنية التي تتعلق بالمال تناولها بالتفسير كل من سيد قطب ورشيد رضا أو محمد عبده . وهنا يظهر لنا منهجية قطب في العدالة الاجتماعية . هذه المنهجية ليست فقط مجرد وعظ أو إرشاد في إطار ديني أو أخلاقي موجه للأغنياء ، إنما هي نظام إسلامي واقعي يجب العمل به وتطبيقه . فهل كان كتاب الظلال في منهجه أكثر قربا للنص القرآني مقارنة بما ورد في تفسير المنار ؟

بادئ ذي بدء نستطيع القول إن تفسير المنار كان متطابقا – بصفة عامة – مع الأسس المنهجية التي عرضها كتاب الظلال ... ولكن الأخير عرض منهجيته في نظام محدد وواضح . وهذا ما لم يتطرق إليه كل من رشيد رضا أو محمد عبده . فهما قد حاولا عرض مفهوم النص القرآني في صورة « عقلانية » ، بينما عرض قطب ذلك المفهوم بصورة تتصل مباشرة بالعلاقات الاقتصادية والاجتماعية .

فتفسير المنار قد أعلن أن تجميع المال ليس هو الهدف الأسمى للنشاط الإنساني .

وعلى ذلك فإن إنتاج أو استيراد المنتجات « الترفية » يجب أن يكون في نطاق محدود « الجزء الثاني ، ص 473 »[1] . في نفس الوقت لم يتقبل أصحاب المنار فكرة التجرد الصوفي عند « الحلاج » ، بالرغم من أن بعض المذاهب قد امتدحها .

ولكن ركز تفسير المنار على « خلافة الإنسان في الأرض » ، وعلى الخاصية الدينية للعمل واستغلال الأرض كإحدى العبادات ، « الجزء الثاني ، ص 231 » . لذلك كان وصفهم لجانب من أعمال التصوف بأنها نوع من الكسل والاتكال ، وأنها مظهر من مظاهر الاستجداء والمغالاة في الدين « تفسير جزء عم : الأجزاء الأول والرابع والعاشر ، وأشار إليها جوميير في كتابه ص 236-260 » .

في هذا الإطار نقول إن نقطة البدء في تفكير قطب حول التفاخر بالمال في الحياة الدنيا ، قد زادت من حدة النقاش حول العلاقة بين الإنسان والمال . حيث عالجها من جانب تصوفي أكثر من الجانب الأخلاقي .

« فالاتجاهات الأخلاقية » أو « العقلية » في تفسير المنار – كما أسماها جوميير – جاءت في كتاب الظلال « كحالات كونية » لكل البشر : أغنياء أو فقراء ، حكام أو محكومين ، مؤمنين أو كفار ، منافقين أو صادقين .

فهذا عهد الله وميثاقه ، الذي يفرض هذه الحالات – حسب ردود فعل العباد – وينظم العلاقات بين المخلوقات ، وخاصة بين الإنسان والمال .

وهنا يجب أن نشير إلى اعتقادنا بأن المدلول الاقتصادي لعهد الله أو عهده وميثاقه لم يكن في ذهن أصحاب تفسير المنار عند تفسيرهم للنص القرآني في هذا الموضوع .

بينما نجد أن تفكير قطب في ذلك العهد إلى العهد في بدء الخلق ، وعهد الله مع محمد ، وعهد العقيدة مع المؤمنين ، وهذا يختلف تماما مع عهد البيعة بين المؤمنين والرسول .

في موضوع الجزاء أو الثواب للمتقين في الحياة الدنيا ، قال رشيد رضا بأن هذا

---

(1) جوميير . المرجع السابق ، ص 169-175 ، 217-233 .

الجزاء يكون جماعيا وليس فرديا « الجزء الثاني ص 103 ، الرابع ص 162-164 ؛ كتاب جومبير ص 67 » .

أما قطب – في هذا الموضوع – فكان قريبا من النص القرآني . فقد ركز بصورة واضحة على أن المال في الحياة الدنيا لا يقيس درجة الجزاء بين المتقين أو الكافرين . فالأغنياء دائما في عداء ضد الأنبياء . وبالتالي فإنه من الصعب أن نتصور أن غناهم وثراءهم مكافأة من الله لهم . فالمال ليس إلا نعمة من نعم الله الخالق ، المالك ، الرازق .

فاختلاف الرزق بين العباد من تقدير الله وحده . فهو ليس نتيجة لمميزات أخلاقية ، أو مجهود في العمل أو نتيجة لصراع طبقي ..

إن نظرة قطب قد قامت على افتراض أن المجتمع يعيش على شريعة الله كأحد الأسس القانونية « لناموس الكون » ... إن اهتمامات الشعور الديني عند قطب حول « تحليل » أو « تحريم » المعاملات المالية في الوقت الحاضر ربما تكون مستوحاة من قاعدة التصوف والورع عند الغزالي[1] . ولكن قطبًا تحفظ على توزيع الموارد في « مجتمع ضال » . فالعدالة الاجتماعية عنده هي كلٌّ لا يتجزأ . هذه العدالة يجب أن تتطابق مع « ناموس الكون » . وليست مجرد نصيحة أخلاقية فقط نتبعها في حاضرنا اليوم ، كما يظهر لنا في تفسير المنار الذي اقتصر على جانب النصح والإرشاد الديني والأخلاقي .

من جهة أخرى ، امتد تفكير قطب – كما فعل رشيد رضا – إلى تحديد مصادر الثروة والدخل وأشكالها في الوقت الحاضر[2] .

وعرض قطب مصارف الزكاة ، مع تركيزه على أهميتها للمنفعة العامة وليست

---

(1) رجيس موريلون : الغزالي ، كتاب الحلال والحرام . باريس 1981 .

(2) تفسير المنار : « الجزء الثامن ص 138 ، العاشر ص 489-516 ، الحادي عشر ص 27-32 ، تفسير جزء عم ص 91 : وكذلك كتاب جومبير ص 217-221 . خاصة ص 170 » .

مجرد إنفاق في سبيل الله « سورة التوبة ، الآية 60 » . إلى جانب أنه قد اعتبر الزكاة فريضة أو ضريبة اجتماعية وليست مجرد « فريضة شعائرية أو تعبدية » . فالمعنى الواسع والشامل للزكاة هو الإنفاق . الإنفاق في سبيل الله بمعناه الشامل الجامع . وبالتالي فإن « المعدلات » أو « النسب » التقليدية للزكاة ليست هي فقط محددات الضرائب أو المساهمات الضرورية التي يؤديها الأفراد .

وهكذا يكون كتاب الظلال قد تجاوز تفسير المنار عند تناوله الآيات التي تتعلق بالزكاة والإنفاق . فالإنفاق هو التعبير عن الواجب أو الفريضة التي وردت في « عهد الله » مع من تفضل عليهم بالمال والثروة . إن « نظام الزكاة » هو أفضل « نظام اقتصادي » للإنسان .

ويجب أن نذكر هنا أن قطبا قد تجنب قصر المنتفعين من الزكاة على المسلمين الصادقين في إسلامهم . وذلك خلافا لما قال به رشيد رضا « تفسير المنار ، الجزء العاشر ص 414-513 ؛ كتاب جوميير ص 218 » .

تناول رشيد رضا – عرضا وبملاحظات عابرة – إعلان الحرب ضد كل من يرفض أداء الزكاة « الجزء العاشر ص 512-513 » . بينما ركز قطب على هذا الموضوع بصورة واضحة . فقد دعا إلى الجهاد أو القتال كثورة اجتماعية داخلية . بنفس القدر ، كالقتال أو الجهاد ضد العدو الخارجي .

يجب أن نشير أيضا إلى أنه إذا كان قطب قد وكل للدولة بصورة واضحة – على خلاف رشيد رضا – مهمة تحصيل أموال الزكاة ، فإنه في نفس الوقت قد أكد على المسئوليات المحلية داخل القرية الواحدة أو المدينة الواحدة وداخل المنطقة الواحدة .

باختصار ، إن منهج قطب في الزكاة والإنفاق في جميع صوره وأشكاله ، يرتبط ارتباطا مباشرا بتفكيره السياسي الذي يرتكز على أساس نظرية عقائدية « تصوفية » للوجود وللكون .

في موضوع الربا ، تجنب قطب الاستسلام للحيل القانونية التي حاول أن يقدمها

كل من محمد عبده ورشيد رضا لتبرير شرعية بعض فوائد البنوك[1] . فقد تمسك قطب برأي البنا : بأن المساهمة المالية في النشاط الإنتاجي مع المشاركة في الربح والخسارة ليست من أعمال الربا . وعلى ذلك فإن أي فائدة تنشأ عن المضاربة بالمال مهما كان معدًّاً لها تعتبر ربا[2] .

أيضا ميز قطب ــ على عكس صاحبي المنار ــ تماما بين القرض الربوي وبين القرض المالي للمشروعات الاقتصادية أو التجارية « جوميير ، ص 226 » . ومن هنا كان التركيز الشديد لكتاب الظلال على طبيعة « الربح الربوي » و « الروح الربوية » و « النظام الربوي » التي تميز النظام الرأسمالي على خلاف النظام الإسلامي في الزكاة .

بالرغم من تأثر قطب بتفكير المودودي ، فقد أكد على متطلبات العدالة الاجتماعية في الإسلام ، حيث إن كتاب الظلال قد صدر قبل اطلاع قطب على كتابات المودودي في هذا الموضوع . وحتى قبل « التحمس » لفكرة « الاشتراكية الإسلامية » عند الإخوان المسلمين في كل من مصر وسوريا خلال الخمسينيات . وخاصة عند الغزالي ، وعودة ، والسباعي . فالمودودي قد قلّل إلى حد كبير – على عكس هذه المجموعة – من محددات حق الزكاة في الملكيات الكبيرة ومن المقتضيات الاقتصادية للزكاة .

بالمقابل نجد أن كتاب الظلال توافق مع تفسير المنار في إقناع المنتجين والممولين المسلمين أن النظام الرأسمالي وبخاصة نظام البنوك الربوي في الدول الغربية غير الشيوعية ليس ضروريا أو حتميا لانطلاق نظام اقتصادي معاصر « الجزء الرابع من تفسير المنار ، ص 128 ؛ جوميير ص 229 » . ولكن قطبا اهتم كثيرا بالإشارة إلى أن النظام الإسلامي ، غير الربوي ، هو حالة « مثالية » ، لم تتحقق في الواقع حتى إصدار الكتاب .

---

(1) تفسير المنار ، الجزء الثالث ص 98-99 ، 106-117 ؛ الرابع ص 122-131 ؛ جوميير ص 222-224 .
(2) تفسير المنار ، الجزء الثالث ص 103 ؛ جوميير 224-225 .

وفي نفس اتجاه رشيد رضا ، لم يتصور قطب أن القانون المدني المصري قد استند إلى الشريعة « الآية 130 من سورة آل عمران » عند تحريم الفوائد عندما يتجاوز المبلغ الإجمالي أصل رأس المال[1] . ولكنه لم يقدر أن تكون السلطة القائمة هي حكومة إسلامية بالرغم من هذا العيب . كما فعل رشيد رضا .

إن قطبا لم ير في الآية 130 من سورة آل عمران تعريفا محددا للربا – وكان هنا أكثر دقة من رشيد رضا الذي كان رأيه غامضا – ولكن رأى فيها وصفا معاصرا لنتائج أو آثار التعامل الربوي في الجزيرة العربية .

واتفاقا مع محمد عبده ورشيد رضا ، ركز قطب على العمل الإنتاجي والتجاري كأفضل وسيلة للحصول على المال ، وذلك دون الدخول في تفاصيل « الأجر العادل » و « حقوق العمال » كما سبق وأن تناوله بالتفصيل في كتابه عن العدالة الاجتماعية في الإسلام .

من المؤكد أن تأثير فكر سيد قطب وتلاميذه أو زملائه ، في جميع أقطار العالم الإسلامي ، وفي البلاد العربية خاصة ، قد أثمر – بصورة لا تقبل الشك ــ نتائج باهرة في فترة السبعينيات وبصفة خاصة بعد تأسيس العديد من « البنوك الإسلامية » . إلى جانب انعقاد العديد من الندوات والمؤتمرات حول البحث عن نظام « اقتصادي » إسلامي .

وقد لعب الفيلسوف والاقتصادي الإسلامي الكبير محمد باقر الصدر – وهو شيعي من الجامعة الإسلامية بالنجف ــ دورا كبيرا جديرا بالاهتمام في ذلك ، عند إجابته على أسئلة المسئولين الكويتيين ــ من السنة والشيعة ــ حول موضوع « الاقتصاد الإسلامي » .

فعلى خلاف نظرة قطب « المثالية » ، مال باقر الصدر إلى تقديم عدة ركائز

---

(1) تفسير المنار ، الجزء الرابع ص 128-131 ؛ جوميير ص 230 .

أو أسس لإقامة نظام « اقتصادي إسلامي » في ظل الظروف العالمية المعاصرة ، التي يغلب عليها الطابع الربوي[1] . وبالرغم من طبيعته « البراجماتية » ، فإن ذلك لم يمنعه من أن يكون الملهم أو المرشد لحركة المقاومة الشيعية السياسية ضد نظام البعث في العراق ، والتي ظهرت تحت اسم « حزب الدعوة » . مما عرضه للاعتقال والاغتيال مع المئات من أعضاء هذا الحزب على أيدي قوات البوليس العراقي في أبريل عام 1980[2] .

ونجد في الوقت الحاضر أن بعض الجماعات الإسلامية تعلن منهج التكفير والهجرة في مواجهة كل نظام اجتماعي واقتصادي وسياسي « فاسد » يعمل تحت هيمنة القوى العظمى الرأسمالية في صورة الشركات المتعددة الجنسيات[3] .

إن فكر سيد قطب ، في المجال الاجتماعي والاقتصادي ، قد ظهرت نتائجه اليوم . فقطب من خلال جماعة الإخوان المسلمين قد ركز على ضرورة اللجوء إلى نظام الشورى لتحديد المتطلبات الضرورية لإقامة نظام اقتصادي إسلامي . كما ركز أيضا – على نفس مسار الأفغاني – على قرارات المسئول عن خزانة الدولة « بيت المال » .

أليس كل ذلك يتطلب أولا وجود « إمام » و « دولة إسلامية » تقوم على مبادئ الشريعة الإسلامية . إن قطبا يوجه نظرنا إلى ضرورة « الثورة السياسية » كمفتاح أو كوسيلة لكل « ثورة إسلامية » .

---

(1) محمد باقر الصدر : « البنك الربوي في الإسلام » ؛ « اقتصادنا » ؛ « فلسفتنا » . مقارنة بما ورد في المؤتمر الدولي للاقتصاد الإسلامي في مكة من 5-11 أبريل 1975 . وبخاصة البحث المقدم من محمد صديقي « الجامعة الإسلامية بولاية إنديانا الأمريكية » تحت عنوان « نظرة على الأدب المعاصر في الاقتصاد الإسلامي » .

(2) مجلة أحداث الشرق الأوسط . لندن ، عدد رقم 112 في 27 أكتوبر 1980 ، عدد 19 في 28 مارس 1981 ، حول « الثورة المسلحة » للمسلمين في العراق في 8 يونيو 1979 . وحول مقتل حوالي 2000 من المقاتلين في السجون أو حين الاعتقال . وحول « تصفية » محمد باقر الصدر في أبريل 1980 بصحبة مائتي شخصية إسلامية ، بعد أحداث الهجوم المسلح ضد طارق عزيز « رئيس الوزراء » في أول أبريل 1980 .

(3) تصريحات شكري مصطفى حول المقاطعة التامة والشاملة مع كل نظم المجتمع المصري : المدارس ، الجيش ، العائلة .... إلخ . كتاب أحمد يحيى كامل : مواجهة الفكر المتطرف في الإسلام . القاهرة ، 1980 ، ص 20 ، أيضا تسجيلات المحكمة العسكرية في قضية التكفير والهجرة ، القاهرة 1977 ، ص 1360-1546 .

الفصـــل الســادس
المجتمع الإسلامي وخصائصه الفريدة

المجتمع الإسلامي وخصائصه الفريدة

بعد عرضنا لضرورات النظام الاقتصادي في المجتمع الإسلامي ، نرى أنه من المنطقي أن نبحث عما يطرحه كتاب الظلال من علاقات متميزة – أي علاقات « إسلامية » – بين الجماعات داخل المجتمع ، وذلك في إطار علاقاتها بالثروة وبالسلطة السياسية .

فالجماعات ذات الخصائص « المعينة » ، والتي تكون المجتمع – من وجهات نظر مختلفة – مثل المرأة والأقليات المسيحية واليهود ، قد تم تناولها في الفصلين الثاني والثالث .

إذا جاز لنا أن نضع في اعتبارنا الأحكام المسبقة للتحليل الماركسي ، فإننا يجب أن نظل في إطار الأحكام المسبقة للتحليل « القطبي » . الذي يسميه البعض « تصور ديني – أخلاقي » أو « نظرة مثالية لتاريخ الإسلام » أو أنه « فكرة غامضة في إطار تصوفي » حيث يتأكد التكامل في تطبيق النصوص من خلال « الكلمات المقدسة » لإقامة نظام متناسق « للمملكة » القائمة على وجه الأرض .

يعرض كتاب الظلال ثلاثة معايير للتناسق الاجتماعي في الإسلام وهي : الانتماء إلى أمة الإيمان ، ودرجة الإيمان ، ودرجة التقوى في مواجهة الأشكال المتجددة للفتنة والضلال ... من خلال هذه المعايير الثلاثة تناول قطب قضية الرق والاسترقاق ، وقضية الانتماء العرقي ، والقبلي ، والقومي .

. إننا سنركز في هذا الفصل على الفكرة المحورية و « الراديكالية » عن السلطة السياسية . وفي هذه المناسبة نشير ـــ وسنكون قريبين كثيرًا إلى قطب مقارنة

بالتصورات الماركسية ـــ إلى أننا نرى أن « الاعتقاد » وتطبيق مبادىء هذا الاعتقاد يمكن أن تفسر ، بصورة كبيرة وكحقيقة أكيدة ، الأحداث الهامة ، والتغيرات البارزة ، والهياكل الأساسية للمجتمعات في جميع الحالات المتغيرة .

إن المدخل الهام إلى الموضوع – حسب مفردات ماكس فيبر – هو الفصل بين « الأخلاقيات الثابتة أو المتغيرة » و « أخلاقيات الاعتقاد » .

حول فكرة « الأمة » ، أفرادا وجماعات مؤمنة ، نعيش مع قطب في عالمي « الأخلاقيات الأصيلة » في المجتمع الإسلامي الأول حيث التقوى والورع والحماس ؛ و « أخلاقيات التقوى » والثقة في هذه الأمة التي تسعى إلى أن تنهض من جديد .

إننا لا نملك إمكانية الانتماء إلى عقيدة سيد قطب أو إلى أي عقيدة أخرى ، بل ما نستطيعه هو أن نسير على أسلوبنا الخاص متخذين جانب النقد والإعجاب . فنظرة قطب تمزج بين المجتمع والجماعة القومية ، طبقات وانتماءات جوهرية ، إنه جمع بين الاتجاهين العمودي والأفقي .

إننا لن نفاجأ هنا بشيء لم يسبق لنا التعرف عليه . إننا سنقابل نفس أفكار ابن خلدون التي استندت إلى كل من النص القرآني والتجربة الاجتماعية في الشرق الأوسط قديمها وحديثها .

المبحث الأول

نشأة « أمة الوسط » وأصولها

إن أمة الرسل واحدة تقوم على عقيدة واحدة وملة واحدة . والعقيدة جزء من بناء هذا الكون ، يسير على نواميسه الكبرى . فالعقيدة وثيقة الارتباط بتلك النواميس الكونية الكبرى . فهي واحدة كذلك وإن تعدد الرسل على مدار الزمان .

يضيف قطب إلى ذلك « الظلال 416 » أنه قد شاءت إرادة الله أن يجعل الرسالة والكتاب في غير أهل الكتاب ، بعدما خاسوا بعهدهم مع الله ؛ ونقضوا ذمة أبيهم إبراهيم . وعرفوا الحق ولبسوه بالباطل ، وتخلوا عن الأمانة التي ناطها الله بهم ، وتركوا أحكام كتابهم وشريعة دينهم ؛ وكرهوا أن يتحاكموا إلى كتاب الله بينهم . وخلت قيادة البشرية من منهج الله وكتابه ورجاله المؤمنين . عندئذ سلم القيادة ، وناط الأمانة ، بالأمة المسلمة . فضلا منه ومِنّة .

فالإسلام سعى إلى أن يبدل التقاليد الشائهة البدائية ، وينشىء مكانها تقاليد إنسانية راقية لا تعد – كما يؤكد قطب – مجرد وثبة أو نهضة . « إنما هي في حقيقتها نشأة أخرى ، وميلاد جديد وحقيقة أخرى لهذه الأمة غير حقيقتها الجاهلية » . ومن هنا كانت النقلة في قوانين الميراث لكل من الذكر والأنثى ، وإعطاء الطفل واليتيمة والمرأة حقوقهم بصفتهم الإنسانية .

إذن هناك تغيير اجتماعي شامل ـــ كما يعلن قطب ـــ كانت فيه العقيدة أداة التغيير في سلسلة التربية الربانية للجماعة الإسلامية . حيث بعثت من جديد الفطرة الإنسانية في طهارتها ونقائها . وحيث انتقل مجتمع الجاهلية إلى مجتمع جديد دون حدوث

انقلاب . « إنما مجرد انقلاب في التصور الذي انبثق منه الميلاد الجديد » .

لقد قضى الإسلام على ظاهرة إدمان الخمر العميقة المتغلغلة في المجتمع الجاهلي . لقد عالجها المنهج الرباني . هذا كله ببضع آيات من القرآن ، وعلى مراحل ، وفي رفق وتؤدة . وكسب المعركة . « لقد تمت المعجزة ، لأن المنهج الرباني ، أخذ النفس البشرية بطريقته الخاصة . أخذها بسلطان الله ، وخشيته ومراقبته ، وبحضور الله فيها حضورا لا تملك الغفلة عنه لحظة من زمان . وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة » « الظلال 664 - 667 » .

وحتى في بداية ظهور الإسلام في مكة ، فقد سلك القرآن شتى السبل ، واتبع شتى الأساليب . ليواجه شكوك القلب البشري وانحرافاته ويأخذ عليها المسالك . ويعالجها بكل أسلوب . فلقد سارع إلى الإسلام وسبق نفر من الفقراء والموالي في أول الأمر . فكان هذا مغمزا في نظر الكبراء المستكبرين . ولكن الإسلام اتخذ أسلوب الإقناع حتى يغير من عقلية مجتمع الجاهلية .

وهكذا كان ميلاد « الأمة الوسط » التي تشهد على الناس جميعا ، فتقيم بينهم العدل والقسط ، وتضع الموازين والقيم . فهي شهيدة على الناس ، وفي مقام الحكم العدل بينهم . وبينما هي تشهد على الناس هكذا ، فإن الرسول هو الذي يشهد عليها ، فيقرر لها موازينها وقيمها ، ويحكم على أعمالها وتقاليدها ويزن ما يصدر عنها ، ويقول فيه الكلمة الأخيرة « الظلال 130 » .

ويضيف قطب : إنها ﴿ **أمة وسطا** ﴾ في التفكير والشعور . لا تجمد على ما علمت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة . ولا تتبع كذلك كل ناعق ، وتقلد تقليد القردة المضحك . إنها تكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب وتزاوج بين هذه وتلك ، فلا تكل الناس إلى سوط السلطان ، ولا تكلهم كذلك إلى وحي الوجدان ، ولكن مزاج من هذا وذاك .

إنها ﴿ **أمة وسطا** ﴾ ... في الارتباطات والعلاقات . لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته ، ولا تلاشي شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة . إنها الأمة التي تتوسط أقطار الأرض بين مشرق ومغرب ، وجنوب وشمال .

إنها ﴿ **أمة وسطا** ﴾ ، في الزمان ، تنهي عهد الطفولة البشرية من قبلها ، وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها . وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها .

ولكن ... ماذا عن هذه الأمة في أيامنا الحاضرة ؟ يجيبنا قطب « الظلال 132 » : إن ما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذي وهبه الله لها ، أنها تخلت عن منهج الله الذي اختاره لها ، واتخذت لها مناهج مختلفة ليست هي التي اختارها الله لها . واصطبغت بصبغات شتى ، ليست صبغة الله واحدة منها ! إن أمة تلك وظيفتها ، وذلك دورها ، خليقة بأن تحتمل التبعة وتبذل التضحية ، فللقيادة تكاليفها ، وللقوامة تبعاتها ، ولابد أن تفتن قبل ذلك وتبتلى ، ليتأكد خلوصها لله وتجردها ، واستعدادها للطاعة المطلقة للقيادة .

وهكذا نقف أمام حقيقة من حقائق العقيدة وحقائق الحياة البشرية والكونية سواء . وأمام عامل من العوامل المؤثرة في تاريخ الإنسان ، تغفل عنه المذاهب الوضعية — كما يذكر قطب — وتغفله كل الإغفال . بل تنكره كل الإنكار ! إن العقيدة الإيمانية في الله ، وتقواه ، ليسا منعزلين عن واقع الحياة ، وعن خط تاريخ الإنسان . إن الإيمان بالله ، وتقواه ، ليؤهلان لفيض من بركات السماء والأرض .

من هنا ندرك – كما يقرر صاحب الظلال — لماذا يركز الإسلام على إعداد الجماعة المسلمة لحمل الأمانة الكبرى – أمانة العقيدة وأمانة الخلافة – في الأرض باسم العقيدة ، وما تقتضيه هذه الوظيفة من تكاليف في النفس والمال ، وفي الشعور والسلوك ، ومن بذل وتضحية .

مرة أخرى يقول قطب إن هذه الأمة المستخلفة في الأرض ، هي أمة الفطرة . حيث يحس الرجل المؤمن — بمنطق — بفطرته الصادقة الصافية بأن المخلوق يرجع إلى الخالق في النهاية . كما يرجع كل شيء إلى مصدره الأصيل .

لقد كان قطب يحب دائما أن يشير إلى الحد الذي وصلت إليه أمة الإسلام من صدق الفطرة ، وقوة التربية بما يمر بها من أحداث . فها نحن أولاء نرى في أصحاب محمد

المثل الكامل للنفس البشرية على الإطلاق . كما يوضح لنا كيف بلغت بهم التربية الإلـٰهية إلى المستوى السامق ، ذلك فيما بين معركتي أحد وتبوك . إننا نجد الفرق واضحا بين القوم يوم أحد ، والقوم يوم تبوك . كما نجد الفرق في المعاملة وفي مراحل التربية الإلـٰهية العجيبة . إن ذلك يعطي البشرية أملا كبيرا في الوصول إلى ذلك المرتقى السامي ، مهما تكن قابعة في السفح ، ولا يعزل هذه الجماعة الصاعدة ، فيجعلها وليدة معجزة خارقة لا تتكرر .

باختصار ــ كما يعلن الظلال ــ إن الإنتماء إلى هذه الأمة يعني الانتماء إلى المجتمع المتواد المتحاب المترابط المتضامن المتكافل المتناسق . هذا المجتمع الذي حققه الإسلام مرة في أرق وأصفى صورة . ثم ظل يحققه في صور شتى على توالي الحقب ، تختلف درجة صفائه ، ولكنه يظل في جملته خيرا من كل مجتمع آخر صاغته الجاهلية في الماضي والحاضر ، وكل مجتمع لوثته هذه الجاهلية بتصوراتها ونظمها الأرضية !

المبحث الثاني

العــرب

يقول قطب في ذلك « الظلال 685 ، 3563 » : إن القرآن ـــ وهو ينشئ هذه الأمة وينشّئها ـــ وهو يخرّجها إلى الوجود إخراجا ، كان في ذلك « نشأة » و « ميلاد » للأمة العربية . لقد كان ذلك فضلا من الله في أن جعل كلمته الأخيرة لأهل الأرض قاطبة في العرب وبلسانهم . ومن ثم جعل لهم وجودا وذكرا وتاريخا وحضارة . وإلا فلنا أن نتساءل أين كانت هذه الأمة في الوجود الإنساني ؟ وأين كانت في سجل الحضارة البشرية ؟

فبسبب من هذا الكتاب ذكرت هذه الأمة في الأرض ، وكان لها دورها في التاريخ ، وكان لها « وجود إنساني » ابتداء ، وحضارة عالمية ثانيا .

لقد كان العرب في تلك الفترة يدركون أن الإسلام – والإسلام وحده – هو الذي نقلهم من طور القبيلة ، لا ليكونوا أمة فحسب . ولكن ليكونوا – على حين فجأة ومن غير تمهيد يتدخل فيه الزمن ـــ أمة تقود البشرية . كما كانوا يدركون أن الإسلام هو الذي منحهم وجودهم القومي ، ووجودهم السياسي والدولي . وقبل كل شيء وأهم من كل شيء وجودهم الإنساني .

ويستطرد قطب « الظلال 110-115 ، 3542 » إن ذلك كله لا يمنع أن هؤلاء العرب يرجعون بأصلهم القرشي إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل . فكان لهم سلطانهم الديني والقوامة على البيت الحرام . إنهم أنفسهم الذين وعد الله أباهم إبراهيم بأن يجعل منهم « أمة مسلمة » . وتكون لها القيادة على البشرية . إنهم أيضا أهل مكة

الذين فضل الله أن يجعل القبلة في أرضهم حيث يتجه إليها جميع المسلمين .

إذن هؤلاء هم العرب الذين يملكون رسالة الإسلام . وهم فيها أصلاء ، وغيرهم من الشعوب هم شركاء . فإذا كان كل شعب من الشعوب يتميز بأن لديه الآداب والفنون والعلوم أو لديه التفوق الصناعي ، أو الفلسفة المذهبية أو المناهج الاقتصادية ، فإن العرب لديهم هذه الرسالة الكبيرة . لديهم هذا المنهج الفريد . لديهم منَّة الله التي اختارهم لها .

ويؤكد الظلال أنه قد كان اختيار اللسان العربي لحمل الرسالة فضلا تاريخيا كبيرا . فقد كانت اللغة العربية بلغت نضجها ، وأصبحت صالحة لحمل هذه الدعوة والسير بها في أقطار الأرض . كما كانت هذه اللغة أصلح ما تكون لهذا الحدث الكوني العظيم . إن العقيدة الإسلامية هي التي رفعت العرب إلى مكان القيادة ، فإذا تخلوا عنها لم تعد لهم في الأرض وظيفة ، ولم يعد لهم في التاريخ دور . وهذا ما يجب أن يذكره العرب جيدا إذا هم أرادوا الحياة ، وأرادوا القوة ، وأرادو القيادة « الظلال 3144 ، 3981 » .

المبحث الثالث

الفتنة – الهجرة

تلعب فكرة « الفتنة » أو « الاضطهاد » دورا هاما في كتاب الظلال . فيشير « 3514 » إلى أن الأمة الإسلامية بأصولها التاريخية وما تحمله من رسالة كونية أخيرة ، تتعرض اليوم لحرب هائلة ، يشنها أعداء الإيمان على أهل الإيمان في صور متنوعة ، من بطش ومن ضغط ومن كيد بكل صنوف الكيد في عهود متطاولة ، بلغ في بعضها من عنف الحملة على المؤمنين أن قتلوا وشردوا وعذبوا وقطعت أرزاقهم وسلطت عليهم جميع أنواع النكاية . ولكن بقي الإيمان في قلوب المؤمنين تحقيقا لعهد الله الصادق .

ويعرّف قطب الفتنة « الظلال 3589 » : إن الفتنة هي التفاخر والزهو بالأزواج والأولاد والأموال . والفتنة أيضا قد تكون « فتنة النفس » ، وهي نزغة داخلية للارتداد ، و « فتنة الناس » وهي الاضطهاد الخارجي لدفع الإنسان إلى الارتداد والانشقاق .

ويجب أن نشير هنا إلى أن الفتنة في الدين قد ظهرت منذ بداية التاريخ ومنذ نزول الأديان وظهور الأنبياء . ففي زمن كل نبي أو رسول كان هناك الانشقاق والاقتتال بين الأتباع بعد الرسل بعد ما كفر منهم من كفر وآمن منهم من آمن . وكذلك بالنسبة للإسلام – كما يذكر قطب – حيث تمضي الأمة المسلمة في طريقها ، تواجه بني إسرائيل وغيرهم وفق ما يقتضيه الموقف الواقعي بين أتباع الرسل : المستقيمين على الهدى والمنحرفين عن الطريق . ولذلك كان إرسال الرسل والأنبياء عبر التاريخ لهداية الناس وإعادتهم إلى طريق الحق .

إنهم أعداء الإسلام يسعون إلى فتنة المسلمين الصادقين بردهم عن دينهم وما جاءهم به من مبادئ ونظم اجتماعية : إن فتنة المسلمين عن دينهم ، هي الهدف الثابت المستقر لأعدائهم . وهو الهدف الذي لا يتغير لأعداء الجماعة المسلمة في كل أرض وفي كل جيل . ولكن هذا هو القرآن . يوقف المسلمين على أرض صلبة ، لا تتأرجح فيها أقدامهم « الظلال 227 » .

ويؤكد قطب « الظلال 535 » أن اليهود كانوا من أوائل أعداء الإسلام الذين بدءوا الكيد والدس والفتنة للجماعة المسلمة . إن ذلك يرجع إلى سوء الأدب مع الله ومع أنبيائهم . ومازلنا إلى الآن نجد أن أعداء الإسلام من مشركين وملحدين وأهل كتاب – الصهيونية العالمية والصليبية العالمية والشيوعية – يعملون ضد كل محاولة لإعادة نشأة الإسلام ، ولاستئناف الحياة الإسلامية في ظل شريعة الله .

ويستطرد صاحب الظلال « 372 » : ولكن يجب أن ندرك في النهاية أن وعد الله بهزيمة الذين يكفرون ويكذبون وينحرفون عن منهج الله ، قائم في كل لحظة . ووعد الله بنصر الفئة المؤمنة قائم كذلك في كل لحظة . وليس على الفئة المؤمنة إلا أن تطمئن إلى هذه الحقيقة ، وتثق في ذلك الوعد ، وتصبر حتى يأذن الله .

كذلك يجب على المسلمين أن يحذروا من اتباع أهل الكتاب وإلا فسيقودونهم إلى الكفر لا مناص . وعليهم أن يعلموا أن النظام الاجتماعي في المجتمع يجب أن يقوم على مبادئ الشريعة الإسلامية . ولكن لا ضرر من الاستفادة والانتفاع بكل إبداع علمي وتكنولوجي قد تحققه البشرية .

ويؤكد قطب أننا نجد اليوم أن الفتنة قد اشتد أوارها . فالذين يزعمون بأنهم مسلمون يتلقون فلسفتهم ونظامهم في الحياة من أهل الكتاب . فأهل الكتاب ليسوا على شيء من دين الله . وقد شهدوا على أنفسهم بالكفر بظاهر عقائدهم وشعائرهم . ولذا يجب على المسلمين أن يتأكدوا أن وجه الجاهلية مكشوف صريح فيما يختص بالمشركين ، وليس الحال كذلك فيما يختص بأهل الكتاب (ومن يزعمون أنهم على شيء من دين الله من أمثالهم كالشأن في الغالبية العظمى ممن يدعون أنفسهم اليوم

« مسلمين ») . وهنا يذكر قطب « الظلال 1646 » التقريرات القرآنية الحاسمة ــ في السور المكية والمدنية على السواء ــ عن حقيقة ما انتهى إليه أمر أهل الكتاب من الشرك والكفر .

فالمسلمون اليوم يقفون من الإسلام كما وقف منه العرب أول الأمر . لا يدركون طبيعته وارتباطها بطبيعة الوجود ، ولا يتدبرون الحق الكامن فيه ليعلموا أنه طرف من الحق الكامن في بناء الوجود . ولا يستعرضون آثاره في تاريخ البشرية وفي خط سيرها الطويل استعراضا واقعيا « الظلال 3026 » .

ليس هناك ولاء ولا وسطية خارج نطاق الأمة . وكما يقول قطب « 1208 » فإننا لنشهد في هذه الفترة – ومند قرون كثيرة – تجمعا ضخما لشياطين الإنس من الصليبيين والصهيونيين والوثنين والشيوعيين – على اختلاف هذه المعسكرات فيما بينها – ولكنه تجمع موجه إلى الإسلام ، وإلى سحق طلائع حركات البعث الإسلامي في الأرض كلها . إنه تجمع شيطاني رهيب .

ولذلك فإن الأمة المسلمة اليوم ــ بين شتى التصورات الجاهلية التي تعج بها الأرض جميعا وبين شتى الأهداف واهتمامات ورايات الجاهلية ــ الأمة المسلمة اليوم في حاجة إلى التميز بشخصية خاصة وتصور خاص للوجود والحياة وبراية خاصة تحمل اسم الله وحده .

لهذا كله يتشدد قطب عندما يعلن « الظلال 190 » أنه ما يزال الأذى والفتنة يلمان بالمؤمنين أفرادا وجماعات وشعوبا كاملة في بعض الأحيان . وكل من يتعرض للفتنة في دينه والأذى في عقيدته في أية صورة من الصور ، وفي أي شكل من الأشكال ، مفروض عليه أن يقاتل وأن يقتل . وأن يحقق مبدأ الإسلام في القتال والجهاد .

إن إيذاء المسلمين الأوائل وفتنتهم عن دينهم لم تكن تصدر من هيئة مسيطرة على الجماعة . ومن ثم كان الذين يتولون إيذاء الفرد المسلم هم خاصة أهله إذا كان ذا نسب ، والمنافقين الذين اندسوا في صفوف الجماعة المسلمة . وهنا يعرض قطب

لبعض أنواع الفتنة التي نراها في هذه الأيام « الظلال 2720 » : فتنة أن يجد المؤمن أمما ودولا غارقة في الرذيلة ، وهي مع ذلك راقية في مجتمعها ، متحضرة في حياتها ، يجد الفرد فيها من الرعاية والحماية ما يناسب قيمة الإنسان . ولكن ذلك ابتلاء عظيم من الله لتمحيص الصف المسلم وإعداده للدور الكوني العظيم . وإذا قال أحد المسلمين لماذا نغلب في الأرض ونحن مسلمون ؟ فلينظر قبل أن يقولها : ما هو الإسلام ، ومن هم المسلمون ؟ ثم يقول « الظلال 450 » .

ويعود قطب ويقرر لنا أن هنالك الفتنة الكبرى . أكبر من هذا كله وأعنف . فتنة النفس والشهوة وجاذبية الأرض ، وثقلة اللحم والدم ، والرغبة في المتاع والسلطان ، أو في الدعة والاطمئنان . وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتقاه .

إذن لابد من التجرد من المطامع والوشائج واللذائذ . هذا التجرد لا يطالب به الفرد وحده ، إنما تطالب به الجماعة المسلمة ، والدولة المسلمة . فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة يرتفع على مقتضيات العقيدة في الله ومقتضيات الجهاد في سبيل الله . فالله قد أودع فطرتهم طاقة عالية من التجرد والاحتمال .

فالذين اتصلت قلوبهم بالقوة الكبرى هؤلاء لا يفتنون بالقوة العارضة التي تخول لهم في الأرض . كما لا يفتنون بالأموال والأولاد . والله قد أودع في فطرة المؤمن الشعور بلذة علوية لذلك التجرد لا تعدلها لذائذ الأرض كلها . لذة الشعور بالاتصال بالله ، ولذة الرجاء في رضوان الله ، ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط . والخلاص من ثقلة اللحم والدم ، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضيء « الظلال 1616 » .

المبحث الرابع

المجتمع الإسلامي في مكة والمدينة

تعتبر تجربة الجماعة المسلمة الأولى في مكة إحدى الأفكار الهامة في منهج كتاب الظلال . وكما قدر قطب أن سورة الأنعام قد نزلت بجملتها في مكة في ليلة واحدة ، وذلك بالرغم من القول بأن الآيات 91-92 ، 141 ، 151-153 مدنية ، فإنه في عرضه للمقدمة الطويلة لتفسير هذه السورة يقدم لنا « الدروس التي يمكن أن نستخلصها من القرآن المكي لواقعنا المعاصر » « الظلال 1004 – 1021 » .

فيذكر أنه قد شاءت حكمة الله أن تكون قضية العقيدة هي القضية التي تتصدى الدعوة لها منذ اليوم الأول للرسالة . وأن يبدأ رسول الله أولى خطواته في الدعوة بدعوة الناس أن يشهدوا أن لا إله إلا الله . وحيث إن العرب كانوا يعرفون أن توحيد الإلوهية وإفراد الله بها ، معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والأمراء والحكام ، ورده كله إلى الله . وحيث إنهم كانوا يعلمون أن « لا إله إلا الله » ثورة على السلطان الأرضي ، الذي يغتصب أولى خصائص الألوهية . وثورة على الأوضاع التي تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب . وحيث إنهم كانوا يعرفون المدلول الحقيقي لدعوة « لا إله إلا الله » وما تعنيه بالنسبة لأوضاعهم ورياستهم وسلطانهم . فإنهم من ثم استقبلوا هذه الدعوة – أو هذه الثورة – ذلك الاستقبال العنيف . وحاربوها تلك الحرب التي يعرفها الخاص والعام .

لقد كان في استطاعة الرسول أن يثيرها قومية عربية تستهدف تجميع قبائل العرب ، التي أكلتها الثارات ، وفرقتها النزعات ، وتوجيهها وجهة قومية لاستخلاص أرضها

المغتصبة من الإمبراطوريات المستعمرة وإعلاء راية العروبة والعربية ، وإنشاء وحدة قوية في كل أرجاء الجزيرة .

ولو دعا يومها الرسول هذه الدعوة لاستجابت له العرب قاطبة بدلا من أن يعاني ثلاثة عشر عاما في اتجاه معارض لأهواء أصحاب السلطان في الجزيرة . وربما قيل إن محمدا كان خليقا ، بعد أن يستجيب له العرب هذه الاستجابة ، وبعد أن يولوه فيهم القيادة والسيادة أن يستخدم هذا كله في إقرار عقيدة التوحيد التي بعثه بها ربه .

ولكن الله لم يشأ أن يوجه رسوله هذا التوجيه . لأنه يعلم أن ليس الطريق أن تخلص الأرض من يد طاغوت روماني أو طاغوت فارسي . إلى يد طاغوت عربي . فالطاغوت كله طاغوت ! فمشيئة الله كانت أن ترتفع راية « لا إله إلا الله » . وألا يكون لأحد سلطان على أحد . لأن السلطان كله لله . ولأن الجنسية التي يريدها الإسلام للناس هي جنسية العقيدة . التي يتساوى فيها سائر الأجناس والألوان تحت راية الله .

أيضا ... كان في استطاعة الرسول أن يرفعها راية اجتماعية ، وأن يثيرها حربا على طبقة الأشراف . وأن يطلقها دعوة تستهدف تعديل الأوضاع ورد أموال الأغنياء على الفقراء !

ولو دعا الرسول يومها هذه الدعوة لانقسم المجتمع العربي صفين : الكثرة الغالبة فيه مع الدعوة الجديدة ، بدلا من أن يقف المجتمع كله صفا في وجه « لا إله إلا الله » .

ولكن الله كان يعلم أن هذا ليس هو الطريق . كان يعلم أن العدالة الاجتماعية لابد أن تنبثق في المجتمع من تصور اعتقادي شامل ، يرد الأمر كله لله ، ويقبل عن رضا وعن طواعية ما يقضي به الله من عدالة في التوزيع ، ومن تكافل بين الجميع ، ويستقر معه في قلب الآخذ والمأخوذ منه أن ينفذ نظاما يرضاه الله ، ويرجو على الطاعة فيه الخير والحسنى في الدنيا والآخرة سواء . فلا تمتلئ قلوب بالطمع ،

ولا تمتلئ قلوب بالحقد ، ولا تسير الأمور كلها بالسيف والعصا ، وبالتخويف والإرهاب ! ولا تفسد القلوب كلها وتختنق الأرواح .

كذلك ... كان في استطاعة محمد أن يعلنها دعوة إصلاحية تتناول تقويم الأخلاق ، وتطهير المجتمع ، وتزكية النفوس ، وتعديل القيم والموازين ، وقد وجد وقتها نفوسا طيبة ، يؤذيها الدنس ، وتأخذها الأريحية والنخوة لتلبية دعوة الإصلاح والتطهير .

ولكن الله كان يعلم أن الأخلاق لا تقوم إلا على أساس من عقيدة ، تضع الموازين ، وتقرر القيم ، وتقرر السلطة التي ترتكن عليها هذه الموازين والقيم ، كما تقرر الجزاء الذي تملكه هذه السلطة وتوقعه على الملتزمين والمخالفين .

فما كان هذا المنهج المبارك ليخلص لله لو أن الدعوة بدأت خطواتها الأولى دعوة قومية ، أو دعوة اجتماعية ، أو دعوة أخلاقية . أو رفعت أي شعار إلى جانب شعارها الواحد « لا إله إلا الله » .

ويعود قطب ليؤكد « 1126 » أنها كانت جولة لتقرير المفاصلة . فقوم النبي هم الذين كذبوا بما جاءهم به – وهو الحق – ومن ثم انفصل ما بينه وبين قومه وانبتّ . وأمر أن يفاصلهم فيعلن إليهم أنه ليس عليهم بوكيل . وأن يذكرهم ويبلغهم وينذرهم . ولكن على أنه وإياهم – وهم قومه – فريقان مختلفان ، وأمتان متمايزتان . فلا قوم ولا جنس ولا عشيرة ولا أهل في الإسلام ، إنما هو الدين الذي يربط ما بين الناس أو يفصم . وإنما هي العقيدة التي تجمع بين الناس أو تفرق .

فكان الأمر للجماعة المسلمة في مكة أن تتمايز وتنفصل عن قومها على العقيدة وعلى منهج الحياة ؛ وذلك دفعا لوقوع المعركة في كل بيت بين الفرد المسلم من هذا البيت والذين لم يسلموا بعد . والمسالمة كانت أقرب إلى الأمن في القلوب من المخاشنة .

فأما بعد أن قامت للإسلام دولة في المدينة ، فكان الجهاد والقتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . حيث لا يجترئ أحد على الخوض في آيات الله !

ويركز قطب « 1127 - 1129 » على أن الآيات 66-70 من سورة الأنعام وسياقها

يكرر المفاصلة . حيث إن الرسول – وينسحب الأمر على كل مسلم – مأمور أن يهمل شأن الذين يتخذون دينهم لعبا ولهوا . وهذا يتم بالقول كما يتم بالفعل . فالذي لا يجعل لدينه وقاره واحترامه باتخاذه قاعدة حياته اعتقادا وعبادة ، وخلقا وسلوكا ، وشريعة وقانونا ، إنما يتخذ دينه لعبا ولهوا .

فالذين يتحدثون عن « الغيب » – وهو أصل من أصول العقيدة – حديث الاستهزاء . والذين يتحدثون عن « الزكاة » – وهي ركن من أركان الدين – حديث الاستصغار . والذين يتحدثون عن الحياء والخلق والعفة – وهي من مبادئ الدين – بوصفها من أخلاق المجتمعات الزراعية ، أو الإقطاعية ، أو « البرجوازية » ! والذين يتحدثون عن قواعد الحياة الزوجية المقررة في الإسلام حديث إنكار أو استنكار . والذين يصفون الضمانات التي جعلها الله للمرأة لتحفظ عفتها بأنها « أغلال » ! وقبل كل شيء وبعد كل شيء . الذين ينكرون حاكمية الله المطلقة في حياة الناس الواقعية . ويقولون ! إن للبشر أن يزاولوا هذا الاختصاص دون التقيد بشريعة الله . أولئك جميعا من المعنيين في الآيات بأنهم يتخذون دينهم لعبا ولهوا .

إن المسلم مأمور بمفاصلتهم ومقاطعتهم إلا للذكرى . إن كل مسلم مأمور بإهمال شأن هؤلاء . أن يقوم بتذكيرهم وتخويفهم من أن ترتهن نفوسهم بما كسبوا . وينطبق النص على من دخل في الإسلام وعلى من كان من المشركين .

إن المخالطة بقصد المواعظة والتذكير وتصحيح الفاسد والمنحرف من آراء الفاسقين يبيحها النص القرآني في الحدود التي ظهرت لنا . أما مخالطة الفاسقين والسكوت عما يبدونه من فاسد القول والفعل من باب « التقية » فهو محظور . وذلك لأن هذا في صاحب البدعة وهو على دين الله . وكله لا يبلغ مدى من يدعي خصائص الألوهية بمزاولته للحاكمية ، ومن يقره على هذا الادعاء . فليس هذا بدع مبتدع . ولكنه كفر كافر ، أو شرك مشرك .

معنى آخر من المعاني التي تميز الجماعة المسلمة ألا وهو « الهجرة » . فكما يعلن قطب في كتابه « 744-745 » : فالهجرة فرض على كل مسلم . ويمضي هذا الحكم

إلى آخر الزمان ، متجاوزا تلك الحالة الخاصة التي واجهها النص في سورة النساء « الآيات 95-104 » في تاريخ معين . وفي بيئة معينة . يمضي حكما عاما ، يلحق كل مسلم تناله الفتنة في دينه في أية أرض ، وتمسكه أمواله ومصالحه ، أو قراباته وصداقاته ، أو إشفاقه من آلام الهجرة ومتاعبها . متى كان هناك – في الأرض في أي مكان – دار للإسلام يأمن فيها على دينه ، ويجهر فيها بعقيدته ، ويؤدي فيها عباداته ، ويحيا حياة إسلامية في ظل شريعة الله .

من ناحية أخرى ، يشير كتاب الظلال إلى أن الناس اليوم لا يفترقون في تصورهم ولا في إنكارهم لدعوة الأمانة والعدالة في المعاملات عن قوم شعيب . فالعقيدة لا تقوم إلا بتنفيذ شرائع الله في التجارة وفي تداول الأموال وفي كل شأن من شئون الحياة والتعامل .

وهنا يتساءل قطب من الذين يتساءلون : وما للإسلام وسلوكنا الشخصي ؟ وما للإسلام والعري في الشواطئ ؟ وما للإسلام وزي المرأة في الطريق ؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل ؟ ما للإسلام وتناول كأس من الخمر لإصلاح المزاج ؟ ما للإسلام وهذا الذي يفعله « المتحضرون » ؟!

ويتساءل هو بدوره : فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين ؟ .. إنه لا تستقيم عقيدة توحيد الله في القلب ، ثم تترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض « الظلال 1917-1920 ، سور هود ، الآيات 84-95 » .

إذن لابد من عقاب الخارجين على سلطان شريعة الله . فيجب قطعهم أو نفيهم « الظلال 880 ، المائدة الآية 33 » حيث يأخذ قطب برأي الإمام مالك الذي ورد في كتاب عبد القادر عودة فيقول : فنحن نختار رأي الإمام مالك . وهو أن العقوبة التي توقع على مجرد الخروج وإخافة السبيل . لأن هذا إجراء وقائي المقصود منه أولا منع وقوع الجريمة ، والتغليظ على المفسدين في الأرض الذين يرعون دار الإسلام ، ويفزعون الجماعة المسلمة القائمة على شريعة الله في هذه الدار .

فالأمة الإسلامية في نظر قطب هي هؤلاء الذين تجمعهم عقيدة واحدة . إن الأمة

ليست مجموعة من أجيال متتابعة من جنس معين . إنما هي مجموعة من المؤمنين مهما اختلفت أجناسهم وأوطانهم وألوانهم .

وعرض قطب « الظلال 2013 » لقصة يوسف حيث تمثل حالة أخرى يمكن أن نتعلم منها . فيوسف لم يكن يعيش في مجتمع مسلم تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس وطلب الإمارة على أساس هذه التزكية . كما أنه كان يرى أن الظروف تمكن له من أن يكون حاكما مطاعا لا خادما في وضع جاهلي . وكان الأمر كما توقع فتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه ونشره في مصر أيام حكمه .

إذن الداعية – كما يرى الظلال – لابد من تميزه وشعوره بالانعزال التام عن الجاهلية : تصورا ومنهجا وعملا . الانعزال الذي لا يسمح بالالتقاء في منتصف الطريق . ذلك أن العالم الذي يريده الإسلام هو عالم رباني خالص في ضمير المسلم . عالم محوره الإيمان بالله وحده ، يشد المسلمين إلى هذا المحور وحده ، بعروة واحدة لا انفصام لها . ويبرئ نفوسهم من كل عصبية أخرى . عصبية للقوم أو للجنس أو للأرض أو للعشيرة أو للقرابة . ليجعل مكانها جميعا عقدة واحدة . هي عقدة الإيمان بالله .

وبهذه الأمثلة التي ضربها الله للأمة المسلمة من سيرة الرهط الكريم من الأنبياء والمؤمنين ، وضحت معالم الطريق لهذه الأمة . وهكذا تقررت العقيدة كقاعدة أصيلة حاسمة في علاقات المجتمع الإسلامي ، وفي طبيعة بنائه وتكوينه العضوي الذي تتميز به عن سائر المجتمعات الجاهلية قديما وحديثا إلى آخر الزمان . ولقد تنبه أخيرا جوليان هاكسلي – من علماء الداروينية الحديثة – إلى أن العقيدة خاصية من خواص الإنسان ، تفرقه فرقا أساسيا عن الحيوان « الظلال 1887 » .

ولذلك فقد قسم الإسلام الناس إلى أمتين اثنتين على مدار التاريخ البشري : أمة المسلمين من أتباع الرسل ، وأمة غير المسلمين من عبدة الطواغيت والأصنام في شتى الصور والأشكال على مدار القرون .

من ناحية أخرى ، عندما تحدث القرآن عن الأهلّة ، فإنه كان بصدد إنشاء تصور

خاص ، ونظام خاص ومجتمع خاص ، كان بصدد إنشاء أمة جديدة في الأرض ، « ذات دور خاص في قيادة البشرية » . فكان لهذه الأمة قبلتها الخاصة . بعد أن سبق وأن تقرر وراثة الأمة المسلمة لإمامة إبراهيم ووراثتها للبيت الحرام سواء . فلقد دعا إبراهيم وإسماعيل أن يكونا مسلمين لله ، وأن يجعل الله من ذريتهما أمة مسلمة . وأن يبعث في أهل بيته رسولا منهم . فأرسل الله من أهل البيت محمد بن عبد الله . وقد نزلت الآيات لتواجه الذين ينازعون الأمة المسلمة الإمامة وينازعون الرسول النبوة والرسالة « الظلال 115 – 116 ، البقرة ، الآيات 124-141 » .

لقد احتملت هذه الأمة أمانة العقيدة . فقدّر الله أن تنمو هذه البذرة وتمتد . بعدما نكل بنو إسرائيل عن حمل هذه الأمانة وانقطعت صلتهم بأمانة السماء وأصبحوا يحملون التوراة كالحمار يحمل أسفارا ، ولا وظيفة له في إدراكها ، ولا مشاركة له في أمرها « 3563 » .

ويعود قطب ليؤكد « 795 » أن الجماعة المسلمة قد تفوقت في أخلاقها الفردية والاجتماعية ، بقدر تفوقها في تصورها الاعتقادي ، على سائر أهل الأرض . وحينما تفوقت في هذه الخصائص تفوقت على كل أهل الأرض ، فكانت قيادتها للبشرية أمرا طبيعيا وفطريا ، وقائما على أسسه الصحيحة . ومن هذا الوضع الممتاز تفوقت كذلك في العلم والحضارة والاقتصاد والسياسة . وكان هذا التفوق الأخير ثمرة للتفوق الأول في المستوى الاعتقادي والأخلاقي .

فالإسلام لا يريد من المؤمنين أن يدعوا أمر الدنيا . فهم خلقوا للخلافة في هذه الدنيا . ولكنه يريد منهم أن يتجهوا إلى الله في أمرها . وألا يضيقوا من آفاقهم ، فيجعلوا من الدنيا سورا يحصرهم فيها .

باختصار — كما يعلن قطب « 3331 » – الإسلام مايزال دين الحق ظاهرا على الدين كله ، من حيث هو دين . حتى بعد انحساره السياسي عن جزء كبير من الأرض التي فتحها وانحسار قوة أهله في الأرض . فهو الدين القوي بذاته ، القوي بطبيعته ، الزاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله ! لما في طبيعته من استقامة مع الفطرة

ومع نواميس الوجود الأصيلة ، ولما فيه من تلبية بسيطة عميقة لحاجات العقل والروح ، وحاجات التقدم والعمران ، وحاجات البيئات المتنوعة ، من ساكني الأكواخ إلى سكان ناطحات السحاب .

إن للعقل البشري وزنه وقيمته بوصفه أداة من أدوات المعرفة والهداية في الإنسان . ولكن هذا العقل البشري هو عقل الأفراد والجماعات في بيئة من البيئات ، متأثر بشتى المؤثرات . وكما ورد في الظلال « 690 » ليس هناك ما يسمى « العقل البشري » كمدلول مطلق . إذا لابد من ميزان ثابت ، ترجع إليه هذه العقول الكثيرة . والله يضع هذا الميزان للبشر لسائر القيم والأحكام ولسائر أوجه النشاط في كل حقل من حقول الحياة .

هذا الميزان في رأي قطب هو قاعدة تبدأ وتنتهي عند التلقي من الله . إنها « الحاكمية » . « فالحاكمية » لله وحده في حياة البشر – ما جلّ منها وما دق ، وما كبر منها وما صغر – والله قد سن شريعة أودعها قرآنه . وأرسل بها رسولاً يبينها للناس . فسنة الرسول ومن ثم شريعته من شريعة الله . وهذه الشريعة واجبة التنفيذ .

ويذهب قطب « 825 » إلى أن يؤكد أن القرآن قد نزل على قلب الرسول لينشئ به أمة ، وليقيم به دولة ، ولينظم به مجتمعا . هذه الأمة وهذه الدولة وهذا المجتمع كان لهم وجود مؤثر وسلطان على الأرض ، عرفه المسلمون أيام أن كانوا « مسلمين » . حيث إن المنهج الذي يهيمن على نشاط الحياة كلها ، يسمح للحياة بأن تنمو في إطاره وترتقي وتتطور ، دون خروج على أصل فيه ولا فرع ؛ لأنه لهذا جاء .

ويعود « 2190 » ليعلن مجددا أن القرآن عندما جاء لينشئ أمة وينظم مجتمعا ، جاء « بالعدل » الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل ، وجاء « بالإحسان » بمدلوله الواسع الشامل ، كما جاء بالأمر بالوفاء بالعهود .

إذن يجب على المسلمين – كما يقول قطب – أن يستفيدوا من تجربة الجماعة

المسلمة في المدينة . فهي حقيقة نافعة في الطريق إلى استئناف حياة إسلامية . « فهذه الحقيقة أو هذا المنهج هو الذي يعبر حقا عن الإسلام . كما أن الواقع التاريخي للمسلمين ليس هو تاريخ الإسلام » .

« فلقد عاش المسلمون الذين تلقوا هذا القرآن أول مرة ، عاشوا وعد الله الواقع ، كما عاشوا مشاهد الابتلاء فعلا وواقعا . فلم تكن في نفوسهم وعدا أو وعيدا يتلقونهما من مستقبل بعيد » « 3046 » .

في النهاية يدعو قطب « 1905 » أصحاب الدعوة إلى الله في كل مكان وفي كل زمان إلى أن يقفوا طويلا أمام هذا المشهد « الباهر » ... رجل واحد ، لم يؤمن معه إلا قليل ، يواجه أعتى أهل الأرض وأغنى أهل الأرض وأكثر أهل الأرض حضارة مادية في زمانهم . لقد وقف أصحاب الدعوة من قومهم موقف المفاصلة الكاملة ؛ فإذا القوم الواحد أمتان مختلفتان . أمة تدين لله وحده وترفض الدينونة لسواه . وأمة تتخذ من دون الله أربابا ، وتحاد الله ! ويوم تمت هذه المفاصلة تحقق وعد الله بالنصر لأوليائه ، والتدمير لأعدائه .

المبحث الخامس

الولاء أو الولاية

كلنا ندري أن المجتمع الإسلامي قد قام على بناء أصلي وجوهري يميز هذا المجتمع دون غيره من المجتمعات . وقد حدد قطب هذا في فكرة « الولاء » ... هذا الولاء تتشبع به التقاليد القبلية العربية أو الشرق أوسطية .

هذا الولاء لا يكون – كما يرشدنا قطب « الظلال 1055 » – إلا لله . فالمسلم يتخذ منه وحده وليًّا . بكل معاني كلمة الولي . ومن هنا كان الأمر بالمفاصلة بين المسلمين والمشركين دون ملاينة أو مهادنة . فالولاية لله تعني اتخاذه وحده ربا ومولى ومعبودا . يدين له العبد بالعبودية ممثلة في الخضوع لحاكميته وحده ، ويدين له بالعبادة ، فيقدم له وحده شعائرها . فإخلاص الولاء لله – بهذه المعاني كلها – هو الإسلام ، والبشرية اليوم في مثل الموقف الذي قابلته الجماعة المسلمة الأولى . لذا لابد من المفاصلة مع الجاهلية على الحق عند مفترق الطرق .

إن دين الله واحد ، جاءت به الرسل جميعا ، وتعاقدت عليه الرسل جميعا . وعهد الله واحد أخذه على كل رسول . ودين الله قد خلص من العصبية الذاتية . عصبية الرسول الشخصية . وعصبيته لقومه . وعصبية أتباعه لنحلتهم . وعصبيتهم لأنفسهم . وعصبيتهم لقوميتهم . ويخلص الأمر كله لله في هذا الدين الواحد . إذن فالإسلام – الذي يتحقق في إقامة منهج الله في الأرض واتباعه والخلوص له – هو ناموس هذا الوجود . وهو دين كل حي في هذا الوجود « الظلال 421 » .

ولذلك فإن قطبًا يعلن أن عقيدة الإسلام هي الهدى . ومن ذلك يظهر الفارق

الحاسم بين تلك الأمة التي خلت ، والجيل الذي تواجهه الدعوة . حيث لا مجال لصلة ، ولا مجال لوراثة ، ولا مجال لنسب بين السابقين واللاحقين . فلكل حساب ، ولكل طريق ، ولكل صفة .

أولئك أمة من المؤمنين فلا علاقة لها بأعقابها من الفاسقين . إن هذه الأعقاب ليست امتدادا لتلك الأسلاف . هؤلاء حزب وأولئك حزب . فالأمة في التصور الإيماني هي الجماعة التي تنتسب إلى عقيدة واحدة من كل جنس ومن كل أرض . وليست هي الجماعة التي تنتسب إلى جنس واحد أو أرض واحدة . فالجماعة هي التي تنتسب إلى ملة إبراهيم . إلى عقيدة الإسلام « الظلال 117 » .

إذن تنقسم البشرية إلى حزبين اثنين : حزب الله ، وحزب الشيطان . صفان متميزان لا يختلطان ولا يتميعان .

إن الصلة في الله هي الصلة الأولى . والرابطة في الله هي العروة الوثقى ، فإن كان الوالدان مشركين فلهما الإحسان والرعاية ، لا الطاعة ولا الاتباع . ويعود الموصولون بالله جماعة واحدة ، كما هم في الحقيقة ، وتذهب روابط الدم والقرابة والنسب والصهر ، فهي روابط عارضة لا أصيلة .

فالولاية بالنسبة لقطب هي رابطة طبيعية . فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . وطبيعة المؤمن هي طبيعة الأمة المؤمنة . طبيعة الوحدة وطبيعة التكافل وطبيعة التضامن . أما المنافقون والمنافقات مع وحدة طبيعتهم لا يبلغون أن يكونوا أولياء بعضهم لبعض . فهم ليسوا جماعة متماسكة قوية متضامنة .

لذلك يشدد قطب على التحذير من الولاية مع الكفار . فيرى أن هذه الولاية تذهب بالدين من أساسه . وكان تبصير الجماعة المسلمة بحقيقة القوى التي تعمل في هذا الوجود . فالله وحده هو السيد المتصرف . والتصريف لأمر الناس ليس إلا طرفا من التصريف لأمر الكون كله .

ويشي التحذير – في الآيات 42-49 من سورة التوبة – المؤكد المكرر بما كان واقعا في الجماعة المسلمة الأولى من عدم وضوح الأمر تماما ، ومن تشبث بعضهم

بصلاته العائلية والقومية والاقتصادية مع المشركين في مكة ومع اليهود في المدينة ، مما اقتضى هذا التفسير والتحذير « الظلال 1675 » .

إن الإسلام هو طاعة الله والرسول . وإن الطريق إلى الله هو طريق الاتباع للرسول . لذا فإن الله قد أنشأ الولاية العامة لرسول الله على المؤمنين جميعا . ويقدم هذه الولاية على ولايتهم لأنفسهم ، كما ينشئ صلة الأمومة الشعورية بين أزواجه وجميع المؤمنين . ثم أبطل القرآن آثار المؤاخاة التي تمت في أول الهجرة – كما أبطل عادة التبني وآثاره – ويرد الأمر إلى القرابة الطبيعية في الإرث والدّية وما إليها . وبذلك يعيد تنظيم الجماعة الإسلامية على الأسس الطبيعية ويبطل ما عداها من التنظيمات الوقتية « الظلال 2819 » .

فالإسلام مع تقريره للولاية العامة للنبي ، وهي ولاية تتقدم على قرابة الدم ، بل على قرابة النفس ، قد قرر إبطال نظام المؤاخاة الذي استحدثه الإسلام بعد الهجرة . حيث آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار . وحيث شارك المهاجرون الأنصار في كل شيء .

ويعرض قطب أن سبب ذلك هو وجود أسباب معقولة للارتزاق ، وتوفر قدر من الكفاية للجميع على أثر السرايا التي جاءت بعد غزوة بدر الكبرى ، وبخاصة ما غنمه المسلمون من أموال بني قينقاع بعد إجلائهم . فعاد القرآن بمجرد توفر هذه الضمانات إلى إلغاء نظام المؤاخاة من ناحية الالتزامات الناشئة من الدم والنسب ، مستبقيا إياه من ناحية العواطف والمشاعر ، ليعود إلى العمل إذا دعت الضرورة . ورد الأمور إلى حالتها الطبيعية في الجماعة الإسلامية . فرد الإرث والتكافل في الديات إلى قرابة الدم والنسب ، كما هي أصلا في كتاب الله القديم وناموسه الطبيعي « الظلال 2828 » .

ويصف قطب « 3526 » استقبال الأنصار للمهاجرين بأنه لم يعرف تاريخ البشرية كله حادثا جماعيا كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين . بهذا الحب الكريم . وبهذا البذل السخي . وبهذه المشاركة الرضية . إنها صورة باهرة، تمثل حقيقة قائمة .

صورة تبدو كرامتها ووضاءتها على أتمها حين تقرن مثلا إلى صورة الحقد والهدم التي تمثلها وتبشر بها الشيوعية في إنجيل كارل ماركس .

وهكذا قدم قطب الإخاء ثم الولاية العامة للرسول كخطوتين أساسيتين للتكافل والتضامن في العقيدة . كما أنه عرض لعقد « الموالاة » « الظلال 647 » . وهو النظام الذي يبيح لغير العربي – إذا لم يكن له وارث من أقاربه – أن يرتبط بعقد مع عربي هو « مولى الموالاة » . فيصبح بمنزلة عضو في أسرة مولاه . يدفع عنه المولى الدية – إذا ارتكب جناية توجب الدية – ويرثه إذا مات .

إن ذلك يعكس أمر الناس مع الرسول : فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله . فلا تفرقة بين الله ورسوله . ولا بين قول الله وقول رسوله . فالرسول – كما يوضح قطب « 719 » – وظيفته الأولى والأخيرة أنه رسول . لا ينشئ ولا يحدث ولا يخلق . ولا يشارك الله في خاصية الألوهية هذه : وهي الخلق والإنشاء والإحداث . وهو يبلغ ما جاءه من عند الله ، فطاعته فيما يأمر به إذن هي طاعة لله .

وهنا يؤكد قطب « الظلال 486 » أن محمدا هو رسول سبقته الرسل . وقد مات الرسل . ومحمد سيموت كما مات الرسل قبله . هذه حقيقة أولية بسيطة كان يجب تأكيدها في غزوة أحد . هذه الحقيقة التي عرفها أبو بكر بعد موت الرسول . وهنا أيضا أراد الله أن يجعل ارتباط المسلمين بالإسلام مباشرة ، وأن يجعل عهدهم مع الله مباشرة ، وأن يجعل مسئوليتهم في هذا العهد أمام الله بلا وسيط .

هذا لا يمنع أن نذكر أن تكوين وتأسيس المجتمع الإسلامي قد قام على قاعدة البيعة للرسول نفسه . فكما يذكر قطب في تفسيره لسورة الفتح « الظلال 3316 » أن بيعة المسلمين للرسول كانت ذات دلالة وذات مؤشر تاريخي . فكانت هذه البيعة فتحا في الدعوة حيث انتشرت الدعوة وأسلم الكثير .

وكانت فتحا في الأرض . فقد أمن المسلمون شر قريش . وكانت فتحا في الموقف بين المسلمين في المدينة وقريش في مكة وسائر المشركين . كما كان هناك إلى جانب هذا كله ، فتح في النفوس والقلوب ، تصوره بيعة الرضوان . حيث بايع المسلمون

محمدًا رسول الله . فهذا فتح في تاريخ الدعوات له حسابه ، وله دلالته . وله آثاره بعد ذلك في التاريخ .

ويشير قطب « 1693 » إلى أن هناك طبيعة أخرى للبيعة في الإسلام : وهي البيعة مع الله على الجهاد في سبيله . هذه البيعة تجعل واجبا على أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب فيها ضرورة المفاصلة بينهم كمسلمين وبين من عداهم على أساس العقيدة .

إن هذه البيعة هي إجابة المؤمنين على عهد الله وميثاقه . ذلك عهد الإيمان القديم مع فطرة البشرية المدركة لوحدة الإرادة التي صدر عنها الوجود ، ووحدة الخالق صاحب الإرادة . وهو أيضا ذات العهد الجديد مع الرسل الذين بعثهم الله لا لينشئوا عهد الإيمان ولكن ليجدّدوه ويذكّروا به ويفصّلوه .

المبحث السادس

المجتمع الإسلامي ، وطبقاته الإيمانية

إن مظاهر الولاء التي تمثل أسس إقامة المجتمع الإسلامي — في رأي قطب – تعكس أن المؤمنين يكونون « حزب الله » وينتمون إليه . فهم أسرة واحدة . وأمة واحدة . من وراء الأجيال والقرون ، ومن وراء المكان والأوطان ، ومن وراء القوميات والجنسيات .

وهذه الصورة هي أرقى صور التجمع الإنساني تليق بالكائن الإنساني . كما أنها الصورة الوحيدة التي تسمح بالتجمع بلا قيود . لأن القيد الواحد فيها اختياري يمكن لكل من يشاء أن يفكه عن نفسه بإرادته الذاتية . فهو عقيدة يختارها بنفسه فينتهي الأمر . على حين لا يملك الفرد أن يغير جنسه ، ولا يملك أن يغير قومه ، ولا يملك أن يغير لونه ، ولا يملك بيسر أن يغير لغته ، ولا يملك بيسر أن يغير طبقته ، بل قد لا يستطيع أن يغيرها أصلا . ومن ثم تبقى الحواجز قائمة أبدا دون التجمع الإنساني ما لم ترد إلى رابطة الفكرة والعقيدة والتصور . الأمر متروك للاقتناع الفردي « الظلال 413 » .

وهنا يعلن قطب أنه لا مجال للدهشة إذا أدركنا أنه لا يوجد صراع طبقي في المجتمع الإسلامي . ولكن هناك قاعدة التكامل الذي يقوم بدوره على أساس الميول الفطرية الثابتة في النفس البشرية . هذه الميول خلقها الله لتؤدي دورا أساسيا في حياة الإنسان .

ويقدم الظلال حياة الجماعة المسلمة الأولى في المدينة كأفضل مثال « لتجمع » الإنسان الذي يجب أن يقتدي به عبر التاريخ وخاصة في يومنا الحاضر . فقد قامت

حياة هذه الجماعة على قاعدتين متلازمتين هما : الإيمان ، والأخوة . هاتان القاعدتان مكنتا الجماعة المسلمة من تجاوز مظاهر العداوة بين الأوس والخزرج التي كان يهود المدينة يوقدونها حتى يجدوا مجالا صالحا لهم للحكم بين القبيلتين . ولكن استطاع الإيمان بالله وتقواه والأخوة في الله جمع القلوب والصفوف .

ذلك قد نتج عنه — في منهج قطب « الظلال 1698 » — انقسام المجتمع الإسلامي أربع « طبقات إيمانية » :

1 – السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان . هذه الطبقة بمجموعاتها الثلاث كانت تؤلف القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم في الجزيرة بعد الفتح .

2 – المنافقين الذين مردوا على النفاق من أهل المدينة ومن الأعراب .

3 – الرجال الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا حيث كانوا جماعة خاصة معينة تخلفوا عن الرسول في تبوك . فكان التخلف وهو العمل السيئ . وكان منهم الندم والتوبة وهو العمل الصالح .

4 – الرجال الذين أرجئ الحكم في أمرهم حتى يقضي الله فيهم بقضائه .

وأشار قطب إلى أن هذا التصنيف قد يكون قد نزلت به الآيات بعد العودة من تبوك . كما أشار إلى وجود خمس أوست « طبقات إيمانية » « 1699 » . وذلك بتصنيفه الأعراب إلى صنفين : المخلصين والمنافقين . وهؤلاء المنافقون يتميزون عن المنافقين من أهل المدينة . وقد ركز قطب على الوصف الثابت للأعراب الذي يتعلق بالبدو والبداوة . ويذكر أن الشأن في البدو أن يكونوا أشد كفرا ونفاقا ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .

ولكن حسب تصنيف قطب ، فإن الأعراب بصفتهم البدوية لم يدخلوا في الاعتبار عند تصنيف المجتمع إلى أربع « طبقات إيمانية » فقط . حيث دخل بعضهم ، وهم المخلصون ، في طبقة « التابعين » ، والجزء الآخر يدخل في طبقة « المنافقين » .

كما تجدر الملاحظة أن في التصنيفين جمع قطب بين المهاجرين والأنصار والتابعين داخل طبقة واحدة « السابقين الأولين » . فدرجة إيمانهم وتقواهم ليست محل شك .

ووصف قطب الجماعة المسلمة « 445-448 » بأنها بيئة ينمو فيها الخير . وهي وسط خاص يعيش فيه التصور الإسلامي بكل قيمه خاصة . كما أن قصة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصة من عالم الحقيقة وقعت في هذه الأرض . ولكنها في طبيعتها من عالم الخلد والجنان .

إذن كان من الضروري التخلص من النظام القبلي الذي كان العرب يعيشون في ظله ، حتى يمكن التفكير في الربط بين سكان الجزيرة ومجريات حياتهم ، فضلا عن الربط بين سكان هذه الأرض وأحداثها . وفضلا عن الربط بين الأحداث العالمية والسنن الكونية التي تجري وفقها الحياة جميعا . هذا كله قد تم في ربع قرن من الزمان . فارتفعوا إلى الأفق من التفكير العالي ، واهتدوا إلى ثبات السنن والنواميس الكونية واطمئنوا إلى مشيئة الله المطلقة .

فالإسلام – كما يخبرنا قطب « 2268 » – جاء ليسوي بين الرءوس أمام الله . فلا تفاضل بينها بمال ولا نسب ولا جاه . فهذه قيم زائفة . وقيم زائلة . إنما التفاضل بمكانها عند الله . ومكانها عند الله يوزن بقدر اتجاهها إليه وتجردها له . وما عدا هذا فهو الهوى والسفه والبطلان .

لقد جاء الإسلام لينادي بإنسانية واحدة تذوب فيها الفوارق الجنسية والجغرافية . لتلتقي في عقيدة واحدة . ونظام اجتماعي واحد . لقد جاء الإسلام ليسوي بين جميع الناس أمام القضاء والقانون . في الوقت الذي كانت فيه البشرية تفرّق الناس طبقات ، وتجعل لكل طبقة قانونا . بل تجعل إرادة السيد هي القانون في عهدي الرق والإقطاع .

وكان ذلك أيضا في علاقات المسلمين بعضهم ببعض . مهما اختلفت الديار ، فلا قتل ولا قتال . لا قتل إلا في حد أو قصاص . لا يقتل المسلم المسلم أبدا . اللهم إلا أن يكون ذلك خطأ . وللقتل الخطأ توجد التشريعات والأحكام الواضحة

تماما . أما القتل العمد فجزاؤه أشد الجزاء . فإذا وقع القتل الخطأ على مؤمن وأهله مؤمنون في دار الإسلام ، يجب في هذه الحالة تحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة إلى أهله . أما القتل العمد ، فهو الكبيرة التي لا ترتكب مع إيمان ، والتي لا تكفر عنها دية ولا عتق رقبة . وقد قرنت بالشرك في مواضع كثيرة .

إذن هناك احتمال للتقاتل والتنازع والفتنة بين المسلمين ، ولكن الإيمان بالله وتقواه ، ليؤهلان لفيض من البركات التي وعد الله بها الذين يؤمنون ويتقون . فحتى عندما نرى أن سكان القرية الواحدة قد انقسموا إلى ثلاث أمم: أمة عاصية محتالة . وأمة تقف في وجه المعصية والاحتيال وقفة إيجابية بالإنكار والتوجيه والنصيحة . وأمة تدع المنكر وأهله ، وتقف موقف الإنكار السلبي ولا تدفعه بعمل إيجابي ، نجد أيضا أن سكان الحاضرة قد انقسموا إلى ثلاث فرق ... أو ثلاث أمم .

فالأمة في التعريف الإسلامي هي مجموعة الناس التي تدين بعقيدة واحدة وتصور واحد وتدين لقيادة واحدة . وليست هي في المفهوم الجاهلي القديم أو الحديث ، مجموعة من الناس التي تسكن في إقليم واحد من الأرض وتحكمها دولة واحدة « الظلال 1385 » .

ويشير قطب هنا أيضا إلى أن كلمة « أمة » بمعنى الجماعة من الناس إطلاقا : ﴿ **ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون** ﴾ ، وترد بمعنى القيادة والإمامة ﴿ **إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا** ﴾ ، وهي هنا تتضمن معنى أنه كان فريقا وحده . وإن كان هذا لا يؤثر في المدلول الاصطلاحي الإسلامي للفظ أمة وهو « الجماعة من الناس ذات العقيدة الواحدة والتصور الواحد » .

إذن الأرض هنا ليس لها ضرورة . فقطب في تفسيره للآيات 55-65 من سورة الأنفال « الظلال 1561-1563 » ، يتحدث عن وجود الأمة على أساس « التجمع العضوي الحركي » وأن آصرة هذا التجمع هي العقيدة والهدف هنا هو إبراز « إنسانية الإنسان » ، مما اضطر أصحاب « الداروينية الحديثة » ومن أصحاب « الجهالة العلمية » أن يعترفوا أخيرا أن الكائن الإنساني له « خصائص » تميزه وتفرده ، وتجعل منه كائنا فريدا مقارنة مع الكائنات الحيوانية .

فالتجمع القومي الإنساني في الإسلام لم يظهر في أي تجمع آخر على مدار التاريخ . ففي التاريخ قد قامت تجمعات قومية .. تجمع الإمبراطورية البريطانية مثلا . ولكنه كان تجمعا قوميا استغلاليا ، وأيضا مثل التجمع الذي أقامته الشيوعية ، فلم تقمه على قاعدة « إنسانية » عامة . إنما أقامته على القاعدة « الطبقية » .

في نهاية الأمر ، ستحاول البشرية ذات يوم أن تقيم تجمعاتها على القاعدة التي كرم الله الإنسان بها . والتي تجمَّع عليها المجتمع المسلم الأول . فكان له تفرده التاريخي الفائق . وستبقى صورة هذا المجتمع تلوح على الأفق ، تتطلع إليها البشرية وهي تحاول مرة أخرى أن ترقى في الطريق الصاعد إلى ذلك المرتقى السامي الذي بلغت إليه في يوم من الأيام « الظلال 1563 » .

المبحث السابع

احترام حرمة البيوت

من الآداب الاجتماعية التنظيمية التي عرفها مجتمع المدينة : آداب المسلمين في مجلس الرسول . هذه الآداب حينما تستقر في حياة الجماعة تصبح تقليدا متبعا وقانونا نافذا . المنافقون فقط هم الذين يخرجون عن هذه الآداب ولا يعملون بها . من هنا كان تنظيم العلاقات بين الأسرة الكبيرة . أسرة المسلمين ، ورئيسها وقائدها .

ومن هنا أيضا كانت نظرة الإسلام إلى البيت . فهو مبيت وسكن وأمن . ومن ثم يضمن الإسلام للبيت حرمته ، ليضمن له أمنه وسلامه واطمئنانه . فلا يدخله داخل إلا بعد الاستئذان ، ولا يقتحمه أحد ـ بغير حق ـ باسم السلطان ، ولا يتطلع أحد على من فيه لسبب من الأسباب . ولا يتجسس أحد على أهله في غفلة منهم أو غيبة .

إننا على يقين أن قطبا ـ عند تعرضه لهذا الموضوع ـ كان يفكر في الإجراءات البوليسية ، وأعمال التجسس ، وانتهاك حرمات البيوت التي كانت تحدث في فترة الستينات . والتي عانى منها هو وأصحابه ، وأيضا كانت تحدث في بعض البلاد العربية الأخرى .

المبحث الثامن

الرق والاسترقاق

حول هذا الموضوع قدم قطب بعض التفسيرات المختصرة والتي تعتبر ثمرة تفكير وتدقيق شديدين .

يبدأ قطب « الظلال 2401 » فيقرر أنه عندما جاء الإسلام لينادي بإنسانية واحدة تذوب فيها الفوارق الجنسية والجغرافية . كان هذا غريبا على ضمير البشرية وتفكيرها وواقعها يومذاك . والأشراف يعدون أنفسهم من طينة غير طينة العبيد .

فقد فرض الإسلام تحرير رقبة مؤمنة ككفارة عن قتل مؤمن خطأً . كما أنه قد حدد سهما من الزكاة لتحرير أو لشراء أحد الرقيق . « ذلك حين كان الرق نظاما عالميا » . أو بشراء رقيق وإعتاقهم بمعرفة الدولة من مال الزكاة . وفي إطار هذا الشراء يكون هناك عقد يسمى « عقد ولاء العتق » . والذي بمقتضاه يكون الرقيق – بعد عتقه – بمنزلة العضو في أسرة مولاه « مولى العتق » فيدفع عنه المولى الدية ، إذا ارتكب جناية توجب الدية – كما يفعل ذلك حيال أقربائه من النسب – ويرثه إذا مات ولم يترك عصبة .

ويضيف قطب « الظلال 629 » أنه إذا كان الإسلام يتعامل مع « الإنسان » في حدود فطرته . وفي حدود طاقته ، وفي حدود واقعه . فإنه حتى في دنيا الرقيق الذي عاشته الجاهلية ، عمل على تطهير العقول والعلاقات التي تقوم بين الأحرار والرقيق . إنه لا يسمي الرقيقات : رقيقات . ولا جواري . ولا إماء . إنما يسميهن « فتيات » . كما أنه قد أباح الزواج من المؤمنات غير الحرائر اللواتي في ملك الآخرين أو في ملك

اليد على أن يدفعوا لهن أجورهن في صورة صداق .

كذلك فقد قرر الإسلام عقوبة مخففة على من ترتكب الفاحشة من هؤلاء الفتيات بعد إحصانها بالزواج . واضعا في حسابه واقعها وظروفها التي تجعلها أقرب إلى السقوط في الفاحشة . فلم يجعل من انحطاط درجة الرقيق سببا في مضاعفة العقوبة ، كما كانت تفعل قوانين الجاهلية . حيث تخفف على الأشراف وتقسو على الضعاف . وهنا يشير قطب إلى مدونة « جوستنيان » في القانون الروماني ، والقانون الهندي الذي وضعه « منو » ، وما كان يفعله اليهود .

ويكرر قطب دائما « الظلال 229 ، 2516 » أنه عندما جاء الإسلام وجد الرق نظاما عالميا يقوم عليه الاقتصاد العالمي . ووجد استرقاق الأسرى عرفا دوليا ، يأخذ به المحاربون جميعا . فلم يكن بد من أن يتريث في علاج الوضع الاجتماعي القائم والنظام الدولي الشامل . فبدأ بتجفيف موارد الرق فيما عدا أسرى الحرب الشرعية ونسل الأرقاء . ولذلك فإنه عمل أولا على حماية وتحرير المسلمين الموجودين في أيدي أعداء الإسلام .

وبالرغم من ذلك فإن الإسلام لم يأمر بالرق قط . ولم يرد في القرآن نص على استرقاق الأسرى . ولكنه أيضا يعمل على تحرير الرقيق بمجرد أن ينضم إلى الجماعة المسلمة . فجعل للرقيق حقه كاملا في طلب الحرية بدفع فدية عنه يكاتب عليها سيده . ومنذ هذه اللحظة التي يريد فيها الحرية يملك حرية العمل وحرية الكسب والتملك . فيصبح أجر عمله له ، وله أن يعمل في غير خدمة سيده ليحصل على فديته . ثم يصبح له نصيبه من بيت مال المسلمين في الزكاة . والمسلمون مكلفون بعد هذا أن يساعدوه بالمال على استرداد حريته . وذلك كله غير الكفارات التي تقتضي عتق رقبة .

وبذلك ينتهي وضع الرق نهاية طبيعية مع الزمن ، لأن إلغاءه دفعة واحدة كان يؤدي إلى هزة لا ضرورة لها ، وإلى فساد في المجتمع أمكن إنقاذه . فأما تكاثر الرقيق في المجتمع الإسلامي بعد ذلك ، فقد نشأ من الانحراف عن المنهج الإسلامي ، شيئا فشيئا . ولكن مبادئ الإسلام ليست هي المسئولة عنه .

وقد أشار قطب « الظلال 3166 » إلى أن في العهد المكي كان السادة في مكة يؤذون مواليهم إلى أن يشتريهم المسلمون ويعتقوهم فلا يجرؤ أحد على إيذائهم غالبا .

من هذا كله نستطيع أن نقول إن الاسترقاق لم يكن أبدا إحدى معطيات تكوين المجتمع الإسلامي . وذلك بالرغم من وجود بعض النصوص القرآنية التي تتناول موضوع الرق والاسترقاق . فالقرآن لم يأمر بالرق . كما لم ينص على الاسترقاق . وحتى عند عرضه « للطبقات الإيمانية » فإنه لم يشر إلى الرقيق في المجتمع ، حيث إن الإيمان والتقوى هما الوسيلتان الوحيدتان للتمييز بين الأفراد في المجتمع الإسلامي .

نتائج الفصل السادس

من الواضح في هذا الفصل أن سيد قطب قد تمسك حرفيا بالنص القرآني . كما أنه يمكن إدراك الأفكار الأساسية التي يسعى إلى نشرها والدعوة لها .

ففي عرضه لفكرة اختيار العرب ليكونوا الأمة التي تحمل رسالة الإسلام ، كان قطب مخلصا للنص القرآني ، وبخاصة ما ورد في الآيتين 73- 74 من سورة آل عمران ، والآيات 1 - 24 من سورة الشورى ، والآيات 2 - 3 ، 5 ، 105 من سورة الجمعة .

كما أنه قد تتبع أثر النص ليؤكد انتقال النسب من اليهودية إلى الإسلام . وذلك في الآيتين 128 - 129 من سورة البقرة ، حول انتساب أهل مكة إلى إبراهيم وإسماعيل . وفي هذه النقطة الأخيرة يتفق في تفكيره مع ما ورد في تفسير المنار « الجزء التاسع ص 102-104 ، كتاب جوميير ص 264 ، 305 » .

بالنسبة لفكرة اختيار العرب ، فإن قطبا قد عرض انحرافا كبيرًا جدا في التناسق بين فكرة « خروج الأمة الإسلامية » « آية 110 من سورة آل عمران » وبين الاستمرارية في إعداد العرب لحمل الرسالة . فقطب قد سجل بدقة « عدم الإعداد » والنشأة الجديدة الشاملة من خلال النظرة التي تعتمد على قوة الإيمان بدلا من العقل ، كما سبق وأن عرضنا في الفصل الأول ، مقارنة بما ورد في تفسير المنار « الجزء الأول ص 5-6 ، الثاني ص 293-294 ، السابع ص 659 ، كتاب جوميير ص 47 ، 89 ، 137-138 » .

فمن الواضح أن كلا من محمد عبده ورشيد رضا قد زرعا فكرة « إعداد » الدعوة

الإسلامية الأخيرة . بينما فضل قطب فكرة « عدم الإعداد » ، إضافة إلى فكرة «اندماج » هذه الدعوة الأخيرة في « الناموس الكوني » ، على غرار تفكير ابن سينا وبعض الصوفية « جوميير ص 138 » .

والنقطة الرئيسية هنا ، هي رفض فكرة « العروبة » كما عرضها عبد الناصر ، والتي استوحاها من الأفكار « البعثية » . وقد ظهر ذلك بوضوح تام في مقدمة تفسير سورة الأنعام[1] .

ومع فكرة النشأة الجديدة للمجتمع الإسلامي ابتكر قطب هـذه الفكرة – مقارنة بتفسير المنار – ليكون أكثر قربا من النص القرآني . وكانت هذه الفكرة هي الدعامة الأساسية لكتاب الظلال . بينما اكتفى تفسير المنار بتوضيح علاقة « النسب » أو « الدم » بين جميع المسلمين في أنحاء البلاد ، حيث إن « الدولة الإسلامية » تتسع لكل فرد « الجزء الرابع ص 86 ؛ جوميير ص 291 » .

ركز كتاب الظلال على رابطة « الولاء » (الولاية – المبايعة) متابعا عن قرب النص القرآني ، مقاطعا نهائيا « الروابط القبلية » (سورة التوبة ، الآيات 1 ، 3-4 ، 6-7 ، 12 ، 72 ، 98-99 . وهاتان الآيتان الأخيرتان تناولتا الأعراب حول المدينة) . وتعلن الآيتان 23-24 من نفس السورة – في نهاية فترة النبوة – عن الانفصال التام عن الانتماء القبلي[2] .

---

(1) الظلال 1004-1029 . وقد ظهرت هذه المقدمة في الفصل الثالث من كتاب « معالم في الطريق » تحت عنوان « طبيعة المنهج القرآني » وكان يقصد فلسفة القومية العربية التي قال بها ساطع الحصري ووضع هيكلها ميشيل عفلق وطبقها عبد الناصر . هذه الصفحات قد رفضت بطريق غير مباشر ديكتاتورية ناصر ، والإخوان المسلمين الذين تحالفوا معه ، وكل المؤلفين « المستعربين المشكوك في صحة إسلامهم » . كما رفضت مقررات الدين الإسلامي التي درست في المدارس عام 1985 . انظر كتابنا « الشرعية الإسلامية في الاشتراكيات العربية » باريس ، 1979 الفصل السادس .

(2) يمكن الرجوع إلى ترجمة بلاشير للقرآن إلى اللغة الفرنسية وملاحظاته 1 ، 3 ، ص 1076-1077 حول رفض المسلمين للارتباط « القبلي » مع الكفار بعد صلح الحديبية أو بعد فتح مكة حسب ما يراه كبار رجال التفسير .

ولقد عرض قطب لتطور « مضمون » النص القرآني ابتداء من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار « سورة الحشر ، الآيتان 9-10 » وحتى مبايعة المسلمين للرسول في العقبة « سورة الأحزاب ، الآيات 4 ، 6 ، 14 ؛ سورة آل عمران ، الآية 144 ؛ سورة النساء ، الآية 80 »[1] .

وأشار بعد ذلك للمعنى الواسع لفكرة الولاية أو المبايعة العامة للرسول وفق ما ورد في الآيات 101-104 ، 31-32 من سورة آل عمران والآيات 10 ، 18 ، 29 من سورة الفتح والآيتين 55 - 56 من سورة الأنفال ، حول تشبيه من يرتبط بولائه للقبيلة « بالدواب » والآية 19 من سورة الرعد والآيتين 168 - 169 من سورة الأعراف حول « الميثاق » الكوني . والآية 8 من سورة العنكبوت . إنها إحدى النقاط التي أسهب فيها تفسير المنار ، حيث كانت له رؤية « لاهوتية » أكثر مما هي اجتماعية .

ننتقل الآن إلى الرؤية الشهيرة لسيد قطب حول « الطبقات الإيمانية » التي ينفرد بها المجتمع الإسلامي « مقارنة مع تفسير المنار : الجزء الرابع ص 251-252 ؛ الخامس ص 411-413 ؛ كتاب جوميير ص 293-297 » .

ففي الحقيقة انضم سيد قطب في تفكيره ــ بل حقق ــ أفكار ابن تيمية حول موقع الكفار ، والمنافقين ، والمرتدين ، والزنادقة ....إلخ ، ليس فقط حول ماسيلاقونه من جزاء في اليوم الآخر ، ولكن ــ بالدرجة الأولى ــ حول « موقعهم » داخل المجتمع الإسلامي[2] . فقطب قد ركز تفسيره « الحازم » للآيات 97-106 من سورة التوبة[3] ، وتأكد ذلك في تمييزه بين الأفراد حسب

---

(1) نفس المرجع ملاحظات ، 5 ، 9 ص 984 .

(2) هنري لاوست : المذاهب السياسية والاجتماعية عند ابن تيمية ، القاهرة ، 1939 ، ص 439-461 حيث يتناول « الطبقات الإيمانية » عند ابن تيمية .

(3) كتاب بلاشير ص 52 ، ملاحظة حول ﴿ السابقون ﴾ في الآية 101 من سورة التوبة بمعنى « المؤمنين الأوائل » . وهذا المعنى عند الشيعة وبعض الكتابات لابن مسعود وأبيّ يتحدد في عليٍّ وأحفاده ، وهم « سادة » الناس .

انتمائهم العقائدي في الآية الأولى من سورة النساء والآيات 1 - 3 من سورة النحل والآيات 159 ، 164 ، 168 من سورة الأعراف ؛ والآيات 10 - 12 من سورة الأحقاف « حول موضوع « هداية » أحد يهود المدينة » .

وقد اهتم كتاب الظلال بالاعتراف بالمكانة الخاصة للصوفية مخالفا في ذلك تفسير المنار « الجزء الثاني ص 73 - 74 ؛ والجزء التاسع ص 170 والعاشر ص 222 ، 377 ؛ والحادي عشر ص 418-451 » .

وكنتيجة طبيعية فإن كتاب الظلال قد « نشر » بدقة تامة أفكاره التطبيقية التي تميز بها فكر سيد قطب مثل : المفاصلة ، الهجرة ، التكفير ... فالآيات القرآنية في سورة الكافرون والآيتان 68 ، 70 من سورة الأنعام ؛ الآية 134 من سورة البقرة قد سمحت لسيد قطب بالاعتقاد بضرورة « المفاصلة » واعتزال « الأوساط الكافرة » .

كان لدى سيد قطب اتجاه واضح في عدم التفرقة أو التمييز بين الكفر والفسق ، بالرغم مما ورد في الآيتين 53 - 54 من سورة التوبة . مفضلا اتباع ما ورد في الآيات 90-91 ، 38 من سورة آل عمران والآيات 65-80 من سورة ص . فهذه الآيات تنطبق على « الذين يزعمون اليوم أنهم مسلمون »[1] .

وحسب قراءة قطب فإن الارتداد عن الإسلام يتسع ليشمل الفتنة ، بمعنى الغواية على الانفصال عن الجماعة . وذلك وفق تفسيره للآية 55 من سورة التوبة ، والآيات 1-13 من سورة العنكبوت والآيات 14 - 15 من سورة التغابن والآية 33 من سورة المائدة « وهي آيات محددة حول الفتنة والعلاقات الشهوانية ، وعقوبة الحكم بالموت ، حد القطع ، النفي والتغريب للمرتد الخارج على الجماعة » والآيات 177 - 179 من سورة آل عمران « حول الارتداد عن الإسلام » والآيات 191 ،

---

(1) نفس المرجع ص 109 ، ملاحظة 53 حول التمييز بين الكفر والفسق في الآيتين 53-54 من سورة البقرة : فغيبة الأعمال الطيبة لا تبطل العقيدة ، وعلى العكس فإن الأعمال الطيبة مع عدم وجود العقيدة لا تنجي الإنسان بالرغم مما ورد في الآياتين 7 - 8 من سورة الزلزلة .

193 ، 204 - 207 ، 212-213 من سورة البقرة والآيتين 28 ، 220 من سورة الأنفال حول « زرع » الفتنة والفوضى في المجتمع .

في رؤيته للفتنة وفي توضيحه لجزاء ناشر الفتنة ، طوّر سيد قطب نفس الفكرة التي وردت في تفسير المنار ؛ ولكن في ظروف أخرى . في إطار الفطرة . أي في إطار من الطبيعة البشرية المتطورة عبر التاريخ ، وحسب ما ورد في الآيات 94 - 96 من سورة الأعراف و121 - 122 من سورة الصافات والآيات 27-29 من سورة يس والآية الأولى من سورة الأنبياء والآية 143 من سورة البقرة « حول الأمة الوسط » .

ومن وجهة نظر سيد قطب فإنه لا يوجد « حد وسط » بين هذه « الأمة الوسط » أي « أمة الفطرة » وبين غيرها من الأمم . هذه النظرة دعته إلى فكرة « قيادة الجماعة المسلمة للبشرية » باسم الحاكمية الوحيدة والمطلقة لله « تعبير جديد استوحاه سيد قطب من فكر المودودي » .

لقد كان لسيد قطب السبق على رشيد رضا عندما « تباهى » بالجماعة المسلمة « الرائعة » في المدينة ، ثم في مكة بعد الفتح . هذه الجماعة عاشت الكثير من التجارب وكانت محل ابتلاء حسب ما ورد في الآيات 23 من سورة الزمر و138 من سورة آل عمران و22 من سورة المجادلة .

تميز تفسير المنار بالحذر الشديد في نظرته إلى موضوع التكفير ، وجزاء الموت للمرتد عن الدين ، والخارج على الجماعة « الجزء الخامس ص 327 ، جوميير ص 290 » . في المقابل ظهر محمد عبده وكأنه أحد « المعتزلة » في عدم قبوله لفكرة التمييز — في اليوم الأخير — بين الكافر والفاسق « تفسير المنار : الجزء الأول ص 363 - 364 والثالث ص 267 - 268 والرابع ص 432-433 » .

أما سيد قطب — كما نراه — فقد قدّر أن « الأمة الوسط » يجب أن تتميز على الأرض ، كما يتميز الجزاء الذي ينزل بالكفار . وهو في ذلك يتطابق مع رؤية محمد عبده ، ولكن في الجانب المتشدد منها .

إن هذا الربط ــ الذي سبق إبرازه بدقة في كتاب الظلال ــ قد أنتج « النظرة المتطرفة » للجماعات التي تدعو نفسها « القطبيين » في فترة السبعينات . مدعمة « بالتمنيات القلبية » للتيار الرسمي من علماء الدين الذين يتظاهرون بإعلان إدانتهم لهذا الاتجاه .

فإذا كان الإمام محمود شلتوت ، شيخ الجامع الأزهر ، قد أعلن في عام 1946 – في نفس المعنى الذي قال به تفسير المنار وعلى أساس صمت القرآن حول هذه النقطة – عدم مشروعية الحكم بالموت على الخارج على الجماعة الذي لا يقوم بأي عمل أو نشاط ضد الدين أو الجماعة . حيث إن الآية 33 من سورة المائدة لا تقصد في معناها مشروعية الحكم بالموت . فإننا نجد بعد ثلاثين عاما ، أن الإمام عبد الحليم محمود ، شيخ الجامع الأزهر ، يعلن في عام 1977 في إحدى الفتاوى أن الشيوعيين مرتدون عن الدين . ولذلك فإن كل من يعتنق الشيوعية قولا أو فعلا هو مرتد عن الدين ويستحق الموت . هذه الفتوى كانت الأساس الذي قام عليه مشروع القانون والذي بمقتضاه يحكم بالموت على كل مرتد عن الدين في مصر[1] . وكانت هذه الفتوى أيضا إحدى مواد « الدستور الإسلامي » الذي أعلنه علماء الإسلام في مختلف الأقطار الإسلامية عند اجتماعهم في عامي 1977 ، 1978[2] .

إذن وفقا لمنطق سيد قطب فإن المسلم الفاسق يصبح كافرا نتيجة فسقه . وهو في هذه الحالة لن يكون فقط مرتدا ، ولكن أيضا متمردا خارجا على الجماعة المسلمة . وخاصة إذا مارس الاضطهاد – مثل عبد الناصر – ضد الأقلية المسلمة المخلصة للإسلام . وعليه فإنه يستحق عقوبة الموت .

---

(1) حول رأي الشيخ شلتوت ، يمكن الرجوع إلى كتاب جومبير ص 290 - 291 وفتاوى الشيخ عبد الحليم محمود ص 93 .

(2) حول المواقف المتطرفة لبعض الجماعات الإسلامية انظر : مضابط محاكمة جماعة التكفير والهجرة 1977 وكتاب الفريضة الغائبة لمحمد عبد السلام فرج ، وحول « الدستور الإسلامي » : مجلة الأزهر ، أبريل 1979 — مادة 71 من هذا الدستور التي تنص على توقيع الحد على المرتد عن الدين .

لقد وعت جماعة التكفير والهجرة الدرس جيدا . بل إنها تجاوزت الأفكار إلى مرحلة العمل المباشر ، مستوحية في ذلك بعض التقاليد العتيقة في التشدد والتطرف التي عاشت عليها بعض الجماعات عبر التاريخ الإسلامي[1] .

أما بالنسبة لموضوع الاسترقاق ، فإن قراءة سيد قطب كانت محصورة في إطار مضمون النصوص القرآنية التي تتعلق بهذا الموضوع : حيث تناول الرقيق من المسلمين داخل المجتمع الإسلامي ، والاسترقاق المؤقت لأسرى الحرب لأسباب « دبلوماسية » وفق حقوق الإنسان في بعض العصور .

إن هذه القراءة « الحركية » أو « الديناميكية » — التي سبق عرضها في الفصل الأول وسنتناولها مرة أخرى في الفصل السابع في موضوع « الفقه الحركي » — قد أعطت سيد قطب الفرصة للرد على حجج الماركسيين وموقفهم من مضمون الآيات 52-42 من سورة التوبة و 32-33 من سورة النور و35-36 ، 92-93 ، 102 من سورة النساء و 215-221 من سورة البقرة و 50-53 من سورة الشورى .

وقد أقرّ سيد قطب المنهج الماركسي بوجود عصر الاسترقاق الذي يتبعه عصر الإقطاع « الظلال 2401 ، 1006 » . فالمجتمع الإسلامي الأول قد قاد ثورة هادئة ضد نظام الاسترقاق ، كما قاد نفس الثورة بعد ذلك ضد نظام الإقطاع .

لقد محا سيد قطب إحدى السمات « المزرية » للبقايا « الشرعية » للرق التي ظلت سارية في بعض الأقطار الإسلامية عبر التاريخ وحتى صدور كتاب الظلال . حيث إن الرق لم يلغ في المملكة العربية السعودية إلا بمرسوم ملكي في عام 1961 .

إنه موقف واضح حازم ومحدد ، يتقابل فيه الأدب النقدي مع أدب « متفتح » للمدافعين عن الرق والاسترقاق في الإسلام استنادا لبعض الآيات التي تقرر إحدى حالات الاسترقاق المتميزة عند القصاص « العبد بالعبد » أو في حالة دفع الدية .

---

(1) نظرة إجمالية على هذه الحركات « illuminés » التنويرية التي تميل إلى العنف كرد فعل « إسلامي » ضد الأنظمة « الاستبدادية » « الإسلامية » . على سبيل المثال كتاب برنارد لويس : القتلة ، باريس ، 1982 ص 170-186 وفي تقديم مكسيم رودنسون لهذا الكتاب ص 9-29 .

ولقد قدم تفسير المنار قراءة مشابهة لقراءة كتاب الظلال حول موضوع الرق والاسترقاق « الجزء الخامس ص 9 - 10 والرابع ص 350 والحادي عشر ص 288 - 289 ، وكتاب جومبير ص 231-233 » . إنها بعض الأفكار المتداولة منذ بداية صحوة الفكر الإسلامي في القرن التاسع عشر .

هذه هي الصورة « المثالية » للمجتمع الإسلامي في إطار مبادئه الاجتماعية من وجهة نظر سيد قطب . إن الخاصيتين الأساسيتين لهذا المجتمع هما : رفض المجتمع الطبقي الذي يقوم على مبدإ الصراع الطبقي والرفض التام لفكرة القومية المعاصرة التي تحاول أن تستدعي مرة أخرى الأولوية المطلقة العتيقة للمظاهر البدائية . الغريزية . القبلية . العرقية .

قد يرى البعض أنها صورة « رجعية » ؛ لأنها تستند على المظهر الديني ؛ بمعنى أنها تستند على الارتباط الفعلي « النشيط » بالعقيدة . إن الجمهورية الفاضلة عند أفلاطون ، وأنصارها من المسلمين « كالفارابي » ؛ والمسيحيين « أوجستين ، أوزيب دوسيزاري » تظهر هنا – من وجهة نظر المثالية الماركسية – في مركز ثانوي له بعض الضرورة بطريقة أو أخرى .

إن الصوفي « المجاهد » ، صاحب النشاط الاجتماعي ، يبدو أحد أنماط الطبقة المتميزة داخل المجتمع الإسلامي الذي ينشده سيد قطب . فهل سيكون له أيضا دور مؤثر في الضبط « Controle » والسيطرة على المستوى الأخلاقي والاجتماعي للمجتمع ؛ أو سيكون له دور في التوجيه « السياسي » على نمط الملك الفيلسوف أو الملك الداعية ؟

نعم ... سيكون له دور بكل تأكيد . ذلك لأن من يتحدث عن مجتمع فاضل لابد وأن يفكر في النهاية فيما قد يتعرض له المجتمع من خوف ورعب ، يستوجب معه ـــ ما سبقت الإشارة إليه في الفصل الرابع من تفكير سيد قطب ـــ الجهاد والقتال .

فكيف سيتخلص كتاب الظلال من هذه النتيجة الطبيعية المنطقية التي لا يمكن تفاديها ؟ ما هي رؤية سيد قطب للدولة الإسلامية « الفعلية » ، ما هو قانونها ، وكيف يكون تطبيقها العادل لذلك القانون ؟ .

الفصــل الســابع
مستقبـل الدولـة الإســـلامية

مستقبل الدولة الإسلاميـة

سنتابع في هذا الفصل أيضا نفس المنهج الذي سبق اتباعه منذ بداية هذا الكتاب . إذن سنتناول بداية الخصائص الأساسية للنموذج « المثالي » السياسي الذي يعرضه كتاب الظلال والذي يتكون من « الإمام » ، والبيعة ، والشورى ، والحدود الشرعية . ثم يلي ذلك تناول أهم توجيهات الظلال حول الموضوعات : « الفقه الحركي » أو « الديناميكي » ، و « البعث » الإسلامي في وقتنا الحاضر ، والجاهلية المعاصرة ، والحاكمية الإلٰهية ، وهذا الموضوع الأخير يمثل عنصرا هاما في الاتجاه السياسي عند قطب .

المبحث الأول

الإمــام

اعتبر قطب الإمامة « أو الخلافة » السياسية أحد مظاهر خلافة « أو استخلاف » الإنسان في الأرض . فيذكر في الظلال « 2529-2530 » أن الإيمان منهج حياة كامل . يهيأ الإنسان لحمل أمانة الاستخلاف . كما يقرر عن حقيقة الاستخلاف في الأرض : إنها ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم . إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء . وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه .

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح ، لا على الهدم والإفساد . وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة ، لا على الظلم والقهر . وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري ، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان !

وهذا الاستخلاف هو الذي وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وعدهم الله أن يستخلفهم في الأرض ليحققوا النهج الذي أراده . وقد تحقق وعد الله وظل متحققا وواقعا ماقام المسلمون على شرط الله بأن يعبدوه وحده بلا شريك له وما داموا يقيمون منهج الله وشريعته .

وقدّر قطب الفترة التاريخية التي عمل فيها المسلمون بمنهج الله وقاموا على عهده بما يقرب من ألف عام بمعنى أن ذلك قد استمر حتى القرن الثامن عشر الميلادي بداية « وقوع النكبة القاصمة ، وتنحية الإسلام عن القيادة » .

ويميز قطب « الظلال 112 » بين ثلاث معان للإمامة : إمامة الرسالة ، وإمامة الخلافة ، وإمامة الصلاة . وقرر أن كل معنى من معاني الإمامة والقيادة ممنوعة على الظالمين الذي يرتكبون أي نوع من أنواع الظلم : ظلم النفس بالشرك ، وظلم الناس بالبغي . وهنا نجد أن قطبا لم يقصر منع الإمامة على الملحدين والمرتدين وهذه قضية أثيرت كثيرا في السابق ومازالت مثار جدل حتى اليوم .

إننا سنركز في كتابنا هذا على « إمامة الخلافة » . حيث إن قطبا ربط بينها وبين « إمامة الرسالة » . فقد أكد دائما أن محمدا مثله مثل داود ، فكان نبيا ملكا . فداود قد آتاه الله الملك والسلطان فكان يخصص بعض وقته للتصرف في شئون الملك والقضاء بين الناس . كما كان داود أوابا راجعا إلى ربه بالطاعة والعبادة والذكر والاستغفار ، فآتاه الله أيضا النبوة والدعوة إلى الله . فذلك مبدأ الحق في خلافة الأرض وفي الحكم بين الناس . وقد رد الله هذا الحق إلى أصله الكبير . أصله الذي تقوم عليه السماء والأرض وما بينهما .

وفي الخلافة بعد رسول الله يقول قطب « 695-696 » إنها تقوم بقوة الشريعة والنظام ، على تنفيذ الشريعة والنظام . لتحقيق الطاعة الدائمة للرسول . وتحقيق إرادة الله من إرسال الرسول . والخلافة هي أيضا خلاف أولي الأمر المؤمنين القائمين على شريعة الله وسنة الرسول .

ويرى صاحب الظلال في إلغاء الخلافة على يدي « أتاتورك » أحد الأخطاء القاتلة لأعداء الإسلام . « فكان هدفهم هو إلغاء آخر مظهر للتجمع الإسلامي تحت راية العقيدة . ذلك المظهر الذي كان يتمثل في قيام « الخلافة » . وهو — إن كان مجرد مظهر — كان آخر عروة تنقضي قبل نقض عروة الصلاة » .

ويظهر قطب أن الإمام هو نائب عن الأمة في القيام على الشريعة وحراستها وتنفيذها ، وإذا كانت حقوق الأمة تنحصر في هذا ، فإن واجب الإمام وحقوقه تنحصر أيضا في هذا . وهذا لا يكون إلا بعد أن تقوم الأمة باختيار الحاكم . وبذلك تعطيه شرعية مزاولة الحكم بشريعة الله « 1990 » .

وهنا يستدرك قطب « 3525 » : ولكن الأمة ليست هي مصدر الحاكمية التي تعطي القانون شرعيته . وهذا يؤكد قاعدة تلقي الشريعة من مصدر واحد فهي كذلك تمثل النظرية الدستورية الإسلامية . فسلطان القانون في الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول قرآنا وسنة . والأمة كلها والإمام معها لا تملك أن تخالف ما جاء به الرسول . فالأمة لا تشرع لنفسها . فمصدر السلطات هو شرع الله الذي جاء به الرسول . فالحاكمية لله وحده . وله وحده حق التشريع للناس .

عرض القرآن قصة داود كنموذج للإمام ... فقد كان أوابا وهو القوي ذو الأيدي والسلطان . وكان ملكه قويا عزيزا . فكان يسوسه بالحكم والحزم جميعا . فكانت له الخلافة في الأرض ، والحكم بين الناس بالحق ، وعدم اتباع الهوى .

وهنا يضيف قطب « 3017 » إن شريعة الله للناس طرَف من ناموسه في خلق الكون . وإن كتابه المنزل بيان للحق الذي يقوم عليه الناموس ، وإن العدل الذي يطالب به الخلفاء في الأرض والحكام بين الناس هو طرف من الحق الكلي ، لا يستقيم أمر الناس إلا حين يتناسق مع بقية الأطراف .

إن سلطة الإمام – في الظلال – تستمد من الوظيفة الكونية والتاريخية للجماعة المسلمة : فهي أمة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . وإذا كان « الأمر والنهي » لا يقوم بهما إلا ذو سلطان ، إذن لابد من سلطة داخل الجماعة . ولابد من سلطة في الأرض ، تأمر وتنهى .

والأصل في نظام الأمة المسلمة أن يكون للمسلمين في أنحاء الأرض إمامة واحدة ، تعمل على صيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك . ثم لإقرار الأخوة والحق والعدل والصلاح . والعمل على أن يكون الحب والسلام والتعاون هو الأصل في الجماعة المسلمة « الظلال 3343 » .

ولقد حدث في التاريخ الإسلامي أن تعرضت الجماعة المسلمة للتفكك والتفرق ، كما حدثت الحروب والمنازعات بين الأئمة والسلاطين . ولكن كان كل ذلك لأطماع دنيوية زائلة ، وكان العلاج فيها الرجوع إلى حكم الله وكتابه .

ويفسر قطب ذلك بقوله إن القرآن قد واجه افتراض وقوع القتال بين طائفتين من المؤمنين ـــ كما حدث بين علي ومعاوية – فيجب على الذين آمنوا ـــ من غير الطائفتين المتقاتلين – أن يقوموا بالإصلاح بين المتقاتلين . فإن بغت إحداهما فلم تقبل الرجوع إلى الحق ، فعلى المؤمنين أن يقاتلوا البغاة إذن ، وأن يظلوا يقاتلونهم حتى يرجعوا إلى أمر الله .

ومع الأصل في وجود إمامة واحدة في أنحاء الأرض ، فإنه إذا بويع لإمام ، وجب قتل الثاني ، واعتباره ومن معه فئة باغية يقاتلها المؤمنون مع الإمام . وعلى هذا الأصل قام علي بقتال البغاة في وقعة الجمل وفي وقعة صفين ، وقام معه بقتالهم أجلاء الصحابة ، وقد تخلف بعضهم عن المعركة ؛ لأنهم لم يتبينوا وجه الحق في الموقف في حينه فاعتبروها فتنة .

من الخصائص الهامة لروح التنظيم الإسلامي ، أن يعرض كل رأي وكل فكرة وكل اقتراح على القيادة ابتداء . وعدم التجمعات الجانبية في الجماعة . وهذا تحفظ حكيم لإبعاد كل الريب والشكوك . فأما حيث تكون هناك مصلحة في كتمان سر ، أو ستر عورة ، في شأن عام أو خاص ، فلا مانع من التشاور في سر وتكتم . وهذا يكون عادة بين القادة المسئولين عن الجماعة . ولا يجوز أن يكون تجمعا جانبيا بعيدا عن علم الجماعة . فذلك من تدبير الشيطان الذي يسعى إلى تفتيت الجماعة وأن يوقع في صفوفها الشك وفقدان الثقة « الظلال 3511 » .

من جهة أخرى ، إذا كانت طاعة الإمام فرضا وواجبا ، فإن هناك شرطا ، هو أحد قواعد الدستور في الإسلام : وهو يقرر أن لا طاعة لإمام أو حاكم إلا في المعروف الذي يتفق مع دين الله وشريعته . وأنها ليست طاعة مطلقة لولي الأمر في كل أمر .

ونذكر في النهاية حالة القائد المسلم في مجتمع « غير إسلامي » : فإذا كانت الظروف مواتية – كما كان الحال في موقف يوسف في مصر – فإنه يمكن أن يكون « حاكما مطاعا لا خادما في وضع جاهلي » وذلك حتى يتمكن من الدعوة لدينه . أما إذا كان الهدف هو تزكية النفس عند الناس وطلب الإمارة على أساس هذه التزكية ، فإن ذلك لا يتماشى مع قواعد الإمارة والقيادة في الإسلام .

المبحث الثاني

البيعة أو المبايعة

البيعة عند قطب تعني الطاعة السياسية حسب منهج الإسلام . وقد رأينا كيف أن قطبا ركز على أهمية « البيعة » في حياة الرسول . وبخاصة بيعتا العقبة ، إضافة إلى العهد بين المسلمين وأهل الكتاب الذي عرف بصلح الحديبية .

إن تمييز قطب بين « التجربة المكية » — حيث لم تتوافر مقومات الدولة — و « التجربة المدنية » — حيث نشأت الدولة الإسلامية الأولى — إلى جانب منهجه الأساسي في أن الحاكمية لله وحده ، قد سمح كل ذلك له بأن يعرض نظريته في الدولة الإسلامية انطلاقا من فكرة « المبايعة » .

فالأمر يتعلق — في رأي سيد قطب — بمبايعة كل مسلم للرسول . هذه البيعة كانت العلامة للتمييز بين من يفي بالبيعة وبين من ينكث فيها . إنها الولاية العامة للنبي وتقديمها على جميع ولايات النسب والدم والقبيلة . إنها الصلة أو الرابطة التي تربط القلوب في مواجهة التعصب والدسائس .

فمنذ اليوم الأول للدعوة قام مجتمع إسلامي — أو جماعة مسلمة — ذات قيادة مطاعة هي قيادة رسول الله ، وذات التزامات جماعية بين أفرادها ، وذات كيان يميزها عن سائر الجماعات حولها ، وذات آداب تتعلق بضمير الإنسان مراعى — فيها — في الوقت ذاته — حياة هذه الجماعة . وذلك كله قبل أن تقوم الدولة المسلمة في المدينة . بل إن قيام تلك الجماعة كان وسيلة إقامة الدولة في المدينة . وهنا نجد فكرة التكوين الجديد للمجتمع في الإسلام « الظلال 3552 » .

ويعطي قطب للبيعة بعدا ثانيا « 3320 » : فالقرآن يرد المؤمنين في بيعتهم إلى الله مباشرة ، وعقد العقدة مع الله وحده ، وذلك حين يبايعون الرسول ويتعاقدون معه . فقد جاء الرسول ليصلهم بالله ، ويعقد بينهم وبينه بيعة ماضية لا تنقطع بغيبة رسول الله عنهم . فهو حين يضع يده في أيديهم مبايعا فإنما يبايع عن الله . والعهد مع الرسول هو عهد مع الله . فالمسلمون يجب أن يستشعروا بتبعيتهم المباشرة لله فالله باق حيٌّ لا يموت . ولكن محمدا ليس إلا بشرا قد يموت أو يقتل ، كما أشار القرآن للمسلمين بعد موقعة أحد .

فالله وحده هو القادر على أن يظل الإسلام ظاهرا على الدين كله تحقيقا لوعده . وأن تظل لهذا الدين أدواره في تاريخ البشر يؤديها . والله وحده هو الذي يسن الشرائع وهو مصدر السلطان . وهو القادر على أن يمكِّن لمنهجه في الأرض . أما محمد فهو رسول الله ليبلغ رسالته . ويبين شريعة الله ومنهجه للناس . وبعد الرسول سيتولى أمر المسلمين « أولو الأمر المؤمنون القائمون على شريعة الله وسنة الرسول » « الظلال 692 » .

فالقاعدة التي يرجع إليها الأمر كله : طاعة الله وطاعة الرسول ... الإسلام ... الذي لا تبقى معه إلا الطاعة المطلقة لله وللرسول . والحذر من المخالفة بعد وفاة الرسول ... فإذا كان الناس لا يرون الله ، فإنهم يجدونه في نفوسهم حين يؤمنون . إنه بالنسبة لهم غيب ، ولكن قلوبهم تعرفه بالغيب وتخافه .

في هذا الإطار يشير قطب إلى قصة إسماعيل كنموذج للطاعة الحرة وللثقة والتسليم « الظلال 2995 - 2996 » . فكان القبول والرضى والطمأنينة والهدوء . وكان على إسماعيل أن يأخذ الأمر طاعة وإسلاما لينال أجر الطاعة وليسلم ويتذوق حلاوة التسليم ولذة التطوع ، فكان أن تلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب . ولكن في رضا كذلك وفي يقين .

ويقول الظلال في هذه القصة الرائعة : إنها ليست الشجاعة والجرأة . ولا الاندفاع والحماسة . قد يندفع المجاهد في الميدان ، يقتل ويقتل . وقد يندفع الفدائي

وهو يعلم أنه قد لا يعود . ولكن هذا كله شيء والذي يصنعه إبراهيم وإسماعيل هنا شيء آخر .

ليس هنا دم فائر ، ولا حماسة دافعة ولا اندفاع في عجلة تخفي وراءها الخوف من الضعف والنكوص ! إنما هو الاستسلام الواعي المتعقل القاصد المريد ، العارف بما يفعل ، المطمئن لما يكون . لا بل هنا الرضا الهادئ المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل .

فالولاء والطاعة هما التحرير المطلق . هذا الولاء وهذه الطاعة ــ كما يراهما قطب ــ لا يكونان إلا لله وللرسول وأولي الأمر من المؤمنين . فلا ولاية ولا طاعة مع كافر أو مشرك . فالولاء للمشركين هو خروج على قاعدة التوحيد في معناها الشامل ، وهو زائف باطل ، مناقض للحق الكامن في بنية الكون . ومن ثم هو واهٍ هزيل ، لا يحمل قوة ولا سلطان ، ولا يملك أن يؤثر في مجرى الحياة . ذلك لأنه لا يتعامل مع وعد الله الصادق .

في الناحية الأخرى ، النظام الإسلامي هو نظام تحفظ فيه حقوق كل مواطن في الوطن الإسلامي أيا كانت عقيدته . لا يلزمهم إلا بالطاعة لشرائعه الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والدولية . أما عقيدة القلب فهم فيها أحرار .

في مجال العلاقات الدولية ، يوضح قطب « الظلال 2190 » أن الوفاء بعهد الله يشمل بيعة المسلمين للرسول ، ويشمل كل عهد على معروف يأمر به الله . والوفاء بالعهود هو الضمان لبقاء عنصر الثقة في التعامل بين الناس ، وبدون هذه الثقة لا يقوم مجتمع ، ولا تقوم إنسانية .

والنصوص القرآنية لا تقف عند حد الأمر بالوفاء والنهي عن النقض ، إنما تستطرد لضرب الأمثال ، وتقبيح نكث العهد ، وتعي الأسباب التي قد يتخذها بعضهم مبررات لنقض المعاهدات . فالإسلام لا يقر أي مبرر لنقض المعاهدات ، ويجزم بالوفاء بالعهد .

وعلى هذا الأساس قام بناء الجماعة الإسلامية وبناء الدولة الإسلامية ، فنعم العالم بالطمأنينة والثقة والنظافة في المعاملات الدولية يوم كانت قيادة البشرية للإسلام .

المبحث الثالث

الشورى

في هذا الموضوع ، عارض سيد قطب تماما أي تقليد للغرب . فالغرب ــ حسب رأيه ــ يملك تجربة سيئة في الشورى . فأوروبا لم تصل إلى النظام البرلماني إلا بعد تمردها على الكنيسة . فقد هربت أوروبا من الله ــ في أثناء هروبها من الكنيسة الطاغية باسم الدين ــ وثارت على الله في أثناء ثورتها على تلك الكنيسة التي أهدرت كل القيم الإنسانية .

ثم ظن الناس هناك أنهم يجدون إنسانيتهم وحريتهم وكرامتهم ــ ومصالحهم كذلك ــ في ظل الأنظمة الفردية « الديمقراطية » وعلقوا كل آمالهم على الحريات والضمانات التي تكفلها لهم الدساتير الوضعية ، والأوضاع البرلمانية ، والحريات الصحفية ، والضمانات القضائية والتشريعية ، وحكم الأغلبية المنتخبة ... إلى آخر هذه الهالات التي أحيطت بها تلك الأنظمة .

ثم كانت العاقبة .. وهي طغيان « الرأسمالية » . ذلك الطغيان الذي أحال كل تلك الضمانات وكل تلك التشكيلات إلى مجرد لافتات ، أو إلى مجرد خيالات ! ووقعت الأكثرية الساحقة في عبودية ذليلة للأقلية الطاغية التي تملك رأس المال ، فتملك معه الأغلبية البرلمانية ! والدساتير الوضعية ! والحريات الصحفية ! وسائر الضمانات التي ظنها الناس هناك كفيلة بضمان إنسانيتهم وحريتهم وكرامتهم في معزل عن الله « الظلال 1754 » .

ويستطرد قطب « 458 » أن الشورى هي أصل النظام الذي تقوم عليه الحياة في

الجماعة الإسلامية فقد أخذ بها الرسول في موقعة أحد وكان حديث القرآن - في صدر التعقيب على معركة حربية - عن الربا والنهي عنه ، وعن الشورى والأخذ بها ، على الرغم مما كان للشورى من معقبات ظاهرية في النتائج السيئة للمعركة !

إن ذلك يعكس الارتباط الوثيق بين المعركة والأوضاع التنظيمية التي تقوم عليها حياة الجماعة المسلمة ، وفق منهج الله القويم . ذلك المنهج الذي يقوم على الشورى في الحياة كلها ، لا في نظام الحكم وحده .

ويشرح قطب ذلك « 460-467 ، 499-500 » أنه قبل بدء المعركة كان الرسول يرى عاقبة المعركة ولكنه في الوقت ذاته كان يُمضي نظام الشورى ، ونظام الحركة بعد الشورى .. لقد كان يربي أمة .. والأمم تربى بالأحداث . ثم لقد كان يُمضي قدر الله . ولقد ألقى درسا نبويا عاليا على المسلمين . فللشورى وقتها حتى إذا انتهت جاء وقت العزم والمضي والتوكل على الله لم يعد هناك مجال للتردد وإعادة الشورى ، والتأرجح بين الآراء . إنما تمضي الأمور لغاياتها ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء .

فالإسلام قرر مبدأ الشورى في نظام الحكم ، حتى ومحمد رسول الله هوالذي يتولاه . فالنص القرآني ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ هو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكا في أن الشورى مبدأ أساسي ، لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه . أما شكل الشورى ، والوسيلة التي تتحقق بها ، فهذه أمور قابلة للتحوير والتطوير وفق أوضاع الأمة وملابسات حياتها .

ولقد كان من حق الرسول أن ينبذ مبدأ الشورى كله بعد المعركة . ولكن تقرر هذا المبدأ في حياة الأمة المسلمة . وليسقط الحجة الواهية التي تثار لإبطال هذا المبدأ كلما نشأ عن استعماله بعض العواقب التي تبدو سيئة ، ولو كان هو انقسام الصف كما وقع في « أحد » والعدو على الأبواب .

إن مهمة الشورى هي تقليب أوجه الرأي ، واختيار اتجاه من الاتجاهات المعروضة ، فإذا انتهى الأمر إلى هذا الحد ، انتهى دور الشورى وجاء دور التنفيذ ...

التنفيذ في عزم وحسم ، وفي توكل على الله .

ويستنتج قطب « الظلال 2006-2010 » أن نهضة المجتمع الإسلامي اليوم لن تكون إلا بالرجوع إلى هذا النموذج الحركي للواقع الإسلامي عند إقامة نظام الشورى . وليس بمحاولة تطبيق النماذج الفردية في المجتمعات الجاهلية المعاصرة . فالشورى في الإسلام تقوم على الإخاء والتعاضد .

في المجتمع الإسلامي يكون أهل كل محلة متعارفين متواصلين متكافلين ، ومن ثم يكون أهل كل محلة عارفين بأصحاب الكفايات والمواهب فيهم ، موزونة هذه الكفايات والمواهب بموازين وقيم إيمانية ، فلا يعز عليهم أن ينتدبوا هم من بينهم أهل البلاء والتقوى والكفاية . سواء لمجلس الشورى أو للشئون المحلية . أما الإمارات العامة فيختار لها الإمام ــ الذي اختارته الأمة بعد ترشيح أهل الحل والعقد ــ أو أهل الشورى ــ له ... يختار لها من بين مجموعة الرجال الممتازين الذين ميزتهم الحركة . والحركة دائبة في المجتمع المسلم .

ويضيف صاحب الظلال : إن الذين يفكرون في النظام الإسلامي اليوم وتشكيلاته ــ أو يكتبون ــ يدخلون في متاهة ! ذلك أنهم يحاولون تطبيق قواعد النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية المدونة في فراغ ! فالمجتمع المسلم يقوم تركيبه العضوي على أساس ترتيب الأشخاص والفئات كما ترتبها الحركة لإقرار هذا النظام في عالم الواقع . أما المجتمع الحاضر فهو مجتمع راكد ، قائم على قيم لا علاقة لها بالإسلام ، ولا بالقيم الإيمانية . وهو ــ من ثم ــ يعد بالقياس إلى النظام الإسلامي وأحكامه الفقهية فراغا لا يعيش فيه هذا النظام ولا تقوم فيه هذه الأحكام .

إذن هؤلاء الكاتبون الباحثون عن حل يحيرهم ــ أول ما يحيرهم ــ طريقة اختيار أهل الحل والعقد ــ أو أهل الشورى ــ من غير ترشيح أنفسهم ولا تزكية ! كذلك تحيرهم طريقة اختيار الإمام . أيكون الاختيار من عامة الشعب أم يكون من ترشيح أهل الحل والعقد ؟ وأسئلة أخرى كثيرة لا يجدون لها جوابا .

إن هذا المجتمع الجاهلي الذي نعيش فيه ليس هو المجتمع المسلم ، ومن ثم لن يطبق

فيه النظام الإسلامي ولن تطبق فيه الأحكام الفقهية الخاصة بهذا النظام ؛ فهذا المجتمع الجاهلي بتركيبه العضوي يختلف تماما عن التركيب العضوي للمجتمع المسلم ، وقيمه وموازينه واعتباراته وأخلاقه ومشاعره وتصوراته تختلف تماما عن قيم المجتمع المسلم وموازينه واعتباراته وأخلاقه ومشاعره وتصوراته .

ويستدرك قطب أن ذلك لا يمنع من جعل الشورى أمرا واجبا في كل أحوال المسلمين ، ليصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة . فالنص ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ « في سورة الشورى ، الآيات 25-53 » هو نص مكي ، وقد أتبع إقامة الصلاة بصفة الشورى ، قبل أن يذكر الزكاة . وهذا أيضا كان قبل قيام الدولة الإسلامية . فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة في حياة المسلمين . إنه طابع الجماعة الإسلامية في كل حالاتها ، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم فيها بعد .

والواقع أن الدولة في الإسلام ليست سوى إفراز طبيعي للجماعة وخصائصها الذاتية . والجماعة تتضمن الدولة وتنهض وإياها بتحقيق المنهج الإسلامي وهيمنته على الحياة الفردية والجماعية . ومن ثم كان طابع الشورى في الجماعة مبكرا ، وكان مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشئون الحكم فيها .

ولكن لكي يقوم أي شكل من أشكال النظم الإسلامية ، لابد قبلها من وجود مسلمين ، ومن وجود إيمان ذي فاعلية وأثر . وإلا فكل الأشكال التنظيمية لا تفي بالحاجة ، ولا تحقق نظاما يصح وصفه بأنه إسلامي .

المبحث الرابع

الآثام والحدود

يبدأ كتاب الظلال في تناوله موضوع الآثام والحدود في الفقه الإسلامي بالتركيز على أن الوظيفة الأساسية للدولة الإسلامية هي تطبيق مبادئ الشريعة ، ثم يتجه في عرضه إلى محاولات وضع تفاسير معاصرة للآراء الفقهية التي تتناول هذا الموضوع .

يركز الظلال قبل كل شيء على مبدإ حرية العقيدة : فحرية الاعتقاد هي أول حقوق « الإنسان » التي يثبت له بها وصف « الإنسان » . ومع حرية الاعتقاد حرية الدعوة للعقيدة ، والأمن من الأذى والفتنة .

والإسلام ــ وهو عند قطب ــ أرقى تصور للوجود وللحياة ــ وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا مراء ــ هوالذي ينادي بأن لا إكراه في الدين ، وهو الذي يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين .

اعتبر قطب تقرير حق حرية الاعتقاد بمثابة الثورة ضد الإمبراطورية البيزنطية ، إضافة إلى أن السبب الأول والأهم للهجرة في تقديره هو بحث الرسول عن قاعدة أخرى غير مكة . قاعدة تحمي عقيدة الإسلام وتكفل لها الحرية . وحيث تظفر العقيدة بحرية الدعوة وبحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة . ولذلك فإن الإسلام لا يكلف الناس شيئا فوق طاقتهم . ولم يكتب عليهم في الدين إلا ما هو ميسر للجميع .

وكنتيجة طبيعية نجد أن الإسلام يتسامح مع أصحاب العقائد المخالفة له ، فلا

يكرههم أبدا على اعتناق عقيدته . في غير ما دعوة للمسلمين ولا طعن في الدين . فهو يحافظ على حياتهم وأموالهم ودمائهم . ويدعهم يتحاكمون إلى شريعتهم في غير ما يتعلق بمسائل النظام العام .

ويشير قطب إلى أنه قد ظهرت خلافات فقهية حول الجزية التي يجب على أهل الكتاب دفعها . حول من تؤخذ منهم الجزية ومن لا تؤخذ منهم ، وعن مقادير هذه الجزية . وطرق ربطها ومواضع هذا الربط . ولذلك فقد رفض قطب الاستطراد في هذا الموضوع . ذلك أنه رأى أن القضية تعتبر اليوم « تاريخية » وليست « واقعية » . « إن المسلمين اليوم لا يجاهدون ! ذلك أن المسلمين اليوم لا يوجدون » .

أما بالنسبة للذين يكفرون بعد إيمانهم ، فإن كتاب الظلال « 423 - 424 » يبين أن الإسلام يفتح لهم باب التوبة ، فلا يغلقه في وجه ضال يريد أن يتوب . فأما الذين لا يتوبون ولا يثوبون ... الذي يصرون على الكفر ويزدادون كفرا ، فهؤلاء لا توبة لهم ولا نجاة . وسيكون لهم العذاب يوم القيامة .

أما الحرابة في الإسلام فلها أشد العقاب حسب ما جاءت به النصوص القرآنية من حدود : وهو القتل أو الصلب ، لأن القطع لا يدفع ضررها . وفي هذا اختار قطب رأي الإمام مالك في « أن العقوبة على مجرد الخروج وإخافة السبيل . لأن هذا إجراء وقائي المقصود منه أولا منع وقوع الجريمة ، والتغليظ على المفسدين في الأرض الذين يُرَوِّعُون دار الإسلام » . كما أشار أيضا إلى ما ورد في كتاب عبد القادر عودة « التشريع الجنائي في الإسلام مقارنة بالقانون الوضعي » « الظلال 880 ، المائدة ، الآيات 27-40 » .

ولكن هناك بعض الذين ارتدوا عن الإسلام ، وهؤلاء – كما يذكر قطب – المسلمون الذين ظلوا في مكة بعد الهجرة . وقد فتن بعضهم عن دينهم فعلا ، واضطر بعضهم إلى إظهار الكفر تقية ، ومشاركة المشركين عبادتهم . وكانت هذه التقية جائزة لهم يوم أن لم تكن لهم دولة يهاجرون إليها متى استطاعوا .

كذلك يقدم الظلال أن رحمة الله اقتضت بالناس ألا يؤاخذهم على الشرك والكفر ولا ينال العذاب أحد إلا بعد إنذار . فالله لا يأخذ العباد بظلمهم « أي بشركهم » إلا بعد أن ينبهوا من غفلتهم ، ويقص عليهم الآيات وينذرهم المنذرون « الظلال 1209 ، الأنعام ، الآيات 128-135 » .

بالنسبة لقوانين الميراث « التي سبق أن تناولناها في الفصل الخامس » يشير قطب « 588-593 » إلى أن النصوص القرآنية التي وردت في نظام التوريث هي آيات محكمة وواجبة ، كما أنها نصوص واضحة ودقيقة . فهذا النظام كله مرده إلى الله . فهو الذي فرضه وهو الذي أوصى به . إذن لا مجال للجدال في ذلك للناس إلا التلقي من الله . أما التلقي في أي أمر من أمور الميراث من مصدر آخر إنما يكون الشرك أو الكفر .

أما ما يباح فيه الجدل فهو على سبيل المثال حقوق تمليك أو توريث أو تأجير البيوت غير المسكونة بأهلها . فقد ذهب الإمام الشافعي إلى أنها تملك وتورث وتؤجر محتجا بما ثبت من أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية دارا بمكة بأربعة آلاف درهم فجعلها سجنا .

من النقاط الأخرى الدقيقة الواضحة في القرآن ، على مستوى الحياة اليومية للأفراد ، تحريم بعض المواد الغذائية ... فلحم الخنزير يجادل فيه الآن قوم . وقد حرمه الله منذ ذلك الآن الطويل ليكشف العلم الحديث منذ قليل خطورته لأن فيه الدودة الشريطية وبويضاتها المتكيسة . ويقول الآن قوم أن وسائل الطهي الحديثة قد تقدمت بحيث إنها قادرة على إبادة هذه الديدان وبويضاتها . ويقرر قطب « الظلال 156 » أن هؤلاء الناس ينسوا أن علمهم قد احتاج إلى قرون طويلة ليكشف آفة واحدة . فمن ذا الذي يجزم بأن ليس هناك آفات أخرى في لحم الخنزير لم يكشف عنها بعد ؟

ولكن ماذا عن لحم الخيل « الآية الثامنة من سورة النحل » ؟ يجيبنا قطب « الظلال 2161 » أن هناك خلافا فقهيا في أكل الخيل . فأبو حنيفة يحرم لحومها استنادا إلى نص الآية الذي يخصصها للركوب والزينة وإلى بعض الأحاديث . والجمهور يحلها استنادا إلى أحاديث صحيحة وإلى السنة العملية .

أما عن تحريم الخمر فيخبرنا قطب أن تحريم الخمر تم على ثلاث خطوات تتماشى مع منهج التربية الإسلامية :

(1) فبدأ القرآن « في الآية 219 من سورة البقرة » بتوضيح أن الخمر والميسر عادة سيئة . وبأن الإثم فيهما أكبر من النفع . وفي هذا إيحاء بأن تركهما هو الأولى .

(2) ثم جاءت الخطوة الثانية في الآية 43 من سورة النساء . حيث إن الصلاة في خمسة أوقات معظمها متقارب ، لا يكفي ما بينها للسكر والإفاقة ! وفي هذا تضييق لفرص المزاولة العملية لعادة الشرب .

(3) حتى إذا تمت هاتان الخطوتان جاء النهي الجازم الأخير بتحريم الخمر والميسر في الآيتين 90 - 91 من سورة المائدة .

وكان شرب الخمر ظاهرة متغلغلة في الجاهلية العربية . حتى أن عمر بن الخطاب ظل يشرب الخمر في الإسلام ، وظلت الآيات تنزل تباعا في تحريم الخمر حتى نزلت الآية الأخيرة فقال : انتهينا . انتهينا . وهنا قارن قطب بين قضاء الإسلام على ظاهرة شرب الخمر وبين ما حدث في أمريكا من محاولات فاشلة في القضاء على إدمان الخمر .

« لقد تمت المعجزة ، لأن المنهج الرباني ، أخذ النفس البشرية ، بطريقته الخاصة . فملأ فراغها بالإيمان والهداية . بهذا الإحساس الندي الرضي الجميل البهيج . فلم تعد في حاجة إلى نشوة الخمر . إنها لم تكن كلمات هي التي حققت تلك المعجزة الفريدة ؛ إنما كان منهجا . منهجا هذه الكلمات متنه وأصله « الظلال 229 ، 663 - 667 ، 974 - 978 » .

وأعلن قطب أنه لا يريد الدخول بهذه المناسبة في الجدل الذي أثاره المعتزلة حول الحكم بأن الخمر رجس . هل هو ناشئ عن أمر الشارع بتحريمها ، أم أنه ناشئ عن صفة ملازمة للخمر في ذاتها . ويرى صاحب الظلال في ذلك جدلا عقيما . والله حين يحرم شيئا يعلم لم حرمه . سواء ذكر سبب التحريم أو لم يذكر . فالله هو الذي يعلم الأمر كله ، والطاعة لأمره واجبة .

إن تحريم لحم الخنزير وشرب الخمر يدخل في إطار النظرة العامة للإسلام للطيبات التي خلقها الله في الأرض . فالأصل في كل المطاعم والطيبات هو الحل ، يتجاوز في ذلك ما حرمه الله على اليهود من طعام ، وما حرمه الله من أشياء لأنها غير طيبة وأن فيها ضررًا للإنسان . « فالحلال والحرام يقرره الله بتشريعه وحده » .

وعليه فإن قضية الذبائح عند قطب هي قضية التشريع . وقضية التشريع هي قضية الحاكمية . فذلك كله يدخل في سلطان الحاكمية والتشريع .

بالنسبة لحد الاضطرار الذي يباح فيه الأكل من المحرمات ، والمقدار المباح منها ، يشير قطب « 1225 » إلى أن حولهما خلافات فقهية . فرأي أنه يباح ما يحفظ الحياة فقط عند خوف الهلاك لو امتنع . ورأي أنه يباح ما يحقق الكفاية والشبع . ورأي أنه يباح فوق ذلك ما يدخر لأكلات أخرى إذا خيف انقطاع الطعام . وهنا يرفض قطب الدخول في تفصيلات الفروع .

نأتي بعد ذلك إلى الشعائر في الإسلام . ونبدأ بالصلاة .

فصلاة الجمعة هي الصلاة الجامعة ، التي لا تصح إلا جماعة ، وهي صلاة أسبوعية يتحتم أن يتجمع فيها المسلمون ويلتقوا ويستمعوا إلى خطبة تذكرهم بالله .

ولكن هل حركات الصلاة « الرياضية » تحول بين المصلي وبين الاتصال والنجوى مع الله ، أي أنها قد تعطل الاستشراف الروحي ؟ ويجيب قطب « الظلال 670 » بالنفي . « فحكمة الصلاة » مثل « حكمة الوضوء » هي لقاء نفسي مع الله بعمل ما ، يفصل بين شواغل الحياة اليومية العادية وبين اللقاء العظيم .

ولقد أباح الإسلام التيمم بكل صعيد طيب مقام الغسل والوضوء عند تعذر وجود الماء ، أو عند التضرر بالماء بمعنى أنه قد يوجد ولكن استعماله يكون ضارا أو غير مقدور عليه . وهنا يعرض قطب للاختلافات الفقهية في الفروع في موضوع الغسل في النص القرآني ﴿ **أو لامستم النساء** ﴾ . فهناك قول : إنه كناية عن الجماع ، فهو يستوجب الغسل ؛ وقول : إنه يعني حقيقة اللمس . لمس أي جزء

من جسم الرجل لجسم المرأة ، وهو يستوجب الوضوء في بعض المذاهب ، ولا يستوجبه في بعضها .

وهناك بعض التفصيلات تطلب في كتب الفروع . يذكر قطب منها إجمالا « الظلال 668-670 » .

(ا) اللمس يوجب الوضوء إطلاقا .

(ب) اللمس يوجب الوضوء إذا كان اللامس ممن تثور الشهوة في نفسه باللمس . وإذا كانت الملموسة ممن تثير الشهوة باللمس .

(جـ) اللمس يوجب الوضوء إذا أحس اللامس نفسه – حسب تقديره في كل حالة – أن اللمسة أثارت في نفسه حركة .

(د) اللمس لا يوجب الوضو إطلاقا ، ولا العناق ولا التقبيل للزوجة .

ولكل قول سنده من أفعال أو من أقوال الرسول . على طريقة الاختلافات الفقهية في الفروع . ولكن الذي يرجحه قطب أنه كناية عن الفعل الذي يستوجب الغسل . « وبذلك نستغني هنا عن كل الخلافات في مسألة الوضوء .

أما بالنسبة للصيام ، فقد ربط كتاب الظلال بين الصوم وبين الجهاد ؛ لأنه كان من الطبيعي أن يفرض الصوم على الأمة التي يفرض عليها الجهاد في سبيل الله ، لتقرير منهجه في الأرض ، وللقوامة به على البشرية ، وللشهادة على الناس . كما أن الحكمة الأصيلة في الصوم هي إعداد هذا الكائن البشري لدوره على الأرض . وهنا يشير قطب إلى أنه لا يجب أن ينفي ما تكشف عنه الملاحظة أو يكشف عنه العلم من آثار نافعة للصوم في وظائف الأبدان .

وقد أعفى القرآن من أداء الصوم : المرضى حتى يصحوا ، والمسافرين حتى يقيموا ، تحقيقا وتيسيرا . وفي ذلك يذكر قطب أن الله وحده يعلم الحكمة في تعليقه بمطلق المرض ومطلق السفر . ولكن « يبقى أن القول بهذا يخشى أن يحمل المترخصين على شدة الترخص ، وأن تهمل العبادات المفروضة لأدنى سبب . مما جعل الفقهاء يتشددون ويشترطون » . وهذا في رأي قطب « لا يبرر التقييد فيما أطلقه النص » .

وورد في كتاب الظلال العديد من الأحاديث النبوية التي يرى فيها الرسول ضرورة الأخذ برخص الله ، ونذكر منها ما روي عن جابر أنه قال : كان النبي في سفر ، فرأى رجلا قد اجتمع عليه الناس ، وقد ظلل عليه . فقال : ما له ؟ فقالوا : رجل صائم . فقال الرسول : « ليس من البر الصوم في السفر » « الظلال 168 - 170 » .

أما الحج فهو مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة . مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب في أعماق الزمن منذ أبيهم إبراهيم الخليل . فالبيت الحرام يرجع إلى نشأته على يد إبراهيم . عندما أمره ربه بأن يقيم هذا البيت للتوحيد . فالغرض من إقامته هو عبادة الله الواحد وتخصيصه للطائفين به والقائمين لله فيه بالصلاة فهؤلاء هم الذين أنشئ البيت لهم ، لا لمن يشركون بالله ، ويتوجهون بالعبادة لسواه .

هذا المسجد الحرام — كما يذكر قطب « الظلال 2418-2420 » — أعفاه الله فلم يغلب عليه جبار . وأعفاه الله من البلى والدثور ، فما يزال معمورا منذ إبراهيم حتى جاء الإسلام . وأصبح المسلمون يجدون في هذا البيت محورهم الذي يشدهم جميعا إليه : هذه القبلة التي يتوجهون إليها ويلتقون عليها جميعا ويجدون رايتهم التي يفيئون إليها .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن شعائر الحج في الإسلام هي نفس الشعائر التي كانت عند العرب في الجاهلية . وفي ذلك يذكر قطب أنه إذا تلقت من العقيدة الجديدة توجيها يقر بعض جزئيات من مألوفها القديم تلقته جيدا مرتبطا بالتصور الجديد . إذ ليس من المحتم أن يبطل النظام الجديد كل جزئية في النظام القديم ، ولكن من المهم أن ترتبط هذه الجزئيات بأصل التصور الإسلامي ، وتقوم على قواعده ، وأنهت علاقتها بالتصورات الجاهلية نهائيا « الظلال 180 » .

ويرد قطب على من يستأنس ببعض الوقائع على أن فريضة الحج وشعائره قد كتبت على المسلمين في مكة قبل الهجرة ، بأن هذا القول قد لا يجد سندا قويا .

وعلى كل حال فإن الحج هو المؤتمر الجامع للمسلمين ، الذي يتلاقون فيه مجردين

من كل آصرة سوى آصرة الإسلام . متجردين من كل سمة إلا سمة الإسلام . عرايا من كل شيء إلا من ثوب غير مخيط يستر العورة ، ولا يميز فردا عن فرد ، ولا قبيلة عن قبيلة ، ولا جنسا عن جنس . إن عقدة الإسلام هي وحدها العقدة ، ونسب الإسلام وحده النسب ، وصبغة الإسلام وحدها الصبغة « الظلال 202-189 » .

إن الحديث عن الصلاة وعن الحج لابد أن يدفعنا إلى الحديث عن القبلة . وفي ذلك يقول قطب « الظلال 125 » : إن مجموع الروايات عن حادث تحويل القبلة يمكن أن يستنبط منها ــ بالإجمال ــ أن المسلمين في مكة كانوا يتوجهون إلى الكعبة منذ أن فرضت الصلاة – وليس في هذا نص قرآني – وأنهم بعد الهجرة وجهوا إلى بيت المقدس بأمر إلـٰهي للرسول يرجح أنه أمر غير قرآني . ثم جاء الأمر القرآني الأخير : ﴿ **فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره** ﴾ . فنسخه . وعلى أية حال فقد كان التوجه إلى بيت المقدس ــ وهو قبلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ــ سببا في اتخاذ اليهود إياه ذريعة للاستكبار عن الدخول في الإسلام .

ويستطرد قطب « 434 - 436 » أن الاتجاه للكعبة هو الأصل . ففيها أول بيت وضع في الأرض للعبادة . فهذا هو البيت الذي اختاره الله للمسلمين قبلة . وهو بيت أبيهم إبراهيم . والإسلام هو ملة إبراهيم . فبيته هو أولى بيت بأن يتجه إليه المسلمون . وقد فرض الله على الناس أن يحجوا إلى هذا البيت ما تيسر لهم ذلك . وربما قد فرض الحج على الناس بعد أن حرم الله على المشركين الطواف بالبيت عندما نزلت سورة براءة في العام التاسع . ثم حج الرسول حجته في العام الذي يليه .

نأتي الآن إلى الأعياد والتقاليد . فيرى فيها قطب أنها من الشرك الواضح الظاهر. وهو الدينونة لغير الله في شأن من شئون الحياة . الدينونة في شرع يتحاكم إليه . والدينونة في تقليد من التقاليد كاتخاذ أعياد ومواسم يشرعها الناس ولم يشرعها الله . والدينونة في زي من الأزياء يخالف ما أمر الله به من الستر ويكشف أو يحدد العورات التي نصت شريعة الله أن تستر .

وعليه فإن الأمر في هذه الشئون يتجاوز منطق الإثم والذنب بالمخالفة حين يكون طاعة وخضوعا ودينونة لعرف اجتماعي سائد من صنع العبيد ، وتركا للأمر الواضح من رب العبيد . إنه عندئذ لا يكون ذنبا . ولكنه يكون شركا « الظلال 2033 » .

وهنا نذكر أيضا أنه قد ورد في كتاب الظلال « 2622 » أن الإسلام لا يحارب الشعر والفن لذاته ـــ كما قد يفهم من ظاهر الألفاظ في الآيات 224-227 من سورة الشعراء – إنما يحارب المنهج الذي سار عليه الشعر والفن . منهج الأهواء والانفعالات التي لا ضابط لها . ومنهج الأحلام المهومة التي تشغل أصحابها عن تحقيقها .

فالإسلام يعمل على أن تستقر الروح على منهج الإسلام وتنضج بتأثيراتها الإسلامية شعرا وفنا ، وتعمل في الوقت ذاته على تحقيق هذه المشاعر النبيلة في دنيا الواقع . ولقد وجه القرآن القلوب والعقول إلى بدائع هذا الكون ، وإلى خفايا النفس البشرية . وهذه وتلك هي مادة الشعر والفن . ومفرق الطرق أن للإسلام تصورا خاصا للحياة كلها ، وللعلاقات والروابط فيها . فأيما شعر نشأ من هذا التصور فهو الشعر الذي يرضاه الإسلام .

ننهي حديثنا في هذا المبحث بتناول موضوع « الحدود » والتي من بينها « حد القصاص » . ويخبرنا قطب « الظلال 166 » أن الحدود قد فرضت حتى في الوقت الذي كانت هنالك التقوى . هي الحارس اليقظ في داخل الضمائر ، وفي حنايا القلوب ، تكفها عن مواضع الحدود . وهذا ما يفسر لنا ندرة عدد الجرائم التي أقيمت فيها الحدود على عهد النبي وعهد الخلفاء ، ومعظمها كان مصحوبا باعتراف الجاني نفسه طائعا مختارا .

لقد فرض الإسلام القصاص ليكون معنى من معاني الحياة وليس انتقاما أو ثأرا لجريمة ارتكبت . لقد كان القصاص هو أفضل تعبير صادق من الجماعة المسلمة الأولى . لقبولهم الحاكمية التشريعية لله .

وأول ما تقرره شريعة الله في القصاص ، هو مبدأ المساواة . المساواة في الدماء . والمساواة في العقوبة . فالناس كلهم سواء أمام شريعة الله . إن هذا المبدأ العظيم الذي

جاءت به شريعة الله هو الإعلان الحقيقي الكامل لميلاد « الإنسان » . الإنسان الذي يستمتع كل فرد فيه بحق المساواة « 898 » .

فعندما يشرع الفرد لجماعة ، فإنه يشرع في القانون وفق هواه ؛ وعندما تشرع طبقة لسائر الطبقات فإن مصالح تلك الطبقة تكون هي القانون ؛ أو رأي الأغلبية البرلمانية يكون هو القانون ؛ وعندما يشرع ممثلو جميع الطبقات وجميع القطاعات في الأمة لأنفسهم . فهم يشرعون لأهوائهم ؛ وعندما تشرع مجموعة من الأمم للبشرية فإن أهدافها القومية تكون هي القانون – أو رأي المجامع الدولية هو القانون .

أما عندما يشرع الله للجميع ، فإذا هي شريعة الله التي لا محاباة فيها لأحد على حساب أحد . ولذلك فعندما يشرع القصاص فإن القصاص يكون العقاب الرادع والعادل بين الأفراد دون نظر إلى نسب أو مركز ، أو طبقة ، أو جنس . والقصاص على هذا الأساس ـ فوق ما يحمله من ميلاد الإنسان ـ هو القضاء الذي تستريح إليه الفطرة .

ويضيف قطب أن شرع الله في الإسلام يلحظ الفطرة . حتى إذا ضمن لها القصاص المريح ، راح يناشد فيها وجدان السماحة والعفو . عندما يقرر أن التصدق بالقصاص تطوعا أو التصدق بالقصاص بأخذ الدية مكان القصاص . فإن ذلك يكون كفارة لذنوب المتصدق « الظلال 891 - 899 ، المائدة ، الآيات 41 - 50 » .

إضافة إلى ذلك فإن تقرير شريعة القصاص هو أحد جوانب التنظيمات الاجتماعية للمجتمع المسلم التي وردت في الآية 178 من سورة البقرة ﴿ **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ..** ﴾ الآية . ويشير قطب إلى ما ورد في رواية ابن كثير أن هذه الآية منسوخة . نسختها الآية 45 من سورة المائدة التي نزلت بعدها وجعلت النفس بالنفس إطلاقا : ﴿ **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس** ... ﴾ الآية .

ويرد قطب على ذلك « الظلال 163 - 165 » أن الذي يظهر لنا أن موضع هذه الآية غير موضع آية ﴿ **النفس بالنفس** ..... ﴾ وأن لكل منهما مجالا غير مجال

الأخرى . فآية « النفس بالنفس ... » مجالها الاعتداء الفردي ؛ أما الآية الأولى فمجالها الاعتداء الجماعي . وإذا صح هذا النظر لا يكون هناك نسخ لهذه الآية . ولا تعارض في آيات القصاص .

إذن القاتل لابد وأن يقتص منه بالقتل ؛ ذلك لأن قتل النفس في الإسلام كبيرة تلي الشرك بالله . فالله واهب الحياة ، وليس لأحد غير الله أن يسلبها إلا بإذنه وفي الحدود التي يرسمها . فالإسلام لا يحل دم امرئ مسلم — كما يقول الرسول — إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزاني المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة .

تلك الأسباب الثلاثة المبيحة للقتل ، فمن قتل مظلوما بغير واحدة من تلك الأسباب ، فقد جعل الله لوليه — وهو أقرب عاصب له — سلطانا على القاتل إن شاء قتله وإن شاء عفا على الدية . هذا كله وفقا لشريعة الله العادلة . بمعنى أن القصاص يتم تحت رقابة الشرعية ورقابة الحاكم .

إننا نرى أن قطبا برؤيته هذه قد جعل من الثأر في إطار القصاص أو الدية قيمة إسلامية تعمل على نشر العدل والأمن في المجتمع . فهو هنا يجعل الأمر في يد السلطة المسئولة القائمة لتقيم العدالة بين الأفراد بدلا من الفوضى وإسالة الدماء . وعلى ذلك فإن رؤية قطب حقا مثيرة للإعجاب .

نتناول الآن حد الحرابة . وهذا الحد يطبق على من يعمل على تهديد أمن الجماعة المسلمة وتهديد النظام العام الذي تستمتع في ظله بالأمان . فالخارجون على حاكم يحكم بشريعة الله ، المعتدون على أهل دار الإسلام المقيمين للشريعة ، لا يحاربون الحاكم وحده ، و لا يحاربون الناس وحدهم . إنما يحاربون الله ورسوله . فجزاء هؤلاء الخارجين أن يقتلوا تقتيلا عاديا . أو أن يصلبوا حتى يموتوا ، أو أن تقطع أيديهم اليمنى مع أرجلهم اليسرى . من خلاف . أو أن ينفوا ويعزروا .

من ناحية أخرى ، نجد أن قطبا قد ركز على أن السلطان الذي يحق له — بأمر الله — أن يأخذ الخارجين عليه بهذه العقوبة المقررة لهذه الجريمة ، هو السلطان الذي يقوم على شريعة الله ورسوله ، في دار الإسلام المحكومة بشريعة الله ورسوله . وليس أي سلطان آخر لا تتوافر له هذه الصفة في أي دار أخرى لا يتوافر لها هذا الوصف .

هذا بالنسبة للخطايا والآثام التي تقتضي القصاص بالقتل . هذا القصاص ليس مطلقا وفي نفس الوقت لا يمكن إلغاؤه ، ولا يمكن الاحتكام فيه إلى سلطان الدولة إلا في حالات الخروج على روح الجماعة وفي قضايا القتل السياسي .

أما بالنسبة للسرقة ـــ وقد سبق الحديث عنها في الفصل الخامس – فإن قطبا يقرر أن حد قطع يد السارق لا يطبق حينما توجد شبهة من حاجة أو غيرها . فالمبدأ العام هو درء الحدود بالشبهات . إذن ليس هناك مجال لتطبيق حد قطع اليد إذا لم يوجد النظام الإسلامي الكامل الذي يضع الضمانات لإشباع حاجات كل فرد في المجتمع .

وقد عالجنا موضوع الزنا في الفصل الثاني . ولكن يمكن أن نضيف أن القرآن قد شدد في عقوبة قذف المحصنات ، فجعلها قريبة من عقوبة الزنا ؛ ثمانين جلدة . مع إسقاط الشهادة ، والوصم بالفسق .

فإذا جاء القاذف بأربعة شهود ، أو بثلاثة معه يشهدون برؤية الفعل ، فيكون قوله صحيحا . ويوقع حد الزنا على صاحب الفعلة .

هذه هي الحدود التي يجب على الدولة الإسلامية أن تطبقها ، ولكن ماذا عن الظروف المعاصرة ؟ فيجب أن يكون هناك فقه متجدد ، حركي ، ديناميكي .

المبحث الخامس

الفقه الحركي « الديناميكي »

نستهل حديثنا بالإشارة إلى نظرة قطب في تنظيم المعاملات الدولية في الإسلام . فقد حدد القرآن بصورة واضحة ودقيقة أحكام العلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات حوله . وكما يعرض صاحب الظلال فالإسلام قد وضع أسس علاقاته ومعاملاته الدولية مع المعسكرات الأخرى على السلم والعدل وليس على تحكيم السيف ، ومنطق القوة ، وشريعة الغاب .

ويستدرك قطب « الظلال 562-564 ، 1743 » أنه يجب أن يقاتل المسلمون لاستنقاذ الضعاف من إخوانهم المسلمين ، الذين لا يستطيعون الهجرة من دار الحرب وراية الكفر . ويكمل قطب هذه الفكرة بالرفض التام لما يسمى « حرية عدم الإيمان بالله » « الظلال 635 » : فحرية عدم الإيمان أدت إلى تضاعف الانحرافات الأخلاقية ابتداء من انتشار ظاهرة « الحب الحر » ومرورا بإدمان المخدرات وانتهاء بانتشار العلاقات الجنسية غير الشرعية وانطلاق الشهوات الحيوانية وما نتج عن ذلك من اضطرابات عقلية تتعرض لها المجتمعات الأوروبية والأمريكية .

إن النظام الدولي حسب رؤية قطب ينبع من دور الأمة المسلمة في قيادة البشرية وتطبيق منهج الله في الأرض . ومن هنا كان الرفض في التلقي عن نظام الحياة والشرائع والقوانين من الغرب كما فعل بعض الحكام في القرن الحالي . وما يفعله بعض المسئولين في الدول الإسلامية عندما يتلقون عن النظم والمناهج الغربية .

وهنا يشير قطب إلى أن النصوص القرآنية تعرض لنا أن أصحاب السلطان بعدائهم

المستمر للرسالات يحاولون دائما إغراء أصحاب الدعوات لينحرفوا ولو قليلا عن استقامة الدعوة وصلابتها وذلك بأن يطلبوا تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق وبما يتماشى مع تصوراتهم وأنظمتهم الباطلة . ومن هنا كان أيضا رفض قطب لتلقي الجماعة المسلمة في شأن التشريعات والأنظمة القانونية من خارج النظام الإسلامي وتجاوبه مع الاستفادة من تطور العلوم الأخرى كلما كان ذلك ممكنا .

ويؤكد قطب « الظلال 635 ، 603-604 ، 437-440 ، 3165 ، 2245 وغيرها » أن كل هذه المحاولات قد عصم الله الجماعة المسلمة منها . فالشريعة الإسلامية والنظام الإسلامي قطاعات متناسقة في جسم المنهج الإلـٰهي المتكامل وكلها مشدودة إلى تلك العروة التي تربط قطاعات المنهج كله . ومن ثم يصبح المنهج الإلـٰهي وحدة واحدة . لا تتجزأ ولا تتفرق . ويصبح ترك جانب منه وإعمال جانب ، إيمانا ببعض الكتاب وكفرا ببعض . فهو الكفر في النهاية . فهذه هي طريقة الإسلام في ربط النظام الذي يقيمه للإنسان بالنظام الذي أقامه الله للكون كله .

هذا هو احتمال التكامل والتناسق في النظام الإسلامي والذي يتوازن مع احتمال حرية الاعتقاد . ويستطرد قطب : إن دور الإنسان في خلافة الأرض يقتضي تحوير الحياة وتطويرها حتى تبلغ الكمال المقدر لها في علم الله . ومن ثم ركز الله في الفطرة البشرية حب التغيير والتبديل ، وحب الكشف والاستطلاع . وحب الانتقال من حال إلى حال ومن نظام إلى نظام . وذلك كي يندفع الإنسان في طريقه ، يغير في واقع الحياة . ويبدع في نظم المجتمع وفي أشكال المادة . ومن وراء التغيير والكشف والإبداع ترتقي الحياة وتتطور ، وتصل شيئا فشيئا إلى الكمال المقدر لها في علم الله .

إنه مركوز في الفطرة كذلك ألفة القديم ، والتعلق بالمألوف ، والمحافظة على العادة . ولكن كل ذلك كله بدرجة لا تشل عملية التطور والإبداع . ولا تعوق الحياة عن الرقي والارتفاع . ولا تنتهي بالأوضاع إلى الجمود والركود . إنما هي المقاومة التي تضمن التوازن مع الاندفاع .

إذن عندما لا توجد نصوص فيما جاء به الرسول بخصوص أمر يعرض للأمة

فسبيلها أن تشرع له بما لا يخالف أصلا من أصول ما جاء به الرسول . وعلى ذلك يمكن القول بأن النظم الإسلامية كلها ليست أشكالا جامدة ، وليست نصوصا حرفية .

فإذا كان القرآن قد وضع أصول المنهج الدائم لحياة إنسانية متجددة . فإنه قد ترك للبشرية أن تستنبط الأحكام الجزئية التي تحتاج إليها ارتباطات حياتها النامية المتجددة ، واستنباط وسائل تنفيذها كذلك بحسب ظروف الحياة وملابساتها ، دون اصطدام بأصول المنهج الدائم .

إذا ، إننا في حاجة إلى « فقه جديد » في هذه الفترة الحاضرة ، لازم لحركة ناشئة في مواجهة الجاهلية الشاملة . هذا الفقه المطلوب هو « فقه الحركة » في مواجهة الحياة المتحركة التي لا تكف عن الحركة .

إن ذلك يقتضي « اجتهادا » جديدا في « فقه الحركة » ، هذا النوع من الفقه هو الذي تحتاج إليه الحركة الإسلامية الوليدة . أما الفقه الخاص بأنظمة الدولة ، وشرائع المجتمع المنظم المستقر ، فهذا ليس أوانه ، فهذا النوع من الفقه يأتي في حينه ، وتفصل أحكامه على قدر المجتمع المسلم حين يوجد ، ويواجه الظروف الواقعية التي تكون محيطة بذلك المجتمع يومذاك .

إن الفقه الإسلامي لم ينشأ في فراغ ، كما أنه لا يعيش ولا يفهم في فراغ . لقد نشأ من خلال حركة هذا المجتمع في مواجهة حاجات الحياة الإسلامية الواقعية .

وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد الآن بعض الباحثين يشغلون أنفسهم بمشكلات مثل الزكاة وكيفية إنفاقها في مصارفها وفي أعمال البنوك وأساسها الربوي . وشركات التأمين وقاعدتها الربوية . وتحديد النسل وإلى آخر هذه المشكلات .

إنهم جميعا يبدءون من افتراض أن قواعد النظام الإسلامي وأحكامه سيجاء بها لتطبق على هذه المجتمعات الجاهلية الحاضرة بتركيبها العضوي الحاضر ، فتنتقل هذه المجتمعات إذن — متى طبقت عليها أحكام الإسلام — إلى الإسلام .

ولكن يجب أن ندرك أولا أن الفقه الإسلامي ليس هو الذي أنشأ المجتمع المسلم ،

إنما المجتمع المسلم بحركته – في مواجهة الجاهلية ابتداء – ثم بحركته في مواجهة حاجة الحياة الحقيقية ثانيا هو الذي أنشأ الفقه الإسلامي .

ومن ثم لابد أن يوجد المجتمع المسلم أولا بتركيبه العضوي الطبيعي ، فيكون هو الوسط الذي ينشأ فيه الفقه الإسلامي ويطبق . وساعتها قد يحتاج ذلك المجتمع الخاص – بعد نشأته في مواجهة الجاهلية وتحركه في مواجهة الحياة – إلى البنوك وشركات التأمين وتحديد النسل ....إلخ وقد لا يحتاج .

ويواصل قطب حديثه عن الفقه الحركي « الظلال 1196 ، 1735 » : بأن هذا « الفقه الحركي » هو فقه واقعي ديناميكي . ومع كون أن الحركة هي قوام هذا الدين ، لذلك فإن من يقومون بهذا الفقه هم رجال المواجهة ، الذين يتحركون به ، ويجاهدون لتقريره بالحركة العملية .

إن فقه هذا الدين لا ينبثق إلا في أرض الحركة . ولا يؤخذ عن فقيه حيث تجب الحركة . والذين يعكفون على الكتب والأوراق في هذا الزمان ليستنبطوا منها أحكاما فقهية « يجددون » بها الفقه الإسلامي أو « يطورونه » كما يقول المستشرقون من الصليبيين والفلاسفة وعلماء علم الكلام وهم بعيدون عن الحركة فإنهم لا يفقهون طبيعة هذا الدين ، ومن ثم لا يحسنون صياغة فقه هذا الدين !

إن المجتمع الإسلامي الذي يعمل فيه هذا « الفقه الحركي » ليس هو المجتمع الذي تتغير أشكاله ومقوماته المادية ، فتتغير قيمه وأحكامه . حيث تكون قيم وأخلاق للمجتمع الزراعي ، وقيم وأخلاق أخرى للمجتمع الصناعي . وحيث تكون هناك قيم وأخلاق للمجتمع الرأسمالي البرجوازي ، وقيم وأخلاق أخرى للمجتمع الاشتراكي أو الشيوعي . ولكن المجتمع الإسلامي هو المجتمع الذي يعين فيه الإسلام قيما ذاتية له يقررها الله . وهذه القيم تثبت مع تغير « أشكال المجتمعات » .

من هنا نستطيع القول إن هناك فرقا كبيرا بين أصحاب « الثورة المادية » وبين سيد قطب . فالفقه – كما يرى قطب – نشأ في المجتمع الإسلامي على مدى التاريخ في إطار حركة هذا المجتمع على أساس ديني وروحي – فالفقه الإسلامي وليد الحركة

الإسلامية . فقد وجد الدين أولا ثم وجد الفقه . وليس العكس هو الصحيح . وجدت الدينونة لله وحده ، ووجد المجتمع الذي قرر أن تكون الدينونة فيه لله وحده .

ويمكن أن نضيف أيضا أن قطبا قد أدرك تماما أن هذا « الفقه الحركي » لا ينشأ إلا في المجتمعات الإسلامية التي تقوم على الحركة النشطة دائما . هذه الحركة لا يكون لها أساس الحركات الصوفية المنعزلة عن حركة المجتمع وتطوره .

ويشير قطب « الظلال 3337 » إلى أن سورة الحجرات تعرض لنا صورة من الفقه الإسلامي الذي نشأ في مجتمع المدينة على أساس من التجارب الواقعية الإيمانية وعلى أساس من الحقيقة الواقعية لحياة المجتمع وتطوره .

إن هذا المجتمع هو النموذج أو المثال لكل عملية من شأنها أن تبعث وتجدد في الفقه الإسلامي . فالمجتمع المسلم في المدينة وجد أولا قبل أن توجد الشعائر . وحين أصبح لهؤلاء الذين قرروا الدينونة لله وحده سلطان مادي في الأرض تنزلت الشرائع ، وحين واجهوا الحاجات الحقيقية لحياتهم استنبطت أحكام الفقه ، إلى جانب ما ورد بنصه في الكتاب والسنة « 2009 - 2113 » .

إذن ، فقطب أراد أن يوضح لنا أن هناك مرحلتين لوجود الفقه : المرحلة الأولى هي مرحلة انتقالية في ظل مجتمع الجاهلية ، والمرحلة الثانية مرحلة مستقرة ولكنها حركية في ظل دولة إسلامية متجددة وحركية .

إن هذا « الفقه الحركي » ينشأ على أساس عبادة الله وحده أي أن تكون الدينونة لله وحده . وما يترتب على ذلك من حقائق واقعية في المجتمع . فلا بد من إتمام الدين أولا . فحالة المجتمع لا تكون إلا تعبيرا عن « تمام العقيدة » قبل قيام النظام العام . فالنظام العام ينشأ كنتيجة لمواجهة حاجات ضرورية تعبيرا عن منهج الإيمان والعقيدة . ومن هنا ينشأ « الفقه الضروري » لطبيعة الدين وحقيقته ، وطبيعة الجاهلية وحقيقتها حتى يمكن للإنسان أن يقوم الأحكام الإسلامية .

إنها حلقة هامة وضرورية ، ولكنها واحدة ثابتة . حلقة وصل بين عقيدة الإيمان وبين حياة الإنسان على أساس هذه العقيدة . إن تحقيق هذه الصورة في الحياة الإنسانية

هو الذي يحقق للإنسان « إنسانيته » كاملة .

وكنتيجة طبيعية فإن قطبا يعرض لنا إحدى أفكاره القوية عندما يقرر « الظلال 1009-1051 » ، أن بناء العقيدة وتمكينها كان ضرورة من ضرورات النشأة الصحيحة لقيام الدولة الإسلامية في المدينة . فالله لم يشأ أن ينزل على المسلمين في مكة النظام والشرائع حتى تطبق بمجرد قيام الدولة في المدينة . وبالتالي أنزل لهم في مكة عقيدة . فلما صارت لهم دولة في المدينة ، ذات سلطان ، تنزلت عليهم الشرائع وتقرر لهم النظام .

كذلك يجب أن يكون مفهوما لأصحاب الدعوة الإسلامية ، أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين ، يجب أن يدعوهم أولا إلى اعتناق العقيدة . يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو أولا إقرار عقيدة .

إذن ، فحقيقة ما تستهدفه الدعوة الإسلامية – في رأي قطب – اليوم هي دعوة البشرية من جديد إلى الدخول في الإسلام : عقيدة ، وخلقا ، ونظاما . إنها ذات المحاولة التي كان يتصدى لها الرسول ؛ وإنها ذات النقطة التي بدأ منها دعوته أول مرة .

ومن الآثار أو النتائج الهامة لقضية العقيدة والإيمان ، أن الإسلام يرفض أن يعطي لبعض الأفراد حق التشريع للمجتمع وللأفراد . هؤلاء الأفراد عندما يسنون السنن ، ويضعون التقاليد ، ويحكمون بين الناس في منازعاتهم وفق العرف والرأي ، فالإسلام يعتبر ذلك شركا ، ويعتبر أن تحكيم الناس في أمور الناس تأليه لهم ، وجعلهم أندادا من دون الله . ولذلك فإن الرسول جاهر في مواجهة المشركين بأن جرد نفسه من أن تكون له قدرة ، أو تدخل في شأن القضاء الذي ينزله الله بعباده .

من جهة أخرى نجد أن قطبا قد أشار « الظلال 610 ، 623 ، 692 » إلى أن الإسلام حين يحيل الفقه الإسلامي على « العرف » في بعض المسائل فهو يمنح العرف ابتداء سلطانا من عنده هو – بأمر الله – فتصبح للعرف – في هذه المسائل – قوة الشريعة ، استمدادا من سلطان الشارع – وهو الله – لا استمدادا من الناس ومن

البيئة التي تواضعت على هذا العرف من قبل . وعلى ذلك فإن الإسلام لا يستند إلى عرف الجاهلية في بعض الأمور ، إنما يستند إلى سلطانه الخاص .

فهل هناك إذن ما يمكن أن يسمى بالحق الطبيعي في التشريع ؟ يجيب قطب « 610-611 » أنه ليس لأحد غير الله أن يشرع ، وليس لأحد أن يدعي هذا الحق . لأن هذا مرادف تماما لدعوى الألوهية ! ولكن يمكن أن يكون للفرد هذا الحق إذا كان يستمد سلطانه من الله ، حسب شريعة الله .

فالله هو صانع الإنسان . الذي يعلم حقيقة فطرته ، والحاجات الحقيقية لهذه الفطرة . والله هو صانع هذا الكون ، الذي يعيش فيه الإنسان . فهو يضمن للإنسان منهجا تتلاءم قواعده مع نواميس الكون . ومع ذلك فإن الله يكرم الإنسان ويحترمه ويجعل لعقله مكانا للعمل في المنهج .

ويستطرد قطب « الظلال 843-988 » مؤكدا أنه تناسق تام بين إكمال العقيدة ، وإكمال الشريعة معا . مع بدء مولد « الإنسان » . ليجعل لعقل الإنسان مكانا في الاجتهاد والفتوى . على أساس أن تطبق شريعة الله . فشريعة الله لا تستفتى إلا ليطبق حكمها وينفذ . فما الاجتهاد أو الاستفتاء إلا لتحكم شريعة الله في واقع الحياة .

إنه طريق شاق حقا . يصعب فيه الإدراك العميق لمفاهيم النصوص القرآنية وتطبيقها في ظروف الحياة الواقعية المتغيرة . ذلك في إطار الصراع بين الإسلام وبين الجاهلية الحديثة . إنها مهمة صعبة لأي دولة إسلامية . فمن يستطيع أن يقوم بمهمة الإصلاح والتطبيق ؟

يجيبنا قطب : إنهم « طلائع البعث الإسلامي » . الذين يواجهون الجاهلية الحديثة . ومن تصارع تصور الاتجاهين يولد « الفقه الحركي » الجديد .

المبحث السادس

البعث الإسلامي

يعرض لنا كتاب الظلال أن الحضارة البشرية سارت في طريقها خطوة خطوة وراء الكشوف . ولم تجيء طفرة ؛ لأن خلافة الأرض تركت لهذا الإنسان ، ولمداركه التي زوده الله بها ليخطو في كل يوم خطوة ، ويعيد تنسيق حياته وفق هذه الخطوة . وإعادة تنسيق الحياة وفق نظام جديد ليست سهلة على النفس البشرية ، فهي تهز أعماقها ؛ وتغير عاداتها ومألوفها ، وتقتضي فترة من الزمان لإعادة الاستقرار الذي تطمئن فيه إلى العمل والإنتاج . ومن ثم شاءت حكمة الله أن تكون هناك فترة استقرار تطول أو تقصر . بعد كل تنسيق جديد « الظلال 1258 » .

وبهذا المقياس نجد أن المجتمعات البشرية اليوم – في رأي قطب – هي مجتمعات جاهلية . وأن الإسلام اليوم متوقف عن « الوجود » مجرد الوجود ! وأن الدعاة إليه اليوم يستهدفون ما كان يستهدفه محمد رسول الله تماما ، ويواجهون ما كان يواجهه تماما .

يوضح قطب ذلك « الظلال 1945 ، 1441 » ، بأنها دورة جديدة من دورات الجاهلية التي تعقب الإسلام فيجب أن تواجهها دورة من دورات الإسلام الذي يواجه الجاهلية .. ولكن كيف ؟ .

إن ذلك هو الدور الأساسي « لطلائع البعث الإسلامي » الذين يجب أن يبدءوا بدعوة الناس بالدخول إلى الإسلام ، ثم المفاصلة والمفارقة مع مجتمع الجاهلية . فالمسلم قبل أن ينطلق للجهاد في المعركة يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر في نفسه مع الشيطان . مع هواه وشهواته . مع مطامعه ورغباته . مع مصالحه ومصالح عشيرته وقومه . مع كل شارة غير شارة الإسلام .

إن طلائع البعث الإسلامي ــ في رأي قطب ــ هم أناس يدينون دين الحق . يدينون لله وحده بالحاكمية والسلطان والتشريع ويطبقون هذا في واقع الحياة . ثم يحاولون أن ينطلقوا في الأرض بهذا الإعلان لتحرير الإنسان « الظلال 1634 » .

إن نقطة البدء لنشاط هذه الطلائع أن تنزل اللافتات الخادعة المرفوعة على الأوضاع الجاهلية وعلى كل ما تدعوه به هذه الجاهلية من نظم وتصورات كالتي سبق أن رفعها « أتاتورك » ومن هم على شاكلته . « 1648 » .

وقد ورد في كتاب الظلال إشارات أخرى إلى « طلائع البعث الإسلامي » وما تعانيه من أذى وتعذيب « 1865 ، 1892 ، 1946 » .

وهنا يقول قطب إن طلائع البعث الإسلامي التي تواجه الجاهلية الشاملة في الأرض كلها ، ينبغي أن تقف طويلا أمام قصة نوح . إن حفنة من المسلمين من أتباع نوح ، هم كانوا حصيلة دعوة نوح من ألف سنة إلا خمسين عاما . لقد ظل نوح طوال هذه الفترة يدعو قومه الذين استهزءوا به إلى عبادة الله دون أن يلبوا دعوته .

إن طلائع البعث الإسلامي يجب أن تدرك طبيعة النشأة الإسلامية عندما تبدأ في العمل الحقيقي البناء لإعادة هذا الدين إلى الوجود الفعلي ، بعد أن انقطع هذا الوجود منذ أن حلت شرائع البشر محل شريعة الله في خلال القرنين الأخيرين ؛ وخلا وجه الأرض من الوجود الحقيقي للإسلام ، وإن بقيت المآذن والمساجد ، والأدعية والشعائر .

ويعبر قطب عن تمنياته في الدعوة « الظلال 2013 » : ليت هناك طريقا سهلا عن طريقه تتحول الجماهير بجملتها إلى الإسلام منذ أول وهلة في الدعوة باللسان ، وببيان أحكام الإسلام : ولكن هذه إنما هي « الأماني » ! فالجماهير لا تتحول أبدا من الجاهلية وعبادة الطواغيت ، إلى الإسلام وعبادة الله وحده إلا عن ذلك الطريق الطويل البطيء الذي سارت فيه دعوة الإسلام في كل مرة . والذي يبدأه الفرد ، ثم تتبعه طليعة ، ثم تتحرك هذه الطليعة في وجه الجاهلية لتعاني ما تعاني حتى يحكم الله بينها وبين قومها بالحق ويمكن لها في الأرض ... ثم ... يدخل الناس في دين الله أفواجا !

المبحث السابع

الجاهلية الحديثة

يقول قطب في ذلك « الظلال 1866 » : إنها جاهلية عامة ، شاملة ، وعالمية . إنها الطواغيت في أرجاء الأرض ، إنها الأصنام ، إنها الكفر والشرك ؛ لذا يجب التصدي لها ومقاومتها وتعريتها ومحاربتها .

ويفسر قطب هذا « الظلال 1853 ، 1942 » بأن الطواغيت في الأرض يحاولون أن يغتصبوا لأنفسهم حق التشريع ويزاولونه في حياة الناس . بينما الله وحده هو الصاحب الشرعي لهذا السلطان . إن كل طاغوت ، يحتاج كي يطاع ويتبع ، إلى أن يسخر كل القوى والطاقات ، أولا لحماية شخصه ؛ وثانيا لتأليه ذاته . ويحتاج إلى حواش وذيول وأجهزة وأبواق تسبح بحمده ، وترتل ذكره ، وتنفخ في صورته « العبدية » الهزيلة لتتضخم وتشغل مكان « الألوهية » العظيمة !

بينما نجد أن جمهرة الناس لا يجدون لأنفسهم مفرا إلا الخضوع لهؤلاء ولكل ما يشرعونه ولكل ما يحرمون ويحللون من قبل أنفسهم .

لقد كانت تنحية الإسلام عن قيادة البشرية حدثا هائلا في تاريخها . ونكبة قاصمة في حياتها ، نكبة لم تعرف لها البشرية نظيرا في كل ما ألم بها من نكبات . لقد نحي الإسلام عن القيادة . نحي عنها لتتولاها الجاهلية مرة أخرى « الظلال 16 » .

لقد قرر المنهج القرآني حقيقة الفواصل والفوارق بينه وبين منهج الجاهلية . فهما منهجان لا يلتقيان ، ولا يتعايشان .

إن الجاهلية — في نظر قطب — هي الفسوق عن كلمة الله ، ونقض عهد الله ،

وقطع ما أمر الله به أن يوصل . وهي أيضا الفساد في الأرض بالحيدة عن منهج الله الذي اختاره ليحكم حياة البشر ويصرفها .

لقد كان لنكث العهد مع الله آثار عديدة مع كل مرة يتم فيها نقض عهد الله وميثاقه على حياة البشر . ونتج عن ذلك أن تولت الجاهلية قيادة البشرية في صورة من صورها الكثيرة . صورة التفكير المادي الذي تتعاجب به البشرية اليوم .

فالجاهلية ـــ كما يقرر قطب « 557 » -- ليست فترة ماضية من فترات التاريخ . إنما الجاهلية كل منهج يتمثل فيه عبودية البشر للبشر . وهذه الخاصية تتمثل اليوم في كل مناهج الأرض بلا استثناء . ففي كل المناهج التي تعتنقها البشرية اليوم ، يأخذ البشر عن بشر مثلهم : التصورات والمبادئ والموازين والقيم ، والشرائع والقوانين ، والأوضاع والتقاليد . وهذه هي الجاهلية بكل مقوماتها .

وفي مقابل ذلك يستطيع المنهج الإسلامي ، وتستطيع النصوص القرآنية ، أن تلتقط الفرد الإنساني ، وأن تلتقط المجموعة الإنسانية ، من أي مستوى ، ومن أية درجة من درجات المرتقى الصاعد ، فينتهي به وبها إلى القمة السامقة .

ويستدرك صاحب الظلال « 211 - 213 » إن هذه الجاهلية ما بدلت نعمة الله في الإيمان إلا أصابها العقاب الشديد في حياتها على الأرض قبل عقاب الآخرة . وها هي ذي البشرية المنكودة الطالع في أنحاء الأرض كلها تعاني العقاب الشديد ، وتجد الشقوة النكدة ، وتعاني القلق والحيرة ، ويأكل الفرد منها نفسه وأعصابه ، وبالخواء القاتل الذي يحاول المتحضرون أن يملئوه بالمسكرات والمخدرات . ومحاولة لفت النظر بالشذوذ الصارخ ثم الانتحار . كل ذلك يكشف عن الحيرة القاتلة التي لا طمأنينة فيها ولا سلام .

حتى ما تعتبره الجاهلية انتصارا في معركة حربية أو سياسية أو اقتصادية ، فإنه لا قيمة له ولا وزن في نظر الإسلام ، ما لم يقم هذا كله على أساس المنهج الرباني في الانتصار على النفس . وتقرير الحق الذي أراده الله في حياة الناس . وإلا فهي جاهلية تنتصر على جاهلية .

ويكرر قطب « الظلال 211 ، 326 » أنها الشقوة النكدة المكتوبة على قلب يخلو من بشاشة الإيمان وطمأنينة العقيدة . فلا يذوق طعم السلم . إن العالم الذي نعيش فيه اليوم – في أنحاء الأرض – هو عالم القلق والخوف والأمراض .

إن الجاهلية التي نعيشها اليوم تجعل البشرية كلها تعاني هذا الشقاء ، سواء اتبعت المذاهب المادية الإلحادية ، أو المذاهب المادية التي تحاول استبقاء الدين عقيدة بعيدة عن نظام الحياة العملية . ولكن الجاهلية هي الجاهلية . إنهم أصحاب المذاهب المادية وأصحاب القوة المادية . وهم أصحاب كلمة مسموعة في الشئون الدولية .

لقد كان العرب في جاهليتهم – على كل ما في هذه الجاهلية من ضلال في التصور ينشأ عنه انحطاط في الحياة – أرقى من الجاهلية أو العلمية الحديثة التي تغلق فطرتها وتعطلها دون رؤية حقيقة أن لله ما في السماوات والأرض « الظلال 1048 » .

فالمشركون أصحاب الجاهلية الأولى كانوا يكذبون بآيات الله التي جاءهم بها الرسول . وقالوا إنها ليست من عند الله . بينما هم يزعمون أن ما يزاولونه في جاهليتهم هو الذي من عند الله ! وذلك كالذي يحدث من أهل الجاهلية اليوم . التي طورت هجومها ضد الإسلام في صورة فكرية بالعمل على تدمير الوعي الديني والعاطفة الدينية عند المسلمين .

ولكن ماذا فعل المشركون بالمسلمين أيام الغزو الثاني للشرك أيام التتار ؟ ثم ما يصنع المشركون والملحدون اليوم بعد أربعة عشر قرنا بالمسلمين في كل مكان ؟

يرد قطب على هذه التساؤلات التي يطرحها : إنهم لا يرقبون فيهم إلاً ولا ذمة .
إن الواقع التاريخي الحديث لا تختلف صوره عن صورة ما فعل التتار بالمسلمين !
إن ما وقع من الوثنيين الهنود عند انفصال باكستان لا يقل شناعة ولا بشاعة عما وقع من التتار في ذلك الزمان البعيد . إن ثمانية ملايين من المهاجرين المسلمين من الهند ، قد وصل منهم إلى أطراف باكستان ثلاثة ملايين فقط ! أما الملايين الخمسة الباقية فقد قضوا بالطريق . فقد ذبحتهم العصابات الهندية .

ثم ماذا فعل خلفاء التتار في الصين الشيوعية وروسيا الشيوعية بالمسلمين هناك ؟

لقد أبادوا من المسلمين في خلال ربع قرن ستة وعشرين مليونا . بمعدل مليون في السنة . كذلك فعلت يوغسلافيا الشيوعية بالمسلمين فيها . حتى أبادت منهم مليونا منذ الفترة التي صارت فيها شيوعية بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم . وما يجري في يوغسلافيا يجري في جميع الدول الشيوعية الوثنية . الآن . في هذا الزمان « الظلال 1609 » .

ويوضح قطب « الظلال 1087 » أن التاريخ النكد الذي عاشته أوروبا قرونا طويلة . من صراع وحشي من الكنيسة ومن الكبت والقمع . هو الذي دفع الأوربيين في هذه الموجة من الإلحاد في النهاية . ذلك إلى استغلال اليهود لهذا الواقع التاريخي ، ودفع النصارى بعيدا عن دينهم ، ليسلس لهم قيادهم وليتيسر لهم استخدامهم كما تشير إلى ذلك « بروتوكولات حكماء صهيون » . وما الشيوعية إلا إحدى المنظمات اليهودية التي تعمل في العصر الحاضر على نشر الإلحاد في نفوس الأمم .

فالشيوعية أرادت أن تقيم مجتمعها الذي يقوم على قاعدة « الطبقية » كوجه آخر للتجمعات القومية الاستغلالية وللتجمعات الإمبريالية الاستعمارية . ولكنه كان استبدال استعباد باستعباد طبقي في صورة أخرى . وذلك بتسويد طبقة واحدة . إنه استعباد عنصري جديد يفرق بين الألوان والعناصر . وما تزال الجاهلية الحديثة في أمريكا وفي جنوب أفريقية وفي غيرها تزاول التفرقة العنصرية .

أما الرأسمالية ، فإنها صورة أخرى من صور المادية – كما يراها قطب « الظلال 1754 » : حيث وقعت الأكثرية الساحقة في عبودية ذليلة للأقلية الطاغية التي تملك رأس المال ، فتملك معه الأغلبية البرلمانية : والدساتير الوضعية ! والحريات الصحفية ! وسائر الضمانات التي ظنها الناس كفيلة بضمان إنسانيتهم وحريتهم وكرامتهم .

ولكن ماذا بالنسبة « للاشتراكيين » ، بمعنى الناس الذين هربوا من الأنظمة الفردية التي يطغى فيها « رأس المال » و « الطبقة » إلى الأنظمة الجماعية ؟! . لقد

استبدلوا بالدينونة لطبقة « الرأسماليين » الدينونة لطبقة « الصعاليك » ! أو استبدلوا بالدينونة لأصحاب رءوس الأموال والشركات الدينونة للدولة التي تملك المال إلى جانب السلطان ! فتصبح أخطر من طبقة الرأسماليين !

وفي كل حالة وفي كل وضع وفي كل نظام دان البشر فيه للبشر ، دفعوا من أموالهم ومن أرواحهم الضريبة الفادحة . دفعوها للأرباب المتنوعة في كل حالة ! وهنا يشير قطب إلى أنه يمكن الرجوع – في هذا الموضوع – إلى كتاب « الإسلامية والجاهلية » للمودودي ، وكتاب « جاهلية القرن العشرين » لمحمد قطب .

أما على أرض الإسلام ، فيخبرنا الظلال « 1218-1219 » ، أن بعض الشياطين اليوم في الجاهليات الحديثة لا يستطيع أن يتبجح تبجح الشيوعيين الملحدين ؛ فينفي وجود الله جملة ويتنكر للدين علانية . إنما يلجأ إلى نفس الأسلوب الذي كان يلجأ إليه الشياطين في جاهلية العرب ! يقولون : إنهم يحترمون الدين ! ويزعمون أن ما يشرعونه للناس له أصل من هذا الدين !

ثم يجيء « المتحمسون » لهذا الدين ، فيفرغون جهدهم في استنكار جزئيات هزيلة على هامش الحقيقة الإسلامية . ولكنهم في نفس الوقت يسبغون على الأوضاع الجاهلية المشركة طابع الإسلام . ويشهدون لها شهادة ضمنية خطيرة بأنها تقوم على أصل من الدين حقا ، ولكنها تخالف عنه في هذه الجزئيات الهزيلة !

ويؤدي هؤلاء المتحمسون دورهم لتثبيت هذه الأوضاع وتطهيرها . وهو نفس الدور الذي تؤديه الأجهزة الدينية المحترفة ، التي تلبس مسوح الدين !

إننا ينبغي أن ندرك دائما أسلوب الجاهلية التي تقيم نظاما أرضيا ، الحاكمية فيه للبشر لا لله ، ثم تزعم أنها تحترم الدين وتستمد منه أوضاعها الجاهلية .

وقد عمدت الأجهزة الصليبية والصهيونية إلى نفس الأسلوب الخطير بالزعم بأنها تحترم الدين وتستمد منه أوضاعها الجاهلية ، وهي تحاول أن تضع على تجاربها في تحطيم الإسلام ستارا من الدين وتقيم له أجهزة دينية تضفي عليه هذه الصفة .

إن التصورات المبهمة الغامضة التي تعرضها الجاهلية ، وهذا العرف الاجتماعي

الذي ينبثق منها ، ويضغط على جمهرة الناس بثقله الساحق . لا ينحصر في الصور التي عرفتها الجاهليات القديمة . فنحن نشهده اليوم بصورة أوضح في الجاهليات الحديثة . هذه العادات والتقاليد التي تكلف الناس العنت الشديد في حياتهم ، ثم لا يجدون لأنفسهم منها مفرا . هذه الأزياء والمراسم التي تفرض نفسها على الناس فرضا ، وتكلفهم أحيانا ما لا يطيقون من النفقة .

إنه فعل الشياطين ، شياطين الإنس والجن . وإنها الجاهلية تختلف أشكالها وصورها ، وتتحد جذورها ومنابعها ، وتتماثل قوائمها وقواعدها . إنها جاهلية الطغاة التي تستنكر أن الحاكمية لله .

من هنا نقول إن مهمة « طلائع البعث الإسلامي » هي مواجهة هذه الجاهليات في أشكالها المختلفة ، إن الله حي . موجود . له القدرة والسلطان . له الحاكمية وحده . سواء شئنا أم لم نشأ . ولا يبقى لنا الآن إلا أن نبحث في تفكير سيد قطب حول فكرة الحاكمية أو الربوبية .

المبحث الثامن

الحاكميــة

إن حكم الله هو الحكم الوحيد المبرأ من مظنة الحيف ؛ لأن الله هو العادل الذي لا يظلم أحدا . وكل خلقه أمامه سواء . فلا يظلم أحدا منهم لمصلحة أحد « الظلال 2526 » .

إن أي فكرة ، أو عقيدة ، أو شخصية ، أو منظمة . إنما تحيا وتعمل وتؤثر بمقدار ما تحمل من قوة كامنة وسلطان قاهر . هذه القوة تتوقف على مقدار ما فيها من « الحق » ، أي بمقدار ما فيها من توافق مع القاعدة التي أقام الله عليها الكون ، ومع سنن الله التي تعمل في هذا الكون . وعندئذ يمنحها الله القوة والسلطان الحقيقيين الفاعلين المؤثرين في هذا الوجود .

من هذا فإن قطبا يرى أن كل صفة من صفات الله تمثل قاعدة يقوم عليها التصور الإسلامي الناصع ، كما يقوم عليها المنهج الإسلامي .

إذن الإنسان عليه أن يعيش عقيدته كاملة . وأن يشهد لهذا الدين في النفس ، أولا بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة له ، وثانيا بأن يترجم إيمانه من خلال شعوره وسلوكه في الحياة . وأن يشهد للدين أيضا بدعوة الناس إليه . ثم الشهادة لهذا الدين بمحاولة إقراره في الأرض ، منهجا للجماعة المؤمنة ، ومنهجا للبشرية جميعا « الظلال 673 ، 688 ، 697 » .

مدلول هذه الشهادة عند قطب ألا يتخذ المسلم إلا الله إلـٰها . ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا من الله . ومقتضى هذه الشهادة أن يجاهد إذن لتصبح الألوهية لله وحده

في الأرض . فإذا اقتضى هذا الأمر أن يموت في سبيله . فهو إذن شهيد . أي شاهد طلب الله إليه أداء هذه الشهادة فأداها . فذلك هو « الإنسان الجديد » و « الميلاد الجديد » .

والربوبية المطلقة – كما نجدها في الظلال « 25 ، 200 » – هي فرق الطريق بين وضوح التوحيد الكامل الشامل ، والغبش الذي ينشأ من عدم وضوح هذه الحقيقة بصورتها القاطعة . وكثيرا ما كان الناس يجمعون بين الاعتراف بالله بوصفه الموجد الواحد للكون ، والاعتقاد بتعدد الأرباب الذين يتحكمون في الحياة .

ويذكر قطب أن ذلك قد يبدو غريبا مضحكا . ولكن كان ومايزال . فإطلاق الربوبية في سورة الفاتحة ، وشمول الربوبية للعالمين جميعا هي مفرق الطريق بين النظام والفوضى في العقيدة . لتتجه العوالم كلها إلى رب واحد . إن هذه الحقيقة لا يدركها إلا من يعيش في الجاهلية البشرية التي تعج بها الأرض في كل مكان ، ثم يحيا بعد ذلك بالتصور الإسلامي الرفيع للحياة .

إذن ، الحاكمية تفرض وتؤكد مجموعة من القواعد الأخلاقية يقوم عليها ارتباط الحياة كلها سواء كانت سياسية أواقتصادية أو اجتماعية . فالمسلم يسلم نفسه حقيقة لله . وهو دائما على يقين أنه يفعل ما قدر الله له أن يفعله ، وأن ما يريده الله هو الذي يكون . إن هذا التوازن بين أخلاقيات الاستسلام المطلق لقدر الله ، والعمل الجاهد بكل ما في الطاقة ، هو السمة التي تميز الجماعة المسلمة عن غيرها من الجماعات .

إنها دعوة إلى عبادة الله وحده . وهي العبودية لله وحده دون شريك . هذه العبودية المطلقة تختلف عن معنى « العبادة » في الجاهلية الذي يقتصر على مجرد تقديم الشعائر .

ويقدم قطب ثلاث صور للحاكمية « الظلال 194 » : حاكمية التشريع ، وحاكمية الأعراف والتقاليد ، وحاكمية الاعتقاد والتصور .

هذه الحاكمية في منهج الظلال وخضوع الجماعة المسلمة لها هو الذي أهل هذه

الجماعة المختارة لقيادة البشرية . هذه الجماعة تتضمن الدولة وتنهض وإياها بتحقيق المنهج الإسلامي وهيمنته على الحياة الفردية والجماعية .

هذه الجماعة المسلمة من طبيعتها أن تنتصر من البغي وأن تدفع العدوان . وإذا كانت هناك فترة قد اقتضت على المسلمين أن يكفوا أيديهم عن القتال في مكة في بداية ظهور الدعوة . فذلك أمر عارض لا يتعارض وخصائص الجماعة الثابتة الأصيلة « الظلال 3166 » .

فهذه الجماعة تستمد قيادتها من السماء ، وتدرك أن هناك قوة واحدة ، هي قوة الله . وأن لا قوة ولا سلطان إلا لله . وأن كل إرادة لا تسخر إلا لأمر مطابق لأمر الله . فهذه كلها أمور تجعل المسلم يخضع لحكم الله وأمره .

يقرر قطب « الظلال 948 - 951 ، 929 » أن الحاكمية التي تجعل الجماعة المسلمة ذات قواعد أخلاقية وتجعل لها قيادة البشرية ، تجد أفضل تعبير لها عندما يزاول عباد الله عملهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ويحدد هذه القيمة : إن حدود الله تقوم ابتداء بحاكمية الله دون سواه . لذلك فإنه لا طائل من بذل الجهد في تتبع الفرعيات . فلابد من الأمر بالمعروف الأكبر وهو الاعتراف بسلطان الله ومنهجه للحياة .

ولذلك فواجب المسلم في كل مجتمع مسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وهكذا نجد في قول الرسول : « أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر » . فهو « إمام » ، ولا يكون إماما حتى يعترف ابتداء بسلطان الله ، وبتحكيم شريعته .

هذه الشريعة التي جاء بها القرآن . فالتوجيهات القرآنية هي « دستور هذه الدعوة الخالد ، وهي معالم للطريق أمام الأمة المسلمة » .

الحاكمية معناها - كما جاءت في الظلال « 1433 » - : الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها ؛ والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر بصورة من الصور ، ومصدر السلطات فيه هم البشر . إنها تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله في الأرض .

فالإسلام عندما تسلم القيادة بالقرآن كان قد أنشأ للبشرية تصورا جديدا، وبشريعة مستمدة من هذا التصور . هذه القيادة قبلتها الجماعة المسلمة وعاشت بها حتى نحي الإسلام عن القيادة وتولتها الجاهلية مرة أخرى « الظلال 16 » .

الحاكمية أخيرا – في الظلال « 927 » هي الصورة المناقضة لعبادة الطاغوت . فالطاغوت هو كل سلطان لا يستمد من سلطان الله ، وكل حكم لا يقوم على شريعة الله ، وكل عدو يتجاوز الحق . بمعنى أنه يدعي لنفسه أظهر خصائص الألوهية وهي التشريع للناس .

وما يقع الفساد في الأرض كما يقع عندما تتعدد الآلهة في الأرض على هذا النحو . عندما يتعبد الناس الناس . عندما يدعي عبد من العبيد أن له على الناس حق الطاعة لذاته ، وأن له فيهم حق التشريع لذاته ، وأن له كذلك حق إقامة القيم والموازين لذاته . فهذا هو ادعاء الألوهية ولو لم يقل كما قال فرعون « أنا ربكم الأعلى » .

إن الدينونة لغير الله في الاعتقاد والتصور معناها الوقوع في براثن الأوهام والأساطير والخرافات التي لا تنتهي . ويعيش الناس معها في رعب من الأرباب الوهمية المختلفة ، ومن السدنة والكهنة ، المتصلين بهذه الأرباب ! ومن السحرة المتصلين بالجن والعفاريت ! ومن المشايخ والقديسين أصحاب الأسرار ! والدينونة لغير الله في الأعراف والتقاليد بأرباب الأزياء والمودات !

وأخيرا تجيء تكاليف العبودية لحاكمية التشريع البشرية . وما من أضحية يقدمها عابد الله لله ، إلا ويقدم الذين يدينون لغير الله أضعافها للأرباب الحاكمة ! من الأموال والأنفس والأعراض . وتقام أصنام من « الوطن » ومن « القوم » ومن « الجنس » ومن « الطبقة » ومن « الإنتاج » . وغيرها من شتى الأصنام والأرباب .

إن العبودية للعبد لا تقف عن حدود العبودية للحكام والرؤساء والمشرعين . إن العبودية للعباد تتمثل في صور أخرى خفية عندما يتبعون ويطيعون الطغاة الذين يدعون أن لهم القوة والجبروت . أو الذين يستطيلون بالعلم والمال ، ويدعون لأنفسهم خصائص الألوهية والربوبية .

إن مجرد الاعتراف بشرعية منهج أو وضع أو حكم من صنع غير الله ، هو بذاته خروج من دائرة الإسلام لله . فالإسلام لله هو توحيد الدينونة له دون سواه . إن الإسلام هو التحرر المطلق من العبودية للعبيد . والنظام الإسلامي هو وحده من بين سائر النظم الذي يحقق هذا التحرر .

إن الناس في جميع النظم الأرضية يتخذ بعضهم أربابا من دون الله . يقع هذا في أرقى الديمقراطيات كما يقع في أحط الديكتاتوريات سواء . إن أول خصائص الربوبية هي حق تعبد الناس . حق إقامة النظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازين . وهذا الحق في جميع النظم الأرضية يدّعيه بعض الناس – في صورة من الصور – حتى ليظن عامة الناس أن هذا هو الأصل . وذلك عندما يجادلون في آيات الله ويحاولون أن يوهموا عامة الناس أن ما يقررونه ويشرعونه هو الأصل .

نعم إن هنالك من ينكر . وهنالك من يجادل في آيات الله . وهنالك من يجادل بالباطل ليدحض به الحق . ولكن أحدا من هؤلاء لا يجادل إلا عن التواء ، أو غرض ، أو كبر ، أو مغالطة ، لغاية أخرى غير الحقيقة .

هنالك من يجادل لأنه طاغية كفرعون وأمثاله ، يخشى على ملكه ، ويخشى على عرشه ؛ لأن هذا العرش يقوم على أساطير يذهب بها الحق ، الذي يثبت بثبوت حقيقة الألوهية الواحدة .

وهنالك من يجادل لأنه صاحب مذهب في الحكم ، كالشيوعية ، يتحطم إذا ثبتت حقيقة العقيدة السماوية في نفوس البشر ؛ لأنه يريد أن يلصق الناس بالأرض ، وأن يعلق قلوبهم بمعداتهم وشهوات أجسادهم ، وأن يفرغها من عبادة الله لتعبد المذهب أو لتعبد الزعيم .

وهنالك من يجادل لأنه ابتلي بسيطرة رجال الدين – كما وقع في تاريخ الكنيسة في العصور الوسطى – ومن ثم فهو يريد الخلاص من هذه السيطرة . فيشتط فيرد على الكنيسة إلٰهها ، الذي تستعبد باسمه الناس « الظلال 3100 ، 407 ، 2076 ، 1903 ، 941 ، 895 ، 927 » .

نتائج الفصل السابع

إن رشيد رضا لم يتناول أو لم ينظر – سواء في تفسير المنار أو في كتاباته الأخرى ـــ في نظرية « الإمامة » – إلا إلى « الخليفة »[1] الذي يتولى مهمة تحديد قضايا ـــ في إطار من الشورى – التطبيق المعاصر للشريعة الإسلامية « تفسير المنار : الجزء الخامس ص 181-190 ، السابع ص 200 ... جومبير ص 202 » .

فإذا كان رشيد رضا قد ركز على ضرورة إسناد الوظائف العامة للمسلمين فقط « الجزء الرابع ص 86 ، جومبير ص 291 » ، فإنه لم تكن لديه إطلاقا اللغة السياسية « المناضلة » التي ظهرت في كتاب الظلال من خلال الرؤية في تتويج « الإمام » صاحب الكفاءة ليحل محل كل رئيس غير مرغوب فيه .

ولقد رفض قطب ، تماما وبإصرار ، ـــ مثلما سبق أن رفض رشيد رضا سابقا – وعلى خلاف نظرة القذافي في كتابه الأخضر وفي خطبه السياسية[2] – الفصل أو التمييز بين مصداقية القرآن ومصداقية الأحاديث النبوية « تفسير المنار : الجزء الرابع ص 31 ، الخامس ص 181 . جومبير ص 192-193 » .

لم يميز قطب حقا بين مجال « التنظير » « إصدار أحكام تأخذ شكلا نظريا » للعبودية لله وحده ـــ في إطار معجم التصوف ـــ وبين مقومات الحياة داخل المجتمع ، وهذا لم يفعله رشيد رضا .

---

(1) هنري لاوست : الخلافة في مذهب رشيد رضا ، ترجمة كتاب « الخلافة والإمامة العظمى لرشيد رضا » دمشق ، 1938 .

(2) معمر القذافي : سجل خطب العقيد عام 1978 ، ص 102 ، 496 ، 1030 . موقف مغاير لموقف المودودي الذي هاجم في السبعينات « المنكرين للسنة » ... مقالة ماير النقدية في الدورية « مشرق – مغرب » عدد 93 ، 1981 « الشريعة الإسلامية في ليبيا » ... إن رفض السنة النبوية قد سهل كنتيجة منطقية حصر الشريعة في إطار الحياة الدينية فقط .

إننا نجد هنا « التصوف السياسي » ، الذي يتصف به منهج قطب ، كما نجد « الشريعة النبوية المحمدية التي طالب قطب بتطبيقها في الواقع المادي الملموس ، من خلال الشريعة الإسلامية التي طالب أيضا بتطبيقها في جميع مجالات الحياة وفي جميع قطاعات النشاط البشري . وهذا ما سبق أن طالب به ابن تيمية في كتابه « السياسة الشرعية » ، الذي استلهم منه رشيد رضا بعض أفكاره .

كل ذلك يقتضي – في رأي قطب – « ملكا نبيا » على غرار « داود » ، و « إماما خليفة » . يقيم الحكم على أساس من القوة والحكمة .

يبدو لنا جليا – وكنتيجة منطقية – أن كتاب الظلال قد ركز على موضوع السلطة « المثالية » الفردية « للإمام الخليفة » . وعلى موضوع البيعة أو المبايعة . وقد ربط بين الموضوعين في عرضه .

بينما نجد أن تفسير المنار قد توسع بصفة خاصة في موضوع الشورى في معناها المعادل للإجماع[1] « الجزء الرابع ص 118-119 ، 178-206 ؛ الخامس ص 181-188 ، 203 ؛ السابع 493 ؛ الثامن 103 ؛ التاسع ص 264 . كتاب جوميير ص 215-217 ، 193 » .

وقد عدّد رشيد رضا « علية القوم » من مختلف الطبقات الاجتماعية الذين يجب – حسب رؤيته – أن يمارسوا مبدأ الشورى « الجزء الخامس ص 187 ، جوميير ص 202 . حيث إن أولي الأمر يتماثلون مع « أهل الحل والعقد » الذين يعتبرون بدورهم « أهل الشورى » .

وتجنب قطب هذه الرؤية مستندا إلى الرؤية الأساسية لكل من الأفغاني ومحمد عبده في الميدان السياسي والتي تتلخص في « استبداد « استئثار بالسلطة » مستنير (مجرب أو حكيم) في مصلحة الأمة »[2] .

---

(1) كامل منصور : السلطة في الفكر الإسلامي . باريس ، 1975 . وخاصة الفصل الأخير .

(2) أحمد أمين : محمد عبده . القاهرة ، 1944 ، ص 116-117 وقد أشار إليه جوميير في كتابه ص 216 . ويمكن الرجوع إلى كتاب كيدي نيكي « السيد جمال الدين الأفغاني » ص 226 حول تقييم مبدأ دور الحاكم المسلم عند الأفغاني . وكتاب « الخليفة » لرشيد رضا « ترجمة لاوست ، ص 156 » حيث إنه ضد نظام الحكم « الملكي » الأموي ويدعم فكرة أن تكون سلطة الحاكم مصدرها الأمة الإسلامية .

أيضا في الوقت الذي وصف فيه رشيد رضا – على خلاف محمد عبده – الاختيار المثالي الديمقراطي « للأئمة – الخلفاء » بواسطة رجال أكفاء مؤهلين ينوبون عن الأمة « تفسير المنار – الجزء الحادي عشر ص 265 . جوميير ص 217 » ، نجد أن قطبا قد أعد الجانب الإيماني العقائدي للبيعة وللقسم على الطاعة ، إعدادا قويا وعقليا وأكثر عقائدية ، وأكثر قربا « لعبودية » المتصوفة من الطاعة الفعلية والمتعصبة لأي « فدائي » .

وحول فكرة البيعة للإمام ، يبدو لنا أن حسن حنفي كان على حق عندما أشار إلى أننا نجد في تصور قطب وتلاميذه وأتباعه « ويعتبر حسن حنفي أحد هؤلاء » أثرا لميراث جمال الدين الأفغاني[1] .

إن رشيد رضا ومحمد عبده ، إضافة إلى أنصار سيد قطب – بمعنى « المستنيرين » « الحركيين » الذين يميلون أحيانا إلى العنف – ينتظرون أن تندلع حقا « ثورة إسلامية » تستبدل كل الرءوس .

ومن الجدير بالملاحظة أن « الأجهزة » الإسلامية تركز حاليا على موضوعين أساسيين : الإمامة ، والبيعة . ذلك نجده عبر مختلف وسائل النشر والتوجيه الضخمة التي تتناول القضايا المعاصرة[2] .

فيما يتعلق بالشورى ، فإن كتاب الظلال قد أضاف ، إلى ما ورد في تفسير المنار ، فكرتين جديرتين بالملاحظة .

(1) الفكرة الأولى : اللامركزية الرحبة ، التي تسمح بأن تمارس الشورى على المستوى الإنساني كله . وهي فكرة تتشابه قليلا مع ما وصفه القذافي « بالديمقراطية المباشرة »[3] .

---

(1) حسن حنفي . مقدمة ترجمة كتاب الخميني « الحكومة الإسلامية » ص 6-7 .

(2) « الدستور الإسلامي » ، مجلة الأزهر ، أبريل 1979 ، مادة 44-70 ، الفصل الخامس . حول الإمام كحاكم سياسي للبلد الإسلامي المتعدد الأحزاب .

(3) معمر القذافي « الكتاب الأخضر » ، الجزء الأول : الديمقراطية « سلطة الشعب » ص 7-27 : نقد للنظام البرلماني والأحزاب والاستفتاء ؛ ص 28 تعظيم دور الديمقراطية المباشرة عن طريق اللجان الشعبية .

فكتاب الظلال قدم أيضا – بطريقة أكثر دقة وتحديدا من محمد عبده ـــ نقدا عميقا للنظام البرلماني في الأنظمة الليبرالية الأوروبية . فقد حاول استذكار ميراث حسن البنا والإخوان المسلمين – المعارضين لنظام الأحزاب – ولكنهم غير معارضين للنظام البرلماني في حد ذاته[1] .

(2) الفكرة الثانية : نظام انتخابي يقوم على قاعدة أخلاقية « وليس على أساس « علية القوم » أو « الأشراف » كما هو الحال عند رشيد رضا » . مع نوع من استطلاع الرأي العام بطريقة تلقائية منظمة . وهنا نجد أن قطبا قد وضع رؤيته على أساس تلك القاعدة لعملية انتخابية للنظام الرئاسي : فالمنتخبون لنظام الشورى على المستوى المحلي عليهم اختيار أفضل الأفراد من بينهم ليتولى الإمامة ، ثم يعرض الاختيار للاستفتاء العام من خلال حركة تصاعدية وتنازلية .

والنقطة المثيرة للاهتمام هنا هو التشابه التام بين هذا الإجراء الانتخابي الذي يقول به قطب وبين ما كان مطبقا فعلا في النظام السياسي الناصري . فالحزب الجماهيري الواحد مع خلاياه المحلية يلعبون دور نظام الشورى . ويجدر الإشارة إلى أن فكرة الحزب الجماهيري « الإسلامي » قد سبق أن أوصى بها وأعلنها حسن البنا ومن بعده عبد القادر عودة وسيد قطب نفسه في فترة الخمسينات[2] .

في الحقيقة أن الكثيرين يعلمون أن حسن البنا كان أحد قادة الفكر بالنسبة لعبد الناصر والسادات ابتداء من عام 1940 ، وإن « عودة » ربما يكون قد عمل لبضعة أسابيع كموجه لمشروع الدستور المصري الذي كان عبد الناصر يزمع إصداره في تلك الفترة ، كما أن قطبا كان قد دعي عام 1953 من قبل عبد الناصر ليشارك في وضع هيكل ونظام هيئة التحرير وإدارة القسم الأيديولوجي بها ، ولكنه رفض

---

(1) حسن البنا : رسالة المؤتمر الخامس ، خطاب من الأمس إلى اليوم ، رسالة التعاليم ، ثلاثة نصوص من عام 1943 ، وأيضا « مشكلاتنا في ضوء الإسلام » في مجموعة رسائل الشهيد حسن البنا . بيروت 1971 .

(2) حسن البنا : مجموعة رسائل الشهيد حسن البنا ص 407 ، عبد القادر عودة « الحكم » القاهرة ، 1951 ، ص 77 ، 80 ، 93 ، 108 ، 113 ؛ سيد قطب « العدالة الاجتماعية في الإسلام » ص 95 .

ذلك[1] .

بالنسبة لقضايا القوانين الشرعية ، فإن كتاب الظلال كان قريبا جدا من تفسير المنار : فالميراث قد حددت أنصبته ، وتأكدت ضرورة وجود وصية لتوريث الثلث فقط « تفسير المنار ، الجزء الثاني ص 135-136 ؛ جوميير ص 198 » ، وحددت المسموحات بالنسبة للمسلمين المقيمين في أقطار غير إسلامية ، وما يتعلق بأكل الذبائح التي لم يذكر عليها اسم الله « الجزء السادس ص 196 ؛ جوميير ص 199 » . رفض الطقوس غير الدينية والتقاليد الدينية المبتدعة « الجزء السابع ص 198-201 ؛ الحادي عشر ص 34 ؛ جوميير ص 201 ، 203 ، 205 » ، إلقاء الضوء على الضرورة الصحية للوضوء قبل كل صلاة ولكن دون المغالاة التي ظهرت عند رشيد رضا « الجزء السادس ص 262 ؛ جوميير ص 208 » .

هذه الأفكار كلها حول المحرمات من المأكولات والمشروبات ، كان هناك تقارب بين سيد قطب ورشيد رضا – وهي قليلة بعض الشيء – ولكن قطبا قد تناولها بحكمة واضحة حيث ركز على الخاصية الهامة القدسية أو الدينية لهذه المحرمات وليس على دلالتها الصحية « الجزء السابع ص 50-55 ؛ الثامن 149-170 ؛ جوميير ص 209 - 210 » .

ونجد أيضا نفس المقارنة في الكتابين – ولكن بافتخار أكثر عند قطب – بين حملة القرآن ضد شرب الخمر والحملة الأمريكية للقضاء على الإدمان وما نتج عنها من إخفاق شديد لهذه التجربة الأمريكية « الجزء السابع ص 80 ، جوميير ص 210-211 » . ونفس التحفظات ضد المثقفين المسلمين « المتحضرين » الذين يعيشون

---

(1) حسن العشماوي : الإخوان والثورة ، القاهرة ، 1977 ، ص 13-15 ، 20-22 المقابلات مع السادات وعبد الناصر ؛ ص 31-32 حول طلب عبد الناصر قطب عام 1953 للإشراف على هيئة التحرير ، 87-90 حول آخر لقاءات العشماوي وعبد الناصر وعدد من القانونيين في يونيو 1954 .

كما يمكن الرجوع إلى كتاب السادات « أسرار الثورة ، جريدة مايو ، يوليو 1981 حول التعاون بين الضباط الأحرار وحسن البنا » .

على حريتهم بالرغم من علمهم ببعض المحرمات الغذائية في الإسلام « الجزء الأول ص 24 ؛ جومبير ص 209 » ، كما أن هناك تطابقا في التفسير في الموضوعات التي تتناول شعائر الحج والصلاة ، والقبلة ، والصوم ومسموحاته « الجزء الثاني ص 218-139 ؛ جومبير ص 195 ، الجزء الخامس ص 363 ، السادس ص 260 ؛ كتاب جومبير ص 208-209 » .

أما في الحدود الشرعية ، فكان كتاب الظلال أكثر راديكالية مقارنة بتفسير المنار : عقوبة الموت لم تستبعد من كتاب الظلال للمرتد أو الخارج على الجماعة في وقتنا الحاضر « تفسير المنار : الجزء الخامس ص 327 ؛ جومبير ص 290 » . وعلى العكس فإنه في إدراكه لجاهلية البشرية المعاصرة ، يرى أن الجهل الدافع لطبيعة الدعوة الإسلامية يحدد وحده حالة المرتد كما عرضها كل من محمد عبده ورشيد رضا « الجزء الأول ص 69 ؛ جومبير ص 296 » .

وفي المقابل وجد كتاب الظلال في تفسير المنار مادة غنية لتوضيح ما قد ينشأ نتيجة للانقياد « الأعمى » للسلطات الدينية القائمة بدلا من الطاعة « الروحية » لفكر الأئمة الكبار « الجزء الثالث ص 135-136 ؛ السابع ص 143 ؛ جومبير ص 206 » .

وطور سيد قطب فكرة رشيد رضا حول الانقياد والذي سمي « تقليدا » « بمعنى تقليد محدود »[1] واضعا إياه في نظرية « الطاغوت » البشري في مواجهة الحاكمية المطلقة لله . كما هاجم قطب في أحد الجوانب بعض « الأتقياء » الذين « يبتترون » الإسلام ولا يمزجون بين تعاليمه وبين المصالح الدنيوية للإنسان « بمعنى أنهم يبعدون الإسلام عن القضايا الدنيوية » « جومبير ص 245 - 246 » .

من جانب آخر انتقد سيد قطب ـــ بقوة أشهر من رشيد رضا ـــ الفقهاء الذين

---

(1) في كتابات البنا وتلاميذه من بعده ، نلاحظ أن كلمة « تقليد » تعني « اتباع أو تقليد الغرب » ، مجموعة الرسائل ص 233 ، 247 .

يقدمون الفتاوى في القضايا « الضميرية » . فهؤلاء سماهم رشيد رضا : رجالا ذوي طبيعة سوية ، ولكنهم لا يفصلون بين الفقه وبين هذه الفتاوى في القضايا « الضميرية » .

ذهب سيد قطب في عرضه إلى وضع منهج « الفقه الحركي » : أنه نشاط دائم لرجال « مناضلين » مؤمنين . يقفون في الصف الأول للمواجهة ، إنهم طلائع البعث الإسلامي . حيث لا يمكن اعتبار « مدرسة عبده » من بين هؤلاء الرجال . فهؤلاء رجال الورق والقلم . أي رجال كتب . وليسوا رجال نضال وحركة .

هنا يظهر دون شك المبدأ « الثوري » الدائم في منهج قطب المتعلق « بالطبقات الإيمانية » في المجتمع الإسلامي الأول : فلكي يؤكد فكرته حول « الطليعة المناضلة » فإنه قد كشف – على عكس محمد عبده وأيضا رشيد رضا دون شك – عن القوة « الحركية » « المناضلة » بين أصحاب الرسول . إنهم المسلمون الأوائل . إنهم أول الطلائع « يمكن مقارنة ذلك بتعريف « السلف » عند محمد عبده : جومبير ص 193-194 ؛ كما يمكن الرجوع إلى تفسير المنار للتعرف على موقف رشيد رضا وهو قريب جدا من رؤية سيد قطب « الجزء الرابع ص 31 ؛ الخامس ص 181 ، 190 ؛ جومبير ص 193 »[1] .

إحدى الملاحظات الأخرى التي وردت في تفسير المنار وكان لها أثر كبير في منهج قطب حول « الفقه الحركي » . ما ذكره رشيد رضا بأن الإجماع في أحد الأجيال لا يكون صالحا إلا لذلك الجيل فقط « الجزء الخامس ص 203-208 : جومبير ص 203-204 » – وكانت هذه الفكرة مفاجأة لمحمد عبده – وكان منهج قطب – المفاجئ – أيضا أن باب الاجتهاد يجب أن يظل مفتوحا دائما .

إن المفكرين الثلاثة قد تقابلوا على الاعتقاد المطلق – ولكن مع اختلاف في منهج التطبيق – إن القرآن والسنة هما مصدر التشريع الصالحان لكل زمان ولكل مكان .

---

(1) محمد عبده : الإسلام والنصرانية حيث تتعرف على مفهومة « للسلف » ص 61 ، رسالة التوحيد ص 202 .

لقد كان لكتاب الظلال تأثير كبير وفعال على الحركات التي تدعو نفسها « القطبيين » دون تفسير المنار ، وذلك في مجال تطبيق « التصوف » في إطار من النضال السياسي . وكذلك في إعادة صياغة الفقه « بالمناضلين - المتصوفة » وليس عن طريق الفقهاء . لقد لجئوا إلى النضال المسلح في كل وقت اعتقدوا بل وحكموا بأنه الأسلوب الضروري للنضال . إنهم يتحركون في العمق . على قدر إدراكهم لمنهج قطب في « الجاهلية » أو « الكفر » و « الحاكمية » .

بالنسبة لفكرة « الجاهلية الحاضرة » نجد أن تفسير المنار لم يتطرق إليها إلا نادرا . ولكن ليس في إطار « دراماتيكي » أو « مانوي »[1] . إن الأمر في تفسير المنار يتعلق خاصة « بجغرافية العالم الإسلامي » « الجزء الأولى ص 58 ، 426 : جوميير ص 171 » . إنه يتعلق في أحد جوانبه بالواجب الفعلي لنشر الدعوة الإسلامية في مختلف « أقطار العالم الوثني » . كما يتعلق بنشر هذه الدعوة بين اليهود والمسيحيين والملحدين من جانب آخر « الجزء الرابع ص 26-50 : جوميير ص 39-42 ، 333 » .

إننا في نتائجنا في هذا الفصل ، نترك للقارئ الحرية ليحكم بنفسه على « الدولة الإسلامية » ومهامها التشريعية كما يعرضها منهج قطب « المثالي » .

من جهتنا يكفي أن نشير إلى أي مدى كان كتاب الظلال قريبا ، بل وقريبا جدا ، وبإخلاص تام ، من النص القرآني المقروء ، ومن التجربة الإسلامية المعاشة .

ولقد كان النص القرآني واضحا إلى درجة أن يعطي لسيد قطب الفرصة ليتناوله وفق المعنى الحرفي للنص . فقد أدرك صاحب الظلال من البداية المنهج الأساسي للقرآن حول فكرة خلافة الإنسان في الأرض « آية 26 - سورة ص » وحول فكرة « الإمامة » الأولى لإبراهيم « الآية 124 من سورة البقرة » .

وعلى العكس من بعض « الخوارج » فقد تأثر قطب كثيرا بسورة يوسف : إنه

---

(1) إنه مبدأ فلسفي يعرف بمذهب مانو الفارسي صاحب عقيدة الصراع بين النور والظلام .

لشيء عظيم أن يؤتى يوسف الملك والحكمة « الآية 101 » في عالم الجاهلية ، كما سبق أن أوتي داود .

واستند قطب على ما ورد في الآيات 7-9 من سورة الحجرات ليؤكد ضرورة وجود قيادة واحدة وحكومة واحدة على غرار قيادة الرسول للجماعة المسلمة التي تعرضت للاضطهاد في مكة مع اضطراره لمواجهة المعارضين لدعوته بالقوة .

من خلال هذا المضمون « العميق » للمعنى تناول كتاب الظلال بجدية تشدد النص القرآني مع المتمردين ، الخارجين على الدين وعلى الجماعة أكثر من تشدده مع من يحاولون الإخلال بالنظام العام . ويظهر ذلك في تفسيره للآيات 7-9 من سورة الحجرات ، 85-91 من سورة آل عمران .

إضافة إلى إعطاء الفرصة للعاصي للتوبة قبل الحكم عليه ؛ الآيتان 33 - 34 في الحكم بالموت على الذين يسعون إلى نشر الفساد في الأرض والخروج على السلطة القائمة ، مع وجود فرصة أيضا للرجوع والتوبة ؛ الآيتان 33 من سورة الإسراء ، 178 من سورة البقرة حول القصاص وأنواعه ؛ الآية 68 من سورة الفرقان حول عقوبة الموت للقاتل والتي لا يمكن إبطالها ؛ الآية 106 من سورة النحل حول العفو عمن يرتد عن الدين تحت ضغط وإكراه .

موضوع آخر هام جدا تناوله قطب بجدية وهو موضوع البيعة ؛ المبايعة . فقد امتدح قطب كثيرا هذه الفكرة في « سياسة القرآن » ، بينما تجاهلها تفسير المنار .

فنجد ذلك في تفسير سيد قطب للآية 12 من سورة الممتحنة حول بيعة النساء للرسول في الحديبية ؛ الآية 10 من سورة الفتح حول العهد . حيث رأى فيه أنه « عهد من الله » وأن ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾ ؛ الأحزاب حول تأصيل العهد بين الله والإنسان منذ زمن إبراهيم ؛ الآية 7 من سورة الأحزاب ، الآية 124 البقرة حيث تستبعد هذه الآيات « الظالمين » من عهد الله .

كذلك نجد أن كتاب الظلال قد استطاع أن يؤكد على أن الطاعة « غير المشروطة » للحاكم هي طاعة للرسول وبالتالي طاعة لله . وذلك حسب ما ورد في

« آيات الأمراء » : النساء 58-59 ، 65 ، 69 ، 86 ... مع فكرة نقل « الأمانة » . مع الإشارة ، إلى ضرورة التمييز بين هذه الطاعة لله وللرسول وبين الطاعة للحاكم الظالم « الطاغوت » « سورة النساء ، الآية 60 » ، وأيضا الآيات 47 ؛ 52 ، 4-56 من سورة النور التي ربطت بين الطاعة والفوز والفلاح في الحياة الدنيا .

وعلى عكس رشيد رضا ، فقد رأى سيد قطب فيما حدث للمسلمين في موقعة أحد أحد الدروس الهامة في الشورى ، كما أنها أحد النماذج التي تعكس نتيجة عدم الطاعة للقيادة . وقد قرأ قطب الآية 159 من سورة آل عمران حيث نزلت أثناء المعركة ، بينما كان الرسول يمارس مبدأ الشورى بينه وبين أصحابه في الواقع العملي قبل بدء المعركة . إضافة إلى أن الآية 38 من سورة الشورى قد أشارت إلى التطبيق « المعتاد » لمبدأ الشورى كما تؤدى الصلاة دائما . أي أنه قد تم الربط بين الصلاة والشورى كصفة من صفات المؤمنين .

وقد رأى سيد قطب أنه في كل مرة نعود فيها إلى ما حدث يوم أحد « الآية 154 من سورة آل عمران » فإنه يجب أن ندرك أن كل قرار ، وكل أمر ، مرده لله وحده . وعلى ذلك فإن الشورى لا تتعارض مع مبدأ الطاعة أو مع السلطة الفردية .

نضيف في النهاية بعض النصوص القرآنية التي تتناول الحدود الشرعية والدية : الآيات 38 - 40 من سورة المائدة ، وهي توضح عقوبة السارق ؛ 23 - 24 ضد العصاة والمرتدين . الآيات 2-3 ، 6-9 من سورة النور وتتعلق بالزناة ، 4-5 حول رمي المحصنات .

حول شرعية الشعر والفن ، فقد تتبع سيد قطب حرفيا ما ورد في الآية 227 من سورة الشعراء « وهذه الآية مدنية وهي إضافة أكيدة لما سبق وأن نزل من آيات ، وكان أن اهتدى كبار الشعراء العرب بعد ذلك لقول الشعر في خدمة الإسلام » .

وفيما يتعلق بالشعائر القديمة للحج وتحريم أكل الذبائح التي لم يذكر عليها اسم الله فقد نزلت فيها الآية 125 من سورة البقرة ، وحول وجود إبراهيم في مكة نزلت

الآية 145 من سورة الأنعام .

وهكذا فإن كتاب الظلال على المستوى السياسي - الذي يتوج كل شيء - كان قريبا جدا من النص القرآني أكثر من تفسير المنار ، وذلك لأن الأخير حاول قدر الإمكان أن يرتكز على مجرد المنهج « التبريري » المدافع عن الدين والذي يحاول التوفيق بين النص والواقع .

المصـــادر

أولا : المصادر باللغة الأجنبية :

ــ **أبو الأعلى المودودي** : نظرات إسلامية . دراسات في ذكرى أبي الأعلى المودودي . جدة . الصندوق الإسلامي ، البيت السعودي للنشر ، 1978 .

ــ **إسحاق موسى الحسيني** : الإخوان المسلمون ، بيروت ، مطبعة خياط ، 1956 .

ــ **الأمير عبد القادر الجزائري** : كتابات روحية ، ترجمه للفرنسية شود كيوفتش ، باريس ، سوي ، 1982 .

ــ **البخاري** : الأحاديث النبوية ، ترجمة للفرنسية هوداس ومارسين . باريس ، مكتبة أمريكا والشرق ، 1977 .

ــ **ألبرت حوراني** : الفكر العربي في العصر الحر « 1798-1939 » ، مطبعة جامعة أكسفورد ، 1983 .

ــ **ألبرت حوراني** : محمد عبده ، مجلة الأفريقيين ، باريس ، مطبعة شباب أفريقيا ، عدد 2 1980 .

ــ **ألبرت حوراني** : النهضة في الشرق الأوسط الحديث . مطبعة جامعة أكسفورد 1981 .

ــ **ألفريد مورابيا** : فكرة الجهاد في الإسلام في العصور الوسطى . جامعة ليل ، 1975 .

ــ **الموسوعة الإسلامية** : الطبعة الثانية . باريس . ميزونيف ولاروس 1975 .

ــ **أنور السادات** : البحث عن الذات ، قصة حياتي ، باريس ، فايارد ، 1978 .

ـــ **أوليفييه كاريه** : الشرعية الإسلامية في الاشتراكيات العربية ـــ تحليل لأحد الكتب المدرسية في كل من مصر وسوريا والعراق . باريس ، الصندوق القومي للدراسات السياسية ، 1979 .

ـــ **أوليفييه كاريه** : التعاليم الإسلامية والمثالية الاشتراكية . بيروت . المكتبة الشرقية 1974 .

ـــ **إيدموند رباط** : المسيحيون في العصر الأول للإسلام . الجزء الأول : الشرق المسيحي عشية ظهور الإسلام 1980 . الجزء الثاني : محمد ، نبي عربي ومؤسس دولة . بيروت 1981 .

ـــ **إيلي قدوري** : الأفغاني وعبده : محاولة في العقيدة الدينية والنشاط السياسي في الإسلام المعاصر . لندن 1966 .

ـــ **ألييز ربيري** : ضباط الجيش في السياسات والمجتمع العربي . نيويورك ، برايجر ، 1970 .

ـــ **برنارد لويس** . القتلة . باريس . بيرجيير ـــ ليفرولت ، 1982 .

ـــ **ب . س . ثيرنر** : ماكس فيبر والإسلام . لندن . روتلدج وكيجان بول ، 1974 .

ـــ **جاك بيرك** : مصر ، الإمبريالية والثورة . باريس . جاليمارد ، 1968 .

ـــ **جاك جوميير** : تفسير المنار في القرآن . باريس . ميزون نيف ، 1954 .

ـــ **ج . جانس** : تفسير القرآن في مصر المعاصرة . لندن . بريل ، 1980 .

ـــ **ج .ج . دونهو** : « الدستور الإسلامي » تقرير مركز دراسات العالم العربي الجديد ، بيروت ، 1981 .

ـــ **جورج هنري بوسكيويه** : أخلاق الإسلام ، وأخلاقياته الجنسية . باريس . ميزونيف ، 1953 .

ـــ **جون ووتربيري** : مصر : أعباء الماضي واختيارات المستقبل . جامعة أنديانا ، 1978 .

ـ **جيلرت ديلانوين** : الرؤى التاريخية والاجتماعية لسيد قطب . بحث غير منشور . تونس ، 1958 .

ـ **جيل كيبيل** : الحركة الإسلامية في مصر في عهد السادات . رسالة دكتوراه . جامعة باريس ، 1982 .

ـ **جيل كيبيل** : النبي وفرعون ، الحركات الإسلامية في مصر المعاصرة . باريس . ماسبيرو 1984 .

ـ **حسن البنا** : الصحوة الجديدة في العالم العربي واتجاهاتها . ترجمة أندريه ميكيل . مجلة الشرق ، العدد السادس ، 1985 ، باريس .

ـ **حسن البنا** : نحو النور . ترجمة بالفرنسية . مجلة الشرق . العدد 4 ، 1957 .

ـ **حسن البنا** : مشاكلنا في ضوء النظام الإسلامي . ترجمة بالفرنسية . مجلة الشرق . أعداد 37 ، 39 ، 40 ، لسنة 1963 .

ـ **ديريك هوبود** : مصر ، مجتمع وسياسات « 1945-1981 » . لندن . مكتبة بنجوين ، 1982 .

ـ ر . **بيترز** : الإسلام والاستعمار : فكرة الجهاد في التاريخ الحديث . باريس . موتون ، 1981 .

ـ **رجيس موريلون** : ترجمة لكتاب الغزالي « الحلال والحرام » . باريس . فيرن . 1981

ـ **روبرت برينشينج** : دراسات إسلامية . باريس . ميزونانيف ولاروس ، . 1953

ـ **ريتشار ميتشل** : جمعية الإخوان المسلمين . مطبعة جامعة أكسفورد : . 1969

ـ **ريجيس بلاشير** : القرآن . ترجمة وفقا لترتيب السور . باريس . ميزونيف ، 1949 ، ثلاثة أجزاء .

ـــ **روجر أرنالديز** : عيسى بن مريم ، نبي الإسلام . باريس . ديسكليه دوبروفر ، 1980 .

ـــ **روجر أرنالديز** : القرآن ، دليل للقراءة . باريس . ديسكليه دوبروفر ، 1983 .

ـــ **ريموند وليم باكر** : الثورة المصرية في ظل ناصر والسادات . كمبريدج . مطبعة جامعة هارفارد ، 1987 .

ـــ **س . ب . هاريس** : القومية والثورة في مصر ، دور الإخوان المسلمين . لاهاي . باريس ، فوتون 1964 .

ـــ **عبد الواحد أبو هضيبة** : العلاقات الجنسية في الإسلام . باريس . المطبعة الجامعية الفرنسية ، 1975 .

ـــ **كامل منصور** : السلطة في الفكر الإسلامي : مفهوم الإجماع وإشكالية السلطة . باريس ، فيرن ، 1975 .

ـــ **كانتويل سميث** : الإسلام في العصر الحديث . لندن . بريل ، 1959 .

ـــ **كيدي نيكي** : السيد جمال الدين الأفغاني . السيرة الذاتية السياسية . لوس أنجلوس ولندن . جامعة كاليفورنيا 1972 .

ـــ **كيدي نيكي وال . بيك** : المرأة في الشرق الأوسط . بيركيلي لندن . مطبعة جامعة كاليفورنيا 1978 .

ـــ **كير مالكولم** : الإصلاح الإسلامي ، عبده ورضا . مطبعة جامعة كمبريدج ، 1966 .

ـــ **لويس جارديه** : المدينة الإسلامية ، الحياة الاجتماعية والسياسية . باريس ، فرين ، 1976 .

ـــ **ليونارد بيندر** : في زمن الحماس ، القوة السياسية ، الطبعة الثانية في مصر . شيكاغو 1978 .

ـــ **م . جيليسنان** . معرفة الإسلام . لندن . كروم هيلم ، 1982 .

ـ **مارتينانو رونكاجليا** : تاريخ مصر القبطية . بيروت . المكتبة الشرقية ، 1969-66 . خمسة مجلدات .

ـ **محمد أركون** : محاولات في الفكر الإسلامي : باريس ، ميزون نيف ولاروس ، 1977 .

ـ **محمد أركون** : قراءات القرآن : باريس . ميزون نيف ولاروس ، 1982 .

ـ **ماكس فيبر** : الاقتصاد والمجتمع . الجزء الأول . باريس . بالون ، 1968 .

ـ **م. ب . مارتان و م . مسعد** : التكفير والهجرة : دراسة لأحد الفرق المعارضة . بيروت ، 1980 .

ـ **مدام محفوظ القشيري** : الاشتراكية والسلطة في مصر . باريس ، المكتبة العامة للقانون ، 1972 .

ـ **محمد عبده** : رسالة التوحيد ، عرض للدين الإسلامي . باريس . مطبعة جوتنز 1928 .

ـ **مكسيم رودنسون** : محمد . باريس ، سوي ، 1961 .

ـ **مكسيم رودنسون** : الإسلام والرأسمالية . سوي 1966 .

ـ **موروي برجر** : الإسلام في مصر اليوم : المظاهر الاجتماعية والسياسة في عقيدة الشعب : جامعة كمبريدج . 1970 .

ـ **ميشيل كليفينوت** : رجال الأخوة . تاريخ الكنيسة . باريس ، ناتان 1978 ، 1983 ثلاثة أجزاء .

ـ **هرير ديكمجيان** : مصر في عهد ناصر . مدرسة للحركات السياسية . لندن 1971 .

ـ **هنري لاوست** : الخلافة في مذهب رشيد رضا . ترجمة لكتاب « الخلافة والإمامة العظمى » دمشق ، 1938 .

ـ **هنري لاوست** : مساهمة في دراسة المنهج التشريعي عند ابن تيمية ، القاهرة ، 1939 .

ـــ **هنري لاوست** : محاولة حول المذاهب الاجتماعية والسياسية عند ابن تيمية . القاهرة ، 1939 .

ـــ **هنري لاوست** : السياسة عند الغزالي . باريس . بول جوتنير ، 1970 .

ـــ **هنري لاوست** : السياسة الشرعية عند ابن تيمية . بيروت . المعهد الفرنسي بدمشق ، 1948 .

ـــ **هنري لاوست** : الفرق الإسلامية : مدخل لدراسة الدين الإسلامي ، باريس ، بايوت ، 1965 .

ثانيا : المصادر باللغة العربية :

ـــ **أبو الأعلى المودودي** : الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية . بيروت . دار الفكر ، 1977 .

ـــ **أبو الأعلى المودودي** : الإسلام اليوم . الكويت . دار القلم 1977 .

ـــ **أبو الأعلى المودودي** : مبادئ الإسلام . القاهرة . دار الاعتصام ، 1977 .

ـــ **أبو الأعلى المودودي** : المصطلحات الأربعة في القرآن . الكويت . دار القلم 1977 .

ـــ **أبو الأعلى المودودي** : الجهاد . الكويت . دار القلم 1977 .

ـــ **أبو الحسن الندوي** : إلى الإسلام من جديد . القاهرة . المختار الإسلامي 1980 .

ـــ **أبو الحسن الندوي** : التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات المودودي وسيد قطب . دار آفاق الغد ، 1980 .

ـــ **أبو الحسن الندوي** : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين . بيروت . دار الأنصار ، 1980 .

ـــ **أبو الحسن الندوي** : مذكرات سائح في الشرق العربي . بيروت . مؤسسة الرسالة 1975 .

ـــ **أحمد يحيي كامل** . مواجهة الفكر المتطرف في الإسلام : مناقشة موضوعية لأفكار جماعة التكفير والهجرة من واقع سجلات المحكمة . القاهرة . مكتبة الجبلاوي ، 1980 .

ـــ **الشيخ عبد الحليم محمود** : مجموعة الفتاوى . القاهرة ، دار المعارف ، 1976 .

ـ **أنور السادات** : أسرار الثورة . القاهرة ، 1952 .

ـ **حسن إسماعيل الهضيبي** : الإسلام والداعية . القاهرة . دار الأنصار ، 1978 .

ـ **حسن إسماعيل الهضيبي** : دعاة ... لا قضاة . القاهرة . دار الدعوة 1973 .

ـ **حسن البنا** : مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا . بيروت . المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة ، 1970 .

ـ **حسن البنا** : مذكرات الدعوة والداعية . القاهرة . دار الكتاب العربي بمصر ، 1972 .

ـ **حسن حنفي** : مقدمة ترجمة كتاب « الحكومة الإسلامية » للخوميني . القاهرة ، 1979 .

ـ **حسن حنفي** : فكر المودودي وسيد قطب : ندوة الحركات الدينية المتطرفة ، القاهرة 1980 .

ـ **حسن العشماوي** : الإخوان والثورة . القاهرة ، المكتب المصري الحديث ، 1977 .

ـ **رفعت السعيد** : حسن البنا ، متى ، كيف ، ولماذا ؟ القاهرة . مكتبة مدبولي 1977 .

ـ **زينب الغزالي** : أيام من حياتي . القاهرة ، دار الشرق ، 1978 .

ـ **سالم علي البهنساوي** : الحكم وقضية تكفير المسلم . القاهرة . دار الأنصار ، 1977 .

ـ **سامي جوهر** : الموتى يتكلمون : القاهرة . المكتب المصري الحديث ، 1975 .

ـ **سعيد حوى** : المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين . الإسكندرية . دار القادسية ، 1979 .

ـ **سيد قطب** : مهمة الشاعر في الحياة وشعر الجيل المعاصر « دراسة نقدية » القاهرة 1933 .

ـ **سيد قطب** : الشاطئ المجهول « قصيدة » القاهرة . يناير 1933 .

ـ **سيد قطب** : نقد كتاب « مستقبل الثقافة في مصر » لطه حسين . 1932 .

ـ **سيد قطب** : التصوير الفني في القرآن . أبريل 1945 .

ـ **سيد قطب** : الأطياف الأربع . « نثر » 1945 .

ـ **سيد قطب** : طفل من القرية . « قصة حياة » 1946 .

ـ **سيد قطب** : أشواق « قصة عاطفية » 1947 .

ـ **سيد قطب** : مشاهد القيامة في القرآن . أبريل 1947 .

ـ **سيد قطب** : النقد الأدبي ، أصوله ومناهجه 1948 .

ـ **سيد قطب** : العدالة الاجتماعية في الإسلام . « القاهرة 1949 .

ـ **سيد قطب** : معركة الإسلام والرأسمالية . فبراير 1951 .

ـ **سيد قطب** : السلام العالمي والإسلام . أكتوبر 1951 .

ـ **سيد قطب** : دراسات إسلامية 1953 .

ـ **سيد قطب** : هذا الدين 1962 .

ـ **سيد قطب** : المستقبل لهذا الدين 1963 .

ـ **سيد قطب** : خصائص التصور الإسلامي ومقوماته . 1963 .

ـ **سيد قطب** : الإسلام ومشكلات الحضارة ، 1963 .

ـ **سيد قطب** : معالم في الطريق ، 1964 .

ـ **سيد قطب** : في ظلال القرآن ، 1978 .

ـ **صلاح عيسى** : الإخوان المسلمون ، مأساة الماضي ومشكلة المستقبل . مقدمة كتاب « الإخوان المسلمين » ، لريتشارد ميتشل . القاهرة . مكتبة مدبولي ، 1977 .

ـ **عبد الحليم خفاجي** : حوار مع الشيوعيين في سجون ناصر . الكويت ، 1977 .

ـ **عبد القادر عودة** : الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه ، القاهرة ، دار المختار الإسلامي ، 1950 .

ـــ **عبد القادر عودة** : الإسلام وأوضاعنا السياسية ، القاهرة ، المختار الإسلامي . 1952

ـــ **عبد القادر عودة** : الإسلام وأوضاعنا القانونية . القاهرة . المختار الإسلامي . 1951

ـــ **عبد الله إمام** : عبد الناصر والإخوان المسلمين . القاهرة . دار الموقف العربي . 1981

ـــ **علي قطب** : سيد قطب وثورة الفكر الإسلامي ، القاهرة ، دار المختار الإسلامي ، 1977 .

ـــ **محمد الغزالي** : التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام . القاهرة . دار الكتب الحديثة ، 1959 .

ـــ **محمد الغزالي** : الإسلام والمنهج الاشتراكي . القاهرة . دار الكتب الحديثة ، . 1951

ـــ **محمد عمارة** : نقد مفهوم الحاكمية . ندوة الحركات الدينية المتطرفة ، القاهرة ، 1980 .

ـــ **محمد عمارة** : الفريضة الغائبة عرض وحوار وتقييم . القاهرة ، دار ثابت للطباعة ، 1982 .

ـــ **محمد قطب** : الإنسان بين المادية والإسلام . القاهرة . دار الشروق ، 1980.

ـــ **محمد قطب** : جاهلية القرن العشرين . القاهرة . دار الشروق . 1980 .

ـــ **مصطفى محمود** : القرآن . القاهرة . دار الشروق . 1970 .

ـــ **مصطفى محمود** : محمد . القاهرة ، دار المعارف ، 1977 .

ـــ **معمر القذافي** : سجل خطب العقيد القذافي . طرابلس 1978 .

ـــ **مهدي فضل الله** : مع سيد قطب في فكره السياسي والديني . بيروت . مؤسسة الرسالة 1978 .

ـــ **يوسف العظم** : رائد الفكر الإسلامي المعاصر ، الشهيد سيد قطب . حياته ومدرسته وآثاره ، بيروت . دار القلم ، 1980 .

ـــ **يوسف القرضاوي** : الحل الإسلامي . فريضة وضرورة . القاهرة . مكتبة وهبة ، 1977 .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
تمهيد : الإخوان المسلمون ، قطب و « القطبيون »	7
مقدمة : النص	27
الفصل الأول	
منهج قراءة القرآن	45
المبحث الأول : جهات التفسير	45
المبحث الثاني : « فعل » القرآن	62
المبحث الثالث : الظروف الاجتماعية في مكة والمدينة	72
المبحث الرابع : القرآن والتاريخ	85
المبحث الخامس : القرآن والعلوم الحديثة ... قضايا منهجية	94
نتائج الفصل الأول	106
الفصل الثاني	
المرأة والأسرة في الإسلام	115
المبحث الأول : دونية المرأة في مجتمع الجاهلية	121
المبحث الثاني : الزواج ... الحياة الزوجية ، حقوق الأبوة	129
المبحث الثالث : الزنا .. التمتع بالسبايا	137
المبحث الرابع : تعدد الزوجات – الطلاق – الميراث	142
المبحث الخامس : نتائج الفصل الثاني	146

الفصل الثالث

اليهود والمسيحيون في المجتمع الإسلامي 159

المبحث الأول : التسامح والجزية 163

المبحث الثاني : اليهودية والمسيحية في القرآن 166

المبحث الثالث : عداوة اليهود والمسيحيين للإسلام 177

المبحث الرابع : القتال ضد اليهود والنصارى 185

نتائج الفصل الثالث 191

الفصل الرابع

الجهاد في سبيل الله 197

المبحث الأول : روح الجهاد عند المسلم 201

المبحث الثاني : الجهاد ... رسالة ، وتطهير للنفس 209

المبحث الثالث : المقاتلون ، الغنائم ، الأسرى 216

نتائج الفصل الرابع 223

الفصل الخامس

المال والعدالة الاجتماعية في الإسلام 233

المبحث الأول : المال ... ووعد الله للإنسان 239

المبحث الثاني : الملكية في الإسلام 246

المبحث الثالث : الزكاة 250

المبحث الرابع : تحريم الربا 257

نتائج الفصل الخامس 263

الفصل السادس

المجتمع الإسلامي وخصائصه الفريدة 275

المبحث الأول : نشأة « أمة الوسط » وأصولها 279

رقم الإيداع : ١٦٩١ / ٩٣
الترقيم الدولي : ٤ ـ ١٢٣ ـ ٢٥٧ ـ ٩٧٧



الزهراء للإعلام العربي
الإدارة ١٤ شارع الطيران ـ رابعة العدوية مدينة نصر ـ ت ٦٠١٩٨٨ ـ ٢٦١١١٠٦ تلكس ٢١ ٩٤ راف يو إن فاكس ٢٦١٨٢٤٠

المطابع : ٩ ش عماد الدين كامل ـ متفرع من عباس العقاد ـ مدينة نصر ت . ٢٦٣٧٢٨٣
القاهرة

في ظلال القرآن

رؤية استشراقية فرنسية

كان ظهور « الإخوان المسلمون » في مصر ، نقطة فاصلة في تاريخ الحركة الإسلامية ، انتقلت بعدها هذه الحركة إلى طور جديد استهدفت به نقل العالم الإسلامي من سكون إلى حركة ومن موت إلى حياة ، ووجد المسلمون فيها راية طال اشتياقهم للوقوف تحتها ، واستطاعت أن تمسح عن عقيدة المسلمين ما ران عليها من الفساد والإفساد طوال عصور تطاولت وتقادمت ، فاستعاد بها الإسلام بعضا من عافيته وقوته .

وكان المفكر الشهيد سيد قطب معلما بارزا في تاريخ حركة « الإخوان المسلمون » وقد نتفق أو نختلف حول ما طرحه الشهيد من أفكار ، ولكننا نتفق على أن الحركة الإسلامية بعد سيد قطب ليست هي الحركة الإسلامية قبله .

وهذا الكتاب هو رؤية غربية لفكر سيد قطب من خلال قراءة مستوعبة لمؤلفه العمدة « في ظلال القرآن » . وقد حاول المؤلف أن يجعل هذه القراءة « بانورامية » بمعنى أنه قرأ سيد قطب في إطار المفكرين المسلمين المعاصرين مثل الإمام محمد عبده ...

والزهراء للإعلام العربي يسعدها أن تقدم هذا الكتاب [illegible] قراءة « الآخر » للحركة الإسلامية المعاصرة .

والله من وراء القصد



الزهراء للإعلام العربي